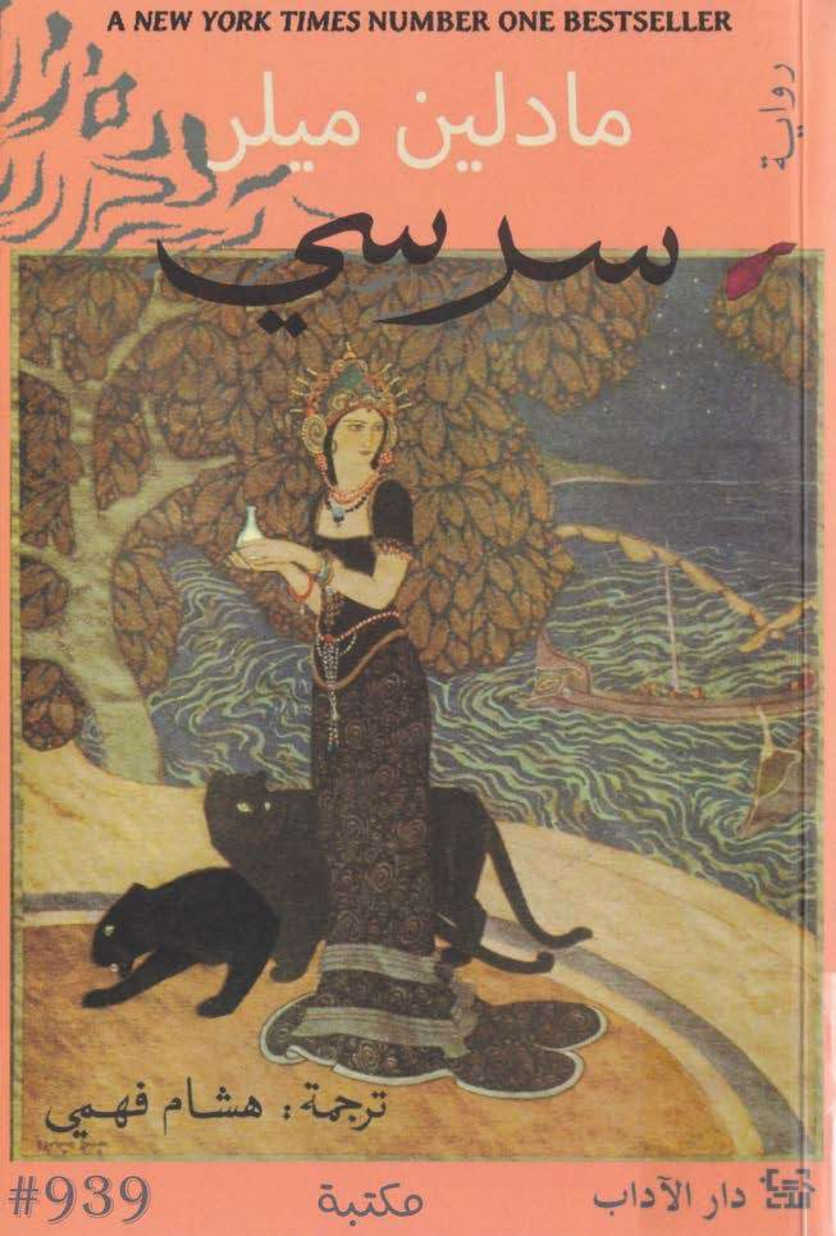


A NEW YORK TIMES NUMBER ONE BESTSELLER
رواية
مادلين ميلر
سرسي
ترجمة: هشام فهمي
#939
مكتبة
دار الآداب

إهداء لـ..

زرقاء

هذا شيء من الأساطير



سرسي

مادلين ميلر / كاتبة أميركيّة

ترجمة: هشام فهمي

طبعة أولى عام 2021

CIRCE





دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com







مادلين ميلر



سرسي

رواية

ترجمة : هشام فهمي

#939

دار الآداب ـ بيروت



إلى نثانيال
الذي عاد إلى الوطن


محمد خطاب

الفصل الأوّل

حين وُلِدتُ، لم يكن في الوجود اسمٌ يصفُ ماهيّتي، وقد دعوني بالحوريّة مُفترضين أنّني سأكون مثل أمّي وخالاتي وبناتهنّ الألف. لأنّنا أدنى الربّات الدّواني مرتبةً، فقُوانا بالغة التّواضُع، حتى إنّها بالكاد تكفلُ لنا الحياة الأبديّة. اعتدنا أن نُكلّم الأسماك ونُربّي الأزهار، ونستخلِص قطرات المطر من السّحاب، والملح من الموج، فيما تُلازِم كلمة «حوريّة» هذه مستقبلنا طولًا وعرضًا. في لُغتنا لا تعني الكلمة «ربّة» فحسب، بل «عروس» أيضًا.

أمّي منهنّ، واحدةٌ من النّيادات[1]، راعيةٌ للينابيع والغُدران؛ وعندما ذهب أبي لزيارة أبهاء أبيها أوقيانوس استوقفَت نظره. في تلك الأيّام، كان كثيرًا ما يحلُّ كلٌّ من هيليوس وأوقيانوس ضيفًا على مائدة الآخر. إنّهما ابنا عمومة، وفي سنٍّ واحدة، وإن لم يبدُ عليهما ذلك،

(1) النّيادة: حوريّة المياه العذبة. (المترجم).

إذ يتوهَّج أبي ببهاءٍ كالبرونز المصوغ لتوِّه، أمَّا أوقيانوس فوُلِدَ بعينيْن دامعتيْن ولحيةٍ تتدلَّى إلى حجره. على أنَّ كليْهما من الجبابرة، ويُفضِّل صُحبة الآخر على صُحبة الآلهة الجُدد المُزعجين القابعين فوق قمَّة جبل أوليمپوس، أولئك الذين لم يشهدوا نشأة العالم.

قصر أوقيانوس أعجوبة عُظمى مشيَّدة في أعماق صخر الأرض، قاعاته ذوات القناطر العالية مذهَّبة، والأرضيَّات الحجريَّة مهَّدتها قرونٌ من خُطى الأقدام الربَّانيَّة؛ وعبر كلّ حُجرةٍ يتدفَّق صوت جَرَيان الماء الخافت من نهر أوقيانوس، منبع المياه العذبة في العالم، القاتم لدرجةٍ تجعلك عاجزًا عن تمييز المياه من الأديم الصَّخري. على ضفافه ينمو الكلأ والزُّهور الرَّماديَّة الغيداء، وكذا أولاد أوقيانوس الذين لا يُحصوْن، من النَّيادات والحوريَّات وآلهة الأنهار. بنعومة ثعالب الماء، وبوجوهٍ ضاحكةٍ بارقة في الهواء المعتم، يُناوِل بعضهم بعضًا كؤوسًا من ذهبٍ ويتصارعون لاعبين ألعاب الحُبّ، ووسْطهم، طاغيةً على كلّ هذا الجَمال النَّاصع، كانت أمِّي جالسة.

كان شعرها بنّيًا دافئًا، تتألَّق كلُّ خُصلةٍ منه كأنَّها مضاءةٌ من الدَّاخل. مؤكَّد أنَّها شعرَت بنظرة أبي السَّاخنة كلفح النَّار في الهواء الطَّلق. أراها تُسوِّي فُستانها لينسدل مضبوطًا من فوق كتفيْها، أراها تغمس أصابعها الملتمعة في الماء. سبق أن رأيتها تُمارِس ألفَ حيلةٍ مشابهةٍ ألفَ مرَّة، ولطالما انطلَت تلك الحِيَل على أبي، المؤمن بأنَّ نظام العالم الطَّبيعي يقضي أن تَحدُث الأشياء لتسرَّه.

سأل أبي أوقيانوس: «مَن هذه؟».

كان أوقيانوس قد حظيَ بكثيرٍ من الأحفاد ذهبيِّي الأعيُن من أبي بالفعل، وقد أسعدَه أن يُفكِّر في المزيد. «ابنتي پرسي. إنَّها لك إن أردتها».

في اليوم التَّالي، وجدها أبي عند ينبوعها في العالم العُلْوي، ذلك المكان الجميل الزَّاخر بزهور النَّرجس سمينة الرُّؤوس، المتشابكة فوقها فروع السَّنديان. لا وحل هناك أو ضفادع لَزِجة، فقط حجارةٌ مستديرةٌ نظيفةٌ تُفسِح مجالًا لنموِّ العُشب. حتى أبي، الذي لا يكترث إطلاقًا لرقَّة فنون الحوريَّات، أُعجبَ بالمكان.

علمَت أمِّي أنَّه قادم. إنَّها أريبةٌ على الرَّغم من هشاشتها، وعقلها حادٌّ كثُعبان الماء مدبَّب الأسنان، ولذا فقد رأت السَّبيل إلى السُّلطة لمن هُنَّ مثلها، وأنه ليس في الأولاد غير الشَّرعيِّين والشَّقلبة على ضفاف الأنهار. عندما وقف أبي أمامها مهندمًا في مجده ضحكَت منه. أضاجعك؟ ولِمَ؟

كان بإمكان أبي أن يأخذ ما يريد بالطَّبع، لكنَّ هيليوس تعوَّد تملُّق نفسه بفكرة أنَّ النِّساء جميعًا يذهبن إلى فِراشه تائقات، الإماء والربَّات على حدٍّ سواء، بدليل الدُّخان المتصاعد فوق مذابحه من قرابين الأمَّهات منتفخات البطون والنَّغلات السَّعيدات.

قالت له: «إمَّا الزَّواج وإمَّا لا شيء. وإن كان الزَّواج فاحرص على هذا: يُمكنك أن تحظى بمَنْ تشاء من الفتيات بالخارج، لكنَّك لن تجلب أيًّا منهنَّ إلى الدَّار، فأنا وحدي سأكون الآمرة النَّاهية في أبهائك».

الشُّروط والقيود، تلك بِدع عند أبي، وما من شيءٍ أحب إلى الآلهة من البِدع. قال لها: «اتَّفقنا»، وأعطاها قلادةً لإبرام الاتِّفاق، واحدةً صنعَها بنفسه وصفَّ فيها خرزاتٍ من أندر كهرمان في العالم. لاحقًا، عند مولدي، أعطاها واحدةً ثانيةً، وأخرى مع ميلاد كلٍّ من أشقَّائي الثَّلاثة. لا أدري ما اعتزَّت به أكثر، حبَّات الخرز المنير نفسها،

أم حسد أخواتها عندما تتزيَّن بها! أظنُّ أنَّها كانت لتستمرَّ في جمعها إلى الأبد إلى أن تتدلَّى من عُنقها كنِير الثَّور لو لم تمنعها الآلهة العُليا، فوقتها كانت الآلهة قد أدركَت كنهَ أربعتنا، وقالت لها: «لكِ أن تُنجِبي أولادًا آخرين، ولكنْ ليس منه».

لكنَّ أزواجًا آخرين لم يُهدوها خرزات الكهرمان، وكانت تلك المرَّة الوحيدة التي رأيتها تبكي فيها.

***

عند مولدي، غسلَتني خالتي (سأعفيك من اسمها لأنَّ حكايتي ملأى بالخالات) ولفَّتني بالقِماط، واعتنَت خالةٌ أخرى بأمِّي معيدةً طِلاء شفتيْها بالأحمر ومصفِّفةً شعرها بمشطٍ من العاج، في حين ذهبَت ثالثةٌ إلى الباب لتُدخِل أبي.

أخبرَته أمِّي مقلِّصةً أنفها: «فتاة».

على أنَّ أبي لا ينزعج من إنجاب الإناث، فبناته حُلوات ذهبيَّات كعصرة الزَّيتون الأولى، والبشر والآلهة يدفعون أثمانًا باهظةً لقاء فُرصة الحصول على ذُرِّيَّةٍ منهنَّ، حتى إنَّه يقال إنَّ خزانة أبي تُباري خزانة ملك الآلهة نفسه.

وضع يده على رأسي مباركًا، وقال: «ستجد زيجةً حسنةً».

سألته أمِّي: «حسنة لأيِّ درجة؟». قد يكون في هذا عزاءٌ، إذا بُودِلتُ بشيءٍ أفضل.

فكَّر أبي مداعبًا شعري الخفيف ومتفحِّصًا عينَيَّ ونحْت وجنَتَيَّ، ثمَّ قال: «أمير على ما أظنُّ».

ـ «أمير؟ أتعني رجلًا فانيًا؟».

لاح النُّفور جليًّا على وجهها. ذات مرَّةٍ في صِغري سألتُ عن شكل الفانين، فأجاب أبي: «لكِ أن تقولي إنَّهم يُشبِهوننا شكلًا، لكنْ فقط مثلما تُشبِه الدُّودة الحوت».

أمَّا جواب أمِّي فكان أبسط: **كأجولةٍ كريهةٍ من اللَّحم العفِن.**

قالت أمِّي بإصرار: «مؤكَّد أنَّها ستتزوَّج ابنًا لزوس». كانت قد بدأت بالفعل تتخيَّل نفسها تحضُر المأدب على قمَّة أوليمپوس، وتجلس إلى يمين الملكة هيرا.

«لا. إنَّ شعرها موخوطٌ كفرو الوشق، ولذقنها هذا حِدَّة لا تسرُّ».

لم تُجادِله أكثر، لأنَّها ـ مثل الجميع ـ على درايةٍ بقصص غضبة هيليوس حين يُعارِضه أحد. **مهما تألَّق ذهبًا فلا تنسي ناره.**

نهضَت أمِّي وقد اختفى انتفاخ بطنها، وعادَت إلى خصرها نحافته وإلى وجنتيْها نضارتهما وتورُّدهما العُذري. نوعنا كلُّه يتعافى سريعًا، لكنَّها أسرع باعتبارها من بنات أوقيانوس اللاتي يفرزن الأطفال كالبطارخ.

ثمَّ إنَّها قالت: «تعال، لنُنجِب واحدةً أفضل».

***

سريعًا كبرتُ، إذ استغرقَت رضاعتي ساعاتٍ معدودةً، وفطامي لحظاتٍ قليلةً بعدها. مكثَتْ واحدةً من الخالات معنا على أمل أن تنال حظوةَ أمِّي، وسمَّتني «الصَّقر»، سرسي، لصُفرة عينَيَّ وصوت بُكائي الرَّفيع الغريب، ثمَّ إنَّها اختفَت لمَّا أدركَت أنَّ أمِّي لا تُعيرها انتباهًا أكثر من الأرض تحت قدميْها.

قلتُ: «خالتي رحلَت يا أمَّاه».

ولم تردَّ أمّي. كان أبي قد غادرَ بعربته إلى السَّماء بالفعل، فيما تفتل هي الزُّهور في شعرها استعدادًا للخروج عبر الطُّرق المائيَّة السرِّيَّة، لتنضمَّ إلى أخواتها على ضفاف أنهارهنَّ المعشوشبة. كنتُ لأتبعها، لكنَّني كنتُ لأضطرَّ إلى الجلوس طوال النَّهار عند أقدام خالاتي وهنَّ يُثَرثِرن عن أشياءَ لا أبالي بها ولا أفهمها. وهكذا بقيتُ.

أبهاء أبي مظلمةٌ صامتةٌ. يُجاوِر قصره قصرَ أوقيانوس المدفون في صخر الأرض، وجُدرانه مبنيَّة بالسَّبج المصقول. ولِمَ لا؟ كان يُمكن أن تكون الجُدران من أيِّ شيءٍ في العالم، من الرُّخام الأحمر القاني من مصر، أو من البلسم من جزيرة العرب، وما على أبي إلَّا أن يشاء ذلك، لكنَّه أحبَّ الطَّريقة التي يعكس بها السَّبج ضوءه، الطَّريقة التي يتشرَّب بها السَّطحُ الأملس ناره عند مروره. غير أنَّه لم يُفكِّر بالطَّبع في السَّواد الذي يعمُّ في غيابه، فأبي لم يستطع قطُّ أن يتخيَّل العالم من دون وجوده.

في تلك الأوقات كنتُ أفعلُ ما يحلو لي؛ أوقدُ مشعلًا وأجري لأرى اللَّهبَ الدَّاكنَ يتبعني، أو أتمدَّدُ على تُربة الأرض النَّاعمة وأصنعُ حُفرًا صغيرةً في سطحها بأصابعي، فلا أجدُ يرقاتٍ أو ديدانًا، وإن لم أكن أعرف بوجودها من الأصل لأفتقدها. في تلك الأبهاء، لم تكن هناك كائناتٌ حيَّة إلَّاأنا.

حين رجعَ أبي ليلًا تموَّجت الأرض كخاصرة الحصان، وسوَّت الحُفر التي صنعتُها نفسها. بعد لحظةٍ، عادت أمِّي ورائحة الأزهار تفوح منها وهرعَت تُحيِّيه. وتركَها أبي تتعلَّق من عُنقه، وتناول كأس النَّبيذ، ثمَّ ذهبَ إلى مقعده الفضِّي العظيم وأنا في أعقابه. مرحبًا بعودتك يا أبي، مرحبًا بعودتك.

بينما يشرب نبيذه لعبَ أبي الدَّامة[1] التي لا يسمح لأحدٍ آخر بأن يلعبها معه، فوضع الفيشات الحجريَّة ودوَّر الرُّقعة ثمَّ وضعَها ثانيةً. شبَّعت أمِّي صوتها بالعسل قائلةً: «ألن تأتي إلى الفِراش يا حبيبي؟»، ودارَت أمامه بتؤدةٍ تُريه قدَّها الغضَّ كأنَّها تُشوى على سيخ. غالبًا يَترُك أبي لعبته عندئذٍ، لكنَّه أحيانًا لا يفعل، وكانت تلك أوقاتي المفضَّلة، لأنَّ أمِّي تُغادِر صافقةً الباب المصنوع من خشب المُرّ وراءها.

عند قدمَي أبي العالم كلُّه من ذهب، وينبعث الضَّوء من كلِّ مكانٍ في آنٍ واحد، من بشرته الصَّفراء وعينيْه البرَّاقتيْن، ومن وميض شعره البرونزي. حرارته شديدة كالمستوقَد، وقد دنوتُ منه قدر ما سمحَ لي كسحليَّةٍ تلصق نفسها بالصَّخر وقت الظَّهيرة. كانت خالتي قد قالت إنَّ بعض الآلهة الأدنى يكاد لا يحتمل النَّظر إليه، لكنَّني ابنته ودمه، وهكذا حدَّقتُ إلى وجهه طويلًا جدًّا لدرجة أنَّه ظلَّ مطبوعًا على بصري حين أشحتُ به، يتوهَّج من الأرض والجُدران اللَّامعة والطاولات المرصَّعة، ومن جِلدي ذاته.

سألته: «ماذا سيَحدث إذا رآك فانٍ بكامل مجدك؟».

- «سيحترق مستحيلًا إلى رمادٍ في لحظة».

- «وماذا إذا رآني فانٍ؟».

ابتسمَ أبي، وأصغيتُ إلى قطع الدَّامة المتحرِّكة بالصَّوت المألوف لاحتكاك الرُّخام بالخشب، ثمَّ أجاب: «سيعدُّ الفاني نفسه محظوظًا».

- «ألن أحرقه؟».

---

(1) الدامة: لعبة لوحيَّة تُلعب بين شخصيْن على رُقعة تحمل مربَّعات، وباستعمال قطع على شكل أقراص. (المترجم).

ـ «بالطَّبع نعم، لن تحرقيه».

ـ «لكنَّ عينَيَّ مثل عينيْك».

قال: «لا. انظُري»، ووقعَت نظرته على جذعٍ إلى جانب المدفأة، ليتوهَّج ثمَّ يشتعل، ثمَّ يتفتَّت رمادًا على الأرض. «وهذه أقلُّ قُواي. أيُمكنكِ أن تفعلي هذا؟».

طيلة اللَّيل حملقتُ إلى تلك الجذوع، ولم أستطع.

***

وُلِدَت أختي، وبعدها بفترةٍ قصيرة وُلد أخي. لا أدري كم من الوقت مرَّ تحديدًا، فالأيَّام الربَّانيَّة تتتابَع بسرعة سقوط الماء من شلَّال، ولم أكن قد تعلَّمتُ بعدُ حيلةَ الفانين لعدِّها. كان المرء ليحسبُ أنَّ أبانا علَّمنا تعليمًا أفضل، بما أنَّه يعرف كلَّ شروقٍ وغروب، لكنْ حتى هو اعتاد دعوة أخي وأختي بالتَّوأميْن، ولا شكَّ أنَّهما كانا متلاصقيْن مثل حيوانَي مِنك منذ لحظة ميلاد أخي. باركَهما أبي معًا بيدٍ واحدة، وقال لأختي المنيرة پاسيفاي: «أنتِ، أنتِ ستتزوَّجين ابنًا خالدًا لزوس». نطقَها بنبرته التَّنبُّؤيَّة التي يُنوِّه من خلالها بما سيَحدث يقينًا في المستقبل، وتألَّقت أمِّي لسماع هذا، وراحت تُفكِّر في الثِّياب التي سترتديها في مأدب زوس.

ولأخي قال بنبرته التَّقليديَّة الرنَّانة الصَّافية كصباحٍ صيفي: «وأنت، كلُّ ابنٍ انعكاسٌ لأمِّه»، وهو ما سرَّ أمِّي، وعدَّته إذنًا في تسمية أخي، فسمَّته پرسيس تيمُّنًا بنفسها.

كان كلاهما ذكيًّا، وسرعان ما رأيا طبائع الأمور وأحبَّا الاستهزاء بي من وراء كفوفهما النَّاعمة. عيناها صفراوان كالبول، صوتها حادٌّ رفيع كالبومة، اسمها الصَّقر لكن المفترَض أن تُدعى بالمعزاة لقُبحها.

كانت تلك أبكر محاولاتهما لجرحي بسخريتهما اللّاذعة، لم تزل ثلمةً، ولو أنّها اكتسبَت حدّةً يومًا بعد يوم. تعلّمتُ أن أتحاشاهما، وسرعان ما وجدا تسليةً أكثر بين النّيادات الوليدات وسادة الأنهار في أبهاء أوقيانوس. متى زارت أمّي أخواتها تبعاها، وفرضا سيطرتهما على جميع بنات خالاتي المطواعات، كأنّهما يُنوّمانهنّ تنويمًا مغنطيسيًّا فيَصِرْن كأسماك المِنوة أمام فم سمكة الكراكي المفتوح. كانت عندهما مئة لُعبة تعذيبٍ ابتكراها. «هلمّي يا ميليا، إنّه ديدن الربّات الأوليمپيّات أن تقصّي شعركِ حتى مؤخّرة عُنقكِ. كيف ستحصُلين على زوجٍ إن لم تدعينا نفعل هذا؟». ولمّا رأت ميليا نفسها مجزوزة الشّعر باديةً كالقُنفذ وبكَت، انفجَرا في ضحكٍ صاخبٍ ردّدت الكهوف أصداءه.

تركتُهما لشأنهما، إذ فضّلتُ أبهاء أبي الهادئة وقضيتُ كلّ لحظةٍ بإمكاني عند قدميْه. وذات يوم، ربّما على سبيل المكافأة، عرضَ أن يأخذني معه لزيارة قطيع الأبقار المقدّسة؛ وكان هذا شرفًا عظيمًا، لأنّ معناه أن أركب عربته الذّهبيّة وأرى الحيوانات التي تحسده الآلهة كلُّها عليها، خمسين مهاةً ناصعة البياض تسرُّ بصره في طريقه اليومي فوق الأرض. ملتُ من فوق جانب العربة المحلّى بالجواهر مشاهِدةً بدهشةٍ الأرض المارّة من تحتنا؛ خُضرة الغابات النّاضرة والجبال المحزّزة وزُرقة المحيط الواسع المنبسط. بحثتُ بنظري عن الفانين، لكنّنا كنّا أعلى من أن أراهم.

يعيش القطيع على جزيرة ثريناكيا المعشوشبة في رعاية اثنتيْن من أخواتي غير الشّقيقات. وعند وصولنا، أسرعَت هاتان الأختان من فورهما إلى أبي وتعلّقتا بعُنقه صائحتيْن. من بين جميع أولاد أبي الفاتنين فهما من الأشد فتنةً، تتمتّعان ببشرةٍ وشعرٍ كالذّهب المصهور. اسماهما لامپيشا وفايثوسا، أي المشعّة والبرّاقة.

- «ومَن هذه التي جلبتها معك؟».

- «مؤكَّدٌ أنَّها من أطفال پرسي. انظُري إلى عينيْها».

ملَّست لامپيشا - أظنُّ أنَّها لامپيشا - على شعري، وقالت: «بالطَّبع، عزيزتي! لا داعي للقلق من عينيْكِ، لا داعي إطلاقًا. أمُّكِ جميلةٌ جدًّا، لكنَّها لم تكن قويَّةً قطُّ».

قلتُ: «عيناي مثل أعيُنكما».

- «يا لعذوبتكِ! لا يا عزيزتي، أعيُننا متَّقدةٌ كالنَّار، وشعرنا كالشَّمس على الماء».

قالت فايثوسا: «ذكاءٌ منكِ أن تضفري شعركِ، فهكذا لا تبدو الخطوط البنِّيَّة بهذا السُّوء. مؤسفٌ أنَّكِ لا تستطيعين إخفاء صوتكِ بالطَّريقة نفسها».

- «يُمكنها ألَّا تتكلَّم ثانيةً أبدًا. سيَصلُح هذا، أليس كذلك يا أختاه؟».

- «بلى».

وابتسمَتا وقالتا: «هلَّا نذهب لرؤية الأبقار؟».

لم أكن قد رأيتُ بقرةً من أيِّ نوعٍ من قبل، لكنَّ ذلك ليس مهمًّا، فمن الواضح تمامًا أنَّ تلك الحيوانات رائعةُ الجَمال، حتى إنَّني لم أحتَج إلى مقارنة. جِلدها ناصع كبتلات الزَّنبق، وأعيُنها رقيقة طويلة الأهداب، وقد طُلِيَت قرونها بالذَّهب (وهذا من عمل أختَي)، وعندما تنحني لتقضم من العُشب تنثني أعناقها كالرَّاقصات. في ضوء الغروب التمعَت ظهورها بنعومةٍ كأنَّها مصقولة.

قلتُ: «أوه! أيُمكنني أن ألمس واحدةً؟».

ردَّ أبي: «لا».



ـ «هل نُخبِركِ بأسمائها؟ هذه ذات الوجه الأبيض، وهذه ذات العينيْن البرّاقتيْن، وهذه العزيزة. وهناك الفتاة الجميلة، والحسناء، وذات القرن الذّهبي، والنيّرة، وهناك العزيزة و...».

قلتُ: «ذكرتما العزيزة بالفعل. قلتما إنَّ هذه هي العزيزة»، وأشرتُ إلى البقرة الأولى التي تلوك العُشب بسلام.

تبادلت أختاي النّظر، ثمَّ نقلَتا أعيُنهما إلى أبي بنظرةٍ ذهبيَّةٍ واحدة، لكنَّه كان يتطلّع إلى أبقاره مفتونًا شارد الذّهن.

ردَّتا: «مؤكّدٌ أنّكِ مخطئة. هذه التي ذكرناها توًّا هي العزيزة، وهذه ضوء النُّجوم، وهذه الومضة، و...».

قال أبي: «ما هذا؟ قشرة جرح على الحسناء؟».

في الحال، انتابَ أختَيَّ الانفعال، وراحتا تقولان: «أيُّ قشرة؟ أوه، غير ممكن! أوه، أيّتها الحسناء الشّقيّة، جرحتِ نفسكِ! أوه، يا له من شيءٍ كريه الذي جرحَكِ!».

ملتُ لأنظر من كثب، فرأيتُ قشرة جرحٍ صغيرةً للغاية، أصغر من أصغر أظفاري، إلَّا أنَّ أبي قال عابسًا: «ستُعالِجان هذا بحلول الغد».

أخذَت أختاي تُومئان برأسيْهما. طبعًا، طبعًا. إنّنا آسفتان.

ركبنا العربة ثانيةً، وأمسكَ أبي العنان المكلَّل بالفضّة، وطبعَت أختاي بضع قُبلاتٍ أخيرة على يديْه، ثمّ وثبَت الخيول رافعةً إيّانا إلى السّماء، وكانت البروج الأولى تطلُّ بالفعل عبر الضّوء المعتم.

تذكّرتُ أنَّ أبي أخبرني ذات مرّةٍ بوجود رجالٍ على الأرض يدعونهم بالمنجّمين، مهمّتهم أن يُتابِعوا شروقه وغروبه، ويتمتّعون بمنزلةٍ

سامية بين الفانين، ويُقيمون بالقصور بصفتهم مستشارين للملوك، لكنْ أحيانًا يتوانى أبي لسببٍ أو آخر فيضرب بحساباتهم عُرض الحائط، وعندها يُلقى هؤلاء المنجّمون أمام الملوك الذين يخدمونهم ويُقتَلون باعتبارهم محتالين. ابتسم أبي حين أخبرني بهذا، وقال إنَّهم ينالون ما يستحقُّونه، ذلك أنَّ هيليوس الشَّمس ليس مقيَّدًا بإرادة أحدٍ إلَّا نفسه، وليس لأحدٍ أن يجزم بما قد يفعله.

في ذلك اليوم سألته: «أبي، هل تأخَّرنا بما يكفي لقتل المنجّمين؟».

هزَّ عنانه الرنَّان مجيبًا: «نعم»، فيما اندفعَت الخيول إلى الأمام، وتشوَّش العالم من تحتنا وامتدَّت ظلال اللَّيل كالدُّخان من حافة البحر. لم أنظر، ففي صدري كان شيءٌ ما يتلوَّى، كقطعةٍ من القُماش تُنفَض لتجفَّ. كنتُ أفكِّرُ في هؤلاء المنجّمين، وتخيَّلتهم وضيعين كالدِّيدان، مرتخين راكعين على رُكبهم المعروقة يصيحون: «الرَّحمة، لم يكن هذا خطأنا، الشَّمس نفسها تأخَّرت».

ويردُّ الملوك من فوق عروشهم: «الشَّمس لا تتأخَّر أبدًا. القول بهذا تجديف. يجب أن تموتوا»، ثمَّ تهوي الفؤوس شاطرةً الرِّجال المتوسّلين أنصافًا.

قلتُ: «أبي، يُراوِدني شعور غريب».

ـ «إنَّكِ جائعة. كان المفترض أن تبدأ المأدبة بالفعل. على أختيْكِ أن تخجلا من نفسيْهما لتأخيرنا».

أكلتُ جيِّدًا على العشاء، لكنَّ الشُّعور الغريب لم يُفارِقني. لا ريب أنَّ نظرةً غريبةً كانت على وجهي، لأنَّ پرسيس وپاسيفاي بدآ يضحكان ضحكةً ساخرةً مكتومةً من مكانهما على الأريكة. «هل ابتلعتِ ضفدعةً؟».

ـ «لا».

جعلَهما جوابي يتمادَيان في الضَّحك ويَفرُك كلاهما الآخر بأطرافه الملتفَّة، كأنَّهما ثُعبانان يُلمِّعان حراشفهما، ثمَّ قالت أختي: «وكيف كانت مهوات أبينا الذَّهبيَّة؟».

ـ «جميلة».

ضحك پرسيس قائلًا: «إنَّها لا تعلم! هل سمعتِ بأحدٍ بهذا الغباء؟».

أجابت أختي: «بتاتًا».

لم يكن ينبغي أن أسأل، لكنَّني كنتُ ما زلتُ منجرفةً مع أفكاري، أرى تلك الأجساد المبتورة ملقاةً على الأرضيَّات الرُّخام. «ما الذي لا أعلمه؟».

قالت أختي بوجه المِنك المثالي: «إنَّه ينكحها بالطَّبع. هكذا يستولِد الأبقار الجديدة، يتحوَّل إلى ثورٍ ويُنجِب منها العجول، ثمَّ يطبُخ اللاتي يتقدَّمن في السِّن. لهذا يحسبها الجميع خالدةً».

ـ «غير صحيح».

انفجرا يضحكان مشيريْن إلى وجنتَي المحمرَّتيْن، واجتذبَ الصَّوت أمِّي التي تحبُّ دُعابات شقيقَيَّ.

أخبرها أخي: «نحكي لسرسي عن الأبقار. لم تكن تعلم».

ضحكة أمِّي الفضِّيَّة كصخور الينبوع، ثمَّ قولها: «سرسي الحمقاء».

* * *

هكذا انقضت سنيني في ذلك الحين. أودُّ أن أقول إنَّني ظللتُ الوقت كلَّه في انتظار مهرب، لكنَّني أخشى أنَّني كنتُ لأمضي في الحياة معتقدةً أنَّ ذلك البؤس الباهت هو كلُّ ما في الدُّنيا، وحتى نهاية الزَّمان.

الفصل الثّاني

وصل خبرٌ بأنَّ أحد أعمامي سيُعاقَب. لم أكن قد رأيته قطُّ، وإن سمعت اسمه مرارًا وتكرارًا بنبرات عائلتي الهامسة المُنذرة بالويل. پروميثيوس. منذ زمنٍ طويل، حين كانت البشريَّة لا تزال ترتجف وتنكمش على نفسها في الكهوف، تحدَّى پروميثيوس إرادة زوس وجلبَ إلى البشر هديَّة النَّار، ومن لهبها انبثقَت جميع فنون الحضارة وغنائمها التي كان زوس الغيور يأمل أن يُبقيها بعيدًا عن أيدِيهم. لقاء تمرُّده هذا، أُرسِلَ پروميثيوس ليعيش في غياهب أعمق جُبٍّ بالعالم السُّفلي إلى أن يُدبَّر له العذاب اللَّائق، والآن أعلن زوس أنَّ الوقت قد حان.

هرولَ أعمامي الآخرون إلى قصر أبي، تتأرجح لحاهم الطَّويلة، وتنسكِب من أفواههم المخاوف. مجموعةٌ متباينة هُم؛ رجالُ أنهارٍ عضلاتُهم كجذوع الأشجار، وآلهةُ مياهٍ تتدلَّى من لحاهم السَّراطين، ومسنُّون يعلق لحم الفقمات بأسنانهم. أكثرهم ليس عمًّا على الإطلاق، بل أقربِ إلى ابن عمومةٍ من جيلٍ لاحق، لكنَّهم جبابرة مثل أبي

وجدِّي، ومثل پروميثيوس، فلول الحرب التي دارَت رحاها بين الآلهة، هؤلاء الذين لم ينكسروا أو يُقيَّدوا بالأغلال، وعقدوا صُلحًا مع زوس وصواعقه.

قديمًا، في فجر العالم، لم يكن هناك إلَّا الجبابرة. ثمَّ إنَّ عمِّي الكبير كرونوس سمع نبوءةً تقول إنَّ ابنه سيُطيح به يومًا، فلمَّا وضعَت زوجته ريا طفلها الأوَّل، انتزعَه بجسده المبلَّل من بين ذراعيْها وابتلعَه عن آخِره. أربعة أطفالٍ آخرون وُلِدوا بعده، وأكلَهم كرونوس جميعًا أيضًا. وأخيرًا يئسَت ريا، فلفَّت حجرًا بقماطٍ وأعطَته له ليبتلعه بدلًا من طفلها، وانخدعَ كرونوس، وأُخِذَ الرَّضيع النَّاجي زوس إلى جبل ديكتي ليُربَّى في السِّرّ. ثمَّ، عندما كبرَ، هبَّ زوس ضد أبيه بالفعل، مقتلعًا صاعقة البرق من السَّماء ومجبرًا إيَّاه على ابتلاع الأعشاب السَّامَّة، التي جعلَته يتقيَّأ إخوة زوس وأخواته الأحياء في معدته، وقد اندفعوا إلى صفّ أخيهم مسمِّين أنفُسهم الأوليمپ، على اسم القمَّة العُظمى التي وضعوا فوقها عروشهم.

انقسم الآلهة القُدامى، فضمَّ كثيرون منهم قوَّتهم إلى كرونوس، لكنَّ أبي وجدِّي انضمَّا إلى زوس، وقد قال البعض إنَّ السَّبب كراهية هيليوس القديمة لخُيَلاء كرونوس وصَلفه، في حين قال آخرون همسًا إنَّ موهبته التَّنبُّؤيَّة مدَّته بمعرفةٍ مسبقة عن نتيجة الحرب. مزَّقت المعارك السَّماوات، واحترقَ الهواء ذاته، ونهشَ الآلهة اللَّحم عن عظم بعضهم بعضًا، وتشرَّبت الأرض قطراتٍ تغلي من الدِّماء، دماء قويَّة لدرجة أنَّ زهورًا نادرةً نبتَت أينما سقطَت. في النِّهاية، طغَت قوَّة زوس، فقيَّد مَن تحدَّوه بالسَّلاسل، وجرَّد الجبابرة المتبقِّين من قُواهم، وأنعمَ بها على إخوته وأخواته ومَن أنجبَ من أولاد. وهكذا أصبح عمِّي نيريوس -

الذي كان من قبلُ حاكمَ البحر القوي ـ تابعًا ذليلًا لإله البحر الجديد بوسايدون، وخسرَ عمّي بروتيوس قصره وأصبحت زوجاته إماء فِراش. وحدهما أبي وجدّي لم يُعانيا نُقصانًا أو انحدارًا أو يخسرا قصرًا.

وتهانفَ الجبابرة. أَمِنَ المفترَض أن يَشعُروا بالامتنان؟ لقد قلبَ هيليوس وأوقيانوس موازين الحرب، والكلُّ يعلم هذا، وكان على زوس أن يُغدِق عليهما بالقُوى والمناصب الجديدة، لكنَّه خشيَ قوَّتهم التي تُضاهي قوَّته بالفعل. تطلَّع الجبابرة إلى أبي منتظرين أن يعترض، أن تتَّقد ناره الشَّعواء، لكنَّ هيليوس اكتفى بالرُّجوع إلى أبهائه تحت الأرض بعيدًا عن نظرة زوس الوهَّاجة وهج السَّماء.

مرَّت قرونٌ منذ ذلك الحين، واندملَت جراح الأرض وصمدَ السَّلام، إلَّا أنَّ نقمة الآلهة أبديَّة كلحمها، وفي ليالي المأدب اجتمعَ أعمامي متقاربين إلى جانب أبي. لكم أحببتُ خفضهم أبصارهم حين يُخاطِبونه، وصمتهم وانتباههم حين يعتدل في جلسته! فرغَت أوعية النَّبيذ وخفتَت نار المشاعل، وقال أعمامي هامسين: «وقتٌ طويل مضى. إنَّنا أقوياء من جديد. فكِّر في ما ستفعله نيرانك إذا أطلقتَ لها العنان. أنت أعظم أصحاب الدَّم القديم، أعظم من أوقيانوس، بل وأعظم من زوس نفسه إن شئت».

ابتسمَ أبي قائلًا: «أيُّها الإخوة، ما هذا الكلام؟ أليست هناك قرابين ومتاع للجميع؟ زوس هذا يُبلي بلاءً حسنًا».

لو سمعَ زوس هذا لشعرَ بالرِّضا، لكنَّه لم يرَ ما رأيته جليًّا على وجه أبي، تلك الكلمات التي لم تُنطَق وظلَّت معلَّقةً في الهواء.

زوس هذا يُبلي بلاءً حسنًا... **في الوقت الحالي**.

فركَ أعمامي أيْدِيَهم وابتسموا بدورهم، وانصرفوا منحنين على آمالهم، مفكِّرين في ما لا يطيقون انتظارًا على فِعله عندما يستعيد الجبابرة سُدَّة الحُكم.

كان هذا درسي الأوَّل. تحت وجه الأشياء النَّاعم المألوف، ثمَّة وجهٌ آخر ينتظر تمزيق العالم نصفيْن.

***

والآن يحتشد أعمامي في قاعة أبي بأعيُنٍ زائغة خوفًا، قائلين إنَّ عقاب بروميثيوس المُفاجئ علامةٌ على أنَّ زوس وأشباهه يتحرَّكون ضدهم أخيرًا. «لن يعرف الأوليمپ سعادةً حقيقيَّةً أبدًا ما لم يُدمِّرونا عن بكرة أبينا. علينا أن نقف مع بروميثيوس. أو لا، علينا أن نتكلَّم ضده لنقي رؤوسنا صاعقة زوس».

كنتُ في مكاني التَّقليدي عند قدمَيْ أبي، وقبعتُ صامتةً كي لا يلحظوا وجودي فيصرفوني، لكنَّني شعرتُ بصدري يجيش بذلك الاحتمال الجارف، أن تشتعل الحرب من جديد. أبهاؤنا وقد حطَّمتها عن آخِرها الصَّواعق، وأثينا ابنة زوس المُحاربة تُلاحِقنا بحربتها الرَّماديَّة، وإلى جانبها آريس أخوها في القتْل. سنُكبَّل ونُلقى في حُفرٍ ناريَّة ليس منها مهرب.

في منتصفهم، تكلَّم أبي ذهبيًّا هادئًا، فقال: «اهدؤوا أيُّها الإخوة، ما دامَ بروميثيوس سيُعاقَب، فهذا لأنَّه استحقَّ العقاب. دعونا لا نُطارِد المؤامرات».

لكنَّ القلق لم يَدَع أعمامي. سيكون العقاب علنيًّا. إنَّها إهانة، درس يُعلِّموننا إيَّاه. انظُروا ما يحلُّ بالجبابرة العُصاة.

اكتسبَ ضوء أبي حدَّةً بيضاء بليغةً، وقال: «إنَّه تأديب لمارقٍ لا أكثر. لقد ضلَّل بروميثيوس حبُّه الأحمق للفانين. لا درس في هذا للجبابرة. هل تفهمون؟».

أومأ أعمامي برؤوسهم، وعلى وجوههم انجدلَت خيبة الأمل بالرَّاحة. لا دماء... في الوقت الحالي.

* * *

تلقِّي إلهٍ ما العقاب حدثٌ نادرٌ رهيب، وهكذا استشرى الكلام الجامح في أبهائنا. ليس قتْل بروميثيوس مُمكنًا، لكن هناك أساليب تعذيبٍ جحيميَّة أخرى من شأنها أن تحلَّ محلَّ الموت. أهي السَّكاكين أم السُّيوف أم تمزيق الأطراف؟ خوازيق ملتهبة أم عجلة نار؟ أُغمِيَ على النَّيادات في حجور بعضهنَّ بعضًا، وتأهَّب آلهة الأنهار وقد اربدَّت وجوههم من الإثارة. لا يُمكنك أن تُدرِك كم يخشى الآلهة الألم، فلا شيء أشد منه غُربةً عنهم، ولذا فلا شيء يتحرَّقون شوقًا إلى رؤيته أكثر.

في اليوم المحدَّد، انفتحَ باب قاعة استقبال أبي على مصراعيْه. كانت المشاعل الضَّخمة المحلَّاة بالجواهر تتألَّق على الجُدران، وفي ضوئها تجتمع حوريَّاتٌ وآلهة من كلِّ صنف، إذ سرَت الدِّريادات[1] من غاباتهنَّ، ونزلَت الأُريادات[2] الحجريَّات من فوق جروفهنَّ. كانت أمِّي حاضرةً أيضًا مع أخواتها النَّيادات، وتجمَّع آلهة الأنهار ذوو أكتاف الخيول إلى جوار حوريَّات البحر البيضاوات كالسَّمك وسادتهنَّ الملحيِّين. حتى الجبابرة العظام أنفُسهم حضروا؛ أبي بالطَّبع، وأوقيانوس، وكذا پروتيوس

---

(1) الدِّريادة: حوريَّة الغابات والأشجار. (المترجم).

(2) الأُريادة: حوريَّة الجبال. (المترجم).

مبدِّل الهيئة، ونيريوس ابن البحر، وعمَّتي سيلين التي تقود جيادها الفضِّيَّة في سماء اللَّيل، والرِّياح الأربع بقيادة عمِّي الجليدي بورياس. ألف عينٍ توَّاقة، والمتغيِّبون الوحيدون هُم زوس وآلهته الأوليمب الذين يحتقرون اجتماعاتنا تحت الأرض، وقد قيل إنَّهم عقدوا جلسة تعذيبٍ خاصَّة بالفعل بين السُّحب.

كُلِّفَت بالعقاب واحدةٌ من الإرينيَّات، ربَّات الانتقام الجحيميَّات اللَّائي يقطنَّ بين الموتى. كانت عائلتي في موقع الصَّدارة المعتاد، وقد وقفتُ في مقدِّمة هذا الحشد الغفير مسلِّطةً عينَي على الباب، ومن ورائي يتزاحم آلهة الأنهار والنَّيادات ويتهامَسون. سمعتُ أنَّ على رؤوسهنَّ أفاعي مكان الشَّعر. لا، إنَّ لهنَّ ذيول عقارب، وأعيُنهنَّ تقطر دمًا.

كان المدخل خاليًا، ثمَّ إذا بها تسدُّه. وجهها رماديٌّ عديم الرَّحمة كأنَّه منحوتٌ من الصَّخر الحي، ومن ظهرها يرتفع جناحان قاتمان مفصليَّان كأجنحة النُّسور، وبين شفتيْها يتحرَّك مختلجًا لسانٌ مشقوق، وعلى رأسها تتلوَّى ثعابين خضراء رفيعةٌ كالدِّيدان، تنسج أشرطةً حيَّةً عبر شعرها.

- «جلبتُ السَّجين».

تردَّد صدى صوتها على السَّقف قاسيًا قسوة العُواء، مثل كلب صيدٍ يُنادي فريسته، ودخلَتِ القاعة بخُطواتٍ واسعة، في يُمناها سوْطٌ يُصدِر رأسه صوتَ احتكاكٍ خافت إذ تجرُّه على الأرض، وفي يُسراها تمتدُّ سلسلةٌ في طرفها پروميثيوس.

لم يتعدَّ ملبسه عصابةً سميكةً بيضاء على عينيْه وبقايا قميصٍ حول خصره، وقد قُيِّدَت يداه وقدماه أيضًا، لكنَّه لم يتعثَّر. سمعتُ خالةً إلى جواري تقول هامسةً إنَّ مَن صنعَ الأصفاد هو إله الحدَّادين العظيم

هافستوس، كي لا يستطيع زوس نفسه كسرها. ارتفعت الإرينيّة[1] على جناحَيْها النّسريّان وعلّقت الأصفاد عاليًا على الجِدار، ليتدلّى منها بروميثيوس وقد انشدَّت ذراعاه عن آخِرهما، ونتأت عظامه من تحت جِلده. حتى أنا، التي ما عرفت إلّا النّزر اليسير من المشقّة، شعرتُ بما في هذا من ألم.

حسبتُ أنَّ أبي، أو أحدًا من الآلهة الآخرين، سيقول شيئًا. مؤكّد أنّهم ـ بشكلٍ ما ـ سيُشيرون إلى وجوده، يمنحونه كلمةً لطيفةً، فهُم أهله رغم كلّ شيء، لكنَّ بروميثيوس ظلَّ معلَّقًا، يحفُّه الصّمت والوحدة.

لم تُكلّف الإرينيّة نفسها عناءَ إلقاء خُطبة، فهي ربّة عذابٍ وتُدرِك بلاغة العُنف. كان صوت السّوط طقطقةً كانكسار فروع السّنديان، وانتفضَت كتفا بروميثيوس وانفتحَ في جانبه شقٌّ بطول ذراعي؛ ومن كلّ جهةٍ حولي هسهسَت الأنفاس المسحوبة إلى الصُّدور كالماء على صخرٍ ساخن. رفعَت الإرينيّة سوطها ثانيةً، ومن جديدٍ الطَّقطقة، وتمزَّقت قطعةٌ دامية من الجِلد من ظهره. ثمَّ إنّها بدأت تنهال بالضّربات بلا هوادة، تهوي الواحدة في أعقاب الأخرى مباشرةً سالخةً جِلده في خطوطٍ طويلة تتقاطَع عليه مرّةً بعد مرّة. الصّوت الوحيد طرقعةُ السّوط وأنفاس بروميثيوس المتفجّرة المكتومة، وقد برزَت الأوتار في عُنقه. دفعَني أحدهم من ظهري محاولًا إلقاء نظرةٍ أفضل.

جراح الآلهة تندمل سريعًا، لكنَّ الإرينيّة تُجيد عملها، وكانت أسرع من ذلك. وبضربةٍ بعد ضربةٍ هوَت إلى أن ابتلَّ السّوط الجِلديُّ عن آخِره بالدَّم. كنتُ أعلمُ أنَّ الآلهة من المُمكن أن تنزف، لكنَّني لم

(1) إرينيّة (ج. إرينيّات): ربّات الانتقام.

أرَ ذلك قطُّ. پروميثيوس من أعظم عُظماء نوعنا، فكانت القطرات التي سقطَت منه ذهبيّةً تُلطِّخ ظهره بجمالٍ رهيب.

وما انفكّت الإرينيّة تجلده، ومرّت ساعاتٌ، وربّما أيّام. لكن حتى الآلهة لا يُمكنهم مشاهدة أحدهم يُجلَد إلى الأبد، وبدأ الملل يتسلّل إلى مشهد الدّم والألم. تذكّروا مطايبهم: المآدب المنتظرة حضورهم، والأرائك الوثيرة المكسوّة بالأرجواني الجاهزة لاكتناف أطرافهم؛ وواحدًا تلو الآخر انسحَبوا، وبعد جَلدةٍ أخيرة تبعَتهم الإرينيّة التي تستحقّ وليمةً بعد عملٍ كهذا.

كانت العصابة قد انزلقت عن وجه عمّي، ورأيتُ عينيْه مغلقتيْن وذقنه متدلّيًا على صدره، وقد استحال ظهره إلى جُذاذاتٍ مذهّبة. كنتُ قد سمعتُ أعمامي يقولون إنّ زوس أعطاه فُرصة أن يخرّ على رُكبتيْه متوسّلًا عقابًا أخف، إلّا أنّه أبى.

لم يتبقّ إلّاي، وقد أفعمَت رائحة المُهل[1] الثّخين كالعسل الهواء، وظلّت نُهيرات الدّم المصهور تسيل على ساقيْه. شعرتُ بنبضات قلبي المتسارعة في عروقي. أيعي أنّني هنا؟ أخذتُ خُطوةً حذرةً تجاهه فيما ارتفعَ صدره وانخفضَ بصوتٍ خشنٍ خفيض.

بنبرةٍ رفيعة في القاعة ذات الأصداء، قلتُ: «سيّدي پروميثيوس؟».

ارتفعَ رأسه نحوي، وعندما انفتحَت عيناه وجدتهما جميلتيْن، واسعتيْن وداكنتيْن وطويلتَي الأهداب. وجنتاه ملساوان حليقتان؛ ومع ذلك فإنّ له سمتًا ما يشي بالعراقة مثل جدّي.

---

(1) المُهل: دم الآلهة في الأساطير، وهو ما يُطلق أيضًا على المعادن المصهورة. (المترجم).

قلتُ: «يُمكنني أن أحضر لك رحيقًا».

استقرَّت نظرته على نظرتي، وقال: «لكِ شكري إذا فعلتِ». كان صوته رنَّانًا كالخشب المعتَّق، وكانت هذه أوَّلَ مرَّةٍ أسمعه، لأنَّه لم يصِح نهائيًّا طيلة عذابه الأليم.

درتُ على عقبَيَّ، وتسارعَت أنفاسي إذ قطعتُ الأروقة إلى قاعة المَأدب الملأى بالآلهة الضَّاحكين. عبر القاعة كانت الإرينيَّة تشربُ نخبًا من كأسٍ ضخمة عليها نقشٌ مجسَّم لوجه جُرجونة[1] يَنظُر شزرًا. لم تكن قد حرَّجت على أحدٍ أن يُكلِّم پروميثيوس، لكنَّ ذلك لا يعني شيئًا، فالمعصيةُ شأنها. تخيَّلتها تعوي مناديةً اسمي بصوتها الجحيمي، تخيَّلتُ الأصفاد تُصَلصِل على معصمَيَّ والكُرباج يشقُّ الهواء نحوي، لكنَّ عقلي لم يستطع أن يتخيَّل ما هو أكثر. لم أكن قد شعرتُ بجَلدة كُرباج قطُّ، أو أعرفُ لون دمي.

ارتجفتُ بشدَّةٍ لدرجة أنَّني حملتُ الكوبَ بكلتا يدَيَّ. ماذا أقول إذا اعترضَ أحدهم طريقي؟ لكنَّ الطُّرقات كانت هادئةً، وقطعتها عائدةً.

في القاعة الكُبرى وجدتُ پروميثيوس صامتًا في قيوده، وقد انغلقَت عيناه مجدَّدًا والتمعَت جروحه في ضوء المشاعل.

تردَّدتُ، فقال: «أنا لا أنامُ. هلَّا ترفعين إليَّ الكوب؟».

احتقنَ وجهي. بالطَّبع لن يستطيع حمله بنفسه. تقدَّمتُ منه ودنوتُ للغاية حتى شعرتُ بالحرارة المنبعثة من كتفيْه، من تحتي الأرضُ

---

(1) الجُرجونة: مخلوقة شعرها من الأفاعي، تمسخ نظراتها الرَّائي حجرًا، كما في أسطورة ميدوسا. (المترجم).

المبتلَّةُ بدمه المتساقط. رفعتُ الكوب إلى شفتيْه وشربَ، وشاهدتُ حَلقه يتحرَّك برفق. بشرته جميلة، لونها كالجوز المصقول، وتفوح منها رائحة الطَّحالب الخضراء الغارقة في ماء المطر.

بعد أن فرغَ وتراجعتُ، سألني: «أنتِ من بنات هيليوس، أليس كذلك؟».

- «بلى». لدغَني السُّؤال. لو أنّي ابنةٌ حقّة لما اضطرَّ إلى أن يسأل، لكنتُ مثاليَّةً أتألَّقُ حُسنًا مصبوبًا من نبع أبي.

- «شكرًا على لُطفكِ».

لم أعرف إن كنتُ لطيفةً حقًّا، وشعرتُ بأنّي لا أعرفُ شيئًا. تكلَّم بروميثيوس بحرصٍ أقرب إلى التَّردُّد، ورغم ذلك كانت خيانته صارخةً، وقد عجزَ عقلي عن استيعاب هذا التَّناقُض. **الأفعالُ الجريئةُ شيء، والأسلوبُ الجريءُ شيء.**

- «أأنت جائع؟ يُمكنني أن أحضر لك طعامًا».

- «لا أظنُّ أنَّني سأجوعُ ثانيةً أبدًا».

لم يكن قولًا يُثير الشَّفقة كما كان ليَحدُث لو صدرَ من فانٍ، لأنَّ الأكل عندنا نحن الآلهة مثل النَّوم، أحد مسرّات الحياة الكُبرى، وليس ضرورةً. يُمكننا أن نقرّر ذات يومٍ ألّا نُطيع بطوننا إن كنّا بالقوّة الكافية. لم أشكَّ في قوّة بروميثيوس. فبعد كلّ تلك السّاعات عند قدمَيْ أبي، تعلّمتُ أن أستشمَّ القوّة أينما كمنَت. لبعض أعمامي روائح أخف من الكراسي التي يجلسون عليها، لكن لجدّي أوقيانوس رائحةٌ عميقةٌ كطمي الأنهار الغني، ولأبي لهيبٌ حارقٌ كالنَّار المُذكاة لتوّها. والآن تملأ رائحة الطَّحالب الخضراء الفائحة من بروميثيوس القاعة.

خفضتُ نظري إلى الكوب الفارغ مستدعيةً شَجاعتي، ثمَّ قلتُ: «لقد عاونتَ الفانين. لهذا تُعاقَب».

ـ «أجل».

ـ «هلَّا تُحدِّثني عن الفانين؟».

كان سؤالًا طفوليًّا، لكنَّه أومأ برأسه برصانةٍ قائلًا: «ليست هناك إجابة واحدة. كلُّهم يختلف، الواحد عن الآخر. الشَّيء الوحيد المشترك بينهم هو الموت. أتعرفين هذه الكلمة؟».

ـ «أعرفها، لكنَّني لا أفهمها».

ـ «ليس بإمكان إلهٍ أن يفهمها. أجسادهم تتفتَّت وتغوص في الأرض، وأرواحهم تتحوَّل إلى دُخانٍ باردٍ وتطير إلى العالم السُّفلي، حيث لا يأكلون شيئًا أو يشربون شيئًا أو يَشعُرون بالدِّفء، ويفلت منهم كلُّ ما يمدُّون إليه أيدِيَهم».

قلتُ وقد اقشعرَّ جِلدي: «كيف يحتملون ذلك؟».

ـ «بأفضل ما بمقدورهم».

كان ضوء المشاعل يخفت، والظِّلال تُغلِّفنا كمياهٍ قاتمة. «أصحيحٌ أنَّك رفضت أن تتوسَّل العفو؟ وأنَّك لم تُضبَط متلبِّسًا بفعلتك، بل اعترفت بها لزوس طواعيةً؟».

ـ «صحيح».

ـ «لماذا؟».

كانت عيناه ثابتتيْن على عينَيَّ إذ أجاب: «أخبِريني أنتِ. لِمَ يفعل إله شيئًا كهذا؟».

لم أحر جوابًا. بدا لي أنَّ اجتلاب المرء العقاب الربَّاني على نفسه ضربٌ من الجنون، لكنَّني لم أستطع أن أخبره بذلك وأنا واقفةٌ في دمه.

قال: «ما من داعٍ لأن يكون الآلهة كلُّهم سواءً».

لا أدري بِما كنتُ لأردَّ!

جاءت صيحةٌ بعيدةٌ من الرُّواق، فقال: «حان الوقتُ لذهابكِ. آلكتو لا تحبُّ تركي طويلًا. إنَّ قسوتها تنبُت بسرعة الحشائش، ولا بُدَّ من قطعها ثانيةً في أيِّ لحظة».

كانت طريقةً غريبةً للتَّعبير عن الأمر، فهو مَن سيتعرَّض للقطع، غير أنَّها راقتني كأنَّ كلماته هذه سرٌّ، شيءٌ يبدو كالحجر، لكن في داخله بذرةً.

قلتُ: «سأذهبُ إذن. هل... ستكون بخير؟».

- «بخيرٍ بما فيه الكفاية. ما اسمكِ؟».

- «سرسي».

هل ابتسمَ بعض الشَّيء؟ ربَّما أطريتُ على نفسي لا أكثر. كنتُ أرتعدُ من جرَّاء ما فعلتُ، وهو أكثر ممَّا فعلتُ في حياتي كلِّها. درتُ وتركته عائدةً عبر سَبج الأروقة. وفي قاعة المآدب، وجدتُ الآلهة ما زالوا يشربون ويضحكون ويتمدَّد بعضهم في حجور بعض. راقبتهم منتظرةً أن يُعلِّق أحدهم على غيابي، لكنَّ أحدًا لم يفعل، لأنَّ أحدًا لم يلحظ. ولِمَ يلحظون؟ إنَّني نكرةٌ، حجرٌ، مجرَّدُ حوريَّةٍ طفلةٍ أخرى من ألوف الألوف.

شعورٌ غريبٌ كان يتصاعَد في داخلي، شيءٌ مثل الأزيز في صدري، كالنَّحل عندما تذوب ثلوج الشِّتاء. ذهبتُ إلى خزانة أبي الزَّاخرة

بالثَّروات اللَّامعة، من الأكواب الذَّهبيَّة المشكَّلة كرؤوس الثِّيران، إلى القلادات اللازورد والكهرمان، إلى الحوامل الثُّلاثيَّة الفضِّيَّة، والأوعية المنحوتة من المَرو ذوات المقابض المشكَّلة كرقاب التِّم. لطالما كان المفضَّل عندي خنجرًا مقبضه من العاج المنقوش كوجه أسد، كان أحد الملوك قد أهداه إلى أبي على أمل نَيْل حظوته.

في مرَّةٍ سألتُ أبي: «وهل نالَها؟».

وأجاب: «لا».

أخذتُ الخنجر. في حُجرتي التمعَت الحافة البرونز في ضوء الفتيل وكشَّر الأسد عن أنيابه، وتحت النَّصل كانت كفِّي الملساء النَّاعمة. لن تحمل نَدبةً أبدًا، أو جرحًا يتعفَّن، ولن يلوحَ عليها أدنى أثرٍ لتقدُّم السّنّ. وجدتُني لا أخافُ الألم الذي سيُصيبني، وإن تملَّكني خوفٌ من نوعٍ آخر، من أنَّ النَّصل لن يجرحني من الأصل، من أنَّه سينفذ عبري كأنَّه ساقطٌ في دُخان.

لكنَّه لم ينفذ، بل انشقَّ جِلدي مع لمسة النَّصل، واجتاحَني الألم فضِّيًا ساخنًا كصاعقة البرق. الدَّم الذي انبثقَ أحمر، لأنَّني لا أتمتَّعُ بقوَّة عمِّي، وظلَّ الجرح ينزف طويلًا قبل أن يبدأ في الالتئام من تلقاء نفسه. جلستُ أشاهده، وبينما شاهدته ألفيتُ خاطرًا جديدًا في نفسي. إنَّني مُحرجة من البوْح به، إذ يبدو بدائيًا جدًّا، كأنَّ طفلةً تكتشف أنَّ هذه اليدَ يدها. لكن هذا هو ما كنته آنذاك، طفلة.

الخاطر الذي جال ببالي، أنَّ حياتي كلَّها كانت ظُلمةً وأعماقًا، لكنَّني لستُ جزءًا من تلك المياه القاتمة، بل مخلوقةٌ تسبح فيها.

الفصل الثّالث

كان پروميثيوس قد رحل عندما استيقظتُ، ومُسِحَ الدَّم الذَّهبيُّ عن الأرض، وسُدَّ التَّجويف الذي صنعَته الأغلال. سمعتُ من إحدى بنات خالاتي النّيادات خبرَ أخْذه إلى قمّةٍ محزَّزةٍ عظيمة في القوقاز، وتقييده بالسّلاسل إلى الصَّخر، وأنَّ عُقابًا أُمِرَ بالمجيء كلَّ ظهيرةٍ لينتزع كبده ويأكلها ساخنةً من لحمه. قالت إنَّه عِقاب لا يُوصَف وقد لاح استمتاعها بكلِّ تفصيلةٍ في وصفه؛ المنقار الدّامي والعُضو الممزَّق الذي يظلُّ ينمو من جديدٍ ليُمزَّق ثانيةً. متخيِّلة؟

أغلقتُ عينَي مُفكِّرةً أنَّه كان عليَّ أن أجلب له حربةً، شيئًا يستطيع به المقاومة، لكنَّها كانت فكرةً حمقاء. إنَّه لم يُرِد سلاحًا. لقد سلَّم نفسه. بالكاد استمرَّ الكلام عن عقاب پروميثيوس شهرًا. طعنَت واحدةً من الدِّريادات إحدى الكاريتات[1] بدبُّوس شعرها، ووقعَ عمِّي بورياس والإله الأوليمپي أپولو في غرام الشَّاب الفاني نفسه.

(1) الكاريتة: ربَّة الحُسن. (المترجم).

انتظرتُ حتى توقَّف أعمامي عن النَّميمة، وسألتُ: «أهناك أخبار عن پروميثيوس؟».

كأنّي قدَّمتُ لهم طبقًا من الطَّعام الفاسد، عبسوا قائلين: «وما الأخبار التي تتوقَّعينها؟».

كانت كفّي تُؤلِمني حيث جرحَها النَّصل، ولو أنَّ لا أثر للجرح بالطَّبع.

قلتُ: «أبي، هل سيُطلِق زوس سراح پروميثيوس يومًا؟».

ضيَّق أبي عينيْه رامقًا رُقعة الدَّامة، وأجاب: «يجب أن يَحصُل على شيءٍ أفضل لأجل أن يفعل ذلك».

ـ «مثل ماذا؟».

لم يُجِب أبي. حُوِّلَت ابنةُ أحدهم إلى طائر، وتصارعَ بورياس وأپولو على الشَّابِّ الذي أحبَّاه، وماتَ الشَّابُّ.

ابتسمَ بورياس بخُبثٍ من مكانه على أريكة المأدب، وجعل صوته العاصف المشاعلَ تتذبذَب إذ قال: «أتحسبونني كنتُ لأسمح لأپولو بأن يحظى به؟ إنَّه لا يستحقُّ زهرةً مثله. لقد طيَّرتُ جُلَّةً أصابت الفتى في رأسه، وهو ما علَّم الأوليمپي المتغطرس درسًا». وضحك أعمامي ضحكًا هو معمعة مدوِّية كصرير الدَّلافين ونباح الفقمات وارتطام المياه بالصُّخور.

مرَّت مجموعة من النَّريادات البيضاوات كبطون ثعابين الماء في طريقهنَّ إلى أبهائهنَّ الملحيَّة.

قذفَني پرسيس بلوْزةٍ في وجهي متسائلًا: «ماذا بكِ هذه الأيَّام؟».

قالت پاسيفاي: «قد تكون واقعةً في الحُبِّ».

قال ضاحكًا: «هاه! أبونا لا يستطيع أن يمنحها لأحدهم مجّانًا حتى. صدّقيني، لقد حاولَ».

نظرَت أمّي من فوق كتفها الغضّة قائلةً: «لسنا مضطرّين إلى سماع صوتها على الأقل».

قال پرسيس: «يُمكنني أن أجعلها تتكلّم، انظُري»، وأمسكَ جِلد ذراعي بأصابعه واعتصرَه.

ضحكَت منه أختي، وقالت: «أنت تأكل وتشرب أكثر من اللّازم».

احتقنَ وجهه، وردَّ: «إنّها مجرّدِ مسخ. إنّها تُخفي شيئًا»، وأمسكَني من معصمي قائلًا: «ما هذا الذي تحملينه في يدكِ دومًا؟ إنَّ معها شيئًا. افتحي أصابعها».

وفتحَتها پاسيفاي قسرًا واحدةً تلو الأخرى وأظفارها الطّويلة تخزني.

حدَّقا إلى يدي، ثمّ بصقَت أختي.

- «لا شيء».

***

وضعَت أمّي مرّةً أخرى. صبيًّا هذه المرّة. باركَه أبي، لكنّه لم يتنبّأ بشيء، فتطلّعت أمّي حولها بحثًا عن مكانٍ تضعه فيه، وكانت خالاتي حينئذٍ قد صرن واعيات، فأبقَت كلٌّ منهنَّ يدَيْها خلف ظهرها.

قلتُ: «سآخذه أنا».

أطلقَت أمّي ضحكة استهزاء، لكنّها كانت تتوق إلى التّباهي بقلادة خرزات الكهرمان الجديدة، فقالت: «ليكنْ. على الأقل ستكون لكِ فائدة. يُمكنكما تبادُل النّعيق».

سمَّاه أبي إيتيس، أي «العُقاب». كان جِلده دافئًا بين ذراعَيَّ كحجرٍ سخَّنته الشَّمس، وناعمًا كبتلات زهرة المخمليَّة. لم يعرف العالم طفلًا أعذب منه قطُّ، رائحته كالعسل والشُّموع الموقدة لتوِّها. أكل من أصابعي ولم يجفل من صوتي الواهن، ولم يُرِد إلَّا النَّوم متكوِّرًا على نفسه عند عُنقي فيما أحكي له القصص. كلُّ لحظةٍ قضاها معي شعرتُ فيها بجَيَشانٍ في حلقي، جَيَشان هو حُبِّي له الذي كان جارفًا لدرجة أنَّه أعجزَني أحيانًا عن الكلام.

وبدا أنَّه يُبادِلني الحُبَّ، وكانت تلك الأعجوبة العُظمى. أوَّل كلمةٍ نطقَها على الإطلاق كانت «سرسي»، والثَّانية «أختاه». لو انتبهَت أمِّي فلربَّما أصابَتها الغيرة. حدَّق پرسيس وپاسيفاي إلينا ليريا إن كنَّا سنبدأ حربًا. حربًا؟ لم نكن نبالي بذلك. أخذَ إيتيس إذنَ أبينا في ترك أبهائه، ووجدَ لنا بُقعةً مهجورةً تطلُّ على البحر؛ ومع أنَّ الشَّاطئ كان صغيرًا باهتًا والأشجار تكاد لا ترقى إلى شُجيرات، فقد بدا المكان لي كبريَّةٍ فسيحةٍ وارفة.

في غمضةِ عينٍ نما وصار أطول منِّي قامةً. ومع ذلك، ظللنا نمشي متشابكَي الذِّراعيْن. قالت پاسيفاي ساخرةً إنَّنا نبدو كعاشقيْن، فهل سنكون من أمثال الآلهة الذين يُعاشِرون إخوتهم؟ ورددتُ قائلةً إنَّ من المؤكَّد أنَّها فعلَت ذلك أوَّلًا ما دامَت فكَّرت فيه. كانت إهانةً خرقاء، لكنَّ إيتيس ضحكَ، وهو ما أشعرَني بأنِّي سريعة البديهة كأثينا ربَّة الحصافة البرَّاقة.

لاحقًا، سيقول النَّاس إنَّني السَّبب في غرابة إيتيس، ولا أستطيعُ أن أثبت عدم صحَّة ذلك. غير أنَّه ـ في ذاكرتي ـ كان غريبًا بالفعل، ويختلف عن أيِّ إلهٍ عرفته. حتى في طفولته كان يبدو أنَّه يفهم ما يعجز

الآخرون عن فهمه، وبإمكانه سرد أسماء الوحوش القاطنة في أعمق خنادق البحر، ويعرف أنَّ الأعشاب التي صبَّها زوس في حلق كرونوس تُسمَّى «فارماكا»، وأنَّ من شأنها صُنع المعجزات في العالم، وأنَّ كثيرًا منها نما من دماء الآلهة التي تساقطَت على الأرض.

عندها كنتُ أهزُّ رأسي وأسأله: «كيف تسمع هذه الأشياء؟».

ـ «بالإصغاء».

أنا أيضًا اعتدتُ الإصغاء، لكنَّني لم أكن وريث أبي الأثير. استُدعِيَ إيبتيس لحضور جميع مجالسه، وبدأ أعمامي يدعونه إلى أبهائهم، وانتظرتُ أنا عودته في حُجرتي كي نذهب معًا إلى السَّاحل المهجور، ونجلس على الصُّخور ليَنثُر البحرُ رذاذه على أقدامنا. تعوَّدتُ أن أسند وجنتي إلى كتفه وهو يُلقي عليَّ أسئلةً لم تخطُر لي قطُّ، وبالكاد أفهمها، مثل: ما إحساسكِ بألوهيَّتكِ؟

ـ «ماذا تعني؟».

ـ «دعيني أخبركِ عن إحساسي بألوهيَّتي. إنَّها كعمودٍ من الماء ينصبُّ على نفسه بلا توقُّف، ماءٍ صافٍ تمامًا حتى الصَّخر. والآن أنتِ».

جرَّبتُ إجاباتٍ على غرار: كالنَّسيم على جُرف، كنورسٍ يَصرُخ من عُشِّه.

هزَّ رأسه قائلًا: «لا، إنَّكِ تقولين هذه الأشياء بسبب ما قلته أنا فقط. ما إحساسكِ بها حقًّا؟ أغلِقي عينيْكِ وفكِّري».

أغلقتُ عينَيَّ. لو كنتُ فانيةً لسمعت دقَّات قلبي، لكنَّ عروق الآلهة بليدةٌ خاملة، والحقيقة أنَّني لم أسمع شيئًا إطلاقًا. على أنَّني

كرهتُ أن أخيّب ظنَّه، فضغطتُ على صدري بيدي، وبعد قليلٍ بدا كأنّني أسمعُ شيئًا حقًّا. قلتُ: «صدَفة».

قال ملوّحًا بإصبعه في الهواء: «آها! صدَفة المحار أم بلح البحر؟».

ـ «بلح البحر».

ـ «وماذا يوجَد داخل تلك الصَّدفة؟ حلزون؟».

أجبتُ: «لا شيء، هواء».

ـ «ليس هذان سواءً. اللا شيء فضاء فارغ، أمَّا الهواء فهو ما يملأ كلَّ شيءٍ آخر. إنَّه الأنفاس والحياة والرُّوح، الكلمات التي نلفظها».

أخي الفيلسوف. أتعلمون كم إلهًا مثله؟ واحد آخر فقط التقيته. كان قوس السَّماء الزَّرقاء فوقنا، لكنَّني عدتُ من جديدٍ إلى القاعة القديمة المُظلمة بأغلالها ودمها.

قلتُ له: «لديَّ سرٌّ».

رفعَ إيبتيس حاجبيْه باستمتاعٍ حاسبًا إيَّاها دُعابةً، والحقيقة أنَّني لم أعرف شيئًا قطُّ لم يحسبه كذلك.

تابعتُ: «إنَّه يرجع إلى ما قبل مولدك».

لم يَنظُر إليَّ إيبتيس وأنا أحكي له عن پروميثيوس، فلطالما قال إنَّ عقله يعمل أفضل من دون إلهاء. هكذا ركَّز عينيْه على الأفق، هاتيْن العينيْن الحادَّتيْن كعينَي العُقاب الذي سُمِّيَ على اسمه، وتستطيعان اختراق شقوق الأشياء كلِّها مثلما ينفذ الماء من بدن سفينةٍ مثقوب.

حين فرغتُ، ظلَّ صامتًا وقتًا طويلًا، ثمَّ قال أخيرًا: «پروميثيوس كان إلهًا قادرًا على التَّنبُّؤ، ومؤكَّد أنَّه علمَ أنَّه سيُعاقَب وبأيِّ وسيلة، لكنَّه فعل ما فعلَه رغم ذلك».

لم أكن قد فكّرتُ في هذا: أنَّ پروميثيوس علمَ وهو يحمل قبسَ النّار للبشريّة أنّه يخطو صوب ذلك العُقاب والجُرف الموحش الأبدي.

بخيرٍ بما فيه الكفاية. هكذا أجاب عندما سألته إن كان سيُصبح بخير.

ـ «مَن يعرف هذا غيرنا؟».

ـ «لا أحد».

كانت في صوته نبرةُ إلحاحٍ لم أعتدها، إذ قال: «متأكّدة؟ لم تُخبِري أحدًا؟».

ـ «نعم. مَن كنتُ لأخبر غيرك؟ مَن كان ليُصدِّقني؟».

أومأَ برأسه مرّةً، قائلًا: «صحيح. يجب ألّا تُخبِري أحدًا آخر، ولا يَجدُر بكِ أن تتكلّمي عن هذا ثانيةً، حتى معي. إنّكِ محظوظةٌ لأنَّ أبانا لم يعرف».

ـ «أتظنّه سيغضب جدًّا؟ پروميثيوس ابن عمومته».

أطلقَ نخيرًا ساخرًا، وردَّ: «كلُّنا أولاد عمومة، بما فينا الأوليمپ. ستجعلين أبانا يبدو كالأحمق العاجز عن السّيطرة على نسله. سيُلقيكِ للغِربان».

شعرتُ بمعدتي تنقبض رهبةً، وقال أخي ضاحكًا من النَّظرة على وجهي: «بالضَّبط. ولأجل ماذا؟ پروميثيوس خضعَ للعقاب على كلِّ حال. دعيني أعطيكِ نصيحةً. عندما تتحدّين الآلهة المرّة القادمة، افعلي هذا لسببٍ أفضل. إنّني أكرهُ أن أرى أختي تتحوّل إلى رمادٍ بلا طائل».

***

أُبرِمَ اتّفاقٌ على زواج پاسيفاي، التي كانت تتحايَل من أجل هذا لمُدَّةٍ طويلة بالفعل، بجلوسها في حجر أبي وحديثها النَّاعم عن اشتياقها إلى حمل أطفال أحد السَّادة الكرام، وقد كلَّفت أخي پرسيس بأن يُساعِدها برفع الكؤوس في كلِّ وجبةٍ لشُرب نخب صلاحيَّتها للزَّواج.

قال أبي الجالس على أريكة المأدب: «مينوس، ابن زوس وملك كريت».

اعتدلَت أمّي في جلستها قائلةً: «فانٍ؟ قلتَ إنَّها ستتزوَّج إلهًا».

ـ «قلتُ إنَّه سيكون ابنًا خالدًا لزوس، وهو كذلك».

هازئًا قال پرسيس: «يا لحديث النُّبوءات هذا. هل يموت أم لا؟».

وميضٌ في القاعة يلفح كقلب النَّار، وقول أبي: «كفى! مينوس سيَحكُم سائر أرواح الفانين في العالم الآخر. سيعيش اسمه قرونًا. انتهى الأمر».

لم يجرؤ أخي على قول المزيد، ولا جرؤَت أمّي، ولفتَ إيبتيس نظري وسمعتُ كلماته كأنَّه نطقَها. أرأيتِ؟ ليس سببًا جيِّدًا بما فيه الكفاية.

توقَّعتُ أن تبكي أختي لهبوط درجتها، إلَّا أنَّها كانت مبتسمةً لمَّا نظرتُ. لم أدرِ معنى ذلك، لأنَّ عقلي كان يتتبَّع خيطًا مختلفًا وقد انتشرَ على بشرتي التَّورُّد. إن كان مينوس هناك فستُصاحِبه عائلته، وكذا بلاطه، ومستشاروه، وأتباعه ومنجّموه، وسُقاته، وخدمه ومساعدو خدمه.. كلُّ هؤلاء الخلائق الذين تخلَّى پروميثيوس عن خلوده من أجلهم، الفانون.

* * *

في يوم الزّفاف حملَنا أبي عبر البحر في عربته الذّهبيّة إلى كريت، حيث ستُقام المأدبة في قصر مينوس العظيم في كنوسوس. طُلِيَت الجُدران حديثًا بالجِص، وعُلِّقَت الزُّهور الزَّاهية على كلّ سطح، والتمعَت الطَّنافس المعلَّقة بأغنى ألوان الزَّعفران. لم يحضر الجبابرة فحسب، ذلك أنَّ مينوس ابنٌ لِزوس، أي إنَّ جميع الأوليمپ ماسحي الجوخ أتوا ليُقدِّموا فروض الولاء. سرعان ما امتلأت الأروقة الطَّويلة ذوات الأعمدة بالآلهة بكامل مجدهم، تُصَلصِل حُليُّهم ويضحكون، ويُلقون النَّظرات هنا وهناك ليروا مَن تلقَّى الدَّعوة غيرهم. كان أشدُّ الزِّحام حول أبي الذي أحاطَ به الخالدون من كلّ صنفٍ ليُهنِّؤوه على تحالفه الرَّائع. أعمامي تحديدًا كانوا مسرورين، فليس محتملًا أن يتحرَّك زوس ضدنا ما دامَت الزِّيجة قائمةً.

فوق منصَّة العروس تألَّقت پاسيفاي كالفاكهة الريَّانة، بشرتها ذهبيّة وشعرها بلون الشَّمس على البرونز المصقول، وقد تحلَّقت حولها مئة حوريّةٍ متحمِّسة، كلٌّ منهنَّ تُباري الأخرى في الاستماتة على أن تقول لأختي كم تبدو جميلةً.

تنحَّيتُ جانبًا بعيدًا عن الزَّحمة، ومن أمامي مرَّ الجبابرة؛ عمَّتي سيلين، وعمّي نيريوس يجرُّ خلفه الطَّحالب البحريَّة، ونموسيني أُم الذِّكريات وبناتها التِّسع رشيقات الخُطى. وفي تلك الأثناء كانت عيناي تجوسان في المكان بحثًا.

وأخيرًا، وجدتهم عند حافة القاعة، حشدًا غامضًا من الأجساد المتلملمة معًا برؤوسٍ محنيَّة. كان پروميثيوس قد أخبرني بأنَّ كلًّا منهم يختلف عن الآخر. لكن كلّ ما استطعتُ تمييزه هو جمهرةٌ غير واضحة

المعالم، لكلِّ فردٍ فيها البشرة الباهتة المتعرّقة نفسها والأردية المتجعّدة نفسها. تحرّكتُ مقتربةً، ورأيتُ شعرهم خفيفًا منسدلًا، ولحمهم رخوًا مرتخيًا على عظامهم. حاولتُ أن أتخيَّل ذهابي إليهم ولمس هذا الجِلد الميّت بيدي، وجعلَتني الفكرة أرتجفُ. كنتُ قد سمعتُ بالفعل من بنات خالاتي القصص التي يتبادَلنها همسًا عمَّا قد يفعله الفانون بالحوريَّات إذا ما قبضوا عليهنَّ بمفردهنَّ، قصص الاغتصاب والانتهاك والمهانة. وجدتُها عصيَّةً على التَّصديق، إذ بدوا لي ضعافًا كخياشيم الفطر، يحرصون على خفض وجوههم بعيدًا عن كلِّ هذه الكائنات الربَّانيَّة. للفانين على كلِّ حالٍ قصصهم الخاصَّة عمَّا يُصيب مَن يختلطون بالآلهة. نظرةٌ عابرة في غير محلِّها، قدمٌ تطأ بُقعةً غير مناسبة. من شأن هذه الأشياء أن تجتلب على عائلاتهم الموت والويل أجيالًا.

فكَّرتُ أنَّ الأمر يُشبِه سلسلةً عظيمةً من الخوف. زوس على القمَّة، وأبي بعده مباشرةً، ثمَّ إخوة زوس وأخواته وأولاده، ثمَّ أعمامي، وبعدها نزولًا إلى مصاف آلهة الأنهار وسادة الملح والإرينيَّات والرِّياح والكاريتات، وحتى القاع حيث نجلس نحن ـ الحوريَّات والبشر، يَرمُق بعضنا بعضًا.

قبضَ إيبتيس على ذراعي قائلًا: «لا يتمتَّعون بجَمالٍ يستحقُّ النَّظر، أليس كذلك؟ تعالي، لقد وجدتُ الأوليمپ».

تبعته ودمي يتدفَّق بقوَّةٍ في داخلي. لم أكن قد رأيتُ من قبل قطُّ واحدًا من أولئك الأرباب الذين يَحكُمون من فوق عروشهم السَّماويَّة. سحبَني إيبتيس إلى نافذةٍ مطلَّةٍ على ساحةٍ يغمرها ضوء الشَّمس الباهر، وها هُم أولاء؛ أپولو سيِّد القيثارة والقوس البرَّاق، وتوأمته الصيَّادة عديمة

الرَّحمة أرتميس المقمِرة، وهافستوس حدَّاد الآلهة الذي صنعَ السَّلاسل التي قيَّدت بروميثيوس، وبوسايدون الواجم الذي تأتمِر الأمواج بأمر رُمحه ثُلاثي الشُّعب، وديميتر سيِّدة الوفرة التي تُقيت محاصيلها العالم. حدَّقتُ إليهم وهُم يتحرَّكون بخفَّةٍ مزدهرين في سطوتهم، وقد بدا كأنَّ الهواء ذاته يُفسِح لهم الطَّريق أينما خطوا.

همستُ: «هل ترى أثينا؟». لطالما راقَتني القصص التي تُحكى عنها، المُحاربة رماديَّة العينيْن، ربَّة الحكمة ذات البديهة الأسرع من البرق. إلَّا أنَّها لم تكن هناك. قال إيتيس إنَّها قد تكون أعلى كبرياءً من الاحتكاك بالجبابرة الأرضيِّين، وقد تكون أكثرَ حكمةً من أن تُقدِّم التَّهاني باعتبارها واحدةً وسط حشدٍ غفير، أو قد تكون موجودةً بالفعل، لكنَّها خفيَّة عن أعيُن الأرباب الآخرين أنفُسهم. إنَّها واحدة من أقوى الأوليمپ، وقادرةٌ على هذا، ومن ثمَّ تلحظ تيَّارات القوَّة وتتنصَّت على أسرارنا.

سرَت القشعريرة على عُنقي من الفكرة، وقلتُ: «أتظنُّها تتنصَّت علينا الآن؟».

ـ «لا تكوني حمقاء. إنَّها هنا من أجل الآلهة العُظمى. انظُري، مينوس قادم».

مينوس، ملك كريت وابن زوس وامرأةٍ فانية. يُسمَّى الذين على شاكلته أنصاف آلهة، هُم أنفُسهم فانون، لكنَّهم مبارَكون بنسبهم الربَّاني. ارتفعَ مينوس بقامته الفارعة فوق مستشاريه، شعره كثيف كدغلٍ متلبِّد وصدرُه عريضٌ كسطح سفينة. ذكَّرتني عيناه بأبهاء أبي المشيَّدة من السَّبج، للمعتهما القاتمة تحت تاجه الذَّهبي. ومع ذلك، حين وضعَ يده

على ذراع أختي الرَّقيقة بدا فجأةً مثل شجرةٍ في الشّتاء، شجرةٍ جرداء ذابلة. أظنُّ أنَّه أدركَ هذا فعبسَ، وهو ما جعل أختي تتألّق أكثر فأكثر. خطرَ لي أنَّها ستكون سعيدةً هنا، أو معزَّزةً مبجَّلةً، وعندها هذا وذاك سيَّان.

مال إيتيس على أُذني، وقال: «هناك، انظُري».

قالها مشيرًا إلى أحد الفانين، رجلٍ لم ألحظه من قبل، لا يلوح عليه الخنوع مثل الآخرين. كان شابًّا حليق الرَّأس على الطّراز المصري، يُلائِم جِلد وجهه خطوطه بارتياح. أعجبَني، فعيناه لم تكونا مغشيَّتيْن بالنَّبيذ كأعيُن البقيَّة كافَّة.

قال إيتيس: «بالطَّبع يُعجِبكِ. إنَّه دايدالوس، أحد عجائب عالم الفانين، حِرفي يُضاهي الآلهة في البراعة. حين أصبحُ ملكًا سأجمعُ حولي مثل هذه الأمجاد أيضًا».

ـ «أوه؟ ومتى ستُصبح ملكًا؟».

ـ «قريبًا. أبونا سيُعطيني مملكةً».

قلتُ حاسبةً إيَّاه يمزح: «وهل يُمكنني الإقامة هناك؟».

ـ «لا. إنَّها لي. عليكِ أن تَحصُلي على مملكتكِ الخاصَّة».

كان يدسُّ ذراعه في ذراعي كالمعتاد، لكنْ على حين غرَّةٍ اختلفَ كلُّ شيء، إذ خرجَت نبرته مستهترةً طليقةً، كأنَّنا مخلوقان مربوطان بحبليْن منفصليْن وليس بيننا رباطٌ واحد.

بصوتٍ مبحوح سألته: «متى؟».

ـ «بعد الزِّفاف. أبونا ينوي أن يأخذني مباشرةً».

قالها كأنَّ المسألة لا تُثير إلَّا النَّزر اليسير من الاهتمام، وشعرتُ كأنَّني أتحوَّلُ إلى حجر. تمسَّكتُ به، وبدأت أقول: «كيف أخفيت هذا عنِّي؟ لا يُمكنك أن تَترُكني. ماذا سأفعلُ؟ أنت لا تعلم كيف كان الوضع قبل...».

أزاحَ ذراعَي عن رقبته قائلًا: «لا داعي لهذا المشهد المسرحي. كنتِ تعلمين أن هذا سيَحدث. لا يُمكنني أن أقضي حياتي في التَّعفُّن تحت الأرض بلا شيءٍ لنفسي».

أردتُ أن أسأله: وماذا عنِّي؟ هل أتعفَّنُ أنا؟

لكنَّه التفتَ ليُكلِّم أحد أعمامي، وما إن دخل العروسان غُرفة نومهما حتى ركبَ عربة أبي، وفي دوَّامةٍ من الذَّهب رحلَ.

***

بعد أيَّامٍ قليلة غادرَ پرسيس، ولم يندهش أحد، فبالنِّسبة إليه أمسَت أبهاء أبي هذه خاليةً من دون أختي. قال إنَّه ذاهب إلى الشَّرق ليعيش بين الفُرس. وبحماقةٍ أضاف: «اسمهم مشابه لاسمي. سمعتُ أنَّهم يُربُّون مخلوقاتٍ تُسمَّى الشَّياطين، وأودُّ أن أرى أحدها».

عبسَ أبي الذي بدأ يقسو على پرسيس منذ سخرَ منه بسبب مينوس، وقال: «ولِمَ يحظون بشياطين أكثر منَّا؟».

لم يُكلِّف پرسيس نفسه عناء الرَّد. سيرحل من الطُّرق المائيَّة، ولن يحتاج إلى أبي لينقله.

كان آخِر ما قاله لي: **على الأقل لن أضطرَّ إلى سماع صوتكِ هذا ثانيةً.**

في غضون أيّامٍ معدودة تفكّكت حياتي كلُّها، وعدتُ طفلةً تنتظر، فيما يقود أبي عربته وتضطجع أمّي على ضفاف أنهار أوقيانوس. تمدَّدتُ في أبهائنا الخالية والوحدة تبري حلقي، ولمّا لم أستطع الاحتمال أكثر هربتُ إلى ساحلي وساحل أخي القديم المهجور، وهناك وجدتُ الأحجار التي مسَّتها أصابع إيتيس، ومشيتُ على الرّمال التي قلّبتها قدماه. بالطّبع لم يستطع المكوث. إنّه ابنٌ ربّاني لهيليوس، لامعٌ وضّاء، ذكيٌّ صادقُ القول، طامحٌ إلى ارتقاء عرشه الخاص. وأنا؟

تذكّرتُ عينيْه عندما ناشدته البقاء. كنتُ أعرفه حقَّ المعرفة، وبإمكاني قراءة ما فيهما إذ نظرَ إليّ. ليس سببًا جيّدًا بما فيه الكفاية.

جلستُ على الصُّخور، وفكّرتُ في القصص التي أعرفها عن الحوريّات اللاتي بكيْن حتى تحوّلن إلى حجرٍ وطيورٍ صائحة، إلى دوابٍّ عجماء وأشجارٍ رفيعةٍ أفكارُها مكبوتةٌ إلى الأبد. بدا لي أنَّ مجرَّد هذا ليس باستطاعتي، وانغلقَت حياتي عليَّ كالجُدران الجرانيت. فكّرتُ أنّه كان حريًّا بي أن أكلّم هؤلاء الفانين. كان يُمكنني أن أتسوّل زوجًا منهم. إنّني ابنة هيليوس، ولا شكَّ أنَّ أحد هؤلاء الرّجال البالين كان ليقبلني. أيُّ شيءٍ أفضل من هذا.

وعندئذٍ، رأيتُ القارب.

الفصل الرَّابع

كنتُ أعرفُ بوجود السُّفن من اللَّوحات، وسمعتُ عنها في القصص. ذهبيَّةٌ تلك السُّفن وضخمةٌ مثل اللِّوياثان[1]، وحواجزها منحوتة من العاج وقرون الحيوانات، وتجرُّها الدَّلافين المبتسمة، أو تُبحِر بها أطقُم من خمسين بِزيادةً سوداء الشَّعر فضّيَّة الوجه كنور القمر.

أمَّا هذا القارب فكانت صاريته رفيعةً كشجرةٍ صغيرة، وشراعه منحرفًا مهترئًا، وجوانبه مرقَّعةً. أذكرُ القفزة في حلقي عندما رفعَ البحَّار وجهه اللَّامع الذي لوَّحته الشَّمس. فانٍ.

كان الإنسان ينتشر في أنحاء العالم. سنوات مرَّت منذ وجدَ أخي قطعة الأرض المهجورة هذه لألعابنا. وقفتُ وراء بروزٍ في جُرفٍ، وشاهدتُ الرَّجل يُجذِّف متحاشيًا الصُّخور وساحبًا شباكه. لم يبدُ على الإطلاق

(1) اللِّوياثان: وحش بحري هائل يُصوَّر بجسم أفعواني، كما يكثُر استخدام الاسم في الإشارة إلى الحيتان الضَّخمة. (المترجم).

كنُبلاء بلاط مينوس المهندَمين، بشعره الأسود الطَّويل المتَّسخ المبتلّ برذاذ الموج، وثيابه الرثَّة وعُنقه المتقرِّح، وقد ظهرَت على ذراعيْه ندوب الجروح التي خلَّفتها حراشف السَّمك. ولم يتحرَّك برشاقةٍ وتناسُقٍ سماويَّيْن، بل بقوَّةٍ ونظافةٍ كبدن سفينةٍ حَسَنِ البناء وسط الأمواج.

سمعتُ نبضات قلبي العالية في أُذنَيّ، وثانيةً جالَت ببالي قصص الحوريَّات اللاتي ينتهكهنَّ الفانون ويمتهنونهنَّ. لكنَّ وجه هذا الرَّجل اتَّسم بنعومة الشَّباب، وبدَت اليدان اللَّتان تسحبان صيده من الماء سريعتيْن فقط، لا تنمَّان عن قسوة. على كلِّ حال، في السَّماء فوقي كان أبي الملقَّب بالحارس، وإذا تعرَّضتُ لخطرٍ فسيأتي.

عندها كان الرَّجل قد دنا من السَّاحل ويُحدِّق إلى الماء متتبِّعًا أسماكًا لا أراها.

أخذتُ نَفَسًا وتقدَّمتُ إلى الشَّاطئ قائلةً: «تحيَّة أيُّها الفاني».

تحسَّس شِباكه بارتباكٍ، لكنَّه لم يُسقِطها، وقال: «تحيَّة. مَن الربَّة التي أخاطبها؟».

كان صوته رقيقًا في مسامعي، حُلوًا كرياح الصَّيف.

أجبتُ: «سرسي».

ـ «آه». احتفظَ بتعبيرٍ محايدٍ حذرٍ على وجهه إذ قالها، وقد أخبرني بعد وقتٍ طويل بأنَّ السَّبب أنَّه لم يكن قد سمعَ عنِّي قبلها، وخشيَ أن يُسيء إليَّ. ركعَ على الألواح الخشبيَّة الخشنة قائلًا: «سيِّدتي المبجَّلة، هل أتعدَّى على مياهكِ؟».

ـ «لا. ليست لي مياه. أهذا قارب؟».

مرَّت على وجهه تعبيراتٌ لم أستطع قراءتها، وأجاب: «نعم».

ـ «أودُّ أن أبحر على متنه».

تردَّد، ثمَّ بدأ يُجذِّف مقتربًا أكثر من الشَّاطئ، لكنَّني لم أتعوَّد الانتظار. وهكذا خضتُ الأمواج نحوه ورفعتُ نفسي إلى متن القارب. شعرتُ بسخونة السَّطح عبر صندلي، وبالتَّموُّج الهادئ السَّار في حركته، كأنَّني أركبُ ثعبانًا.

قلتُ: «هلمَّ».

كم كنتُ متيبِّسةً وقد التحفتُ بكرامتي الربَّانيَّة التي لم أدرك وقتها أنَّها تكسوني، وكان هو أشدَّ تيبُّسًا. حين مسَّ كُمِّي كمَّه ارتجفَ، ومتى خاطبته اندفعَت نظراته بعيدًا عنِّي. وأدركتُ مصدومةً أنَّني أعرفُ مثل هذه الحركات، فقد مارستها ألف مرَّة... لأجل أبي، ولأجل جدِّي، ولأجل جميع الآلهة الأقوياء الذين مرُّوا مُسرعين على أيَّامي. سلسلة الخوف العظيمة.

قلتُ له: «أوه، لا، أنا لستُ من هذا النَّوع. إنَّني أكادُ لا أتمتَّعُ بأيِّ قوَّة، ولا أقدرُ على إيذائك. استرِح، كما كنت».

ـ «أشكركِ أيَّتها الربَّة الرَّؤوف». لكنَّه قالها بجفولٍ أضحكَني رغمًا عنِّي، فبدا أنَّ تلك الضَّحكة، أكثر من توكيدي، هي ما طمأنه بعض الشَّيء. تتابعَت اللَّحظات، وبدأنا نتكلَّم عن الأشياء المحيطة بنا، كالأسماك المتقافزة وطائرٍ ما ينخفض من فوقنا. سألته عن كيفيَّة صُنع شباكه، فأخبرني وقد تحمَّس للموضوع، لأنَّه يجتهد في العناية بها. عندما أخبرته باسم أبي، رفعَ عينيْه إلى الشَّمس مرتجفًا رجفةً أسوأ من قبل، إلَّا أنَّ النَّهار انتهى من دون أن تنزل به غضبةٌ ربَّانيَّة، وركعَ لي قائلًا إنَّ من المؤكَّد أنَّني باركتُ شباكه، لأنَّها لم تمتلئ هكذا من قبلُ قطُّ.

نظرتُ من أعلى إلى شعره الأسود الغزير المُلتمع في ضوء الغروب، وكتفيْه القويَّتيْن المحنيَّتيْن. هذا هو ما يتوق إليه كلُّ إلهٍ في أبهائنا، هذه العبادة المخلصة. فكَّرت أنَّه ربَّما لم يفعلها على نحوٍ صحيح، أو لم أفعلها أنا على الأرجح، إذ لم أرد إلَّا أن أرى وجهه ثانيةً.

قلتُ: «انهض. أرجوك، إنَّني لم أبارك شباكك، فلستُ أملكُ تلك القُدرة. أنا مولودة من النّيادات اللّاتي يَحكُمن المياه العذبة فقط، وحتى موهبتهنَّ الصَّغيرة تلك أفتقرُ إليها».

قال: «لكنْ هل تسمحين لي بالعودة؟ هل ستكونين هنا؟ إنَّني لم أعرف في حياتي كلِّها شيئًا مذهلًا مثلكِ».

لقد وقفتُ إلى جوار ضوء أبي، وحملتُ إيتيس بين ذراعَيَّ، وعلى فِراشي أكوام من الأغطية الصُّوف الثَّقيلة التي نسجَتها أيادٍ خالدة، لكنَّني لا أظنُّ أنَّني شعرتُ بالدِّفء قطُّ قبل تلك اللَّحظة.

أخبرته: «نعم، سأكونُ هنا».

اسمه جلاوكوس، وقد جاء ذات يوم، وجلبَ معه خبزًا ـ وهو ما لم أكن قد تذوَّقته قبلها، وجُبنةً ـ وهذه سبق لي تذوُّقها، وزيتونًا راقَتني مشاهدة أسنانه تقضمه. سألته عن أسرته، فأخبرني بأنَّ أباه عجوز ساخط، دائمًا مهتاج وقلِق بشأن الطَّعام؛ وأمَّه اعتادَت عمل وصفات العلاج بالأعشاب، لكنَّ الجهد الشَّديد كسرَها؛ وأخته أنجبَت خمسة أطفالٍ بالفعل، ودائمًا مريضة غاضبة. سيُطرَدون جميعًا من كوخهم إذا لم يقدروا على دفع الخراج الذي يُحصِّله سيِّدهم.

لم يَحدث قطُّ أن باحَ لي أحدهم بأسراره هكذا، وتشرَّبتُ كلَّ قصَّةٍ كما تمتصُّ الدوَّامة الأمواج، ولو أنَّني استوعبتُ بصعوبةٍ ما يَعْنيه

نصفُ تلك القصص، الفقر والكدح والخوف الإنساني. الشَّيء الوحيد الواضح كان وجه جلاوكوس، جبهته الجميلة وعيناه الجادَّتان المبتلَّتان قليلًا من حزنه، وإن لم تُفارِقهما الابتسامة متى نظرَ إليَّ.

أحببتُ مشاهدته يُزاوِل مهامَّه اليوميَّة، وكيف يفعل هذا بيدَيْه بدلًا من ومضة قوَّة؛ يرتق الشِّباك ويُنظِّف سطح القارب، ويضرب الصوَّان بالصوَّان مستولدًا الشَّرر. حين يُشعِل النَّار كان يبدأ باجتهادٍ بقطعٍ صغيرةٍ من الطُّحلب المجفَّف مصفوفةٍ بعناية، ثمَّ يرصُّ الغُصيْنات الصَّغيرة، ثمَّ الأكبر، بانيًا الهشيم إلى أعلى فأعلى. هذا الفنُّ أيضًا كنتُ أجهله، فالحطب لا يحتاج إلى جهدٍ من أبي ليُشعِله.

رآني أشاهده، وبخجلٍ فركَ يديه المتكلِّستيْن قائلًا: «أعلمُ أنَّني قبيحٌ في نظركِ».

أجبته في سريرتي بلا، بأنَّ أبهاء جدِّي ملأى بالحوريَّات المتألِّقات وآلهة الأنهار مفتولي العضلات، لكنَّني أوثرُ أن أنظر إليك أنت بدلًا من أيِّهم.

هززتُ رأسي نفيًا.

تنهَّد، وقال: «من الرَّائع حتمًا أن يكون المرء إلهًا ولا يحمل ندوبًا أبدًا».

- «ذات مرَّةٍ قال أخي إنَّه إحساسٌ كالماء».

تأمَّل قولي لحظةً، قبل أن يقول: «نعم، يُمكنني أن أتخيَّل ذلك. كأنَّكِ فائضة، ككوبٍ مملوء عن آخِره. أيُّ أخٍ هذا؟ لم تتحدَّثي عنه من قبل».

ـ «لقد رحل ليُصبح ملكًا في بلدٍ بعيد. اسمه إيبتيس». خلَّف نُطق الاسم شعورًا غريبًا على لساني بعد كلِّ هذا الوقت. «كنتُ لأذهب معه، لكنَّه رفضَ».

قال جلاوكوس: «يبدو أنَّه أحمق».

ـ «ماذا تعني؟».

رفعَ عينيْه إلى عينَيَّ مجيبًا: «أنتِ ربَّةٌ ذهبيَّةٌ جميلةٌ حنون. لو أنَّ لي أختًا مثلكِ لما تخلَّيتُ عنها أبدًا».

***

أحيانًا، كانت أذرُعنا تتلامَس وهو يعمل على حاجز المركب، ويتهدَّل فُستاني على قدميْه حين نجلس. كان ملمس بشرته دافئًا خشنًا بعض الشَّيء، وأحيانًا تعمَّدتُ أن أُسقط شيئًا كي يلتقطه وتلتقي يدانا.

في ذلك اليوم، ركعَ على الشَّاطئ يُشعِل نارًا ليطهو غداءه، المنظر الذي لم يزل من الأشياء التي أفضِّلُ مشاهدتها، معجزة الصوَّان والهشيم التي ظفرَ بها الفانون. انسدل شعره بجاذبيَّةٍ على عينيْه، وتوهَّج ضوء اللَّهب على وجنتيْه، ووجدتُ نفسي أفكِّرُ في عمِّي الذي وهبَ له هذه الهديَّة.

قلتُ: «لقد التقيته مرَّةً».

سألني جلاوكوس الذي وضعَ سمكةً على سيخٍ وبدأ يشويها: «مَن؟».

ـ «بروميثيوس. عندما عاقبَه زوس جلبتُ له رحيقًا».

رفعَ عينيْه مردِّدًا: «بروميثيوس».

لم يكن من عادته أن يكون بطيء الفهم هكذا. «نعم. حامل النَّار».

ـ «هذه القصَّة تعود إلى دستةٍ من الأجيال».

ـ «أكثر من دستة. انتبه إلى سمكتك». كان السَّيخ قد تدلَّى من يده، والسَّمكة تسودُّ على الفحم.

لكنَّه لم يُنقِذها، بل قال وناظراه مثبَّتان عليَّ: «لكنَّكِ في سنِّي».

خدعَه وجهي الذي يبدو شابًّا كوجهه.

ضاحكةً ردَدتُ: «لا، لستُ في سنِّك».

كان شبهَ مائلٍ باسترخاءٍ إلى الجانب ورُكبتاه تلمسان رُكبتَيَّ، وعلى إثر قولي انتفضَ معتدلًا، وانزاحَ عنِّي بسرعةٍ أشعرَتني بالبرد الذي خلَّفه في مكانه. فاجأَني تصرُّفه.

قلتُ: «تلك السَّنوات بلا قيمة. إنَّني لم أستغلَّها بأيِّ شكل. أنت تعرف قدر ما أعرفه عن العالم»، ومددتُ يدي إلى يده.

سحبَها بحدَّةٍ قائلًا: «كيف يُمكنكِ أن تقولي هذا؟ كم سنُّكِ؟ مئة عام؟ مئتان؟».

كدتُ أضحكُ ثانيةً، إلَّا أنَّني رأيتُ عُنقه متخشِّبًا وعينيْه متَّسعتيْن، فيما تصاعدَ الدُّخان من السَّمكة التي سقطَت في النَّار بيننا. لم أكن قد أخبرته إلَّا بالقليل جدًّا عن حياتي، فبِمَ أخبره؟ ليس هنالك غير القسوة نفسها والسُّخرية من وراء ظهري. في تلك الأيَّام، كانت أمِّي في حالةٍ استثنائيَّةٍ من المزاج العكِر، إذ بدأ أبي يُفضِّل لعب الدَّامة عليها، لتنصبَّ نقمتها عليَّ أنا، ومتى رأتني مطَّت شفتيْها ازدراءً. سرسي بليدة كالصَّخر. سرسي أغبى من أرضٍ جرداء. سرسي شعرها متلبِّد كشعر الكلاب. ليتني لا أسمعُ صوتها المكسور مرَّةً أخرى. من بين

أطفالي جميعًا لِمَ تبقَّت هي؟ لا أحد آخر يقبلها. إذا سمعَها أبي فإنَّه لم يُبدِ أمارةً على ذلك، واكتفى بتحريك فيشات لُعبته هنا وهناك. قديمًا، كنتُ لأنسلَّ إلى حُجرتي بوجنتيْن لطَّخهما الدَّمع، لكنْ منذ مجيء جلاوكوس صار كلُّ هذا مثل نحلٍ لا يلدغ.

قلتُ: «آسفة. كانت مجرَّد مزحةٍ سخيفة. إنَّني لم ألتقِه قطُّ، بل تمنَّيت هذا فقط. لا تخف، نحن في السِّنِّ نفسها».

بتؤدةٍ استرخى في جلسته، وأطلقَ زفيرًا قويًّا، ثمَّ قال: «هاه. أتتخيَّلين؟ إن كنتِ حيَّةً حقًّا آنذاك؟».

فرغَ من وجبته وألقى البقايا للنَّوارس، ثمَّ طاردَها لتدور مرتفعةً إلى السَّماء، قبل أن يلتفتَ إليَّ ثانيةً وعلى شفتيْه ابتسامةٌ عريضة، وقد حدَّدته الأمواج الفضِّيَّة وارتفعَت كتفاه تحت قميصه. بعدها، مهما شاهدته يُشعِل النَّار، لم آتِ على ذِكر عمِّي ثانيةً نهائيًّا.

***

ذات يومٍ، وصل قارب جلاوكوس متأخِّرًا. لم يرسُ به، بل وقفَ على سطحه بوجهٍ جامدٍ متجهِّم، ورأيتُ على خدِّه كدمةً داكنةً كالموج في العواصف. لقد ضربَه أبوه.

تسارعَت نبضات قلبي بشدَّة، وقلتُ: «أوه! يجب أن تستريح. اجلس معي وسأجلبُ لك ماءً».

قال بنبرةٍ حادَّة لم أسمعها في صوته من قبل: «لا، ليس اليوم وليس ثانيةً أبدًا. أبي يقول إنَّني أتسكَّعُ، وإنَّ صيدنا كلَّه قلَّ. سنموت جوعًا والغلطة غلطتي».

- «تعال اجلس، ودعني أساعدك».

- «لا يُمكنكِ أن تفعلي شيئًا. لقد قلتِ لي بنفسكِ إنَّكِ لا تتمتَّعين بأيّ قُوى».

شاهدته يُبحِر مبتعدًا، ثمَّ بانفعالٍ جائش درتُ وهرعتُ إلى قصر جدّي، وقطعتُ ممرَّاته المقنطرة إلى قاعة النّساء التي ترتفع فيها جلبة الكؤوس ووشائع الغزل وجلجلة الأساور على المعاصم. تجاوزتُ النّيادات، والنّريادات والدّريادات الزَّائرات، وتوجَّهتُ إلى الكُرسيّ المصنوع من خشب السّنديان فوق المنصَّة، حيث تجلس جدَّتي لتَحكُم.

تيثيس اسمها، راعيةُ مياه العالم العُظمى، المولودة مثل زوجها في فجر العصور من الأرض الأُم ذاتها. كانت جالسةً وعند قدميْها تتكوَّم حاشيةُ ردائها، وحول عُنقها تلتفُّ حيَّةُ ماءٍ كالوشاح، وأمامها نولٌ ذهبيٌّ يحمل ما تنسجه، وقد بدا وجهها عجوزًا ولكنْ ليس ذابلًا. من رحمها الفيَّاضة وُلدَت بناتٌ وأبناءٌ بلا عدد، ولم يزل أولادهم يُجلَبون إليها لينالوا بركتها. أنا نفسي ركعتُ لها مرَّةً، ومسَّت جبهتي بأناملها النَّاعمة. مرحبًا بكِ يا بنيَّتي.

والآن ركعتُ مجدَّدًا، وقلتُ: «أنا سرسي، ابنة پرسي. يجب أن تُساعِديني. ثمَّة فانٍ محتاجٌ إلى أسماكٍ من البحر. لا أستطيعُ أن أباركه، لكنَّكِ تستطيعين».

سألتني: «أهو نبيل؟».

- «في طبيعته. إنَّه فقير الممتلكات، لكنْ غني الرُّوح والشَّجاعة، ويلتمع كالنُّجوم».

ـ «وما الذي يُقدِّمه لكِ هذا الفاني في المقابل؟».

ـ «يُقدِّمه لي؟».

هزَّت رأسها قائلةً: «عزيزتي، يجب أن يُقدِّموا شيئًا دومًا، حتى إذا كان صغيرًا، حتى إذا كان القليل من النَّبيذ المصبوب في نبعكِ، وإلَّا لنسوا أن يمتنُّوا لكِ بعدها».

ـ «ليس عندي نبعٌ، ولستُ محتاجةً إلى أيِّ امتنان. أرجوكِ، إذا لم تُساعِديني فلن أراه ثانيةً أبدًا».

نظرَت إليَّ وتنهَّدت. مؤكَّدٌ أنَّها سمعَت مثل هذه التَّوسُّلات ألف مرَّة. هذا أحد الأشياء التي يشترك فيها الآلهة والفانون؛ في صِغرنا، نحسب أنفُسنا أوَّل من يَشعُر بكلِّ شعورٍ في العالم على الإطلاق.

ـ «سألبِّي رغبتكِ وأملأ شِباكه، لكنْ في المقابل دعيني أسمعكِ تُقسِمين أنَّكِ لن تنامي معه. أنتِ تعلمين أنَّ أباكِ ينوي تزويجكِ بأحدٍ أفضل من مجرَّد صبيٍّ صيَّاد».

قلتُ: «أقسمُ».

***

جاء ينزلق مُسرعًا على الموج ويُناديني، وتلاحقَت كلماتُه إذ أخبرني بأنَّه لم يضطرَّ إلى مجرَّد رمي الشَّبك، بل قفزَت الأسماك الكبيرة كالبقر إلى سطح قاربه من تلقاء نفسها. هكذا هدأ أبوه ودُفِعَ الخراج، وإضافةً إلى هذا تبقَّى رصيدٌ للعام التَّالي. ركعَ أمامي حانيًا رأسه، وقال: «شكرًا لكِ أيَّتها الربَّة».

جذبته ليقف قائلةً: «لا تركع لي. إنَّها قوَّة جدَّتي».

قال مُمسكًا يدَي: «لا، الفضلُ لكِ أنتِ. أنتِ التي أقنعتِها. سرسي أيَّتها المُعجزة، يا نعمة حياتي، لقد أنقذتِني»، ثمَّ ألصقَ خدَّيه الدَّافئين بيدَيَّ، ومسَّت شفتاه أصابعي، وأردفَ بحرارة: «ليتني كنتُ إلهًا لأشكركِ كما تستحقِّين».

تركتُ خُصلات شعره تنسدل حول معصمي، وتمنَّيتُ لو أنَّني ربَّة حقيقيَّة لأمنحه حيتانًا كاملةً على طبقٍ من ذهب، وعندها لن يَترُكني أبدًا.

كلَّ يومٍ جلسنا معًا نتكلَّم. كان مُفعمًا بالأحلام، يأمل حين يكبر أن يملك قاربه الخاصَّ وكوخه الخاصَّ بدلًا من كوخ أبيه. «وسأحتفظُ بنارٍ مشتعلة من أجلكِ على الدَّوام، إذا أذنتِ لي».

رددتُ: «أفضِّلُ أن تحتفظ بمقعدٍ لآتي وأتكلَّم معك».

تورَّد وجهه، وكذا وجهي. في ذلك الحين لم أكن أعرف إلَّا أقل القليل، لم أسترخِ قطُّ مع أولاد عمومتي وخُؤولتي ـ الآلهة عريضي المناكب والحوريَّات اللَّدنات ـ حين يتكلَّمون عن الحُبِّ، ولم أتسلَّل قطُّ مع خاطب وُدٍّ إلى رُكنٍ قصيٍّ، ولم أعرف مجرَّد ما يكفي لأن أعبِّر عمَّا أرغبُ فيه. إذا لمستُ يده، إذا ملتُ عليه ليُقبِّل شفتَيَّ، فما الذي سيَحدث؟

كان يُراقِبني بوجهٍ كالرَّمل، عليه مئة انطباع. «أبوكِ...». قالها متلعثمًا بعض الشَّيء، لأنَّ الكلام عن هيليوس يُوتِّره دائمًا. «هل سيختار لكِ زوجًا؟».

ـ «نعم».

ـ «من أيِّ نوع؟».

حسبتني سأجهشُ بالبكاء. أردتُ أن ألصق نفسي به وأقول إنَّني أتمنَّى لو يكون هو، لكنَّ قَسمي وقفَ بيننا. ولذا جعلتُ نفسي أقول الحقيقة، إنَّ أبي يسعى للأمراء، أو ربَّما لملكٍ إذا كان أجنبيًّا.

قال رامقًا يدَيْه: «بالطَّبع، بالطَّبع. أنتِ غالية عليه للغاية».

لم أصحِّح له قوله. ليلتها رجعتُ إلى أبهاء أبي وركعتُ عند قدميْه، وسألته إن كان مُمكنًا تحويل فانٍ إلى إله.

قطَّب هيليوس وجهه ناظرًا إلى رُقعة الدَّامة بضيق، وقال: «تعلمين أنَّ ذلك غير مُمكن ما لم يكن مقدَّرًا له بالفعل. حتى أنا لا أستطيعُ تغيير قوانين الأقدار».

لم أقل المزيد. كانت أفكاري تتداعى. إذا ظلَّ جلاوكوس فانيًا فسيتقدَّم في السِّنِّ، وإذا تقدَّم في السِّنِّ فسيموت، ويومًا ما على ذلك الشَّاطئ سآتي ولن يأتي. بروميثيوس أخبرني، لكنَّني لم أفهم. كم كنتُ حمقاء، كم كنتُ حمقاء غبيَّةً!

مذعورةً، هرعتُ عائدةً إلى جدَّتي.

قلتُ وأنا أكادُ أختنقُ: «ذلك الرَّجل سيموت».

مقعدها من السَّنديان المكسوّ بأنعم المنسوجات، والغزْل بين أصابعها أخضر كحجارة الأنهار. كانت تلفُّه على وشيعتها إذ قالت: «أوه يا حفيدتي، طبعًا سيموت. إنَّه فانٍ، وهذا نصيبهم».

قلتُ: «ليس هذا عدلًا. لا يُمكن أن يكون».

ردَّت جدَّتي: «هذا شيء وهذا شيء».

التفتَت النَّيادات البرَّاقات جميعًا عن كلامهنَّ للإصغاء إلينا، وواصلتُ أنا بإلحاح: «يجب أن تُساعِديني. أيَّتها الإلهة العظيمة، هلَّا تأخذينه إلى أبهائك وتجعلينه خالدًا؟».

ـ «لا إله يستطيع أن يفعل ذلك».

ـ «إنَّني أحبُّه. لا بُدَّ من وسيلة».

تنهَّدت قائلةً: «أتدرين كم حوريَّةً قبلكِ حملَت الأمل نفسه وخابَ أملها؟».

لم أبالِ بتلك الحوريَّات. إنَّهنَّ لسْنَ بنات هيليوس، ولم يتربَّينَ على قصص انكسار العالم. «أليست هناك... لستُ أعرفُ الكلمة. أداةٌ ما، صفقةٌ ما مع الأقدار، حيلةٌ ما، القليلُ من الفارماكا...».

الكلمة التي استخدمَها إيبتيس لمَّا تكلَّم عن الأعشاب ذات القُوى العجيبة، تلك التي نبتَت من دماء الآلهة السَّاقطة.

حلَّت حيَّة البحر الملتفَّة حول عُنقها نفسها، وراحت تُخرِج لسانًا أسود وتُدخِله من فمٍ كفتحة السِّهام. وبصوتٍ خفيضٍ غاضب، قالت جدَّتي: «أتجرئين على ذِكر هذا؟».

أدهشَني التَّبدُّل المباغت، وتساءلتُ: «ذِكر ماذا؟».

لكنَّها كانت تنهض ليتمدَّد ارتفاعها الكامل أمامي.

ـ «بنيَّتي، لقد فعلتُ من أجلكِ كلَّ ما يُمكن فِعله، وما من مزيد. اذهبي من هنا، ولا تدعيني أسمعكِ تتكلَّمين على ذلك الشَّر ثانيةً أبدًا».

كان رأسي يدور بعُنف، وفي فمي مذاقٌ لاذع كأنَّني شربتُ كأسًا من النَّبيذ الخام. مشيتُ عائدةً بين الأرائك والكراسي ومارَّةً بتنانير

النَّيادات المتهامسات المبتسمات تهكُّمًا. **تحسب لمجرَّد كونها ابنة الشَّمس أنَّها تستطيع اجتثاث العالم من جذوره لتُرضي نفسها.**

كنتُ أشدَّ هياجًا من أن أشعر بأيِّ خجل. صحيحٌ هذا. لم أكن لأجتثَّ العالم من جذوره فحسب، بل كنتُ لأمزِّقه، أحرقه، أقترف أيَّ شرٍّ بإمكاني في سبيل الاحتفاظ بجلاوكوس إلى جانبي. غير أنَّ أكثر ما بقيَ في ذهني هو النَّظرةُ على وجه جدَّتي عندما ذكرتُ كلمة الفارماكا. لم تكن نظرةً أعرفها جيِّدًا بين الآلهة، ولو أنَّني رأيتُ جلاوكوس عندما تكلَّم عن الخراج والشِّباك الخالية وأبيه. كنتُ قد بدأتُ أعرفُ ما هو الخوف. ما الذي يُخيف إلهًا؟ هذه الإجابة أيضًا عرفتها.

القوَّة الأعظم من قوَّته.

لقد تعلَّمتُ شيئًا من أمِّي رغم كلِّ شيء. عقصتُ شعري صانعةً حُليقاتٍ، وارتديتُ أفضل فساتيني، وانتعلتُ أفضل صنادلي، ثمَّ ذهبتُ إلى مأدبة أبي حيث يجتمع أعمامي جميعًا متَّكئين على أرائكهم الأرجوانيَّة، وصببتُ لهم النَّبيذ، وابتسمتُ في أعيُنهم، وطوَّقت بذراعَيَّ أعناقهم. خاطبتُ عمِّي پروتيوس الذي يلتصق لحم الفقمات بأسنانه. أنت شُجاع وقُدت جنودك ببسالةٍ في الحرب. هلَّا تحكي لي عن المعارك وأين دارَت؟ وماذا عنك يا عمِّي نيريوس؟ لقد كنت سيِّد البحار قبل أن يغتصبها منك الأوليمپي پوسايدون. إنِّني مشتاقةٌ إلى سماع مآثر نوعنا العظيمة. احكِ لي أين سقطَ أغزر الدِّماء.

استخلصتُ منهم تلك القصص، وعلمتُ أسماء البقاع الكثيرة التي بُذِرَت فيها دماء الآلهة وأين تقع، إلى أن سمعت أخيرًا عن بُقعةٍ لا تَبعُد كثيرًا عن شاطئ جلاوكوس.

الفصل الخامس

قلتُ له: «تعالَ». كنّا في منتصَف نهارٍ حار، وتحت أقدامنا تتفتّت التُّربة. «المكان قريبٌ للغاية، بُقعةٌ مثاليّة للنَّوم لتُريح عظامك المتعَبة».

تبعَني بتجهُّم، فدائمًا ما يتعكَّر مزاجه حين ترتفع الشَّمس في السَّماء، وقال: «لا أحبُّ الابتعاد كثيرًا عن قاربي».

ـ «سيكون قاربك في أمان، أعدُك. انظُر! لقد وصلنا. ألا تستحقُّ هذه الزُّهور المشوار؟ إنَّها جميلة، لونها أبهتُ درجةٍ من الأصفر، وشكلها كالأجراس».

حثثته على الجلوس بين الأزهار الكثيفة. كنتُ قد جلبتُ ماءً وسلَّة طعام، لأنَّني أعي وجود عين أبي فوقنا، وأردتُ أن يبدو المنظر كأنه نُزهة إذا حدثَ أن نظرَ ناحيتنا، فلم أكن متأكّدةً ممَّا أخبرَته به جدَّتي.

قدَّمتُ لجلاوكوس الطَّعام، وشاهدته يأكل متسائلةً كيف سيبدو وهو إله. بعد مسافةٍ قصيرة تنمو غابةٌ ظلالها كثيفة بما فيه الكفاية

لمواراتنا عن عين أبي، وعندما يتبدَّل جلاوكوس سأسحبه إلى هناك، وأريه أن قَسمي لم يَعُد يحول بيننا.

وضعتُ وسادةً على الأرض، وقلتُ: «استلقِ، نَم. ألن يكون لطيفًا أن تنام؟».

قال بتذمُّر: «عندي صُداع، والشَّمس في عينَيّ».

أزحتُ شعره وتحرَّكتُ لأحجب عنه الشَّمس، وعندها تنهَّد. لطالما كان متعَبًا، وخلال لحظةٍ بدأ جفناه يسترخيان على عينيْه.

حرَّكتُ الزُّهور بحيث تستنِد إلى جسده، وفكَّرتُ: الآن، الآن!

نامَ كما رأيته ينام مئة مرَّة. في تخيُّلاتي لهذه اللَّحظة بدَّلتْه الزُّهور بلمسة. وثبَت دماؤها الخالدة إلى داخل عروقه، ونهضَ إلهًا وأمسكَ يدَيَّ قائلًا: **الآن يُمكنني أن أشكركِ كما تستحقِّين.**

ثانيةً حرَّكتُ الزُّهور، وقطفتُ بعضها وأسقطته على صدره، ونفختُ فيها لتذرو أنفاسي عطرها ولقاحها فوقه، وهمستُ: «تبدَّل. يجب أن يُصبح إلهًا. تبدَّل».

نام، وارتخَت الزُّهور من حولنا ضعيفةً هشَّةً كأجنحة العُثّ، وداخل معدتي شعرتُ بخيطٍ سائلٍ من الحموضة. قلتُ لنفسي إنَّني ربَّما لم أعثر على الزُّهور الصَّحيحة. كان عليَّ أن آتي لأستطلع المكان أوَّلًا، لكنَّ حماستي غلبَتني. نهضتُ ومشيتُ على جانب التَّل باحثةً عن مجموعةٍ من الأزهار القرمزيَّة النَّيِّرة التي تنضح قوَّةً جليَّةً، غير أنَّني لم أجد إلَّا أزهارًا تقليديَّةً تنبت على أيِّ تل.

تهاويتُ باكيةً إلى جوار جلاوكوس. من شأن دموع أصحاب دماء النَّيادات أن تتدفَّق إلى ما لا نهاية، وقد حسبتُ أنَّني سأستغرقُ

أبديَّةً بأكملها لأعبِّر عن حسرتي. لقد فشلتُ. أخطأ إيتيس، وليست هناك أعشابٌ قوَّة، وسيضيع جلاوكوس منِّي إلى الأبد، وتطمس الأرض جَماله العذب الذَّاوي. بالأعلى، تحرَّك أبي في مساره، وتمايلَت تلك الزُّهور السَّخيفة النَّاعمة على سوقها. شعرتُ بأنِّي أكرهها، فقبضتُ على حفنةٍ منها واجتثثتها من جذورها، ومزَّقتُ البتلات، وكسَّرتُ السُّوق، والتصقَت الأشلاءُ الرَّطبة بيدَيَّ، وسال النُّسغُ على جِلدي، واخترقَت الرَّائحةُ البرِّيَّة الخام أنفي لاذعةً كالنَّبيذ القديم. مزَّقتُ حفنةً أخرى بيديْن لزجتيْن ساخنتيْن، وفي أُذنَيَّ ارتفع طنينٌ غامض كأنما ينبعث من خليَّة نحل.

من الصَّعب أن أصف ما حدثَ بعد ذلك. في أعماق دمي استيقظَت معرفةٌ ما، وهمسَتْ بأنَّ قوَّة هذه الزُّهور تَكمُن في نُسغها، الذي يستطيع تحويل أيِّ مخلوقٍ إلى الصُّورة الأصدق من نفسه.

لم أتوقَّف لأستفهم. كانت الشَّمس قد جاوزَت الأفق، وانفرجَت شفتا جلاوكوس وهو يَحلُم. رفعتُ حفنةً من الزُّهور فوقه واعتصرتها، ليسيل النُّسغ ويتجمَّع قطرةً لبنيَّةً تلو قطرةٍ لبنيَّة. تركته يَسقُط داخل فمه، وحطَّت حبَّةٌ شاردة على شفته فدفعتها على لسانه بإصبعي. سعلَ، وقلتُ له: «الصُّورة الأصدق من نفسك، فلتتحوَّل إليها».

قبعتُ بحفنةٍ أخرى جاهزة في يدي. كنتُ لأعتصر الحقل كلَّه داخل فمه لو لزمَ الأمر، لكنْ لحظة أن فكَّرتُ في هذا تحرَّك ظلٌّ على جِلده ليزداد قتامةً فيما أشاهدُ، يتجاوز البنِّيَّ، ثمَّ الأرجوانيَّ، ينتشر مثل الكدمة حتى اصطبغَ جسد جلاوكوس كلُّه بأعمق درجات الأزرق البحري. كانت يداه تتضخَّمان، وساقاه، وكتفاه، وبدأت تنبت من ذقنه

شُعيرات طويلة بخُضرة النُّحاس. وحيث تمزَّق قميصه رأيتُ قروحًا تتكوَّن على صدره، ولمَّا أمعنتُ النَّظر رأيتُ أنَّها محارات برنقيل.

همستُ: «جلاوكوس». أحسستُ بملمس ذراعه غريبًا تحت أصابعي، صُلبًا سميكًا باردًا بعض الشَّيء، وهززتها. «استيقِظ».

انفتحَت عيناه، وطوال المُدَّة التي يستغرقها نَفَسٌ واحد لم يتحرَّك، ثمَّ إنَّه هبَّ يقف شاهقًا كعاصفةٍ عارمة وقد أمسى الإله البحريَّ الذي كانه دومًا، وصاح: «سرسي، لقد تبدَّلتُ!».

***

لا وقت للذَّهاب إلى الغابة، لا وقت لأسحبه إليَّ فوق الطَّحالب. كان منفعلًا للغاية من جرَّاء قوَّته المستجدَّة، وينخر كالثَّور في هواء الرَّبيع. رفعَ يديْه قائلًا: «انظُري. لا جُلَب، لا ندوب. ولستُ متعَبًا. للمرَّة الأولى في حياتي لا أشعرُ بالتَّعب! يُمكنني أن أقطع المحيط كلَّه سباحةً. أريدُ أن أرى نفسي. كيف أبدو؟»

أجبته: «كإله».

أطبقَ على ذراعَيَّ ودوَّرني. تلتمع أسنانه البيضاء في وجهه الأزرق، ثمَّ توقَّف وقد بزغَ خاطرٌ جديد في خَلَده، وقال: «الآن أستطيعُ الذَّهاب معكِ، أستطيعُ الذَّهاب إلى أبهاء الآلهة. هلَّا تأخذينني؟».

لم يُمكنني الرَّفض، وذهبتُ به إلى جدَّتي. ارتجفَت يداي قليلًا، لكنَّ الأكاذيب كانت جاهزةً على شفتَيَّ. لقد غابَ في النَّوم في أحد المروج واستيقظَ بهذه الصُّورة. «ربَّما كانت رغبتي في تحويله إلى خالدٍ نوعًا من النُّبوءة. ليس هذا غريبًا على أولاد أبي».

لم تُصغِ إليَّ تقريبًا، ولم تشكَّ في شيء. لا أحد شكَّ فيَّ قطُّ.

صاحت محتضنةً إيَّاه: «أخونا، أجدد إخوتنا! هذا من صنيع الأقدار. مرحبًا بك هنا حتى تجد لنفسك قصرًا».

لا مزيد من التَّمشية على الشَّاطئ. في هذه الأبهاء قضيتُ كلَّ يومٍ مع جلاوكوس الإله. جلسنا على ضفاف نهر جدِّي الشَّفقي، وقدَّمته لجميع خالاتي وأعمامي وأولادهم ساردةً اسم حوريَّةٍ بعد حوريَّة، ولو أنَّني قبل تلك اللَّحظة كنتُ لأقول إنَّني أجهلُ أسماءهنَّ. من ناحيتهم، تزاحمَ الآخرون حوله يضجُّون بالسُّؤال عن قصَّة تحوُّله الإعجازي، ونسجَ هو خيوط الحكي ببراعة، من مزاجه المعتلِّ إلى النُّعاس الذي سقطَ عليه كالجُلمود، ثمَّ القوَّة التي رفعَته كقمم الأمواج ووهبَتها له الأقدار ذاتها. وكشفَ لهم جلاوكوس صدره الأزرق المفتول بالعضلات الإلهيَّة، ورفعَ يديْه الملساويْن كالصَّدف الذي نعَّمه زبدُ الموج، ليقول: «انظُروا كيف استحلتُ إلى نفسي!».

أحببتُ في تلك اللَّحظات وجهه المتوهِّج قوَّةً وفرحًا، وامتلأ قلبي بالسَّعادة كقلبه، ورغم أنَّني اشتقتُ إلى إخباره بأنَّني أنا التي أعطيته هذه الهديَّة، فقد رأيتُ كم سرَّه أن يعتقد أنَّ الفضل في ألوهيَّته يرجع له وحده، ولم أُرد أن أسلبه هذا. ظللتُ أحلمُ بالنَّوم معه في تلك الغابة المُظلمة، لكنَّني بدأتُ أفكِّرُ في ما بعد ذلك، وأقول لنفسي كلماتٍ جديدةً على غرار: زواج، زوج.

قلتُ له: «تعالَ. يجب أن تُقابِل أبي وجدِّي»، وبنفسي اخترتُ ثيابه بألوان تُبرِز بشرته لأفضل درجة. نبَّهته إلى المجاملات المتوقَّعة منه، ثمَّ لزمتُ الوقوف في الخلفيَّة وشاهدته يُقدِّمها. أبلى بلاءً حسنًا

وأثنيا عليه، وبعدها أخذاه إلى نيريوس، إله البحر الجبّار السّابق، الذي قدّمه بدوره لپوسايدون سيّده الجديد، ومعًا ساعداه على تشكيل قصره تحت الماء، وتزيينه بالذّهب وكنوز حُطام السّفن.

ذهبتُ إلى هناك كلَّ يوم، ومع أنَّ الملح لسعَ بشرتي، وأنَّ جلاوكوس كان غالبًا أشدَّ انشغالًا بضيوفه المعجبين من أن يمنحني أكثر من ابتسامةٍ عابرة، فإنّني لم أمانع. لدينا الوقتُ الآن، كلُّ ما سنحتاج إليه من وقت. استمتعتُ بالجلوس إلى تلك الموائد الفضّيّة، ومشاهدة تهافُت الحوريّات والآلهة على انتباهه. في السّابق، كانوا ليسخروا منه وينعتوه بباقر بطون الأسماك، والآن يتوسّلون إليه لكي يحكي لهم عن حياته حين كان فانيًا. ونمَت الحكايات في الحكي، فصارت أمُّه محنيَّة الظَّهر كالحيزبون، وباتَ أبوه يضربه كلَّ يوم، وشهقَ المستمعون وضغطوا أيدِيَهم على قلوبهم.

قال: «لا بأس. لقد أرسلتُ موجةً حطَّمت قارب أبي، وقتلَته الصَّدمة. أمّا أمّي فباركتها. إنَّ لديْها زوجًا جديدًا الآن، وأَمةً تُساعِدها على الغسل. لقد بنَت لي مذبحًا، والدُّخان يتصاعَد منه بالفعل، وأهل قريتي يأملون أن أمنحهم مدًّا مواتيًا».

- «وهل ستفعل؟». ضمَّت الحوريَّةُ التي تكلَّمت يدَيْها تحت ذقنها إذ ألقَت السُّؤال. كانت واحدةً من أعزِّ رفاق أختي وپرسيس، وجهها المستدير مطليٌّ بالخُبث اللّامع، لكنَّها تُخاطِب جلاوكوس الآن وقد تحوَّلت هي نفسها وأصبحتْ صريحةً ناضجةً كحبَّة كمَّثرى.

قال جلاوكوس: «سنرى ما يُقدّمونه لي». أحيانًا، عندما ينتابه السُّرور الشَّديد تتحوَّل قدماه إلى ذيلٍ متأرجح؛ وهكذا هما الآن،

وقد شاهدتُ ذيله هذا يكنس الأرض الرُّخام ملتمعًا بأشحب درجات الرَّمادي، وفي حراشفه المتشابكة ألوان قزحيَّة خافتة.

بعد ذهابهم، سألته: «هل ماتَ أبوك حقًّا؟».

أجاب وهو يُلمِّع رُمحًا ثلاثيًا جديدًا تلقَّاه هديَّةً من پوسايدون نفسه: «بالطَّبع. لقد استحقَّ هذا جزاءً لكُفرانه». خلال النَّهار، اعتادَ الاتِّكاء على الأرائك والشُّرب من كؤوسٍ بحجم رأسه، وكان يضحك مثل أعمامي بفمٍ مفتوح وصوتٍ هادر. لم يكن مجرَّد واحدٍ من سادة السَّراطين الضِّعاف، بل أحد آلهة البحر العظام، يستطيع استدعاء الحيتان بإشارةٍ إذا أرادَ، وإنقاذ السُّفن من الشِّعاب المرجانيَّة والمياه الضَّحلة، ورفع أطواف البحَّارة من الأمواج المغرِقة.

سألني: «تلك الحوريَّة مستديرة الوجه، الحوريَّة الجميلة، ما اسمها؟».

كنتُ شاردة الذِّهن، أتخيَّلُ كيف سيَطلُب يدي، وفكَّرتُ أنَّه سيفعلها على الشَّاطئ، على ذلك السَّاحل الذي أبصرَ فيه كلانا الآخر للمرَّة الأولى.

- «أتعني سكيلا؟».

قال: «نعم، سكيلا. إنَّها تتحرَّك كالماء، أليس كذلك؟ فضِّيَّةٌ كالغدير المتدفِّق»، وارتفعَ ناظراه ليثبتا على ناظرَيَّ، وأردفَ: «سرسي، إنَّني لم أشعر بهذه السَّعادة قطُّ».

رددتُ الابتسامة بالابتسامة، ولم أرَ إلَّا الفتى الذي أحببته يتألَّق أخيرًا. كلُّ تكريمٍ أغدقوا عليه به، كلُّ مذبحٍ بُنِيَ باسمه، كلُّ معجبٍ تهافتَ عليه، كلُّ هذا شعرتُ بأنَّه هديَّةٌ لي، لأنَّه لي.

***

بدأتُ أرى تلك الحوريَّة سكيلا في كلِّ مكان. هنا تضحك من دُعابةٍ ألقاها جلاوكوس، وهنا تمسُّ حلقها بيدها وتنفض شعرها. كانت رائعة الجَمال بالفعل، جوهرةً من جواهر أبهائنا. هامَ بها آلهة الأنهار والحوريَّات، وطابَ لها هي أن تُغذِّي آمالهم بنظرةٍ وتُحطِّمها بأخرى. إذا تحرَّكت صدرَت منها صلصلةٌ خفيفة من الألف هديَّة التي أصرُّوا على أن تقبلها منهم؛ أساور من المرجان ولآلئ معلَّقة من خيوطٍ حول عُنقها.

جلسَت إلى جواري، وأرَتني إيَّاها واحدةً واحدةً. وناظرةً بالكاد علَّقتُ: «جميلة». ومع ذلك، ها هي ذي تحضر المأدبة التَّالية وقد تضاعفَت حُليُّها مرَّتين وثلاثًا وأصبحَ وزنها يكفي لإغراق قارب صيد. الآن أحسبُ أنَّها اشتعلَت غضبًا بالتَّأكيد لاستغراقي وقتًا طويلًا حتى فهمتُ أخيرًا. فوقتها كانت تضع لآلئها الكبيرة كالتُّفَّاح أمام وجهي مباشرةً. «أليست أروعَ أعجوبةٍ رأيتِها على الإطلاق؟».

الحقيقة أنَّني بدأتُ أتساءلُ إن كانت واقعةً في حُبِّي. أجبتُ بخفوت: «إنَّها ممتازة».

وأخيرًا، وجدَت نفسها مضطرَّةً إلى اتِّخاذ القرار وقولها بلا مواربة.

- «جلاوكوس يقول إنَّه سيُفرغ البحر منها إذا سرَّني هذا!».

كنَّا في قاعة جلاوكوس، والبخور ثقيلًا في الهواء. جفلتُ قائلةً: «هذه من جلاوكوس؟».

يا للبهجة على وجهها! «كلُّها منه. أتعنين أنَّكِ لم تسمعي؟ حسبتكِ أوَّل مَن يعلم بما أنَّكما مقرَّبان للغاية، ولكنْ قد لا تكونين صديقته لتلك الدَّرجة كما تحسبين؟». انتظرَت مراقبةً إيَّاي، وكنتُ

أعي الوجوه الأخرى النَّاظرة إلينا بحماسةٍ وانبهار. في أبهائنا، مثل هذه الشِّجارات أثمن من الذَّهب.

قالت مبتسمةً: «جلاوكوس طلبَ منِّي الزَّواج. لم أقرِّر الجواب بعدُ. بِمَ تُشيرين عليَّ يا سرسي؟ هل أقبله ببشرته الزَّرقاء وزعانفه وما إلى ذلك؟».

ضحكَت النِّيادات كألف نافورة يتناثَر منها الماء، وفررتُ من المكان كي لا ترى سكيلا دموعي فتتزيَّن بها كواحدةٍ أخرى من غنائمها.

* * *

كان أبي مع عمِّي النَّهري أكيلوس. ولمَّا قاطعتهما، عبسَ قائلًا: «ماذا؟».

ـ «أريدُ أن أتزوَّج جلاوكوس. هل ستسمح بهذا؟».

ضحكَ وقال: «جلاوكوس؟ إنَّه يستطيع اختيار مَن يشاء. لا أظنُّها ستكون أنتِ».

اجتاحَتني صدمة. لم أتوقَّف لأمشِّط شعري أو أبدِّل فُستاني، فكلُّ لحظةٍ كانت بمثابة قطرةٍ أفقدها من دمي. هرعتُ إلى قصر جلاوكوس، وحين وجدتُ أنَّه غائب في قصر إلهٍ آخر، طفقتُ أنتظرُ مرتجفةً وسط كؤوسه المقلوبة والوسائد المشبَّعة بالنَّبيذ المسكوب في مأدبته الأخيرة.

وصلَ أخيرًا، وبتلويحةٍ خفيفة من يده زالَت الفوضى وعادَت الأرضيَّات تَبرُق. عندما رآني قال: «سرسي»، بهذه البساطة، كأن تقول أنت: قدم.

ـ «أتنوي الزَّواج بسكيلا؟».

شاهدتُ الضَّوء يترقرق على وجهه، إذ قال: «أليست أكمل مخلوقةٍ رأيتِها على الإطلاق؟ كاحلاها صغيران ورقيقان للغاية، كأحلى ظبيةٍ في الغابة. آلهة الأنهار غاضبون لأنَّها تُفضِّلني، وسمعتُ أن أبولو نفسه غيران».

لحظتها ندمتُ لأنّي لم أستعمل حِيَل الشَّعر والأعيُن والشِّفاه إيَّاها التي يُمارِسها نوعنا كلُّه، وقلتُ: «جلاوكوس، إنَّها جميلة، نعم، لكنَّها لا تستحقُّك. إنَّها قاسية، ولا تحبُّك كما ينبغي أن تُحَبَّ».

ـ «ماذا تعنين؟».

كان يَرمُقني مقطِّبًا وجهه، كأنَّني شخصٌ لا يستطيع تذكُّره بالضَّبط. حاولتُ التَّفكير في ما كانت أختي لتفعله، وتقدَّمتُ منه، وداعبتُ ذراعيْه بأصابعي.

ـ «أعني أنَّني أعرفُ واحدةً ستحبُّك أكثر».

تساءلَ: «مَن؟»، وإن رأيتُ عليه بدايات الاستيعاب. ثمَّ ارتفعَت يداه كأنَّما تصدَّانني، هو الإله الشَّاهق، وقال: «كنتِ لي أختًا».

قلتُ: «أريدُ أن أكون أكثر، أريدُ أن أكون كلَّ شيء»، وألصقتُ شفتَي بشفتيْه.

دفعَني بعيدًا عنه وقد انقبضَ وجهه في تعبيرٍ انقسمَ بين الغضب وشيءٍ من الخوف، وبدا أشبه بنفسه القديمة.

تابعتُ: «لقد أحببتك منذ رأيتك مبحرًا أوَّل مرَّة. سكيلا تضحك من زعانفك ولحيتك الخضراء، لكنَّني تعلَّقتُ بك منذ كانت أحشاء

السَّمك تُلطِّخ يديك، والدُّموع تُغطِّي وجهك من قسوة أبيك. لقد ساعدتك عندما...».

قاطعَني شاقًّا الهواء بيده: «لا! لن أفكِّر في تلك الأيَّام. كلَّ ساعةٍ تظهر عليَّ كدمةٌ جديدة، يُصيبني ألمٌ جديد، دائمًا متعَبٌ، دائمًا ضعيفٌ مثقَلٌ بالهموم. إنَّني أحضرُ مجالس أبيكِ الآن، وليس عليَّ أن أتوسَّل كلَّ كِسرة خُبز. الحوريَّات متيَّمات بي، ولي أن أختار أفضلهنَّ، ألا وهي سكيلا».

أصابَتني الكلمات كالحجارة، لكنَّني لم أكن لأتخلَّى عنه بهذه السُّهولة.

قلتُ: «يُمكنني أن أكون الأفضل لك، يُمكنني أن أسعِدك، أقسمُ لك. لن تجد واحدةً أشدَّ منِّي إخلاصًا. سأفعلُ أيَّ شيء».

أظنُّ حقًّا أنَّه أحبَّني قليلًا، فقبل أن أتلفَّظ بما في قلبي من ألف شيءٍ مُهين، بكلِّ براهين العاطفة التي اكتنزتها، بتعبيراتي المنسحِقة عن الولاء، شعرتُ بقوَّته تجترفني، وبالتَّلويحة الخفيفة نفسها التي استخدمَها مع الوسائد أعادَني إلى مسكني.

استلقيتُ على التُّراب أبكي. تلك الزُّهور جعلته كينونته الحقَّة، كينونةً زرقاءَ ذات زعانف، وليست لي. حسبتُني سأموتُ من الألم الذي لم يكن كالخَدَر القابض على الأنفاس الذي خلَّفه غياب إيتيس، بل كان قويًّا ماضيًا كنصلٍ يشقُّ صدري. لكنَّ الموت ليس باستطاعتي بالطَّبع، وعليَّ أن أعيش من لحظةٍ لاهبة إلى التَّالية. هذا هو الحُزن الذي يجعل نوعنا يختار التَّحوُّل إلى حجرٍ وشجرٍ بدلًا من اللَّحم.

سكيلا الجميلة، سكيلا الظَّبية النيِّقة، سكيلا بقلبها الأفعواني. لِمَ فعلَتْ هذا؟ ليس الحُبُّ السَّبب، فقد رأيتُ الاستهزاء في عينيْها حين

ذكرَتْ زعانفه. ربَّما لأنَّها أحبَّت أختي وأخي اللذيْن تعوَّدا ازدرائي، أو ربَّما لأنَّ أباها مجرَّد نهرٍ نكرة، وأمَّها حوريَّة بحرٍ لها وجهٌ كسمكة القرش، فطابَت لها فكرةُ أن تسلب ابنة الشَّمس شيئًا.

لم يهمَّ السَّبب. كلُّ ما عَلِمته يقينًا أنَّني أكرهها. كنتُ مثل أيِّ كائنٍ أبلهَ آخر أحبَّ أحدًا يحبُّ أحدًا غيره، وفكَّرتُ أنَّها إذا اختفَت فسيتغيَّر كلُّ شيء.

غادرتُ أبهاء أبي في الوقت الواقع بين مغيب الشَّمس وطلوع عمَّتي الشَّاحبة، ولم يكن هناك أحدٌ يراني. جمعتُ زهور الكينونة الحقَّة إيَّاها، وأخذتها إلى الخليج الصَّغير الذي يُقال إنَّ سكيلا تتحمَّم فيه يوميًّا، وهناك كسَّرتُ السُّوق، وأفرغتُ النُّسغ الأبيض في الماء قطرةً قطرةً. لن تستطيع إخفاء خُبثها الثُّعبانيّ ثانيةً أبدًا، وسيُفصِح قُبحها كلُّه عن نفسه. سيَغلُظ حاجباها، ويبهت شعرها، ويستطيل أنفها وينتفخ. ستُردِّد جُدران الأبهاء أصداء صرخاتها الثَّائرة، وتأتي الآلهة العُظمى لتجلدني بالسِّياط، لكنَّني سأرحِّب بها، فكلُّ ضربةٍ على جِلدي ستكون دليلًا آخر لجلاوكوس على حُبِّي.

الفصل السّادس

لم تأتِني إرينيّات ليلتها، ولا في الصّباح التّالي كذلك أو طيلة الأصيل، وعند الغسق ذهبتُ إلى أمّي عند مرآتها.

ـ «أين أبي؟».

أجابت: «ذهبَ إلى أوقيانوس مباشرةً. المأدبة هناك»، وتقلّص أنفها وبرزَ لسانها الورديُّ من بين شفتيْها، وقالت: «قدماكِ متّسختان. ألا يُمكنكِ أن تغسليهما على الأقل؟».

لم أغسلهما، فلم أُرد الانتظار لحظةً أخرى. ماذا لو أن سكيلا في المأدبة، مضطجعة في حجر جلاوكوس؟ ماذا لو أنّهما تزوّجا بالفعل؟ ماذا لو أنَّ النّسغ لم يُؤتِ مفعولًا؟

غريبٌ الآن أن أتذكّر مبلغ قلقي من ذلك!

وجدتُ الأبهاء أشدَّ ازدحامًا من المعتاد، تخنق هواءها رائحةُ زيت الورد الذي تصرُّ كلُّ حوريّةٍ على أنّه سحرها المميّز. لم أرَ أبي،

لكنَّ عمَّتي سيلين كانت هناك، واقفةً في مركز كُتلةٍ من الوجوه المرفوعة إليها، وتبدو كأُمٍّ وسط طيورها الصَّغيرة، تنتظر أن يكتظَّ المكانُ بالمحيطين بها.

ـ «يجب أن تفهموا، إنّني لم أذهب لأنظر إلّا لأنَّ المياه كانت فائرةً. حسبتُ أنّه قد يكون... لقاءً ما. أنتم تعرفون سكيلا».

شعرتُ بالأنفاس تنكتِم في صدري. كان أولاد عمومتي وخؤولتي يُطلِقون ضحكاتٍ مكبوتةً ويَرمُق بعضهم بعضًا بنظراتٍ وقحة، وفكَّرتُ أنَّ عليَّ ألّا أُبدي شيئًا مهما جرى.

ـ «لكنَّها كانت تنتفض وتُلوّح بطريقةٍ غريبة جدًّا، كأنَّها قطّةٌ تغرق، ثمَّ... لا يُمكنني أن أقولها».

ووضعَت يدها الفضّيّة على ثغرها. حركة جميلة. كلُّ ما في عمَّتي جميل. زوجها راعٍ وسيمٌ مسحورٌ بنومةٍ لا يتقدَّم فيها في السِّن، ويَحلُم بها إلى الأبد.

ثمَّ إنَّها تابعَت: «ساق، ساق شنيعة، مثل ساق الحبّار، بلا عظمٍ ومغطّاةً بمادَّةٍ لزجة، انبثقَت من بطنها، وانبثقَت أخرى إلى جوارها، وأخرى وأخرى، حتى أصبحت هناك اثنتا عشرة ساقًا تتدلّى منها».

أحسستُ بوخزٍ خفيفٍ في أناملي حيث سال النُّسغ.

قالت سيلين: «وهذه هي البداية فحسب. كانت تتقافَز في الهواء بظهرٍ مقوَّسٍ وكتفيْن تتلوَّيان، وتحوَّل لونُ بشرتها إلى الرَّمادي وبدأ عُنقها يتمدَّد، ومنه تفجَّرت خمسة رؤوسٍ أخرى، لكلٍّ منها فاه مفغورٌ مليءٌ بالأسنان».

شهقَ أولاد عمومتي وخؤولتي، لكنَّ الصَّوت كان بعيدًا كالموج في بُقعةٍ نائية. شعرتُ بأنَّ تصوُّر الرُّعب الذي وصفَته سيلين مستحيل، ولأجعل نفسي تُصدِّق، قلتُ لها: **أنا فعلتُ ذلك.**

ـ «وطوال الوقت كانت تَصرُخ وتعوي، تنبح كقطيعٍ من الكلاب البرّيَّة. حين غاصَت تحت الأمواج أخيرًا، تنفَّستُ الصُّعداء».

بينما اعتصرتُ تلك الزُّهور البرّيَّة في خليج سكيلا، لم أتساءَل عن استقبال أولاد عمومتي وخؤولتي الأمرَ، هؤلاء الذين كانوا أخوات سكيلا وخالاتها وإخوتها وعُشَّاقها. لو فكَّرتُ في الأمر وقتها لقلتُ إنَّ سكيلا محبوبتهم، وإنَّ تهليلهم سيطغى على الجميع لمرأى دمي حين تأتيني الإرينيَّات، لكن الآن وقد تطلَّعتُ حولي لم أرَ إلَّا وجوهًا بارقةً كالنِّصال المسنونة. تمسَّك بعضهم ببعض، وبتبجُّحٍ قالوا: ليتني رأيتُ **المنظر! أتتخيَّلون؟**

صاح أحد أعمامي: «احكي القصَّة ثانيةً»، وهتفَ أولاد العمومة والخؤولة مؤيِّدين.

ابتسمَتْ عمَّتي لتصنع شفتاها المقوَّستان هلالًا يُشبِهها وهي في السَّماء، ثمَّ أعادَت حكي القصَّة: السِّيقان، والأعناق، والأسنان.

وارتفعَت أصواتهم حتى بلغَت السَّقف.

تعرفون أنَّها عاشرَت نصف سُكَّان الأبهاء.

أنا سعيد لأنَّني لم أتركها تحظى بي قطُّ.

وعلا صوت أحد آلهة الأنهار فوق الجميع قائلًا: **بالطَّبع تنبح. لطالما كانت كلبةً!**

خمشَ الضَّحكُ الصَّارخ أُذنَيَّ. رأيتُ إله أنهارٍ أقسمَ على قتال جلاوكوس من أجلها يصيح جذلًا، وتظاهرَت أخت سكيلا بالنُّباح كالكلاب. جدَّاي أنفُسهما اقترَبا ليسمعا مبتسميْن عند حافة الزِّحام، وقال أوقيانوس شيئًا لتيثيس في أُذنها، شيئًا لم أسمعه، لكنَّني قضيتُ نصف دهرٍ في مراقبته، وأعرفُ حركة شفتيْه. **فلتذهب في داهية.**

إلى جواري زعقَ أحد الأعمام: **احكي القصَّة ثانيةً!** لكنَّ عمَّتي اكتفَت هذه المرَّة بتدوير عينيْها اللُّؤلؤيَّتيْن استهجانًا. كانت رائحة عمِّي هذا كالحبَّار. وعلى كلِّ حالٍ حانَ وقت المأدبة. اندفعَ الآلهة إلى أرائكهم، وصُبَّت الكؤوس وتُنوقِلَت الأمبروزيا[1]. احمرَّت شفاههم من النَّبيذ، والتمعَت وجوههم كالجواهر، ودوَّى ضحكهم من حولي.

فكَّرتُ أنَّني أعرفُ هذه النَّشوة الكهربيَّة، أنَّني رأيتها قبل ذلك في قاعةٍ معتمة أخرى.

انفتحَ البابِ ودخل جلاوكوس حاملًا رُمحه. رأيتُ شعره الأخضر أينع من أيِّ وقتٍ مضى، ومنفوشًا كلبدة الأسد، ورأيتُ السُّرور يثب إلى أعيُن بنات خالاتي، وسمعتُ هسهسة إثارتهنَّ. المزيد من التَّسلية. سيحكين له عن تحوُّل حبيبته، يكسرن صلابة وجهه كالبيضة ويضحكن ممَّا يسيل منه.

ولكنْ قبل أن يتمكنَّ من قول شيء، إذا بأبي هناك يتقدَّم بخُطى حثيثة ليسحبه جانبًا.

تراجعن متبرِّمات. هيليوس هادم الملذَّات أفسدَ عليهنَّ المتعة. لا يهمُّ، فستستخلص پرسي ـ أو سيلين ـ الحكاية منه لاحقًا. هكذا رفعن كؤوسهنَّ ورجعنَ إلى لهوهنَّ.

---

(1) الأمبروزيا: طعام الآلهة. (المترجم).

ذهبتُ في أعقاب جلاوكوس، ولا أدري بم أفسّرُ جرأتي إلَّا بأنَّ عقلي كان مفعمًا بغرين رماديٍّ كما في زبد الموج. وقفتُ خارج الحُجرة التي أخذَه إليها أبي، وسمعتُ جلاوكوس يقول بصوتٍ خفيض: «ألا يُمكن تبديلها من جديد؟».

منذ المهد يعرف مواليد الآلهة جميعًا الجواب. قال أبي: «لا. لا إله يستطيع أن يعكس ما تفعله الأقدار أو إله آخر. لكن في هذه الأبهاء ألف حسناء، كلٌّ منهنَّ تُنافِس الأخرى في النَّضارة. ابحث بينهنَّ بدلًا منها».

انتظرتُ، فلم أزل آملُ أن يُفكِّر جلاوكوس فيَّ. كنتُ لأتزوَّجه في لحظة. على أنَّني وجدتُ نفسي آملُ شيئًا آخر أيضًا، وهو ما لم أكن لأصدِّقه قبل يومٍ واحد؛ أن يذرف كلَّ ما في عروقه من ملحٍ من أجل عودة سكيلا، أن يتمسَّك بها باعتبارها حبيبته الحقيقيَّة الوحيدة.

قال جلاوكوس: «مفهوم. مؤسفٌ هذا، لكنَّ هنالك أخرياتٍ كما قلت»، وارتفعَ رنينٌ معدنيٌّ ناعمٌ من مداعبته شُعب رُمحه، وأضاف: «بنت نيريوس الصُّغرى حسناء. ما اسمها؟ ثيتيس؟».

طقطقَ أبي بلسانه قائلًا: «مالحةٌ أكثر من اللَّازم في رأيي».

ـ «حسن، شكرًا على نصيحتك الممتازة. سآخذها بعيْن الاعتبار».

مرَّا بي مباشرةً في طريق الخروج، واحتلَّ أبي موضعه الذَّهبي إلى جوار جدِّي، فيما شقَّ جلاوكوس طريقه إلى الأرائك الأرجوانيَّة، ورفعَ بصره مع قول أحد آلهة الأنهار شيئًا وضحكَ. هذه ذكراي الأخيرة عن وجهه، أسنانه اللَّامعة كاللُّؤلؤ في ضوء المشاعل، وبشرته المصبوغة بالزُّرقة.

في الأعوام التَّالية، سيأخذ بنصيحة أبي بالفعل، وينام مع ألف حوريَّةٍ منجبًا أولادًا بشعرٍ أخضرَ وذيول، يحبُّهم الصيَّادون حُبًّا جمًّا لأنَّهم كثيرًا ما يملأون شِباكهم بالصَّيد. أحيانًا سأراهم يلهون كالدَّلافين في أعمق ذُرى الأمواج، ولن يأتوا إلى شاطئي أبدًا.

* * *

تدفَّق النَّهرُ الأسود بين ضفافه، وتمايلَت الزُّهور الشَّاحبة على سوقها، وكنتُ معميَّةً عن العالم بأسره، شيئًا فشيئًا تتساقَط آمالي. لن أتقاسم الأبديَّة مع جلاوكوس، لن نتزوَّج، لن ننام معًا في تلك الغابة أبدًا، غرقَ حُبُّه لي وزالَ.

سرَت الحوريَّات والآلهة مرورًا بي، يحمل الهواءُ العطِر المضاءُ بالمشاعل نميمتهم، وقد ظلَّت وجوههم كما هي دومًا، مشرقةً مفعمةً بالحيويَّة، وإن بدَت غريبةً فجأةً. على خيوطها تُطَقطِق حُليُّهم كمناقير الطُّيور، وعلى وسعها تنفتح أفواههم الحمراء مطلقةً الضّحكات، وفي مكانٍ ما ضحكَ جلاوكوس معهم، لكنَّني لم أستطع تمييز صوته في الزِّحام.

ما من داعٍ لأن يكون الآلهة كلُّهم سواءً.

بدأتُ أحسُّ بحَرَقان في وجهي، ليس ألمًا بالضَّبط، بل وخزٌ استمرَّ واستمرَّ. وضعتُ أصابعي على وجنتَيّ. كم مرَّ من الوقت منذ فكَّرتُ في پروميثيوس؟ والآن ارتفعَ طيفه أمامي بظهره الممزَّق وملامحه الثَّابتة وعينيْه الدَّاكنتيْن اللتيْن تحتويان كلَّ شيء.

لم يَصرُخ پروميثيوس إذ هوَت عليه الضَّربات، ولو أنَّ الدَّم لطَّخه عن آخِره حتى بدا كتمثالٍ غُمِسَ في الذَّهب.

وطوال الوقت، تفرَّج الآلهة بانتباهٍ ساطع كالبرق. كان ليطيب لهم أن يأخذوا دورًا في الضَّرب بكرباج الإرينيَّة لو نالوا الفُرصة.

وأنا لستُ مثلهم.

ألستِ مثلهم حقًّا؟ صوت عمّي الرنَّان العميق. عليكِ إذن أن تُفكِّري يا سرسي. ما الذي ما كانوا ليفعلوه؟

***

كان مقعد أبي مكسوًّا بجلود حملانٍ حالكةِ السَّواد، وعند أعناقها المتدلِّية ركعتُ.

ـ «أبي، أنا مَن حوَّل سكيلا إلى وحش».

في كلِّ اتِّجاهٍ حولي سكنَت الأصوات. لا أدري إن كان المضطجعون على أبعد الأرائك قد نظروا، أو إن كان جلاوكوس قد نظرَ، لكنَّ أعمامي جميعهم التفتوا بحدَّةٍ عن محادثاتهم النَّاعسة. شعرتُ بسرورٍ حاد. للمرَّة الأولى في حياتي أردتُ نظراتهم.

ـ «لقد استخدمتُ فارماكا شرِّيرةً لأجعل جلاوكوس إلهًا، ثمَّ بدَّلتُ سكيلا. كنتُ أشعرُ بالغيرة من حُبِّه لها، وأردتُ أن أجعلها قبيحةً. فعلتُ هذا بأنانيةٍ وقلبٍ ناقم، وأريدُ أن أتحمَّل العواقب».

ردَّد أبي: «فارماكا».

ـ «نعم، الزُّهور القرمزيَّة التي نمَت من دم كرونوس المُراق، وتُحيل الكائنات إلى أصدق صُورٍ من أنفُسها. قطفتُ مئة زهرةٍ وألقيتها في بِركتها».

توقَّعتُ أن يُطلَب سوْطٌ أو تُستدعى إرينيَّة، توقَّعتُ موضعًا أكبَّلُ فيه بالسَّلاسل إلى جوار عمّي على صخرته، إلَّا أنَّ أبي لم يفعل إلَّا مَلء

كأسه قائلًا: «لا يهمُّ. تلك الزُّهور لم تَعُد فيها قوَّة. زوس وأنا حرصنا على هذا».

قلتُ محدِّقةً إليه: «أبي، لقد فعلتها، بيدَيَّ هاتيْن كسَرتُ الشوق ولطَّختُ شفتَيْ جلاوكوس بالنُّسغ، وتبدَّل».

ـ «بل راودكِ هاجس، وهو شيءٌ شائع بين أولادي». تكلَّم بصوتٍ متَّزنٍ صُلبٍ كحائطٍ حجريٍّ. «كان قدر جلاوكوس أن يتبدَّل في تلك اللَّحظة. الأعشاب لم تفعل شيئًا».

حاولتُ أن أعترض، لكنَّه لم يتوقَّف، وارتفعَ صوته ليطغى على صوتي.

ـ «فكِّري يا ابنتي. لو أنَّ تحويل الفانين إلى آلهةٍ بهذه السُّهولة مُمكنٌ، أما كانت كلُّ ربَّةٍ لتُطعِم تلك الأعشابَ لإنسانها المفضَّل؟ أما كان نصف الحوريَّات ليتحوَّل إلى وحوش؟ لستِ أوَّلَ فتاةٍ غيرانة في هذه الأبهاء».

بدأ أعمامي يبتسمون.

ـ «أنا الوحيدة التي تعرف مكان الزُّهور».

قال عمِّي پروتيوس: «لستِ كذلك بالطَّبع. لقد نلتِ هذه المعرفة منِّي. أتظنِّينني كنتُ لأعطيكِ إيَّاها لو حسبتكِ قادرةً على أيِّ أذى؟».

أضاف نيريوس: «ولو أنَّ تلك النَّباتات تتمتَّع بمثل هذه القوَّة لتبدَّلت أسماكي في خليج سكيلا، لكنَّها سليمة كاملة».

احتقنَ وجهي، ودفعتُ يد نيريوس المغطَّاة بطحالب البحر قائلةً: «لا، لقد بدَّلتُ سكيلا، والآن يجب أن أتلقَّى العقاب».

شقّت الكلمات الهواء: «ابنتي، بدأتِ تجعلين نفسكِ فُرجةً. لو أنَّ في العالم القوَّة التي تَزعُمين، أتظنّين أنَّ واحدةً مثلكِ كانت لتكتشفها؟».

ضحكٌ خفيفٌ من وراء ظهري، واستمتاعٌ صريحٌ على وجوه أعمامي، لكنَّ الأقسى صوت أبي الذي لفظَ عبارته هذه كأنّه يتخلّص من قُمامة. واحدة مثلكِ. في أيِّ يومٍ آخر طيلة سِني حياتي كنتُ لأتكوَّر على نفسي وأبكي، لكنْ في ذلك اليوم تحديدًا سقط ازدراؤه عليَّ كشرارةٍ على هشيمٍ جاف.

انفتحَ فمي، وقلتُ: «أنت مُخطئ».

كان قد مال بعيدًا ليُلقي بملاحظةٍ ما لجدّي، والآن دارَت نظرته لتقع عليَّ، وبدأ وجهه يتوهَّج إذ سأل: «ماذا قلتِ؟».

ـ «أقول إنَّ لتلك النَّباتات قوَّةً».

اشتعل جِلده بياضًا، بياضًا كقلب النَّار، كأنقى الجُمار وأحماها، ونهضَ لكنّه ظلَّ يرتفع، كأنّه سيصنع ثغرةً في السّقف، في أديم الأرض، كأنّه لن يتوقّف إلى أن يخدش النُّجوم. ثمَّ أتت الحرارة، انصبَّت عليَّ بصوتٍ كهدير الموج، تشقُّ جِلدي، تُبدّد الأنفاس في صدري تبديدًا. شهقتُ، لكنّني لم أجد هواءً. لقد أخذه كلّه.

ـ «أتجرئين على معارضتي؟ أنتِ التي لا تستطيع إيقادَ شُعلةٍ واحدة أو استدعاءَ قطرة ماءٍ واحدة؟ أسوأ أولادي أنتِ، باهتةٌ مكسورة، لا أستطيعُ أن أجد زوجًا يقبلُكِ ولو نقدته الذَّهب. منذ وُلِدتِ أشفقتُ عليكِ وتركتكِ على سجيّتكِ، والآن تعصينني وتتكبّرين. أتُريدين جعلي أكرهكِ أكثر؟».

خلال لحظةٍ أخرى، كانت الصُّخور نفسها ستذوب ويجفّ أعمامي المائيُّون جميعًا حتى العظم. بقبقَ جِلدي وتشقَّق كالفاكهة المشويّة، وذبلَ صوتي في حلقي واحترقَ مستحيلًا إلى تُراب. ألمٌ لم أتخيَّل وجوده قطُّ، عذابٌ كاوٍ يلتهم كلَّ خاطر.

سقطتُ على قدمَيْ أبي، وبصوتٍ مبحوحٍ قلتُ: «أبتِ، سامِحني. لقد أخطأتُ باعتقادي شيئًا كهذا».

تدريجيًّا، انحسرَت الحرارة، واستلقيتُ حيث سقطتُ على فُسيفساء الأرض بأسماكها وفواكهها المصبوغة بالأرجواني، وقد صارت عيناي شبه عمياوَيْن، ويداي مخالبَ ذائبةً. هزَّ آلهة الأنهار رؤوسهم مصدرين أصواتًا كالماء على الصَّخر. هيليوس، إنَّ لك أغرب ذرِّيَّة.

زفرَ أبي، وقال: «إنَّها غلطة پرسي. جميع من وُلِدوا قبل أولادها كانوا بخير».

***

لم أتحرَّك من مكاني، ومرَّت السَّاعات من دون أن يَنظُر إليَّ أحد منهم أو ينطق اسمي، بل عادوا يتكلَّمون عن شؤونهم وعن جودة النَّبيذ والطَّعام. انطفأت المشاعل وشغرَت الأرائك، ونهضَ أبي وخطا فوقي، ليُقطِّع النَّسيم الخفيف الذي حرَّكه جِلدي كالسكِّين. فكَّرتُ أنَّ جدَّتي قد تُوجِّه إليَّ كلمةً حانيةً، أو تجلب مرهمًا يُلطِّف حروقي، لكنَّها خلدَت إلى فِراشها.

وفكَّرتُ أنَّهم قد يُرسِلون إليَّ حُرَّاسًا. ولكن لِمَ؟ إنَّني لا أمثِّلُ خطرًا على العالم.

تدفَّقت موجات الألم باردةً تارةً ساخنةً تارةً، ثمَّ باردةً من جديد، ولم أكفَّ عن الارتجاف والسَّاعات تمرُّ، أطرافي ملتهبةٌ مسودَّةٌ، وظهري مغطًّى بفقاقيع القروح، وأخشى أن ألمس وجهي. سيطلع الفجر قريبًا وينصبُّ أفراد عائلتي جميعًا لتناوُل الإفطار فيما يُثَرثِرون عن تسالي اليوم، وسيزمُّون شفاههم لدى مرورهم بي حيث أستلقي.

ببُطءٍ دفعتُ نفسي إلى القيام بوصةً بوصةً. كانت فكرة العودة إلى أبهاء أبي كجمرةٍ بيضاء في حلقي. لا يُمكنني العودة إلى داري، وثمَّة مكانٌ آخر واحد أعرفه في العالم كلِّه؛ الغابة التي كثيرًا ما حلمتُ بها. ستُخفيني الظِّلال الكثيفة، وسيكون للأرض الطُّحلبيَّة ملمسٌ ناعمٌ على جِلدي الخرِب. ثبَّتُّ الصُّورة في عينَيَّ، وبخُطًى عرجاء مشيتُ نحوها، وهناك طعنَتني هواء الشَّاطئ المالح كالإبر في حلقي المسفوع، وجعلَتْ كلُّ لمسةٍ من الرِّيح حروقي تَصرُخ مجدَّدًا. أخيرًا شعرتُ بالظِّلِّ ينسدل عليَّ، فتكوَّرتُ على نفسي فوق الطَّحالب. كان القليل من المطر قد سقطَ جاعلًا ملمس التُّربة الرَّطبة حلوًا على جسدي. مرارًا وتكرارًا تخيَّلتُ النَّوم هناك مع جلاوكوس، لكنْ أيًّا كان ما في أعماقي من دموعٍ على هذا الحُلم المفقود فقد جفَّ حتى آخِر قطرة. أغلقتُ عينَيَّ طافيةً بين موجات الألم وأنَّاته، وبتؤدةٍ بدأتْ ربَّانيَّتي العنيدة تفرض نفسها، فهدأت أنفاسي وصفَت عيناي، ومع أنَّ ذراعَيَّ وساقَيَّ ظلَّت تُؤلِمني، فعندما مسستها بأصابعي وجدتُ جِلدًا لا فحمًا.

غربَت الشَّمس متوهِّجةً وراء الأشجار، وحلَّ اللَّيل بنجومه. كانت فترةَ إظلام القمر، حين تذهب عمَّتي سيلين إلى زوجها الحالم، وأظنُّ أنَّ هذا هو ما مدَّني بالشَّجاعة الكافية للنُّهوض، إذ لم أكن لأحتمل فكرة

أن تنقل ما رأته. الحمقاء ذهبت تُلقي عليها نظرةً حقًّا! كأنَّها ما زالَت تُؤمِن بأنَّ تلك الزُّهور تعمل!

دغدغَ هواء اللَّيل بشرتي وأنا واقفةٌ على العُشب الجاف الذي سوَّاه قيظ الصَّيف. وجدتُ التَّل وتوقَّفتُ على منحدره، وفي ضوء النُّجوم بدَت الزُّهور ضئيلةً ضعيفةً رماديَّةً مستنزَفةً من لونها. قطفتُ ساقًا، وفي يدي ارتخَت ساكنةً وقد جفَّ نُسغها كلُّه وزالَ. ماذا حسبته سيَحدث؟ أنَّها ستثب وتصيح: أبوكِ مُخطئ. لقد بدَّلتِ سكيلا وجلاوكوس. أنتِ لستِ مسكينةً عاجزةً، بل زوس الآتي من جديد؟

ورغم ذلك، سمعتُ شيئًا بالفعل إذ ركعتُ هناك، ليس صوتًا بل نوعٌ من الصَّمت، مثل طنينٍ خافت كالفاصل بين نغمةٍ ونغمةٍ في أغنية. انتظرتُ أن يغيب في الهواء، أن يُصلِح عقلي نفسه، لكنَّ الطَّنين استمرَّ.

وهناك تحت النُّجوم خطرَت لي فكرةٌ جنونيَّة. سآكلُ هذه الأعشاب، وأيًّا كانت كينونتي الحقَّة فلتُفصِح عن نفسها أخيرًا.

رفعتها إلى فمي، لكنَّ شَجاعتي خارَت. ماذا أكونُ حقًّا؟ في النِّهاية، لم أحتمل أن أعرف الجواب.

* * *

قُرب الفجر وجدَني عمِّي أكيلوس، وقال والرَّغوة تُغطِّي لحيته من فرط العجلة: «أخوكِ هنا. أنتِ مستدعاة».

تبعته إلى قصر أبي وأنا لا أزالُ أتعثَّرُ بعض الشَّيء، ومررنا بالطَّاولات الملمَّعة والحُجرة الملأى بالسَّتائر التي تنام فيها أمِّي. كان إيبتيس واقفًا فوق رُقعة دامة أبي. أضفَت الرُّجولة على ملامح وجهه

حدَّةً، وبدَت لحيته السَّمراء المصفرَّة كثَّةً كالسَّرخس، وقد ارتدى ثيابًا فاخرةً حتى بالنِّسبة إلى إله، يرفل في درجات النِّيلجي والأرجواني المثقَّلة كلُّ بوصةٍ منها بالذَّهب المطرَّز. لكنْ، حين التفتَ إليَّ شعرتُ بصدمة المحبَّة القديمة بيننا، ولم يمنعني إلَّا وجود أبي من إلقاء نفسي بين ذراعيْه.

قلتُ: «أخي، لقد افتقدتك».

عقدَ حاجبيْه متسائلًا: «ماذا أصابَ وجهكِ؟».

مسستُ الجِلد المتقشِّر بيدي ليشتعل ألمًا، وضرَّجتني الحُمرة. لم أرغب في إخباره هنا، حيث يجلس أبي على مقعده المتَّقد، يُجدِّد ضوؤه التَّقليديُّ الخافت أوجاعي.

أعفاني أبي من الإجابة بقوله: «إذن؟ ها قد جاءت. تكلَّم».

ارتعدتُ لوقع الاستياء في صوته، لكنَّ وجه إيبتيس ظلَّ هادئًا كأنَّ غضب أبي مجرَّد شيءٍ آخر في المكان، طاولة أو كُرسي.

قال إيبتيس: «لقد جئتُ لأنَّني سمعتُ بتحوُّل سكيلا، وجلاوكوس أيضًا، على يد سرسي».

- «على يد الأقدار. أؤكِّدُ لك أنَّ سرسي لا تتمتَّع بقوَّةٍ كتلك».

- «أنت مُخطئ».

حملقتُ متوقِّعةً أن تَسقُط عليه غضبة أبي، لكنَّ أخي واصل الكلام.

- «في مملكتي كولخيس فعلتُ مثل هذه الأشياء وأكثر، أكثر كثيرًا. استخرجتُ الحليب من الأرض، وسحرتُ حواس البشر، وشكَّلتُ مُحاربين من التُّراب. استدعيتُ تنانين تجرُّ عربتي، وردَّدتُ تعاويذَ تحجب السَّماء بالأسود، وأعددتُ عقاقير تُحيي الموتى».

من فم أيِّ أحدٍ آخر كانت تلك الادِّعاءات لتبدو أكاذيبَ جامحةً، لكنَّ صوت أخي حمل يقينه الخالص القديم.

ـ «اسم تلك الفنون فارماكيا، لأنَّها تتعلَّق بالفارماكا، تلك الأعشاب ذات القوَّة القادرة على عمل تغييرٍ في العالم، ما نبتَ منها من دماء الآلهة وما يشيع نموُّه على الأرض. القُدرة على استخلاص قُواها موهبة، ولستُ الوحيد الذي يتمتَّع بها. في كريت تَحكُم پاسيفاي بسمومها، وفي بابل يستحضِر پرسيس الأرواح إلى أجسادها من جديد. سرسي الأخيرة، وهي الدَّليل».

شردَت نظرة أبي بعيدًا، كأنَّه يخترق بها البحر والبرَّ إلى كولخيس ذاتها. ربَّما كانت خدعةً ما من نار المستوقد، ولكنْ خُيِّلَ إليَّ أنَّ الضَّوء على وجهه تذبذبَ.

قال أخي: «هل أعطيك بُرهانًا؟»، ثمَّ أخرجَ من ثيابه جرَّةً صغيرةً مسدودةً بالشَّمع، وكسر السَّدَّادة ومسَّ السَّائل الذي تحويه الجرَّة بإصبعه، وشممتُ شيئًا أخضر لاذعًا له طابعُ آسن.

ضغطَ إييتيس على وجهي بإبهامه، ونطقَ كلمةً أشدَّ خفوتًا من أن أسمعها، وبدأتُ أحسُّ بحكَّةٍ في جِلدي، ثمَّ كفتيلٍ انطفأَ زال الألم، ولمَّا وضعتُ يدي على خدِّي لم أشعر إلَّا بالنُّعومة وملمسٍ دُهنيٍّ خفيف كأنَّه زيت.

قال إييتيس: «حيلةٌ جيِّدة، أليس كذلك؟».

لم يُجِبه أبي، بل جلسَ مرتجًا عليه على نحوٍ عجيب. أنا نفسي شعرتُ بالكلام مستغلقًا عليَّ، فالقُدرة على علاج جسد شخصٍ آخر تنتمي إلى أعظم الآلهة وحدهم، وليس لأمثالنا.

ابتسمَ أخي كأنَّ بإمكانه سماع أفكاري، وقال: «وهذه أدنى قُواي. إنَّها مستمدَّة من الأرض نفسها، أيْ إنَّها ليست مقيَّدةً بقوانين الرُّبوبيَّة العاديَّة»، وتركَ كلماته عالقةً في الهواء لحظةً قبل أن يُردِف: «أفهمُ بالطَّبع أنَّك لا تستطيع إصدار أحكامٍ الآن. عليك أن تَطلُب المشورة. لكنْ جديرٌ بك أن تعلم أنَّه سيُسعِدني أن أعطي زوس بُرهانًا... أشدَّ تأثيرًا».

وفي عينيْه ومضَت نظرةٌ كالأسنان في فم ذئب.

خرجَت كلمات أبي بطيئةً وقد اكتسى وجهه بقناع الذُّهول نفسه، وبرجَّةٍ غريبة فهمتُ. إنَّه خائف.

- «عليَّ أن أطلب المشورة كما تقول. هذا... أمرٌ جديد. حتى اتِّخاذ القرار ستبقى هنا في هذا القصر، كلاكما سيبقى».

قال إيبتيس: «لم أتوقَّع أقلَّ من هذا»، وحنى رأسه ودارَ ليَخرُج.

تبعته وجِلدي يخزني من سيل أفكاري، ومن أملٍ لاهثٍ متنامٍ. انغلقَ باب خشب المُر وراءنا ووقفنا في الرُّواق، وظلَّ إيبتيس محتفظًا بهدوء وجهه كأنَّه لم يصنع معجزةً ويُخرِس أبانا لتوِّه. كان لديَّ ألف سؤال جاهز للانهمار منِّي، لكنَّه سبقَني إلى الكلام.

- «ماذا كنتِ تفعلين طوال هذا الوقت؟ لقد استغرقتِ دهرًا، وبدأتُ أظنُّ أنَّكِ قد لا تكونين فارماكيس في النِّهاية».

لم تكن كلمةً أعرفها، لم تكن كلمة يعرفها أحدٌ في ذلك الحين.

ردَّدتُ: «فارماكيس».

ساحرة.

* * *

جرى الخبر كالأنهار في الرَّبيع. على العشاء، تهامسَ أولاد أوقيانوس عندما رأوني وأسرعوا يبتعدون عن طريقي، وإذا تماسَّت أذرُعنا امتقعَت وجوههم، ولمَّا ناولتُ أحد آلهة الأنهار كأسًا تحاشى النَّظر إليَّ. أوه، لا، شكرًا، لستُ عطشانًا.

ضحكَ إيتيس قائلًا: «ستعتادين هذا. إنَّنا على سجيَّتنا وحدنا الآن».

لكنَّه لم يبدُ وحيدًا، ففي كلِّ ليلةٍ جلسَ فوق منصَّة جدِّي مع أبي وأعمامنا، وشاهدته يشرب الرَّحيق[1] ويضحك مبرزًا أسنانه، تتبدَّل تعبيراته بسرعة أسراب السَّمك في الماء، الآن مضيئة، الآن مظلمة.

انتظرتُ إلى أن خرجَ أبي، ثمَّ ذهبتُ لأجلس على مقعدٍ قُربه وكلِّي اشتياقٌ إلى احتلال المكان المجاور له على الأريكة والاستناد إلى كتفه، غير أنَّه بدا صارمًا معتدلًا للغاية، حتى إنَّني لم أعرف كيف ألمسه.

ـ «هل تحبُّ مملكتك؟ كولخيس؟».

ـ «إنَّها الأروع في العالم. لقد فعلتُ كما قلتُ يا أختاه، جمعتُ هناك كلَّ أعاجيب بلادنا».

ابتسمتُ لسماعه يدعوني بأختاه ويتكلَّم عن تلك الأحلام القديمة. «ليتني أستطيعُ رؤيتها».

لم يُعلِّق. إنَّه ساحر يُمكنه كسر أسنان الثَّعابين واجتثاث شجر السَّنديان من جذوره، ولا يحتاج إليَّ.

ـ «هل دايدالوس عندك أيضًا؟».

---

(1) الرحيق: شراب الآلهة. (المترجم)

لاح الامتعاض على وجهه، وقال: «لا، إنّه حبيس عند باسيفاي. ربّما مع الوقت. لكنّ عندي صوف كبشٍ ذهبيًا ضخمًا، ونصف دستةٍ من التّنانين».

لم أضطرّ إلى استنطاقه ليحكي، بل تدفّقت منه قصص التّعاويذ والتّمائم التي ألقاها، والوحوش التي استدعاها، والأعشاب التي قطّعها في نور القمر وصنعَ منها معجزات. كلُّ حكايةٍ أغرب من سابقتها؛ وثوب الرّعد إلى أطراف أصابعه، حملان تُطهى وتُولَد ثانيةً من عظامها المتفحّمة.

ـ «ماذا قلت عندما شفيت جِلدي؟».

ـ «كلمة قوّة».

ـ «هلّا تُعلّمني إيّاها؟».

ـ «السّحر لا يُعلّم. إمّا أن تجديه بنفسكِ وإمّا لا».

فكّرتُ في الطّنين الذي سمعته حين مسستُ تلك الزّهور، والمعرفة العجيبة التي انسابَت عبري.

ـ «منذ متى تعرف أنّك تستطيع فعل هذه الأشياء؟».

ـ «منذ مولدي، لكنْ كان عليَّ الانتظار حتى ابتعادي عن عين أبينا».

كلُّ تلك السّنوات إلى جواري ولم يقل شيئًا. فتحتُ فمي لأسأله: كيف أمكنَك ألّا تُخبِرني؟ لكنّ إيتيس الجديد هذا بثيابه الزّاهية بثّ فيّ رهبةً شديدةً.

سألته: «ألم تخشَ أن يغضب أبونا؟».

أجاب: «نعم، لأنّني لم أتحامق وأحاول إهانته أمام الجميع»، ورفعَ حاجبيْه في وجهي الذي احتقنَ. «على كلّ حال، إنّه متلهّف إلى تخيُّل

الطَّريقة التي سيستغلُّ بها قوَّةً كهذه لصالحه. إنَّ منبع قلقه زوس، فعليْه أن يُصوِّرنا كما ينبغي بالضَّبط، أنَّنا تهديد يكفي لدفع زوس إلى التَّفكير مرَّتيْن، ولكنْ ليس لدرجة إجباره على التَّصرُّف».

أخي الذي لطالما استطاعَ النَّفاذ إلى شقوق العالم ببصيرته.

ـ «وإذا حاول الأوليمپ أخذ تعاويذك منك؟».

ابتسمَ مجيبًا: «لا أظنُّهم يستطيعون مهما حاولوا. كما قلتُ، الفارماكيا ليست مرتبطةً بحدود الآلهة المعتادة».

رمقتُ يدَيَّ وحاولتُ تخيُّلهما تنسجان تعويذةً تُزَلزِل العالم، إلَّا أنَّني عجزتُ عن العثور على اليقين الذي شعرتُ به حين قطَّرتُ النُّسغ في فم جلاوكوس ولوَّثتُ به خليج سكيلا. فكَّرتُ أنَّه قد يعود إذا لمستُ تلك الزُّهور ثانيةً، ولكنْ لم يكن مسموحًا لي بالخروج إلى أن يتكلَّم أبي مع زوس.

ـ «و... أتحسبني قادرةً على صُنع الأعاجيب مثلك؟».

ردَّ أخي: «لا. إنَّني أقوى أربعتنا. لكنَّكِ تُبدين ميلًا إلى التَّحويل».

ـ «الزُّهور فعلَت هذا. إنَّها تمنح الكائنات أصدق صُورها».

حدَّجَني بنظرة الفيلسوف قائلًا: «ألا تحسبينها مصادفةً كبيرةً أن تُوافِق صورتاهما الأصدق رغباتكِ؟».

حدَّقتُ إليه قائلةً: «لم أرغب في أن أجعل سكيلا وحشًا. لقد قصدتُ فقط أن أكشف عمَّا في داخلها من قُبح».

ـ «وتعتقدين أنَّ ذلك ما كان في داخلها حقًّا؟ رُعبًا سداسيَّ الرُّؤوس يتطاير من أفواهه الزَّبد؟».

رددتُ شاعرةً بوخزٍ في وجهي: «ولِمَ لا؟ أنت لم تعرفها. كانت في غاية القسوة».

ضحكَ وقال: «أوه، سرسي. لقد كانت بغيَّ قاعاتٍ خلفيَّةٍ مبهرجةً مثل الأخريات. إنْ كانت حُجَّتكِ أنَّ أحد أعظم وحوش عصرنا كان مختبئًا في داخلها فأنتِ أشدُّ حُمقًا مما حسبتُ».

ـ «لا أظنُّ أنَّ بإمكان أحدٍ أن يجزم بما في داخل أحدٍ آخر».

دوَّر عينيْه باستهجان وصبَّ لنفسه كأسًا أخرى، ثمَّ قال: «ظنِّي أنَّ سكيلا فلتَت من العقاب الذي انتويتِه لها».

ـ «ماذا تعني؟».

ـ «فكِّري. ماذا تفعل حوريَّة قبيحة في أبهائنا؟ ما قيمة حياتها؟».

كما في الأيَّام الخوالي، هو يطرح الأسئلة، وأعجزُ أنا عن الجواب. «لا أدري».

ـ «بل تدرين طبعًا. لكان العقاب جيِّدًا لهذا السَّبب. حتى أجمل الحوريَّات قاطبةً عديمةُ القيمة إلى حدٍّ كبير، والحوريَّة القبيحة نكرة، أقل من نكرة. لن تتزوَّج أبدًا أو تُنجِب أطفالًا، وستُصبح عبئًا على عائلتها، وصمةً على وجه العالم. ستعيش في الظِّلال مُهانةً مزدراة. أمَّا إذا كانت وحشًا فإنَّ لها مكانًا دومًا، ولها أن تحظى بكلِّ المجد الذي تستطيع أسنانها انتزاعه. لن تُحَبَّ، لكنَّها لن تُقيَّد كذلك. لذا، عليكِ بنسيان ما في سريرتكِ من أسًى سخيف. أظنُّ والحقُّ يُقال إنَّكِ حسَّنتِها».

* * *

طيلة ليلتيْن اعتكفَ أبي مع أعمامي، ومكثتُ خارج الباب الماهوجني، لكنَّ شيئًا لم يتناهَ إلى مسامعي ولو مجرَّد غمغمة. عندما خرجوا أخيرًا كانت وجوههم جامدةً متجهِّمةً، وذهبَ أبي إلى عربته بخُطواته الواسعة، يتوهَّج معطفه الأرجوانيُّ قاتمًا كالنَّبيذ، وعلى رأسه يلتمع تاج الأشعَّة الذَّهبيَّة العظيم. لم ينظر وراءه إذ وثبَ إلى السَّماء، ووجَّه خيوله صوب جبل أوليمپوس.

انتظرنا عودته في قصر أوقيانوس. لم يتسكَّع أحدٌ على ضفاف الأنهار أو ينجدِل جسده مع جسد حبيبٍ بين الظِّلال، وتشاحنَت النِّيادات بخدودٍ محمرَّة، ودفعَ آلهة الأنهار بعضهم بعضًا. ومن فوق منصَّته، رمقَنا جدِّي جميعًا وكأسه في يده خالية، في حين راحت أمِّي تتباهى بين أخواتها. «پرسيس وپاسيفاي كانا أوَّل من يعلم بالطَّبع. أَمِنَ الغريب أنَّ سرسي الأخيرة؟ إنَّني أنوي إنجاب مئة طفلٍ آخر، وسيصنعون لي قاربًا فضِّيًّا يُحلِّق في عنان السَّماء. سنَحكُم من فوق قمَّة أوليمپوس».

هسَّت جدَّتي عبر القاعة: «پرسي!».

وحده إيبتيس بدا أنَّه لا يستشعر التَّوتُّر، وجلسَ بسكينةٍ على أريكته يشرب من كأسه المزخرفة بالذَّهب، فيما ظللتُ أنا في الخلفيَّة أذرعُ الدَّهاليز الطَّويلة، وأتحسَّسُ الجُدران الصَّخريَّة الرَّطبة رطوبةً خفيفةً دومًا بسبب وجود عددٍ كبير من الآلهة المائيِّين. جستُ بنظري في القاعة لأرى إن كان جلاوكوس قد جاء، فلم تزل قطعة منِّي تشتاق إلى رؤيته، حتى في ذلك الحين، ولمَّا سألتُ إيبتيس إن كان جلاوكوس قد شاركَ الآلهة الآخرين وليمتهم، ارتسمَتْ على شفتيْه ابتسامةٌ عريضة،

وقال: «إنَّه يُخفي وجهه الأزرق إيَّاه، ينتظر أن ينسى الجميع حقيقة حصوله عليه».

تلوَّت معدتي. لم أفكِّر أنَّ اعترافي سيسلب جلاوكوس فخره الأعظم. فاتَ الأوان، فاتَ أوان كلِّ الأشياء التي كان حريًّا بي أن أعرفها. لقد ارتكبتُ أخطاءً عديدةً لدرجة أنَّني لا أقدرُ على تتبُّع خيوطها المتشابكة إلى أوَّلها. أكان تبديل سكيلا؟ تبديل جلاوكوس؟ حلف اليمين لجدَّتي؟ الكلام مع جلاوكوس من البداية؟ انتابَني قلقٌ مغثٍ من أنَّ الخطأ الأوَّل يرجع إلى ما قبل ذلك، إلى أوَّل نَفَسٍ دخل صدري.

لا شكَّ أنَّ أبي ماثلٌ أمام زوس الآن. على الرَّغم من ثقة أخي بأنَّ الأوليمپ لا يستطيعون مسَّنا بسوء، فأربعة سحرةٍ من الجبابرة مسألةٌ لا يُستهان بها. ماذا لو نشبَت الحرب ثانيةً؟ ستنشقُّ القاعة الكُبرى فوق رؤوسنا، ويحجب زوس الضَّوء، وتمتدُّ يده لتَسْحقنا واحدًا تلو الآخر. سيستدعي إيبتيس تنانينه، لكنَّه يقوى على القتال على الأقل، أمَّا أنا فما الذي بمقدوري؟ قطف الأزهار؟

كانت أمِّي تغسل قدميْها، وقد حملت اثنتان من أخواتها الحوض الفضِّيَّ، وصبَّت ثالثةٌ زيت المُر المعطَّر من قنِّينته. قلتُ لنفسي إنَّني أفكِّرُ بحماقة، إنَّ حربًا لن تقوم، إنَّ أبي متمرِّس في تلك المناورات، وسيجد طريقةً لإرضاء زوس.

أضاءَت القاعة، ودخل أبي بنظرةٍ على وجهه كالبرونز المطرَّق، وتبعَته نظراتنا إذ تقدَّم من المنصَّة في مقدِّمة القاعة وأشعَّة تاجه تطعن كلَّ ظلٍّ في المكان، ثمَّ نظرَ إلينا قائلًا: «لقد تكلَّمتُ مع زوس، ووجدنا سبيلًا إلى اتِّفاق».

تنهَّد أولاد عمومتي وخؤولتي براحةٍ جارفة كالرِّيح بين سنابل القمح.

ـ «إنَّه يقرُّ بأنَّ شيئًا جديدًا يتحرَّك في العالم، أنَّ هذه القُوى ليست كأيِّ شيءٍ عُرِفَ من قبل، ويقرُّ بأنَّ مصدرها أولادي الأربعة من الحوريَّة پرسي».

موجةٌ أخرى في المكان، مشوبةٌ هذه المرَّة بإثارةٍ متنامية. لعقَت أمِّي شفتيْها مميِّلةً رأسها كأنَّ على رأسها تاجًا بالفعل، وتبادلَت أخواتها النَّظرات والحسد يلتهمهنَّ.

ـ «اتَّفقنا أيضًا على أنَّ هذه القُوى لا تُمثِّل خطرًا فوريًّا. پرسيس يعيش خارج حدودنا ولا يُشكِّل تهديدًا، وپاسيفاي زوجها ابنٌ لزوس، وسيحرص على أن تلزم مقامها اللَّائق. إيتيس سيحتفظ بمملكته ما دامَ يقبل الخضوع للمراقبة».

أومأَ أخي برأسه بتجهُّم، لكنَّني رأيتُ الابتسامة في عينيْه. يُمكنني حجب السَّماء نفسها. فلتُحاوِلوا مراقبتي.

ـ «كلٌّ منهم أقسمَ علاوةً على ذلك أنَّه اكتسبَ قُواه بلا دعوةٍ ومن دون أن يبحث عنها، من غير ضغينةٍ أو محاولة التَّمرُّد. لقد عثروا على الأعشاب السِّحريَّة مصادفةً».

مندهشةً، رميتُ أخي بنظرةٍ أخرى، فوجدتُ وجهه مصمتًا.

ـ «كلُّهم باستثناء سرسي. كنتم هنا جميعًا عندما اعترفَت بأنَّها سعَت لقوَّتها صراحةً، وقد نُبِّهَتْ إلى الابتعاد عنها لكنَّها عصَت».

وجه جدَّتي البارد إذ جلسَت على مقعدها العاجيِّ المنقوش.

تابعَ أبي: «لقد تحدَّت أوامري وعارضَت سُلطتي، استخدمَت سمومها ضد نوعها، واقترفَت خياناتٍ أخرى أيضًا»، وحطَّ لهيب نظرته الأبيض عليَّ، وأتبعَ: «إنَّها وصمةٌ على اسمنا، جاحدةٌ بالعناية التي تلقَّتها منَّا. لقد اتَّفقتُ مع زوس على وجوب عقابها لقاء هذا، وعقابها النَّفي إلى جزيرةٍ مهجورة، حيث لا تستطيع ارتكاب المزيد من الأذى. سترحل غدًا».

حطَّت عليَّ ألفُ عيْن، وأردتُ أن أصيح، أن أتوسَّل، لكنَّني لم أستطع التقاط أنفاسي، وراح صوتي الرَّفيع أصلًا. فكَّرتُ أنَّ إيتيس سيتكلَّم نيابةً عنِّي، غير أنَّني حين رميته بنظرتي بادلَني النَّظر كالآخرين كلِّهم.

أضاف أبي: «شيءٌ آخر. كما ذكرتُ، من الواضح أنَّ مصدر هذه القوَّة الجديدة هو رباطي ببرسي».

وجه أمِّي المتألِّق ظَفَرًا، مشرقًا عبر الغشاوة على عينَيَّ.

ـ «وهكذا اتَّفقنا على عدم إنجابي مزيدًا من الأطفال منها».

صرخَت أمِّي وسقطَت إلى الوراء في حجور أخواتها، وردَّدت الحوائطُ الحجريَّة صوتَ نحيبها.

ثمَّ نهضَ جدِّي على مهل، وفركَ ذقنه قائلًا: «حسن، حانَ وقت المأدبة».

* * *

اتَّقدت المشاعل كالنُّجوم، وبالأعلى امتدَّت الأسقُف مرتفعةً كقبَّة السَّماء. للمرَّة الأخيرة شاهدتُ الآلهة والحوريَّات يتَّخذون

مواضعهم شاعرةً بالدُّوار، وما برحتُ أفكِّرُ أنَّه يَجدُر بي أن أودِّعهم، لكنَّ بنات خالاتي تدفَّقن مبتعداتٍ عني كالماء حول صخرة، وسمعتُ همساتهنَّ المتهكِّمة إذ مرَرن. وجدتُ نفسي أفتقدُ سكيلا، فعلى الأقل كانت لتجرؤ على الكلام في وجهي.

ثمَّ فكَّرتُ أنَّ عليَّ أن أحاول أن أشرح لجدَّتي، لكنَّها أشاحَت بوجهها عنِّي بدورها، ودفنَت حيَّتها البحريَّة رأسها.

وطوال الوقت ظلَّت أمِّي تبكي بين قطيع أخواتها. ولمَّا دنوتُ منها، رفعَت وجهها ليرى الجميع لوعتها الجميلة الفائضة. **ألم تفعلي ما يكفي؟**

لم يتبقَّ إذن إلَّا أعمامي بشعرهم الطُّحلبي ولحاهم الهزيلة المشبَّعة بالملح، لكنْ حين فكَّرتُ في الرُّكوع عند أقدامهم لم أقوَ على دفع نفسي إلى فعلها.

عدتُ إلى حُجرتي، وقلتُ لنفسي: احزمي أغراضكِ، احزميها، إنَّكِ راحلة غدًا. إلَّا أنَّ يدَيَّ تدلَّتا بخَدَرٍ على جانبَيَّ. أنَّى لي أن أعرف ماذا آخذُ معي؟ إنَّني لم أبرح هذه الأبهاء تقريبًا قطُّ.

أجبرتُ نفسي على العثور على حقيبةٍ أجمعُ فيها الثِّياب والصَّنادل وفرشاةً لشعري، كما فكَّرتُ في أخذ طنفسةٍ معلَّقة على جِداري، نسجَتْها إحدى الخالات وتُصوِّر حفلة زفاف. هل سيكون لي منزلٌ لأعلِّقها فيه حتى؟ لم أعلم، لم أعلم أيَّ شيء. قال أبي إنَّها جزيرةٌ مهجورة، فهل ستكون صخرةً جرداء مكشوفةً للبحر؟ رُقعةً من المياه الضَّحلة الملأى بالحصى؟ براريَ كثيفةً؟ حقيبتي هذه أضحوكةٌ ملأى بالفُتات المذهَّب، لكنَّ السكِّين، السكِّين ذا رأس الأسد، هذا سآخذه.

لكنْ حين أمسكته بدا متقلّصًا، الغرض منه التقاط لُقَمِ الطّعامِ في وليمةٍ لا أكثر.

ـ «كان يُمكن أن يكون الأمر أسوأ كثيرًا كما تعلمين». جاء إيتيس ليقف في مدخل حُجرتي. هو أيضًا راحل، وقد استدعى تنانينه بالفعل. «سمعتُ أنّ زوس أرادَ أن يجعل منكِ عبرةً، لكنّ أبانا لا يُمكنه أن يسمح له بالتّمادي إلى ذلك الحدّ بالطّبع».

تحرّكت الشُّعيرات على ذراعَيّ، وقلتُ: «لم تُخبِره بأمر پروميثيوس، أليس كذلك؟».

ابتسمَ قائلًا: «لماذا؟ لأنّه ذكرَ «خياناتٍ أخرى؟» أنتِ تعرفين أبانا. إنّه يتصرّف بحذرٍ فقط تحسُّبًا لانكشاف هوْلٍ آخر من صُنعكِ. وعلى كلّ حالٍ بم كنتُ لأخبره؟ ماذا فعلتِ أصلًا؟ صببتِ كأسًا واحدةً من الرّحيق؟».

قلتُ رافعةً عينَيّ إليه: «قلت إنّ أبانا كان ليُلقيني للغِربان لقاء ذلك».

ـ «فقط إن كنتِ حمقاء واعترفتِ».

قلتُ شاعرةً بسخونةٍ في وجهي: «أظنّ إذن أنّ عليّ أن أعدّك معلّمي وأنكر كلّ شيء؟».

ـ «نعم. هكذا طبائع الأمور يا سرسي. أقول لأبينا إنّ سحري كان صُدفةً، ويتظاهَر هو بتصديقي، ويتظاهَر زوس بتصديقه، وبهذا يُحافِظ العالم على توازُنه. أنتِ المخطئة لأنّكِ اعترفتِ. لن أفهم أبدًا لماذا فعلتِ هذا».

صحيح، لن يفهم، فلم يكن قد وُلِدَ حين جُلِدَ پروميثيوس.

قال: «كنتُ أنوي أن أخبركِ، لقد قابلتُ حبيبكِ جلاوكوس أخيرًا ليلة أمس. لم أرَ مهرِّجًا مثله قطُّ»، وطقطقَ بلسانه، وأردفَ: «آملُ أن يكون اختياركِ أفضل في ما بعدُ. لطالما كنتِ سريعة الثِّقة».

نظرتُ إليه إذ استندَ إلى مدخل حُجرتي بثيابه الطَّويلة وعينيْه الذِّئبيَّتيْن اللَّامعتيْن، وانتفضَ قلبي لمرآه كما حدثَ دائمًا، لكنَّه كان مثل عمود المياه الذي ذكرَه لي ذات مرَّة، باردًا مستقيمًا لا يكفي إلَّا نفسه.

قلتُ: «أشكركَ على نصيحتك».

غادرَ إيتيس. وثانيةً، فكَّرتُ في أخذ الطِّنفسة. العريس جاحظ العينين، والعروس مدفونة تحت طرحتها، ومن ورائهما يُحَملِق أفراد العائلة كالحمقى. لطالما كرهتها. فلتبقَ هنا وتتعفَّن.

الفصل السّابع

في الصّباح التّالي، ركبتُ عربة أبي وانطلقنا إلى السّماء من دون كلمةٍ واحدة، وبينما عصفَ الهواء من حولنا، وتقهقرَ اللّيل مع كلّ دورةٍ للعجلات، نظرتُ من فوق الجانب محاولةً تتبُّع الأنهار والبحار والوديان الظّليلة، لكنّ سُرعتنا البالغة جعلَتني لا أميّزُ شيئًا.

ـ «ما تلك الجزيرة؟».

لم يُجبني أبي الذي أطبقَ فكّيْه واستنزفَ الغضبُ الدّم من شفتيْه. مع وقوفي على هذه المقربة منه عادَت حروقي القديمة تُؤلِمني. أسبلتُ جفنَيَّ والأراضي تنساب من تحتنا والرّيح تجري على جِلدي، وتخيّلتُني أرمي نفسي من فوق الحاجز الذّهبي في الهواء الطّلق أسفلنا، مفكّرةً أنّه سيكون شعورًا طيّبًا قبل أن أرتطم بالأرض.

حططنا برجّةٍ قويّة، وفتحتُ عينَيَّ لأرى تلًّا مرتفعًا سهلَ التّسلّق، يكسوه الكلأ الكثيف. نظرَ أبي أمامه مباشرةً، وانتابَتني رغبةٌ مباغتة في

أن أخرَّ على رُكبتَيَّ وأتوسَّل إليه أن يعود بي، لكنَّني أرغمتُ نفسي بدلًا من ذلك على النُّزول إلى الأرض، ولحظة أن لمسَتْها قدماي رحل هو وعربته.

وقفتُ وحدي في هذه الفسحة المعشوشبة، يهبُّ النَّسيم حادًّا على وجنتَيَّ ويحمل الهواء رائحةً طازجةً، إلَّا أنَّني لم أستطع الاستمتاع بالجوّ، وشعرتُ برأسي ثقيلًا وببداية ألمٍ في حلقي، وترنَّحتُ. مؤكَّدٌ أنَّ إيتيس رجعَ إلى كولخيس ليشرب حليبه وعسله، وخالاتي يضحكن على ضفاف أنهارهنَّ، وبناتهنَّ عُدن إلى ألعابهنَّ. أمَّا أبي فبالأعلى بالطَّبع، يُلقي ضوءه على العالم. كلُّ السِّنين التي قضيتها معهم أشبه بحجرٍ ألقاه أحدُهم في بِركةٍ، وما صنعَه من تموُّجاتٍ تلاشى بالفعل.

لأنَّني أتمتَّعُ بالقليل من الكبرياء، فما داموا لم يبكوا فلن أبكي أيضًا. فركتُ عينَيَّ بكفَّي حتى صفَتا، ورحتُ أنظر حولي.

فوق قمَّة التَّل أمامي منزلٌ واسعُ الشُّرفة، جُدرانه مبنيَّةٌ بالحجارة المتناسقة، وبابه المنقوش يَبلُغ ضِعفَيْ قامة رجلٍ طولًا، وأسفله بمسافةٍ قصيرة تمتدُّ حافةٌ من الأدغال، ومن ورائها تلوح لمحةٌ من البحر.

الغابة هي ما لفتَ نظري، غابةٌ قديمةٌ يتشابَك فيها شجر السِّنديان والزَّيزفون وأيك الزَّيتون، وتتخلَّلها أشجار السَّرو المنتصبة كالحِراب. من هنا تنبعث الرَّائحة الخضراء، ويحملها الهواء إلى أعلى على جانب التَّل العُشبي. هزَّت الأشجار نفسها بثقلٍ في رياح البحر، وانطلقَت الطُّيور هنا وهناك في الظِّل. حتى الآن ما زلتُ أذكرُ ما اعتراني من عجب. لقد قضيتُ حياتي كلَّها في الأبهاء المعتمة ذاتها، أو في المشي على السَّاحل الضَّئيل نفسه بغابته الهزيلة، ولم أكن مستعدَّةً لمثل هذه الوفرة

والخصوبة، حتى إنَّ رغبةً مفاجئةً انتابَتني في إلقاء نفسي إلقاءً وسط كلّ هذا، كما يُلقي الضّفدع نفسه في بِركة.

لكنَّني تردَّدتُ، فلستُ حوريَّة غابات، ولا أتحلَّى بموهبة تحسُّس طريقي فوق الجذور، أو المشي وسط العُلَّيق الشَّائك من دون أن يمسَّني، ولم أستطع تخمين ما قد تُواريه تلك الظّلال. ماذا لو أنَّ هناك غَوْرًا ما؟ ماذا لو أنَّ في الغابة دببةً أو أُسودًا؟

وقفتُ في مكاني وقتًا طويلًا خاشيةً تلك الأشياء وغيرها وأنتظرُ، كأنَّ أحدًا سيجيء ويُطَمئِنني، يقول نعم، يُمكنكِ أن تذهبي، ستكونين في أمان. انسلَّت عربة أبي فوق البحر، وبدأت تغطس في الموج، وتعمَّقت ظلال الغابة وبدَت جذوع الأشجار كأنَّما تتعانَق، فقلتُ لنفسي إنَّ الوقت تأخَّر على الذَّهاب الآن! غدًا إذن.

***

وجدتُ مصراعَيْ باب المنزل من خشب السّنديان العريض المطعَّم بالحديد، وقد انفتحا بلمسةٍ منِّي. في الدَّاخل عبقَ الهواء برائحة البخور، ورأيتُ ردهةً كبيرةً تصطفُّ فيها الطَّاولات والدّكك كأنَّما جهَّزها أحدهم لوليمة، يستقرُّ في طرفها مستوقَد، وفي الطَّرف الآخر رُواق يقود إلى المطبخ وحُجرات النَّوم. مكانٌ كبيرٌ كفايةً لسُكنى دستةٍ من الربَّات، وبالفعل ظللتُ أتوقَّعُ أن أجد حوريَّاتٍ وبنات خالاتٍ عند كلّ منعطف. لكن لا، هذا جزءٌ من منفاي، أن أكون بمفردي تمامًا. هكذا فكَّرت عائلتي: هل من عقابٍ أسوأ من حرماني حضورها الربَّاني؟

المؤكَّد أنَّ المنزل نفسه لم يكن عقابًا، فعلى كلّ جانبٍ تَبرُق الكنوز، من صناديقَ منقوشةٍ، وبُسطٍ ناعمة، ومعلَّقاتٍ ذهبيَّة، وأسرَّةٍ

ومقاعد، وحوامل ثُلاثيَّة منمَّقة، وتماثيل عاجيَّة. عتبات النَّوافذ من الرُّخام الأبيض، ومصاريعها من خشب شجر المُرَّان المزخرَف. وفي المطبخ تحسَّستُ بإبهامي سكاكينَ ليست من البرونز والحديد فحسب، بل أيضًا من السَّبج وعِرق اللُّؤلؤ، ووجدتُ أوعيةً من بلُّورات الكوارتز والفضَّة المنقوشة. وعلى الرَّغم من كون الحُجرات مهجورةً فإنَّني لم أجد ولو ذرَّةً من الغُبار. لاحقًا، أدركتُ أن لا غُبار على الإطلاق يتجاوَز العتبة الرُّخام، ومهما خطوتُ عليها ظلَّت الأرضيَّة نظيفةً دومًا، وظلَّت الطَّاولات لامعةً، بل واختفى أيضًا الرَّماد من المدفأة، وغَسلَت الأطباق نفسها، وتجدَّد الحطب خلال اللَّيل. في مخزن المؤن وجدتُ جرارًا من الزَّيت والنَّبيذ، وأوعيةً من الجُبنة وحَبِّ الشَّعير، دائمًا طازجةً ممتلئةً.

وسط هذه الحُجرات المثاليَّة الخالية، شعرتُ... لا أدري!... بالإحباط. أظنُّ أنَّ جزءًا منِّي كان يتمنَّى جُرفًا في القوقاز رغم كلِّ شيء، وعُقابًا ينقضُّ على كبدي. إلَّا أنَّ سكيلا ليست زوس، وأنا لستُ بروميثيوس، كلتانا حوريَّة لا تستأهل العناء.

لكنَّ الأمر لم يقتصِر على ذلك. كان بإمكان أبي أن يَترُكني في زريبةٍ أو كوخ صيَّاد، على شاطئ أجرد بلا شيءٍ آوي إليه إلَّا خيمة. في ذاكرتي، استعدتُ وجهه حين ذكرَ قرار زوس، وغضبه الجليَّ الرنَّان. وقتها افترضتُ أنَّني وحدي السَّبب، لكن الآن بعد أحاديثي مع إيبتيس بدأتُ أفهمُ أكثر. الهُدنة بين الآلهة قائمة فقط لأنَّ كلًّا من الجبابرة والأوليمبِ يلتزم نطاقه. زوس طالبَ بتأديب دم هيليوس، وهيليوس لم يستطع الاحتجاج جهارًا، ولكن بإمكانه الرَّد عليه بشكلٍ ما، أن يُوجِّه إليه رسالةَ تحدٍّ لتستوي الموازين من جديد. حتى منفيُّونا يعيشون

أفضل من الملوك. أترون مبلغ قوَّتنا العميق؟ إذا وجَّهتم إلينا ضربةً أيُّها الأوليمپ فسيزداد شأننا علوًّا.

بيتي الجديد، نُصبٌ تذكاريٌّ لكبرياء أبي.

كانت الشَّمس قد غربَت، فوجدتُ الصوَّان وقدحتُه فوق الهشيم، كما رأيتُ جلاوكوس يفعل مرارًا، وإن لم أجرِّب ذلك بنفسي قطُّ. استغرقَ الأمر عدَّة محاولات، ولمَّا بدأ اللَّهب يشبُّ وينتشر أخيرًا، شعرتُ برضا لم أعرفه من قبل.

دفعَني جوعي إلى مخزن المؤن، حيث تمتلئ الأوعية عن آخِرها بطعامٍ يكفي مئةً، وغرفتُ القليل على طبقٍ، وجلستُ إلى واحدةٍ من الموائد السَّنديان الضَّخمة في الرُّدهة. كان بإمكاني سماع أنفاسي، وخطرَ لي فجأةً أنَّني لم آكل وحدي قطُّ، فحتى عندما لم يكن أحد يُكلِّمني أو يَنظُر إليَّ، اعتدتُ دومًا أن أجد أحدًا من إخوتي أو بنات خالاتي إلى جواري. فركتُ الخشب المجزَّع النَّاعم بإصبعي، ودندنتُ قليلًا وأصغيتُ إلى الصَّوت إذ ابتلعَه الهواء، مفكِّرةً أنَّ هكذا ستكون أيَّامي جميعًا. على الرَّغم من النَّار، احتشدَت الظِّلال في الأركان. وفي الخارج، بدأت الطُّيور تصرُخ، أو ما حسبته طيورًا على الأقل. شعرتُ بالشُّعيرات تنتصب على مؤخِّرة عنقي وقد عادت أفكاري إلى جذوع الأشجار القاتمة السَّميكة، فذهبتُ إلى النَّوافذ وأغلقتها، وأزلجتُ الباب. لقد اعتدتُ أن يُحيط بي وزن صخور الأرض كلِّها، ومن فوقها قوَّة أبي، وهو ما أشعرَني بأنَّ جدران هذا المنزل رقيقةٌ كورق الشَّجر، يستطيع أيُّ مخلبٍ أن يشقَّها ويُمزِّقها. قد يكون ذلك هو سرُّ هذا المكان، وما زال عقابي الحقيقيُّ لم ينزل بي بعدُ.

قلتُ لنفسي كفى، وأشعلتُ بعض الشُّموع الرَّفيعة وجعلتُني أحملها عبر الرُّواق إلى حُجرتي. في ضوء النَّهار بدَت واسعةً، وسرَّني هذا. لكنْ الآن لا يُمكنني أن أراقب كلَّ رُكنٍ في آنٍ واحد. همهمَ ريش الفِراش المحتكُّ بعضه ببعض، وصرَّ خشبُ المصاريع كحبال السُّفن في أثناء عاصفة، ومن كلِّ جهةٍ حولي شعرتُ بأغوار الجزيرة البرِّيَّة تتموَّج في ظُلمتها.

حتى تلك اللَّحظة لم أكن أعي كم شيئًا أخشى. لَوِياثاناتٌ شبحيَّةٌ ضخمة تزحف صاعدةً التَّل، ديدانٌ ليليَّة تتلوَّى خارجةً من جحورها وتلصق وجوهها العمياء ببابي، آلهةٌ بأقدام ماعز تتوق إلى إشباع شهيَّتها الوحشيَّة، قراصنةٌ يكتمون صوتَ مجاذيفهم في مرفأي ويُخطِّطون لكيفيَّة اختطافي. وماذا بِيدي أن أفعل؟ سمَّاني إيِيتيس فارماكيس، ساحرةً، لكن قوَّتي كلَّها تَكمُن في تلك الزُّهور التي تفصل بيني وبينها محيطات. إذا جاء أحدٌ فلن أقدر إلَّا على الصُّراخ، وقد عرفَتْ ألفُ حوريَّةٍ من قبلي جدوى هذا.

غمرَتني أمواج الخوف ـ كلُّ واحدةٍ أبرد من سابقتها، وزحفَ الهواء السَّاكن على جِلدي، ومدَّت الظِّلال أيديها. حدَّقتُ إلى الظَّلام مرهفةً أُذنَيَّ لأحاول أن أتجاوز بسمْعي صوتَ دمي النَّابض، ومرَّت عليَّ كلُّ لحظةٍ كأنَّها ليلةٌ كاملة. لكنْ، أخيرًا اكتسبَت السَّماء قوامًا ازدادَ عُمقًا وبدأت حافتها تشحب، وانجلَت الظِّلال، وحلَّ الصَّباح. نهضتُ سالمةً لم يمسَسني سوء، ولمَّا خرجتُ لم أجد آثار أقدام كائناتٍ جالَت حول المنزل، أو علاماتٍ خلَّفتها ذيولٌ منزلقة، أو خدوشًا صنعَتها مخالب في بابي. وعلى الرَّغم من ذلك، لم أشعر بالحماقة، بل شعرتُ كأنَّني اجتزتُ محنةً كُبرى.

تطلَّعتُ ثانيةً إلى الغابة. البارحة (أكانت البارحة فحسب؟) انتظرتُ أن يجيئني أحدُهم ويُخبِرني بأنَّ المكان آمن، ولكنْ مَن عساه يجيء؟ أبي؟ إيتيس؟ هذا هو معنى المنفى، أن لا أحد سيأتي، لا أحد سيأتي أبدًا. انطوَت تلك المعرفة على نوعٍ من الخوف. لكنْ بعد ليلة الرُّعب الطَّويلة التي أمضيتها، كان لهذا الخوف وقعٌ ضئيلٌ واهي الأثر. لقد أفرزتُ السَّواد الأسوأ من جُبني مع عرقي المتصبِّب، واحتلَّت مكانه شرارةُ جَذَل، وفكَّرتُ أنَّني لن أكون كطائرٍ خرجَ من بيضته في قفص، أبلد من أن يطير حتى والباب مفتوح!

وهكذا خطوتُ إلى الغابة، وبدأت حياتي.

* * *

تعلَّمتُ أن أعقص شعري وراء رأسي كي لا يعلق بكلِّ غُصين، وكيف أعقدُ تنُّورتي عند الرُّكبتيْن لأقيهما النَّباتات الشَّائكة. تعلَّمتُ أن أميِّز مختلِف النَّباتات المعترشة المزهرة والورد الزَّاهي، وأن ألمح اليعاسيبَ البرَّاقة والثَّعابين الملتفَّة على أنفُسها. تسلَّقتُ القمم التي ترتفع فوقها أشجار السَّرو السَّوداء إلى السَّماء باستقامة الحِراب، ثمَّ نزلتُ إلى البساتين والكروم حيث تنمو حبَّات العنب الأرجوانيَّة ثخينةً كالمرجان. مشيتُ فوق التِّلال وفي مروج الزَّعتر واللَّيلك الملأى بالأزيز، وتركتُ آثار قدمَيَّ على الشَّواطئ الصَّفراء. بحثتُ عن كلِّ كهفٍ ومغارة، ووجدتُ الخلجان الهادئة والمرفأ الآمن لرسوِّ السُّفن. سمعتُ عُواءَ الذِّئاب ونقيقَ الضَّفادع في وحلها، وملَّستُ على العقارب البنِّيَّة اللَّامعة التي أقدمَتْ على لدغي بذيولها، فلم يتعدَّ إحساسي بسُمِّها قرصةً خفيفةً. كنتُ ثملةً ثملًا لم يُوصِلني إيَّاه قطُّ

النَّبيذ والرَّحيق في أبهاء أبي، وفكَّرتُ أن لا عجبَ في أني عانيتُ بُطء البديهة. طوال الوقت كنتُ نسَّاجةً بلا صوف، سفينةً بلا بحر، فانظُروا الآن أين أبحرُ.

في اللَّيل، عدتُ إلى منزلي الذي لم أعُد أمانعُ ظلاله، لأنَّ معناها أنَّ نظرة أبي قد غابَت من السَّماء وصارت السَّاعات لي. ولم أمانع الخواء كذلك، فطيلة ألفِ عامٍ حاولتُ أن أملأ الفراغ بيني وبين عائلتي، أمَّا مَلء حُجرات منزلي فوجدته أسهلَ بالمقارنة. في المدفأة أحرقتُ خشب الأَرز، ورافقَني دُخانه الدَّاكن. غنَّيتُ، وهو ما لم يكن مُباحًا من قبل، منذ قالت أمِّي إنَّ لي صوت نورسٍ يغرق. ولمَّا أصابتني الوحدة، لمَّا وجدتُ نفسي أحنُّ إلى أخي أو إلى جلاوكوس كما كان، فها هي ذي الغابة منتظرةً على الدَّوام. على الفروع اندفعَت السَّحالي، وبسطَت الطُّيور أجنحتها، وإذا رأتني الزُّهور بدَت كأنَّما تميلُ إلى الأمام كالجِراء المتحمِّسة للَّعب، تثب للمستي وتُهلِّل. شعرتُ بشيءٍ أقرب إلى الخجل منها، لكنَّني يومًا بعد يومٍ ازددتُ جرأةً؛ وأخيرًا ركعتُ على التُّربة الرَّطبة أمام أجمةٍ من الخَربَق.

اختلجَت الأزهار الرَّقيقة على سوقها، ولم أحتَج إلى سكِّينٍ لأقطعها، بل مجرَّد حافة ظُفري الذي التصقَت به قطرات النُّسغ اللَّزجة، ثمَّ وضعتُ الأزهار في سلَّةٍ مغطَّاةٍ بقُماشة، ولم أكشفها إلَّا بعد عودتي إلى المنزل وقد أغلقتُ نوافذي بإحكام. لم أحسب أنَّ أحدًا سيُحاول منعي، لكنَّني لم أسعَ لإغراء أحدهم بالمحاولة.

نظرتُ إلى الزُّهور الموضوعة على طاولتي، فبدَت منكمشةً باهتةً، ولم أملك أدنى فكرةٍ عمَّا عليَّ أن أفعله بها. أقطِّعها؟ أغليها؟ أحمِّصها؟

لقد احتوى دهان أخي على زيتٍ ما، وإن لم أدرِ نوعه. هل يَصلُح زيت زيتونٍ من المطبخ؟ مؤكَّد لا. يجب أن يكون شيئًا عجائبيًا كزيت بذورٍ معتصَر من فواكه الهسپريدات[1]، لكنَّني لا أستطيعُ الحصول عليه. تحت إصبعي، دحرجتُ ساقًا مرتخيةً كدودةٍ غارقة، وقلبتها.

ثمَّ قلتُ لنفسي: حسنٌ، لا تقفي في مكانكِ كالحجر. جرِّبي شيئًا. اغليها. ولِمَ لا؟

***

كما قلتُ، إنَّني أتمتَّعُ بالقليل من الكبرياء؛ وهذا خير، فلو زادَ قدْره لكان مميتًا.

دعوني أنفي شيئًا عن السّحر. إنَّه ليس قوَّةً ربَّانيَّةً تأتي بفكرةٍ وغمضة عيْن، بل يجب أن يُصنَع ويُشكَّل، يُجهَّز له ويُنقَّب عنه، يُستخلَص ويُجفَّف ويُقطَّع ويُطحَن ويُطبَخ، يُعوَّذ عليه ويُغنَّى. وحتى بعد كلِّ ذلك، من الممكن أن يفشل. أمَّا الآلهة فلا تفشل. إن لم تكن أعشابي طازجةً كفايةً، إن تشتَّت انتباهي، إن ضعفَت إرادتي، فقدَتِ العقاقير فاعليَّتها وفسدَت في يديَّ.

الحقُّ أنَّه لم يكن يَجدُر بي قطُّ أن أؤول إلى السّحر، فطبيعة الآلهة تجعلها تكره الكدح بكلِّ أنواعه، وأقرب ما نفعله إليه هو الغزْل أو الحِدادة. غير أنَّ مثل هذه الأشياء مهارات، ولا تنطوي على عملٍ شاق بما أنَّ قُوانا تُزيل كلَّ ما فيها من جوانب غير سارَّة. الصُّوف لا يُصبَغ في أحواضٍ كريهة الرَّائحة بملاعق التَّقليب، بل بفرقعةٍ من الأصابع، وليس

(1) الهسپريدات: حوريَّات المساء وضوء الغروب الذهبي. (المترجم).

هناك تنقيبٌ مرهِق، بل تقفز إلينا المعادنُ الخام بإرادتها من الجبال. لا أصابع تُسحَج أبدًا، لا عضلات مشدودة.

أمَّا السِّحر فليس إلَّا عملًا شاقًّا، إذ يجب العثور على كلِّ نوعٍ من العُشب في منبته، وحصاده في أوانه، واجتثاثه من التُّربة، وانتقاؤه وتجريده وغسله وتحضيره. ويجبِ التَّعامُل معه بهذه الطَّريقة، ثمَّ تلك، لاكتشاف مَكمن قوَّته. بصبرٍ، يومًا بعد يوم، عليك التَّخلُّص من أخطائك والبدء من جديد. فلِمَ لم أمانع إذن؟ لِمَ لم يُمانع أيُّنا؟

لا يُمكنني الكلام نيابةً عن أخوَي وأختي، لكنَّ إجابتي سهلة. طيلة مئة جيلٍ جبتُ العالم بغفولٍ وبلادة، بكسلٍ وعلى راحتي، لم أترك آثارًا، لم أحقِّق مآثر، وحتى من أحبُّوني قليلًا لم يُبالوا بالبقاء.

ثمَّ اكتشفتُ أنَّني أستطيعُ أن ألوي العالم بحسب إرادتي كما يُلوى القوس للسَّهم، وكنتُ لأتجشَّم ما بذلتُ من جهدٍ جهيد ألفَ مرَّةٍ في سبيل الاحتفاظ بهذه القُوى بين يدَيَّ.

وفكَّرتُ أنَّ هذا هو ما شعرَ به زوس حين رفعَ صاعقةَ البرق أوَّلَ مرَّة.

في البداية، كان كلُّ ما حضَّرته أخطاءً بالطَّبع؛ عقاقير بلا مفعول، ومعاجين تفتَّتت واستقرَّت ميتةً على الطَّاولة. خطرَ لي أنَّه ما دامَ القليل من عُشبة السَّذاب الأذفر جيِّدًا، فالمزيد منها أفضل، وأنَّ خلط عشرة أعشابٍ معًا أفضل من خمسة، أن لا بأس بأن أترك ذهني يَشرُد ولن تَشرُد معه التَّعويذة، وأنَّ بإمكاني البدء في إعداد عقَّارٍ ما، وفي منتصَف العمل أقرِّر أن أعدَّ غيره. لم أكن على درايةٍ حتى بأبسط معارف الأعشاب التي يتعلَّمها أيُّ فانٍ من أمِّه في صِغره، مثل أن بعض الحشائش المغليَّة يُصنَع

منه نوعٌ من الصَّابون، وأنَّ أوراق الطَّقسوس المحروقة في المستوقَد تبعث مزيجًا خانقًا من الدُّخان والضَّباب، وأنَّ الخشخاش في عروقه النَّوم والخَربَق الموت، وأنَّ من شأن نبتة الأخليَّة ذات الألف ورقة أن تُغلِق الجروح.. كلُّ هذه الأشياء كان عليَّ أن أمارسه وأتعلَّمه عن طريق التَّجربة والخطأ، عن طريق الأصابع المحروقة والسُّحب كريهة الرَّائحة التي جعلَتني أهرع إلى الخارج لأسعل في الحديقة.

حسبتُ في تلك الأيَّام الأولى أنَّني إذا ألقيتُ تعويذةً فلن أضطرَّ إلى تعلُّمها ثانيةً، لكنْ حتى ذلك ليس صحيحًا. مهما استخدمتُ عُشبًا ما مرارًا، فلكلِّ قَطعٍ سماته الخاصَّة. فهذه الوردة تُفصِح عن أسرارها إذا طُحِنَت، وهذه يجب أن تُعصَر، وهذه تُنقَع. كلُّ تعويذةٍ جبلٌ يجب تسلُّقه من سفحه، وكلُّ ما أحمله معي من المرَّة السَّابقة معرفتي بأنَّ النَّجاح مُمكن.

ثابرتُ. لو منحَتني طفولتي أيَّ شيءٍ فهو التَّحمُّل. رويدًا رويدًا بدأتُ أحسنُ الإصغاء، للنُّسغ الجاري في النَّباتات، وللدَّم الجاري في عروقي. تعلَّمتُ أن أفهم نيَّتي، أن أهذِّب وأضيف، أن أستشعر أين تقبع القوَّة، وأردِّد الكلماتِ السَّليمة لاجتذابها إلى ذُروتها. تلك هي اللَّحظة التي عشتُ من أجلها، عندما يتَّضح كلُّ شيءٍ أخيرًا وتُغنِّي التَّعويذة بنغمتها الصَّافية لي وحدي.

لم أستحضر تنانينَ أو أستدعِ أفاعيَ، بل كانت تعاويذي الأولى سخيفةً، أيًّا كان ما يَخطُر ببالي. بدأتُ بجوزة بلُّوط، لأنَّني فكَّرتُ بشكلٍ ما أنَّه إذا كان الشَّيء الذي أتعاملُ معه أخضرَ ناميًا يُغذِّيه الماء، فقد يمدُّني دم النَّيادات في داخلي بالقليل من المساعدة. طوال أيَّام، طوال شهور، دلَّكتُ جوزة البلُّوط تلك بالزُّيوت والمراهم،

وتكلَّمتُ عليها لأجعلها تَنبُت. حاولتُ أن أحاكي الصَّوت الذي سمعتُ إيبتيس يُصدِره عندما شفى وجهي، وجرَّبتُ اللَّعنات والصَّلوات أيضًا، ومع كلِّ هذا احتفظَتِ الجوزة المتعجرفة ببذرتها في داخلها، فرميتها من النَّافذة، وأحضرتُ واحدةً جديدةً وربضتُ فوقها طيلة نصف عصرٍ آخر. جرَّبتُ التَّعويذةَ وأنا غاضبة، وأنا هادئة، وأنا سعيدة، وأنا شبه سارحة. في أحد الأيَّام، قلتُ لنفسي إنَّني أوثرُ أن أفقد قُواي على تجربة تلك التَّعويذة مرَّةً أخرى. ما الذي أريده من بذرة بلُوطٍ على كلِّ حال؟ الجزيرة زاخرة بهذه الأشجار. ما أريده حقًّا هو حبَّة فراولة برّيَّة تنزلق بعذوبةٍ داخل حلقي المضطرب، وهكذا أخبرتُ الغلاف البنِّي.

وتبدَّلت الجوزة بسرعةٍ بالغة حتى إنَّ إبهامي غاصَ في الجسم الأحمر الطَّري. حدَّقتُ، ثمَّ صحتُ ظَفرًا لأُفزع الطُّيور على الأشجار في الخارج.

أعدتُ زهرةً ذابلةً إلى الحياة، وحرَّجتُ على الذُّباب دخول منزلي، وجعلتُ الكرز يزدهر في غير موسمه، وأحلتُ لون النَّار إلى الأخضر اليانع. لو كان إيبتيس موجودًا لانفجرَ ضاحكًا من حِيَل المطبخ هذه، ولكنْ لأنَّني لم أكن أعرف شيئًا فلا شيء وجدته أحقر من أن أهتمَّ به.

كالموج تلاطمَت قُواي. وجدتُني أتمتَّعُ بمهارة الوهم، كاستدعاء فُتاتٍ شبحيٍّ لتزحفَ وراءه الفئران، وجعل أسماك مِنوة شاحبةً تثب من بين الأمواج تحت منقار طائر غاقة. ثمَّ فكَّرتُ في ما هو أكبر، كابن مُقرض يُخيف المناجذ، وبومةٍ تُبعِد الأرانب. تعلَّمتُ أنَّ أفضل وقتٍ للحصاد تحت القمر، حين يُركِّز النَّدى والظَّلام النُّسغ، وتعلَّمتُ أيَّ النَّباتاتِ يَصلُح للنُّمو في حديقةٍ وأيُّها يجب أن يُترَك في مكانه في الغابة.

اصطدتُ الثّعابين، وتعلّمتُ كيف أستقطِر السّم من أسنانها، وصار بإمكاني استخلاصُ قطرةٍ من الزُّعاف من ذنَب دبُور، وشفيتُ شجرةً محتَضرةً، وقتلتُ كرمةً سامَّةً بلمسة.

على أنَّ إيتيس كان محقًّا، فموهبتي الأعظمُ التَّبديل، وهو ما ظلَّت أفكاري ترجع إليه دومًا. وقفتُ أمام وردةٍ فتحوَّلت إلى سوسنة، وبعقارٍ مصبوبٍ على جذور شجرة مُرَّان حوَّلتها إلى سنديانةٍ خضراء، وحوَّلتُ حطبي كلَّه إلى أرزٍ كي تُفعِم رائحته أبهائي كلَّ ليلة، وصدتُ نحلةً وحوَّلتها إلى عُلجوم، وصدتُ عقربًا وحوَّلته إلى فأر.

وهناك اكتشفتُ أخيرًا حدود قوَّتي. مهما كان الخليط فعَّالًا، مهما كانت التَّعويذة مُحكمةً، ظلَّ العُلجوم يُحاول الطَّيران، وظلَّ الفأر يُحاول اللَّدغ. التَّبديل يمسُّ الأجسام وحدها وليس العقول.

عندها فكَّرتُ في سكيلا. أما زالَت نفسُ الحوريَّة حيَّةً في داخل الوحش سُداسي الرُّؤوس؟ أم أنَّ النَّباتات النَّامية من دماء الآلهة تجعل التَّغيير كلِّيًا؟ لم أدرِ، وفي الهواء قلتُ: أينما كنتِ، آملُ أن تجدي الرِّضا.

والآن، بالطَّبع، أعلمُ أنَّها وجدَتْه.

***

ذات يومٍ في ذلك الحين، وجدتُ نفسي في أشد أدغال الغابة تشابُكًا. أحببتُ المشيَ في أنحاء الجزيرة من أدنى شواطئها إلى أعلى معالمها، أبحثُ عن الطَّحالب والسَّراخس والكروم الخفيَّة، وأجمعُ أوراقها لتعاويذي. كان الأصيل في آخِره وسلَّتي ممتلئة تمامًا عندما درتُ حول شُجيرةٍ ورأيتُ الخنزير البرّيَّ أمامي.

قبلها بفترةٍ عرفتُ بوجود الخنازير البرِّيَّة على الجزيرة، فقد سمعتُ قِباعها وتصادُمها في الأدغال، وكثيرًا ما وجدتُ بعضَ نباتات الورديَّة مُداسًا، أو مجموعةً من الشَّتلات منزوعةً من منبتها، غير أن هذا هو أوَّل خنزيرٍ رأيته.

كان ضخمًا، أكبرَ حجمًا ممَّا تصوَّرتُ الخنازير البرِّيَّة، يرتفع عموده الفقري أسود عاليًا كحواف جبل كينثوس، وتلوح على كتفيْه ندوبٌ طوليَّة محزَّزةٌ كصواعق البرق من القتالات التي خاضَها. وحدهم أشجع الأبطال يُواجِهون مثل هذه المخلوقات، وعندها يكونون مسلَّحين بالحِرابِ والكلاب والرُّماة والمعاونين، وعادةً ما يُصاحِبهم نصف دستةٍ من المُحاربين علاوةً على ذلك. أمَّا أنا، فلم يكن معي إلَّا سلَّتي وسكِّين الحفر، من دون عقَّار تعويذةٍ واحد في متناول يدي.

دقَّ الخنزير الأرض، وتساقطَت الرَّغوة من فمه، وخفضَ نابيْه وكبسَ فكَّيْه، وقالت عيناه الخنزيريَّتان: **يُمكنني أن أحطِّم مئةً من الشُّبَّان، وأرسل جثثهم إلى أمَّهاتهم المولولات. سأمزِّقُ مصارينكِ وآكلها على الغداء.**

ثبَّتُّ نظرتي على نظرته، وقلتُ له: «حاوِل».

للحظةٍ طالَت حدَّق إليَّ، ثمَّ دارَ وغابَ مرتعدًا في الدَّغل.

أقول لكم صدقًا، على الرَّغم من تعاويذي، فهذه هي المرَّة الأولى التي شعرتُ فيها حقًّا بأنِّي ساحرة.

* * *

عند مستوقَدي ليلتها، فكَّرتُ في الربَّات المختالات اللَّائي يحملن على أكتافهنَّ طيورًا، أو لديْهنَّ ظبية صغيرة تُمرِّغ أنفها في

أيديهنّ دائمًا وتمشي برقّةٍ في أعقابهنّ، وخطرَ لي أنّ باستطاعتي أن أحثو في وجوههنّ الرّماد بقُدراتي. تسلّقتُ إلى أعلى القمم ووجدتُ دربًا وحيدًا؛ هنا زهرة مسحوقة، وهنا التّربة مقلّبةٌ بعضَ الشّيء، وثمّة لِحاءٌ خدشَته مخالب. حضّرتُ عقّارًا من الزّعفران والياسمين الأصفر والسّوسن، بالإضافة إلى جذر سروٍ اقتلعته والقمر في أعلى نقاطه في السّماء، ورششتُ الخليط مترنّمةً: أستدعيكِ.

وعند الغسق التّالي دخلَتْ تتموّج من بابي، عضلات كتفَيْها بصلابة الحجر، وتمدّدت أمام مستوقَدي، ولعقَت كاحلَيّ بلسانها الخشن. في النّهار جلبَتْ لي أرانب وأسماكًا، وفي اللّيل لعقَت العسل عن أصابعي ونامَت فوق قدمَيّ؛ وأحيانًا اعتدنا اللّعب، فتتسلّل من ورائي، ثمّ تثبُ لتقبض عليّ من عُنقي. شممتُ مِسك أنفاسها السّاخن، وشعرتُ بوزن كفَّيْها الأماميّتيْن على كتفَيّ، وأريتها السكّين الذي حملته معي من أبهاء أبي، السكّين المنقوش بوجه أسد، وقلتُ لها: «انظُري. مَن الأحمق الذي صنعَ هذا؟ إنّه لم يرَ لكِ مثيلًا»، ففغرَتْ فاها البنّيّ الهائل تتثاءَب.

في حُجرة نومي مرآة من البرونز تصل إلى السّقف، ولمّا مررتُ أمامها كدتُ لا أتعرّفُ نفسي. بدَت نظرتي أصفى ووجهي أشدّ حدّةً، وهناك من ورائي ذرعَتِ الأرضَ لبؤتي البرّيّة الأنيسة. تخيّلتُ ما ستقوله بنات خالاتي لو رأينني بقدمَيّ المتّسختيْن من العمل في الحديقة، وتنّورتي المعقودة حول رُكبتَيّ، وغنائي بأعلى صوتي الهش!

تمنّيتُ أن يجئن وقد أردتُ أن أرى أعيُنهنّ الجاحظة تُحملِق إليّ وأنا أمشي بين الذّئاب في عرائنها، وأسبحُ في البحر حيث

القروش المفترسة. يُمكنني أن أحوّل سمكةً إلى طائر، وأصارع لبؤةً، ثمَّ أتمدَّد مستندةً إلى بطنها وشعري مسترسل من حولي. أردتُ أن أسمعهنَّ يَصرُخن ويشهقن ويلهثن. **أوه، لقد نظرت إليّ. سأتحوّلُ إلى ضفدعة!**

هل كنتُ أخشى مثل تلك المخلوقات حقًّا؟ هل قضيتُ عشرة آلاف عامٍ خافضةً رأسي كالفئران؟ الآن أفهمُ جرأة إيتيس وكيف وقفَ أمام أبينا كقمَّةٍ شامخة، ومتى مارستُ سحري شعرتُ بالجسارة والثِّقل أنفُسهما. تتبَّعتُ عربة أبي المشتعلة عبر السَّماء. إذن؟ ماذا لديْك لتقوله لي؟ لقد ألقيتني للغِربان، ولكن اتَّضح أنَّني أفضّلها عليك.

لم تأتِني منه إجابة، ولا من عمَّتي القمر كذلك. يا لهما من جبانيْن! توهَّجت بشرتي، وانضغطَت أسناني، ولوَّحت لبؤتي بذيلها.

ألا يملك أحدٌ الشَّجاعة؟ ألن يجرؤ أحدٌ على مواجهتي؟

كما ترون إذن، على طريقتي الخاصَّة كنتُ توَّاقةً إلى ما أتى.



الفصل الثّامن

كنتُ أعملُ في الحديقة عند الغروب بعدما غاصَ وجه أبي وراء الأشجار بالفعل، أثبّتُ النّباتات المتسلّقة طويلة الشوق على أوتاد، وأزرعُ بذور إكليل الجبل وتاج الملوك، وأغنّي لحنًا عشوائيًا أيضًا، وقد تمدَّدتِ اللّبؤة فوق العُشب بفمٍ دامٍ من طائر الطّيهوج الذي اقتنصَته.

قال الصّوت: «أقرُّ بأنّني مندهشٌ لرؤيتكِ في غاية البساطة بعد كلّ هذا التّباهي. حديقةُ زهورٍ وشعرٌ مجدول. كأنّكِ كأيِّ فتاةٍ ريفيّة».

وجدتُ الشّاب مستندًا إلى جِدار منزلي يُراقِبني، شعرُهُ مسترسَلٌ أشعث، ووجهه يتألّق كجوهرة؛ ورغم غيابِ ضوءٍ يَسقُط عليه فلم يفتقِر صندله الذّهبيُّ إلى البريق.

عرفتُ مَن يكون، بالطّبع عرفتُ. فالقوّة تشعُّ من وجهه جليّةً حادّةً كسيفٍ مسلول. أوليمبي، ابن زوس ورسوله المختار، مُشاكس الآلهة الضّاحك، هرميز.

شعرتُ بنفسي أرتجفُ، لكنَّني رفضتُ أن أدعه يرى هذا. مثلما تشمُّ القروشُ الدَّم تشمُّ الآلهةُ العُظمى الخوف، ومثلها ستلتهمك إذا شمَّته التهامًا.

قمتُ قائلةً: «ماذا توقَّعت؟».

قال مدوِّرًا عصا رفيعةً بين أصابعه بتراخٍ: «أوه، كما تعلمين، شيئًا أشنع من هذا، شيئًا تنِّينيًا، فرقةً من آباء الهول الرَّاقصين، دماءً تَقطُر من السَّماء».

أعمامي بأكتافهم الغليظة ولحاهم البيضاء اعتدتهم، أمَّا ما لم أعتده فهو هذا الجَمال المستهتِر الخالص. حين يُشكِّل النحَّاتون حجارتهم يتَّخذون هيئته نموذجًا.

- «أهذا ما يقولونه عنِّي؟».

- «بالتَّأكيد. زوس واثق بأنَّكِ تُحضِّرين سمومًا ضدَّنا جميعًا، أنتِ وأخوكِ. تعرفين كيف يقلق». قالها وابتسمَ. ابتسامته تلقائيَّة تآمُريَّة، كأنَّ غضبة زوس مجرَّد دُعابةٍ صغيرة!

- «جئت باعتبارك جاسوسًا لزوس إذن؟».

- «أفضِّلُ كلمة «مبعوث». لكنْ لا، في هذا الصَّدد يستطيع أبي القيام بعمله بنفسه. إنَّني هنا لأنَّ أخي غاضب منِّي».

ردَّدتُ: «أخوك».

- «نعم. أظنُّكِ سمعتِ عنه؟».

من معطفه أخرجَ قيثارةً مرصَّعةً بالذَّهب والعاج، تتوهَّج كما الفجر.

ـ «أخشى أنّي سرقتها، وأحتاجُ إلى مكانٍ ألوذُ به إلى أن تمرّ العاصفة. كنتُ آملُ أن تُشفِقي عليّ، بشكلٍ ما. لا أظنُّ أنّه سيبحث هنا».

انتصبَت الشُّعيرات على مؤخّرة عُنقي. كلُّ حكيمٍ يخشى غضب الإله أپولو الصّامت كنور الشّمس المميت كالطّاعون. شعرتُ بحافزٍ على النّظر من فوق كتفي، لأستوثق من أنّه لا يقطع السّماء بخُطًى حثيثة مصوّبًا سهمه المذهّب إلى قلبي، لكنّ في داخلي شيئًا سئمَ من الخوف والرّهبة، من النّظر إلى السّماء والتّساؤل عن المسموح لي من هذا أو ذاك.

وهكذا قلتُ: «ادخُل»، وقُدته عبر بابي.

* * *

نشأتُ على سماعِ قصصِ جرأة هرميز؛ كيف قامَ رضيعًا من مهده وسرقَ ماشية أپولو، وكيف قتل الحارس الوحشيّ آرجوس بعد أن أغرى كلًّا من أعيُنه الألف بالنّوم، وكيف يستطيع انتزاع الأسرار من الحجر، وفتنةَ الآلهة المنافسين أنفُسَهم ليُلبُّوا مشيئته.

كلُّ هذا صحيح، فبإمكان هرميز أن يجتذبك إليه كأنّما يفتل خيطًا، وأن يُلهيك طويلًا بحكايةٍ خياليّةٍ إلى أن تختنق ضحكًا. قبل ذلك، نادرًا ما عرفتُ الذّكاء الحقيقيّ، فلم أتكلّم مع پروميثيوس إلّا لحظاتٍ معدودةً، وفي بقيّة أبهاء أوقيانوس كلّها ما يُعَدُّ دهاءً هو في الحقيقة مجرّد خُبثٍ ونكاية. أمّا هرميز فعقله أمضى وأسرع ألف مرّة، يَبرُق كالضّوء على الموج، مبهرًا لدرجة الإعماء. ليلتها، سلّاني بحكايةٍ تلو الأخرى عن الآلهة العُظمى وحماقاتها. زوس الفاسق يتحوّل إلى ثورٍ ليُغوي عذراء

حسناء، آريس إله الحرب يتغلَّب عليه عملاقان أبقياه محشورًا في جرَّةٍ طوال عام، هافستوس ينصب فخًا لزوجته أفروديت ويرفعها في شبكةٍ ذهبيَّة وهي لا تزال عاريةً مع عشيقها آريس، ليراهما الألهة جميعًا. حكى وحكى عن الرَّذائل العبثيَّة، وشجارات السَّكارى، والمشاحنات التَّافهة المصحوبة بالصَّفعات، وكلُّ هذا بالصَّوت الباسم المراوغ نفسه، حتى شعرتُ بنفسي منتشيةً دائخةً كأنَّني تجرَّعتُ واحدًا من عقاقيري.

ـ «ألن تُعاقَب لمجيئك إلى هنا ومخالفتك منفاي؟».

ابتسمَ قائلًا: «أبي يعلم أنَّني أفعلُ ما يحلو لي. ثمَّ إنَّني لم أخالف شيئًا على كلِّ حال. أنتِ فقط الحبيسة، أمَّا باقي العالم فمن شأنه أن يأتي ويذهب كما يشاء».

قلتُ بدهشة: «لكنَّني حسبتُ... أليس إجباري على الوحدة عقابًا أعظم؟».

ـ «حسبَ مَن يزوركِ، أليس كذلك؟ لكنَّ المنفى هو المنفى. زوس أرادَ احتواءكِ، وها أنتِ ذي محتواة. إنَّهما لم يُفكِّرا في ما هو أكثر حقًّا».

ـ «وكيف عرفت كلَّ هذا؟».

«كنتُ حاضرًا. الفُرجة على مفاوضات هيليوس وزوس مصدر تسليةٍ دائم، كأنَّهما بُركانان يُحاولان أن يُقرِّرا إن كان عليهما الانفجار».

تذكَّرتُ أنَّه قاتلَ في الحرب الكُبرى، رأى السَّماء تحترق، وقتل عملاقًا يمسُّ رأسه السَّحاب؛ وعلى الرَّغم من سمته المرح وجدتُ أنَّ باستطاعتي تخيُّل ذلك.

سألته: «أخبِرني، أيُمكنك العزف على هذه الآلة أم سرقتها فقط؟».

تحسَّس الأوتار بأصابعه، لتثب الأنغام الصَّافية العذبة كالفضَّة في الهواء وثوبًا، وبمنتهى العفويَّة والبساطة صاغَها في لحنٍ كأنَّه هو نفسه إله للموسيقى، فبدا كأنَّ الحُجرةَ بأكملها حيَّةٌ في داخل الصَّوت.

رفعَ ناظريْه وقد تشرَّب وجهه وهج النَّار، وسألني: «هل تُغنِّين؟».

هذه سمةٌ أخرى من سماته، جعلك راغبًا في الإفصاح عن أسرارك.

أجبته: «لنفسي فقط. صوتي لا يسرُّ الآخرين، وقيل لي إنَّه كصياح النَّوارس».

ـ «أهذا ما قالوه؟ أنتِ لستِ نورسًا. إن لكِ صوتًا كالفانين».

مؤكَّد أنَّ الحيْرة تجلَّت على وجهي، لأنَّه ضحكَ.

ـ «لمعظم الآلهة أصوات كالرَّعد والصَّخر، ومن ثمَّ يجب أن نُخاطِب آذان البشر برفقٍ وإلَّا تهشَّموا. في أسماعنا، للفانين أصوات واهنة رفيعة».

تذكَّرتُ وقع كلمات جلاوكوس الرَّقيق في أوَّل مرَّةٍ كلَّمني، وكيف عددتها علامةً.

تابعَ: «ليس هذا شائعًا، لكنْ أحيانًا تُولَد الحوريَّات الأدنى بأصواتٍ بشريَّة، وأنتِ منهنَّ».

ـ «لِمَ لم يُخبِرني أحد؟ وكيف يُمكن هذا وليست فيَّ دماءٌ بشريَّة؟ إنَّني من نسل الجبابرة فقط».

هزَّ كتفيْه قائلًا: «مَن يُمكنه أن يُفسِّر طريقة عمل السُّلالات الربَّانيَّة؟ وأمَّا سبب أنَّ أحدًا لم يُخبِركِ، فأظنُّ أنَّهم لم يعلموا. إنَّني أقضي

مع الفانين أوقاتًا أطول من أيِّ إله، وتعوَّدتُ أصواتهم. بالنِّسبة إليَّ، هي مجرَّد نكهةٍ أخرى مثل التَّوابل في الطَّعام، لكنْ إذا وجدتِ نفسكِ بين البشر فستلحظين هذا، أنَّهم لن يخشوكِ مثلما يخشون بقيَّتنا».

في غضون دقيقةٍ حلَّ واحدًا من أعقد ألغاز حياتي. رفعتُ أصابعي إلى حلقي كأنَّ باستطاعتي أن ألمس الغرابة السَّاكنة هناك. ربَّةٌ بصوتِ فانية. كانت صدمةً، ومع ذلك شعرَ جزءٌ منِّي بشيءٍ أقرب إلى الإدراك.

قلتُ: «اعزف»، وشرعتُ أغنِّي، وتبعَت القيثارة صوتي بسلاسة، يرتفع جرسُها ليُحلِّي كلَّ بيتٍ من أغنيتي، وحين فرغتُ كان اللَّهب قد خمدَ، واحتجبَ القمر. التمعَت عيناه كجوهرتيْن داكنتيْن مرفوعتيْن في الضَّوء، لونهما الأسود من العلامات على عُمق القوَّة الآتية من نسل أقدم الآلهة. للمرَّة الأولى فطنتُ إلى غرابة فصلنا بين الجبابرة والأوليمپ، في حين أنَّ زوس أنجبَه أبوان جبَّاران بالطَّبع، وأن جدَّ هرميز نفسه هو الجبَّار أطلس. الدِّماء نفسها تجري في عروقنا جميعًا.

سألته: «هل تعرف اسم هذه الجزيرة؟».

ـ «لكنت إلهًا بائسًا للمُسافرين لو أنِّي لا أعرفُ كلَّ مكانٍ في العالم».

ـ «وهل ستُخبِرني؟».

قال: «اسمها أيايا».

ـ «أيايا». تذوَّقتُ أصوات الكلمة، ووجدتها ناعمةً تنطوي بهدوء الأجنحة في عتمة الهواء.

قال وهو يُراقِبني بانتباه: «أنتِ تعرفينها».

ـ «بالطَّبع. إنَّها المكان الذي ضمَّ فيه أبي قوَّته إلى زوس وأثبتَ ولاءه. في السَّماء، فوق هذا المكان، فتكَ بعملاقٍ جبَّار مغرقًا الأرض بالدَّم».

ـ «يا لها من مصادفة أن يُرسِلكِ أبوكِ إلى هذه الجزيرة من بين كلِّ الجُزر الأخرى!».

أحسستُ بقوَّته تمتدُّ لاستخلاص أسراري. في ما مضى، كنتُ لأندفع إليه بكأسٍ مترعة بالإجابات وأعطيه كلَّ ما يُريد، إلَّا أنَّني لم أعُد كما كنتُ. لستُ مدينةً له بشيء، ولن ينال منِّي إلَّا ما أرغبُ في إعطائه.

نهضتُ ووقفتُ أمامه شاعرةً بعينَيَّ أنا الصَّفراوَيْن كحجارة الأنهار، وقلتُ: «أخبِرني، كيف تعلم أنَّ أباكَ ليس محقًّا بشأن سمومي؟ كيف تعلم أنَّي لن أخدِّرك حيث تجلس؟».

ـ «لستُ أعلمُ».

ـ «ورغم ذلك تجرؤ على البقاء؟».

ـ «أجرؤ على أيِّ شيء».

وهكذا، أمسيْنا عشيقيْن.

***

خلال السَّنوات التَّالية تكرَّرت زيارات هرميز كثيرًا، فجاء يشقُّ بجناحيْه هواءَ الغسق، جالبًا معه بعضًا من أطايب الآلهة؛ نبيذًا مسروقًا من مخازن زوس ذاته، وألذَّ عسلٍ من جبل هايبلا حيث لا يمتصُّ النَّحل إلَّا رحيق أزهار الزَّعتر والزَّيزفون. كانت مسامَراتنا متعةً، وكذا جماعنا.

سألني: «هلَّا تحملين طفلي؟».

ضحكتُ منه، وقلتُ: «لا، مُحال مُحال».

لم يُؤلِمه ردّي، فقد أحبَّ مثل هذه الحِدَّة، لأنَّ لا دماء فيه لتُريقها. كان سؤاله على سبيل الفضول لا أكثر، ذلك أنَّ طبيعته أن يبحث عن الأجوبة، أن يضغط على الآخرين ليستنبِط مواطن ضعفهم. لقد أرادَ أن يرى كم أنا متيَّمة به، لكنَّ كلَّ ما في داخلي من افتتانٍ انمحى، ولم أتمدَّد حالمةً به نهارًا أو أهمس باسمه لوسادتي ليلًا. إنَّه ليس زوجًا، بالكاد مجرَّد صديق. إنَّه ثُعبانٌ سام، وكذلك أنا، ووفق هذه الشُّروط متَّعنا نفسينا.

أبلغَني هرميز بما فاتَني من أخبار. في أسفاره، يمرُّ فوق كلِّ قُطرٍ من أقطار العالم جامعًا النَّميمة كما يتجمَّع الوحل على حاشية الفُستان. وهكذا يعلم المآدب التي يشرب فيها جلاوكوس، ويعلم لأيِّ ارتفاعٍ يتفجَّر اللَّبن من نوافير كولخيس. أخبرني بأنَّ إيتيس بخيرٍ ويرتدي معطفًا أنيقًا من جِلد النُّمور المدبوغ، وبأنَّه اتَّخذ امرأةً فانيةً زوجةً، أنجبَت له طفلًا رضيعًا وتحمل آخر في بطنها. وما زالَت پاسيفاي تَحكُم كريت بعقاقيرها، وفي تلك الأثناء وضعَت ما يُعادِل طاقم سفينةٍ لزوجها، نصف دستةٍ من الورثة والبنات أيضًا. وپرسيس باقٍ في الشَّرق، يُحيي الموتى بدِلاء القشدة والدَّم. أمَّا أمِّي فقد تغلَّبت على دموعها، وأضافت إلى ألقابها لقبَ «أُم السَّحرة» لتختال به بين خالاتي. كلُّ هذا ضحكنا منه، ولمَّا رحل وجدتُني أعرفُ أنَّه يحكي قصصًا عنِّي بدوري؛ أظفاري السَّوداء المتَّسخة، ولبؤتي الفائحة منها رائحة المِسك، والخنازير التي بدأت تأتي إلى بابي سعيًا لفضلات الطَّعام وحكَّةٍ على الظَّهر، وطبعًا كيف ألقيتُ نفسي عليه كعذراء تتورَّد خجلًا. والحقيقة؟ لا، لم أتورَّد خجلًا، لكنَّ الباقي كلُّه صحيح.

سألته عن أشياء أخرى؛ أين تقع آيايا، وكم تَبعُد عن مصر وإثيوبيا وكلّ مكانٍ آخر يُثير الاهتمام. سألته كيف أصبح مزاج أبي، وعن أسماء أبناء إخوتي وبناتهم، وأي أمبراطوريَّاتٍ جديدة ازدهرَت في العالم. سألته وأجابني عن كلّ شيء، لكنَّ وقت سؤالي عن المسافة بيني وبين تلك الزُّهور التي أعطيتها لجلاوكوس وسكيلا، ضحكَ منّي. **أتحسبين أنّني سأشحذُ لِلَّبؤة مخالبها؟**

صبغتُ صوتي بما استطعتُ من لامبالاةٍ إذ قلتُ: «وماذا عن الجبّار العجوز بروميثيوس على صخرته؟ كيف حاله؟».

ـ «ماذا تحسبين؟ إنه يفقد كبدًا كلَّ يوم».

ـ «حتى الآن؟ لم أفهم قطُّ لِمَ أغضبَت مساعدته الفانين زوس لهذه الدَّرجة».

ـ «أخبِريني، مَن يُقدِّم قرابين أفضل؟ الرَّجل التَّعيس أم السَّعيد؟».

ـ «السَّعيد بالطَّبع».

ردَّ: «خطأ. الرَّجل السَّعيد مشغول بحياته، ولا يعدُّ نفسه مدينًا لأحدٍ بشيء، لكن اجعليه يرتجف، أو اقتُلي زوجته، أو أقعِدي طفله، وعندها ستسمعين منه. سيُجوِّع أسرته شهرًا ليشتري لكِ عجلًا ناصع البياض لم يَبلُغ الثَّانية من العُمر، وإذا قدرَ فسيشتري لكِ مئةً».

علَّقتُ: «لكنْ مؤكَّد أنَّ عليك أن تجزيه في النِّهاية، وإلَّا لكفَّ عن تقديم القرابين».

ـ «أوه، سيُدهِشكِ كم سيستمرُّ، لكنْ نعم، في النِّهاية الأفضل أن تُعطيه شيئًا، وبهذا يسعد من جديد، ويُمكنكِ البدء مرَّةً أخرى».

ـ «هكذا إذن يقضي الأوليمپ أيامهم، يُفكّرون في أساليب لجعل البشر بؤساء».

قال: «لا داعي للعفّة. أبوكِ يُجيد هذا أفضل من أيِّ أحدٍ آخر. إنَّ بإمكانه أن يُبيد قريةً كاملةً إذا حسبَ أنَّ ذلك سيُنوّله بقرةً واحدةً إضافيَّةً».

كم مرَّةً شعرتُ في سريرتي بالحبور من جرَّاء القرابين المكدَّسة على مذابح أبي؟ رفعتُ كوبي وشربتُ كي لا يرى الاحتقان في وجنتَيَّ.

قلتُ: «أظنُّ أنَّك تستطيع الذَّهاب لزيارة پروميثيوس، أنت وجناحاك، تأخذ له شيئًا على سبيل المواساة».

ـ «ولِمَ أفعلُ ذلك؟».

- «على سبيل البدعة بالطَّبع، أوَّل عملٍ صالح في حياتك الماجنة. ألا تَشعُر بالفضول نحو شعورٍ كهذا؟».

ضحكَ، لكنَّني لم ألحَّ عليه. لم يزل هرميز أوليمپيًّا، دائمًا وأبدًا، لم يزل ابن زوس، ولم يسمح لي بالتَّمادي إلَّا لأنَّني أسلِّيه، لكنَّني لم أعرف قطُّ متى قد تنتهي هذه التَّسلية. يُمكنك أن تُعلِّم الأفعى أن تأكل من يديْك، ولكنْ لا يُمكنك أن تنزع منها حُبَّها اللَّدغ.

استحال الرَّبيع إلى صيف. وذات ليلةٍ، فيما جلستُ مع هرميز نرشف من النَّبيذ، سألته أخيرًا عن سكيلا نفسها.

أضاءَت عيناه، وقال: «آه. كنتُ أتساءلُ متى سنتطرَّق إليها. ماذا تُريدين أن تعرفي؟».

أهي تعيسة؟ على أنَّه كان ليسخر من سؤالٍ خانعٍ كهذا، ولكان محقًّا. سحري، والجزيرة، ولبؤتي، كلُّ هذا انبثقَ من تحوُّلها، وليس هناك صِدقٌ في النَّدم على ما منحَني الحياة.

- «لم أعرف قطُّ ما جرى لها بعدما غاصَت في البحر. أتعرف أين هي؟».

- «ليست بعيدةً عن هنا، أقل من يومٍ من السَّفر بواحدةٍ من سُفن الفانين. لقد وجدَتْ مضيقًا يُعجِبها، على أحد جانبيْه دوَّامةٌ تبتلع السُّفن والأسماك وكلَّ شيءٍ آخرَ يمرُّ، وعلى الجانب الآخر وجه جُرفٍ فيه كهفٌ تُخفي في داخله رأسها. أيُّ سفينةٍ تتفادى الدوَّامة تنساق إلى فكوكها مباشرةً، وهكذا تتغذّى».

ردَّدتُ: «تتغذَّى».

- «نعم. إنَّها تأكل البحَّارة. ستَّة في المرَّة الواحدة، واحد لكلِّ فم. وإذا كانت المجاذيف أبطأ من اللَّازم أخذَت اثني عشر رجلًا. بعضهم يُحاول مقاومتها، لكنْ لكِ أن تتخيَّلي النَّتيجة. يُمكنكِ سماعهم يَصرُخون من مسافةٍ بعيدة».

تجمَّدتُ في مقعدي. لقد تخيَّلتها دومًا تسبح في الأعماق وتمتصُّ اللَّحم البارد من الحبابرة. لكن لا. لطالما أرادَت سكيلا نور النَّهار، لطالما أرادَت جعل الآخرين يذرفون الدُّموع. والآن أضحَت وحشًا كاسرًا مسلَّحًا بالأسنان ومدرَّعًا بالخلود.

- «ألا يستطيع أحدٌ إيقافها؟».

- «زوس يستطيع، أو أبوكِ، إذا أرادا. ولكنْ لِمَ قد يُريدان ذلك؟ الوحوش منفعة للآلهة. تخيَّلي كمَّ الصَّلوات».

كان حلقي قد انسدَّ. هؤلاء الرِّجال الذين أكلَتهم كانوا بحَّارةً مثل جلاوكوس، يائسين رثِّي الملابس أهزلَهم الخوف. كلُّهم موتى، كلُّهم دُخانٌ باردٌ مطبوعٌ عليه اسمي.

ظلَّ هرميز يُراقِبني وقد حنى رأسه جانبًا كطائرٍ فضوليٍّ في انتظار ردَّة فعلي. هل أكونُ خرعةً كالحليب المقشود وأبكي؟ أم هارپي بقلبٍ من حجر؟ ما من منطقةٍ وُسطى. أيُّ شيءٍ آخر لا يتَّسق بالكامل مع الحكاية السَّاخرة التي أرادَ أن ينسجها من الموقف.

تركتُ يدي تَسقُط على رأس لبؤتي لأشعر بالجمجمة الصُّلبة الضَّخمة تحت أصابعي. في وجود هرميز لا تنام على الإطلاق، وتظلُّ عيناها مفتوحتيْن يَقِظتيْن.

قلتُ: «سكيلا لم ترضَ بواحدٍ فقط قطُّ».

افترَّ ثغره عن ابتسامة. كلبةٌ قلبها جُرف.

قال: «كنتُ أنوي أن أخبركِ. لقد سمعتُ نبوءةً عنكِ، بلغَتني من عرَّافةٍ عجوز تركَت معبدها، وكانت تجوب الحقول لتقرأ الطَّالع».

كنتُ قد اعتدتُ تنقُّلات عقله السَّريعة، والآن شعرتُ بالامتنان لها. «وتصادفَ مرورك وهي تتكلَّم عنّي؟».

ـ «لا طبعًا. لقد أعطيتها كأسًا ذهبيَّةً مزخرفةً كي تُخبِرني بكلِّ ما تعرفه عن سرسي بنت هيليوس، ساحرة آيايا».

ـ «طيِّب...؟».

ـ «قالت إنَّ يومًا ما سيأتي رجلٌ من نسلي اسمه أودسيوس إلى جزيرتكِ».

ـ «و...؟».

قال: «هذا كلُّ ما هنالك».

ـ «هذه أسوأ نبوءةٍ سمعتها في حياتي».

زفرَ قائلًا: «أعرفُ. أظنُّ أنَّني خسرتُ كأسي».

لم أحلم به كما ذكرتُ، ولم أجدل اسمه باسمي. ليلًا ننام معًا، وإذا انتصفَ اللَّيل رحلَ، وأنهضُ أنا وأذهبُ إلى غابتي. في أغلب الأحيان تحرَّكت لبؤتي إلى جانبي، ولشدَّ هذه المتعة، أن نمشي في الهواء الفاتر وتمسُّ أوراق النَّباتات الرَّطبة أرجُلنا بخفَّة، وبين الحين والآخر أتوقَّف لأحصد هذه الزَّهرةَ أو تلك.

لكنَّ الزَّهرة التي رغبتُ فيها حقًّا انتظرتها. تركتُ شهرًا يمرُّ بعد أن تكلَّمتُ مع هرميز أوَّل مرَّة، ثمَّ شهرًا آخر. لم أرده أن يُراقِبني، فليس له دورٌ في هذه المسألة. إنَّها لي.

لم أجلب مشعلًا، فبريق عينَيَّ في الظُّلمة أفضل من بصرِ أيِّ بومة، وهكذا مشيتُ بين الأشجار الظَّليلة، وعبر البساتين الهادئة والكروم والأدغال، وعلى الرِّمال وفوق الجروف. كانت الطُّيور ساكنةً، وكذا الحيوانات، وما من صوتٍ إلَّا أنفاسي والهواءُ بين أوراق الشَّجر.

وها هي ذي مختبئةٌ في عفن الأوراق، تحت السَّراخس وعيش الغُراب، زهرةٌ صغيرةٌ كظُفر الإصبع بيضاءُ كالحليب. دم ذلك العملاق الذي سفكَه أبي في السَّماء. قطفتُ واحدةً من السُّوق المتشابكة، وللحظةٍ تمسَّكت الجذور بالتُّربة بقوَّةٍ قبل أن تستسلم، ووجدتها سوداء سميكةً، رائحتها معدن وملح. لم يكن للزَّهرة اسمٌ أعرفه، فأطلقتُ عليها مولي، «الجذر»، من لُغة الآلهة العتيقة.

آهِ يا أبي! أوتدري الهديَّة التي منحتني إيَّاها؟ هذه الزَّهرة الرَّقيقة لدرجة أنَّها ستذوب إذا خطوْت فوقها، هذه الزَّهرة تحمل في داخلها القوَّة الرَّاسخة المسمَّاة أپوتروپ، إزاحة الشَّر. كاسرة اللَّعنات، حمايةً

ووقايةٌ من الدَّمار، تُعبَد كأنَّها ربَّة لأنَّها نقيَّة، الشَّيء الوحيد في العالم الذي لك أن تثق بأنَّه لن ينقلب عليك.

يومًا بعد يومٍ ازدهرَت الجزيرة، وتسلَّقت حديقتي جُدران منزلي، ونفثَت عبيرها من نوافذي التي كففتُ عن إغلاقها. فعلتُ ما يطيب لي، ولو سألتني لقلت لك إنَّني سعيدة. غير أنَّني لم أنسَ.

دُخانٌ باردٌ مطبوعٌ عليه اسمي.

الفصل التّاسع

كان الوقت صباحًا، الشّمس فوق الأشجار مباشرةً، وأنا في الحديقة أقطفُ زهور الشُّقّار من أجل طاولتي. وبينما تخنُّ الخنازير متشمّمةً الفضلات التي تأكلها، قرّر أحد الخنازير البرّيّة أن يكون مشاكسًا، فراح يدفع ويقبع ليُعلِن سُلطته. نظرتُ في عينيْه قائلةً: «البارحة رأيتك تَنفُخ الفقاقيع في الغدير، وقبلها بيومٍ لم تنل من الخنزيرة المرقّطة إلّا الطّرد وأذنًا معضوضةً. الزم الأدبَ إذن».

دبدبَ على التُّربة حانقًا، ثمّ ارتمى على بطنه واستقرّ منصاعًا.

ـ «هل تُكلّمين الخنازير في غيابي دومًا؟».

وجدتُ هرميز واقفًا بمعطف السّفر، وقد أمال قبّعته عريضة الحافة فوق عينيْه.

ردَدتُ: «أحبُّ أن أفكّر أنّ العكس هو الصّحيح. ما الذي أخرجَك في ضوء النّهار كالصّالحين؟».

- «ثمَّة سفينة قادمة. خطرَ لي أنَّكِ قد تودِّين أن تعرفي».

نهضتُ قائلةً: «هنا؟ أيُّ سفينة؟».

ابتسمَ. لطالما راقَه أن يراني حائرةً. «ماذا ستُعطينني إذا أخبرتكِ؟».

قلتُ: «ارحل. إنَّني أفضِّلك في الظَّلام».

وابتسمَ واختفى.

* * *

جعلتُ نفسي أمارسُ أشغالي الصَّباحيَّة كالمعتاد، تحسُّبًا لكون هرميز يُراقِبني، لكنَّني شعرتُ بالتَّوتُّر في قرارتي، بالتَّرقُّب المشدود، ولم أستطع الحيلولة دون التفات بصري إلى الأفق. سفينةٌ، سفينةٌ تحمل زُوَّارًا وجدَهم هرميز مدعاةً للفُكاهة. مَن؟

وصلوا في منتصف الأصيل منبثقين من مرآة الموج اللَّامعة، سفينتهم أكبر من مركب جلاوكوس عشر مرَّات، وحتى من بعيدٍ كان بإمكاني رؤية جودتها، ببدنها الرَّشيق وألوانها الزَّاهية وتمثال المقدِّمة الضَّخم العالي. شقَّت السَّفينة الهواء الخامل تجاهي مباشرةً بتجذيفٍ ثابتٍ من ملَّاحيها، وإذ اقتربوا شعرتُ بتلك القفزة المتلهِّفة القديمة في حلقي. إنَّهم فانون.

ألقى البحَّارة المرساة، ووثبَ رجلٌ واحدٌ من فوق الجانب المنخفض، وخاضَ الماء نحو السَّاحل، وتبعَ الخطَّ الواصل بين الشَّاطئ والغابة إلى أن وجدَ طريقًا، دربَ خنازير صغيرًا يتعرَّج إلى أعلى بين أعواد الأقنثوس وأيك إكليل الغار، مرورًا بخميلة الشُّجيرات الشَّائكة. عندها غابَ عن نظري، لكنَّني أعلمُ إلى أين يقود الطَّريق، وهكذا انتظرتُ.

عندما رأى لبؤتي كبحَ حركته، ولكنْ للحظةٍ لا أكثر، وبكتفيْن مستويتيْن لا تنحنيان ركعَ لي فوق عُشب الفسحة. أدركتُ أنّني أعرفه. إنَّه أكبر سنًّا الآن، وفي جِلد وجهه مزيدٌ من التّجاعيد، إلّا أنّه الرَّجل نفسه، ما زال رأسه حليقًا وما زالت عيناه رائقتيْن. من بين جميع الفانين على الأرض هناك قلّةٌ قليلة سمعَت بها الآلهة. فكّر في الجوانب العمليّة لمسألةٍ كهذه. لدى معرفتنا بأسمائهم سيكونون قد ماتوا، وعليه يجب أن يكونوا كالشُّهب حقًّا كي يلفتوا انتباهنا. وأمّا مجرّد الجيّد منهم، إنّكم عندنا غُبار.

قال: «سيّدتي، أعتذرُ لإزعاجكِ».

ردَدتُ: «لم تُزعِجني بعدُ. انهض من فضلك إذا أردت».

إذا لاحظ صوتي الفاني فإنَّ بادرةً لم تَلُح عليه. نهضَ... لن أقول برشاقة، لأنَّ قوامه أصلب من ذلك.. ولكنْ بيُسرٍ، كبابٍ يتأرجح على مفصلةٍ جيّدة التَّركيب. قابلَت عيناه عينَيَّ من دون إحجام، ففكّرتُ أنّه تعوّد التّعامُل مع الآلهة، والسّحرة أيضًا.

ـ «ما الذي جاء بدايدالوس الشّهير إلى بَرّي؟».

ـ «يُشرّفني أنّكِ تعرفينني». تكلَّم بصوتٍ كالرّياح الغربيّة، ثابتٍ دافىءٍ مستقر. «لقد جئتُ رسولًا من أختكِ. إنَّها حُبلى، ووقت الوضع يقترب. تَطلُب منكِ أن تحضري الولادة».

رمقته قائلةً: «أأنت واثق بأنك جئت إلى المكان الصّحيح أيُّها الرّسول؟ لم يكن بين أختي وبيني حُبٌّ قطُّ».

ـ «إنَّها لم تبعث في طلبكِ من أجل الحُبّ».

هبَّ النَّسيم حاملًا شذا زهور الزَّيزفون، مصحوبًا في خلفيَّته برائحة وحل الخنازير الكريهة.

ـ «قيل لي إنَّ أختي ولدَت نصف دستةٍ من الأولاد، كلًّا منهم أسهل من سابقه. لا يُمكن أن تموت في أثناء الوضع في حين ينمو أطفالها بعافيةٍ من قوّة دمها. ما حاجتها إليَّ إذن؟».

بسطَ يديْن تبدو عليهما الرَّشاقة وتُغلِّظهما العضلات، وقال: «معذرةً يا سيِّدتي، لا يُمكنني أن أقول المزيد، لكنَّها طلبَت منِّي أن أخبركِ بأنَّه إذا لم تُساعِديها فلا أحدٌ آخر يقدر. إنَّ فنَّكِ هو ما تُريده يا سيِّدتي، فنَّكِ وحدكِ».

إذن فقد سمعَتْ باسيفاي عن قُواي، وقرَّرت أنَّها من المُمكن أن تنفعها. كانت هذه أوَّلَ مجاملةٍ أنالها منها في حياتي كلِّها.

ـ «أملَتْ أختكِ عليَّ أن أقول أيضًا إنَّها أخذَت إذنَ أبيكِ في ذهابكِ. سيُرفَع منفاكِ لأجل هذا».

قطَّبتُ وجهي. كلُّ هذا غريب، غريب جدًّا! ما الشَّأن المهمُّ لدرجة جعلها تذهب إلى أبي؟ وإذا كانت محتاجةً إلى المزيد من السِّحر، فلِمَ لا تذهب إلى برسيس؟ بدا لي الأمر كخدعةٍ ما، لكنَّني لم أفهم لِمَ تُجشِّم أختي نفسها العناء. إنَّني لستُ مصدر تهديدٍ لها.

شعرتُ بالإغراء يتمكَّن من نفسي. الفضول انتابَني بالطَّبع، لكنْ في المسألة ما هو أكثر. إنَّها فُرصةٌ لأن أريها ما أصبحته. أيًّا كان الفخ الذي قد تنصبه فلا يُمكنها أن تُوقِعني فيه، لم يَعُد يُمكنها.

قلتُ: «يا لها من راحةٍ أن يَبلُغني خبرُ الإفراج عنِّي! لستُ أطيقُ الانتظار حتى أتحرَّرُ من هذا السِّجن الشَّنيع». لحظتها كانت التِّلال المدرَّجة المحيطة بنا تتوهَّج بنضارة الرَّبيع.

قال من دون أن يبتسم: «هناك... شيءٌ آخر. تعليماتي أن أخبركِ بأنَّ طريقكِ عبر المضيق».

- «أيُّ مضيق؟».

لكنَّني رأيتُ الإجابة على وجهه؛ البُقع الدَّاكنة تحت عينيْه، وإرهاق الأسى.

ارتفعَ الغَثَيان في حلقي إذ قلتُ: «حيث تَقطُن سكيلا».

أومأَ برأسه إيجابًا.

- «وأمرَتك بأن تأتي من ذلك الطَّريق أيضًا؟».

- «أجل».

- «كم رجلًا فقدت؟».

- «اثنَي عشر. لم نكن بالسُّرعة الكافية».

كيف نسيتُ مَن هي أختي؟ مستحيل أن تَطلُب معروفًا فحسب، وعلى الدَّوام لا بُدَّ من أن تحمل كُرباجًا لتسوقك وفق هواها. كان بإمكاني تخيُّلها تتفاخَر وتضحك لمينوس. سمعتُ أنَّ سرسي الحمقاء مفتونةٌ بالفانين.

كرهتها أكثر من قبل. الأمر كلُّه يَحدث بقسوةٍ بالغة. تخيَّلتُ الانسحاب إلى منزلي وصفقَ الباب على مفصلته الضَّخمة. يا للأسف يا باسيفاي. عليكِ أن تجدي أحدًا أحمق غيري.

لكنْ، عندئذٍ سيموت ستَّة رجالٍ آخرون، أو اثنا عشر.

ضحكتُ بسخريةٍ من نفسي. مَن قال إنَّهم سيعيشون إذا ذهبتُ؟ إنَّني لا أعرفُ أيَّة تعاويذَ لردع الوحوش، ولمَّا تراني سكيلا ستثور، أي إنني لن أفعل إلَّا جلب المزيد من غضبها على رؤوسهم.

كان دايدالوس يُراقِبني بوجهٍ سقطَ عليه الظِّل. بعيدًا وراء كتفه كانت عربةُ أبي تنغمس في البحر، وفي غُرف قصورهم المغبَّرة يتتبَّع المنجِّمون مجدَ غروبها آملين أن تصحَّ حساباتهم، ترتجف رُكبهم النَّحيلةُ وهُم يُفكِّرون في فأس الجلَّاد.

جمعتُ ملابسي وحقيبة أعشابي، ثمَّ أغلقتُ الباب ورائي. لم يكن هناك شيءٌ آخر أفعله. اللَّبؤة تستطيع العناية بنفسها.

ـ «أنا مستعدَّة».

***

وجدتُ طراز السَّفينة المتوازنة المنخفضة في الماء جديدًا عليَّ؛ البدنُ مرسومةٌ عليه أمواجٌ متلاطمة ودلافين متواثبة، وفي المؤخَّرة يمدُّ أخطبوطٌ أذرُعه الثُّعبانيَّة.

ريثما يرفع الرُّبَّان المرساة، ذهبتُ إلى مقدِّمة السَّفينة لأفحص التِّمثال الذي رأيته. فتاةٌ صغيرةٌ في فُستان رقص، وجهها يحمل تعبير دهشةٍ سعيدة، عيناها متَّسعتان، شفتاها منفرجتان قليلًا، شعرها مسترسَل على كتفيْها، يداها الصَّغيرتان مشبَّكتان ومضمومتان إلى صدرها، وتتَّخذ وضع الاستعداد على أصابع قدميْها كأنَّ الموسيقى على وشك البدء. كلُّ تفصيلة، خُصلات شعرها، طيَّات ثيابها، تنضح حياةً لدرجة أنَّني حسبتها ستخطو في الهواء حقًّا في أيِّ لحظة. على أنَّ هذا كلَّه ليس المعجزة الحقيقيَّة، فالعمل يُظهِر ـ ولا أدري كيف ـ لمحةً من نفس الفتاة؛ البحث الذَّكيَّ في نظرتها، والبهاءَ العازم في قسماتها، وحماستها وبراءتها التِّلقائيَّة الخضراء كالكلأ.

لم يكن هناك داعٍ لأن أسأل عن اليد التي شكَّلتْها. أخي دعا دايدالوس بأحد عجائب عالم الفانين، لكنَّ هذه في أيِّ عالمٍ أعجوبة!

تأمّلتُ في محاسنها طويلًا لأجد واحدًا جديدًا كلَّ لحظة، كالغمّازة الصّغيرة في ذقنها، ونتوء كاحلها بشبابه اللّعوب.

آيةٌ في الجَمال هذه، لكنّها رسالةٌ أيضًا. لقد ترعرعتُ عند قدمَيْ أبي، وأعرفُ استعراض القوّة عندما أراه. لو كان ملكٌ آخر يملك كنزًا مثل هذا لأبقاه تحت الحراسة في أشدّ قصوره حصانةً، أمّا مينوس وپاسيفاي فوضعاه على سفينةٍ مكشوفًا للملح والشّمس، وللقراصنة وعواصف البحر والوحوش، كأنّهما يقولان: **إنّما هذا مجرّد شيءٍ تافه. إنّ عندنا ألفًا، والأفضل أنّ عندنا الرّجل الذي يصنعها.**

لفتَت دقّاتُ الطّبل انتباهي. كان الملّاحون قد جلسوا على دِككهم، وشعرتُ برجرجة الحركة الأولى. بدأت مياه المرفأ تتراجع مارّةً بنا، وجزيرتي تتضاءَل من خلفنا.

نقلتُ ناظرَيّ إلى الرّجال الذين يمتلئ بهم سطح السّفينة من حولي. ثمانية وثلاثون إجمالًا، منهم خمسة حرسٍ يذرعون المؤخّرة مرتدين الحرامل والدّروع الذّهبيّة، أنوفهم متكتّلة مشوّهة من انكسارها مرارًا. تذكّرتُ إيبتيس إذ قال عنهم مستهزئًا: **بلطجيّة مينوس المتأنّقون كالأمراء.** الملّاحون من خيرة بحريّة كنوسوس القويّة، ضخام الحجم، حتى إنّ المجاذيف تبدو رقيقةً في أيديهم، وحولهم يتحرّك البحّارة الآخرون بسرعةٍ رافعين مظلّةً تقينا الشّمس.

في زفاف مينوس وپاسيفاي بدَت كُتلة الفانين الذين رأيتهم بعيدةً مشوّشةً، ووجدتهم متشابهين كالأوراق على شجرة، لكنْ هنا تحت السّماء يبدو كلُّ وجهٍ مميّزًا تمامًا. هذا غليظ، هذا أملس، هذا ملتحٍ وله أنف معقوف وذقن ضيّق. أبصرتُ ندوبًا وتكلّساتٍ وخدوشًا،

وتجاعيدَ شيخوخةٍ وخُصلَ شعرٍ ناتئةً. أحدهم يلفُّ عُنقه بقطعة قُماشٍ مبلَّلة لاتِّقاء الحرّ، وآخر يضع حول معصمه سوارًا صنعَته يدان طفوليَّتان، ولثالثٍ رأسٌ شبيهٌ بطائر الدَّغناش. أدارَ رأسي إدراكُ أنَّ هؤلاء ليسوا إلَّا جزءًا من جزءٍ من البشر الذين أنجبَهم العالم. كيف استمرَّ هذا التَّنوُّع، هذا التَّكرار اللَّا نهائي للعقول والوجوه؟ كيف لم يُصِب الأرضَ الجنونُ؟

قال دايدالوس: «هلَّا جلبتُ لكِ مقعدًا؟».

التفتُّ مسرورةً لمُهلة النَّظر إلى وجهه وحده. لا يُمكن أن أحدًا نعتَ دايدالوس بالوسامة، غير أنَّ لملامحه متانةً جذَّابة.

أجبتُ: «أفضِّلُ الوقوف»، وأضفتُ مشيرةً إلى تمثال المقدِّمة: «إنَّها جميلة».

حنى رأسه بطريقة الرَّجل الذي اعتادَ مثل هذه المجاملات، وقال: «أشكركِ».

- «أخبِرْني بشيء. لماذا تضعك أختي تحت المراقبة؟». حين صعدَ إلى متن السَّفينة، رأيتُ أكبر الحُرَّاس حجمًا، قائدهم، يُفتِّشه بغلاظة.

قال بابتسامةٍ خفيفة: «آه. مينوس وپاسيفاي يخشيان أنِّي لا... أقدِّرُ كرم ضيافتهما تمام التَّقدير».

تذكَّرتُ لمَّا قال إيتيس: إنَّه حبيسٌ عند پاسيفاي.

- «مؤكَّد أنَّك كنت تستطيع الهرب منهما في الطَّريق».

- «كثيرًا ما أستطيعُ الهرب منهما، لكنَّ عند پاسيفاي شيئًا يخصُّني لن أتركه».

انتظرتُ المزيد، لكنَّه لم يأتِ. أراح دايدالوس يديْه على الحاجز، مفاصلهما مرضوضة، وأصابعهما مظلَّلة بأخاديد النُّدوب البيضاء، كأنَّه اخترقَ بها خشبًا مكسورًا أو شظايا زُجاج.

قلتُ: «في المضيق، هل رأيتم سكيلا؟».

ـ «ليس بوضوح. كان الرَّذاذ والضَّباب يُخفيان الجُرف، وتحرَّكت هي بسرعةٍ بالغة. ستَّة رؤوس ضربَت مرَّتيْن بأسنان الواحدة منها بطول السَّاق».

كنتُ قد رأيتُ البُقع على السَّطح. صحيحٌ أنَّها نُظِّفَت، لكنَّ الدِّماء غاصَت في عُمق الخشب. هذا هو كلُّ ما تبقَّى من اثنتي عشرة حياةً. تلوَّت معدتي من الشُّعور بالذَّنب، تمامًا كما قصدَتْ پاسيفاي.

ـ «ينبغي أن تعلم أنَّني أنا التي فعلتها، أنا التي جعلتُ سكيلا على ما هي عليه. لهذا نُفيتُ، ولهذا جعلَتْك أختي تَسلُك هذا الطَّريق».

راقبتُ وجهه بحثًا عن الدَّهشة أو الاشمئزاز أو حتى الفزع، لكنَّه اكتفى بالإيماء برأسه قائلًا: «لقد أخبرَتني».

بالطَّبع أخبرَته. إنَّها مسمَّمة في قلبها، وأرادَت أن تضمن أن أظهر باعتباري شرِّيرةً لا منقذةً. الفرق أنَّ هذه هي الحقيقة الخالصة هذه المرَّة.

قلتُ: «هناك شيءٌ لا أفهمه. على الرَّغم من قسوة أختي، فإنَّها لا تتصرَّف بحماقةٍ أغلب الوقت. لِمَ تُخاطِر بك في هذه المهمَّة؟».

أجاب: «لقد حزتُ مكاني هنا بنفسي. إنَّني ممنوع من قول المزيد، لكنْ أظنُّكِ ستفهمين عندما نصل إلى كريت»، وتردَّد لحظةً قبل أن يسأل: «هل تعلمين إن كان هناك شيءٌ يُمكننا فعله ضدَّها؟ سكيلا؟».

من فوقنا، أحرقَت الشَّمس جُذاذات السُّحب الأخيرة، وراح الرِّجال يلهثون على الرَّغم من المظلَّة.

ـ «لا أدري. سأحاولُ».

ووقفنا بصمتٍ إلى جوار تلك الفتاة الواثبة فيما تقدَّمنا في البحر.

* * *

ليلتها خيَّمنا على ساحل أرضٍ خضراءَ وارفة. جلسَ الرِّجال حول نيرانهم متوتِّرين هادئين وقد كتمَهم الخوف، وترامَت إلى مسامعي همساتُهم وصوتُ حركة النَّبيذ في القنينة إذ مرَّروها بينهم. لا رجل منهم أرادَ أن يستلقي مستيقظًا يتخيَّل الغد.

علَّم دايدالوس مساحةً صغيرةً لي بلفَّة فِراش، لكنَّني تركتها، فلم أحتمل أن تُحيط بي هذه الأجساد المتنفِّسة القلقة.

كان غريبًا أن أطأ أرضًا ليست أرضي. حيث توقَّعتُ أيكةَ ألفيتُ دغلَ أيائل، وحيث حسبتُ أن هناك خنازيرَ كشفَ لي غُرَيرٌ أسنانه. وجدتُ التَّضاريسَ أكثر تسطُّحًا من جزيرتي، والغابات واطئةً، والزُّهور في تشكيلاتٍ مختلفة، ورأيتُ شجرةَ لوزٍ مُر وشجرةَ كرزٍ مزهرة، وأحسستُ في أصابعي برغبةٍ قويَّة في حصد ما فيهما من قوَّةٍ غنيَّة. انحنيتُ وقطفتُ زهرةَ خشخاش لمجرَّد أن أحمل لونها في يدي، وشعرتُ بنبض بذورها السَّوداء. **هلمِّي، اصنعي منَّا سحرًا.**

لم أطِعها. كنتُ أفكِّرُ في سكيلا، أحاولُ أن أكوِّن صورةً من كلِّ ما سمعتُه عنها: ستَّة أفواه، ستَّة رؤوس، اثنتا عشرة ساقًا متدلِّيةً. ولكنْ كلَّما حاولتُ تملَّصت الصُّورة منِّي، وبدلًا من ذلك رأيتُ وجهها كما

كان في أبهائنا، مستديرًا ضاحكًا. كانت انحناءةُ رُسغها كعُنق البجعة، وذقنها يميل برقّةٍ لتهمس بكسرةٍ من النَّميمة في أُذن أختي، وإلى جانبهما يجلس پرسيس متصنِّعًا الابتسام. اعتادَ أخي أن يعبث بشعر سكيلا ويلفُّه حول إصبعه، لتلتفت هي وتلطمه على كتفه، لتتردَّد أصداء الصَّوت في القاعة، ويضحك كلاهما لأنَّهما لطالما أحبَّا أن يكونا في مركز الاهتمام. تذكَّرتُ تساؤلي لماذا لِمَ تُمانِع أختي مثل هذه العروض، لأنَّها لم تسمح لأحدٍ إلَّا نفسها بالاقتراب من پرسيس؛ ومع ذلك اكتفت بالمشاهدة والابتسام.

ظننتُ أنَّني قضيتُ تلك السّنين في أبهاء أبي عمياءَ كالخُلد، لكن الآن استعادَت ذاكرتي المزيد من التَّفاصيل. الزّيُّ الأخضر الذي تعوَّدت سكيلا ارتداءه في المأدب الخاصَّة، صندلها الفضّي الذي يُزيّن اللّازوردُ شريطه، وكان هناك دبُوس ذهبيٌ في طرفه قطَّة يرفع شعرها عن رقبتها، وحصلت عليه من... طيبة على ما أظنُّ، طيبة المصريَّة، من معجبٍ ما هناك، إلهٍ له رأسُ حيوانٍ أو طائر. ماذا حدثَ لتلك الحِلية؟ ألا تزال ملقاةً وسط العُشب إلى جوار الماء مع ثيابها المهمَلة؟

بلغتُ مرتفعًا صغيرًا مزدحمًا بأشجار الحَوْر السَّوداء، ومشيتُ بين جذوعها المحزَّزة. إحداها ضربَها البرق في الفترة الأخيرة، فحمل الجذعُ جرحًا مسودًّا ينزُّ. لمستُ النُّسغ المحروق بإصبعي شاعرةً بقوَّته، وآسفةً لأنَّني لم أجلب زجاجةً إضافيَّةً أعبّئه فيها. جعلَني هذا أفكّرُ في دايدالوس، ذلك الرَّجل المستقيم بما في عظامه من نار.

ما الشّيء الذي يأبى أن يتخلَّى عنه؟ عندما ذكرَه اصطبغَ وجهه بالحذر، وخرجَتْ كلماته محسوبةً بدقَّةٍ كأنَّها بلاطاتُ نافورة. مؤكّد

أنّه شخصٌ يحبّه، وصيفةٌ حسناء من القصر أو سائسُ خيلٍ وسيم. تستطيع أختي أن تشمّ مثل هذه المكايد من بُعد عامٍ كامل، وربّما أمرت ذلك الشّخص بالذّهاب إلى فِراشه أصلًا كأنّه صنّارة تصطاد بها سمكةً. لكنْ إذ حاولتُ تصوُّر وجه شخصٍ كهذا وجدتُني لا أومنُ بوجوده، فدايدالوس لم يبدُ كرجلٍ محزون الفؤاد من مأساةٍ حديثة، أو كعاشقٍ قديمٍ له منذ سنين زوجة تشكّلت على البقاء إلى جانبه. لم أستطع تخيُّله واحدًا من اثنيْن، بل أوحد وحيد. أهو الذّهب إذن؟ أحد اختراعاته؟

فكّرتُ أنّني إذا استطعتُ الحفاظ على حياته غدًا فقد أعرفُ.

كان القمر يمرُّ بالأعلى ومعه اللّيل. ومرّةً أخرى تكلّم صوت دايدالوس في أُذنيّ. أسنان الواحدة منها بطول السّاق. تدفّق في داخلي خوفٌ بارد. فيمَ كنتُ أفكّرُ حين حسبتُني أقوى على التّصدّي لكائنةٍ مثلها؟ سيُمزَّق حلق دايدالوس تمزيقًا، وتنتزع أفواهها لحمي. وبعد أن تَفرُغ منّي ماذا سأصبحُ؟ رمادًا؟ دُخانًا؟ عظامًا خالدةً يدفعها التيّار في قاع البحر.

وجدَتْ قدماي الشّاطئَ الرّماديَّ الفاتر، فمشيتُ عليه مصغيةً إلى غمغمة الموج وصياح طيور اللّيل، لكنْ إن أصدقتك القول فقد كنتُ أصغي مترقّبةً شيئًا آخر، الاندفاعة السّريعة في الهواء التي صرتُ أعرفها. كلَّ ثانيةٍ أملتُ أن يحطَّ هرميز بتوازُنه المعهود أمامي، يضحك، يستحثّني. إذن يا ساحرة آيايا، ماذا ستفعلين غدًا؟

فكّرتُ في أن أتوسّل إليه ليُساعِدني، الرّمال تحت رُكبتَيّ، وكفّاي ممدودتان إلى أعلى. أو قد يُمكنني أن أطرحه أرضًا وأمتّعه بتلك

الطَّريقة، فأكثر ما يحبُّه هو المفاجآت. كان بإمكاني سماع القصص التي سيحكيها لاحقًا. كانت يائسةً لدرجة أنَّها نطَّت عليَّ كالقطَّة. خطرَ لي أنه يَجدُر به أن ينام مع أختي. سيروق كلاهما الآخر. ثمَّ خطرَ لي بغتةً وللمرَّة الأولى أنَّه ربما فعل ذلك بالفعل، ربما ناما معًا كثيرًا وسخرا من بلادتي، ربما كان كلُّ هذا فكرته! ولهذا جاء صبيحة اليوم ليتهكَّم عليَّ ويشمت فيَّ. استعادَ ذهني حوارنا مغربلًا إيَّاه بحثًا عن معنى. أترى السُّرعة التي يجعل بها المرء يتحامَق؟ هذا هو ما يشتهيه فوق كلِّ شيء، أن يسوق الآخرين إلى الشك، ويجعلهم لا يكفُّون عن التَّساؤل والقلق والتَّعثُّر وراء قدميْه المتراقصتيْن. بصوتٍ مسموع خاطبتُ الظَّلام وما قد يحويه من أجنحةٍ صامتةٍ تحوم. «لا أبالي إن نمت معها. خُذ پرسيس أيضًا، فهو الأوسم بين الاثنيْن. لن تكون أبدًا مَن أغارُ عليه».

ربما كان يُصغي، وربما لا. لا يهمُّ. فما كان ليأتي، لأنَّ الدُّعابةَ الأفضل أن يرى الحدود البعيدة التي سأتمادى إليها، أن يراني أسبُّ وألعنُ وأتخبَّط. ولم يكن أبي ليُساعِدني كذلك. أمَّا إيتيس فربما، ولو لمجرَّد أن يستعرض عضلاته، لكنَّه يَبعُد عالمًا كاملًا، ولا يُمكنني الوصول إليه أكثر ممَّا يُمكنني الطَّيران.

جال ببالي أنَّني منعزلةٌ أكثر من أختي نفسها، فهأنذي ذاهبةٌ إليها، لكنَّ أحدًا لن يأتيني. ثبَّتتني الفكرة، فلقد قضيتُ حياتي وحيدةً على الرَّغم من كلِّ شيء. إيتيس، جلاوكوس، هذان مجرَّد نُقطتَيْ توقُّفٍ في عُزلتي الطَّويلة المديدة. راكعةً، غرستُ أصابعي في الرَّمل، وشعرتُ بحكَّة الحُبيبات تحت أظفاري، وسرَت في داخلي ذكرى أبي إذ ألقى قانوننا القديم الميؤوس منه على جلاوكوس: لا إله يستطيع أن يعكس ما فعلَه إلهٌ آخر.

لكنَّني أنا مَن فعلَها.

مرَّ القمر من فوقنا، وقبَّل الموج قدمَيَّ بأفواهه الباردة. فكَّرتُ في نبتة الرَّاسَن، وشجر المُرَّان والزَّيتون والتَّنُّوب، ونبات البَنج مع لحاء القرانيا المحروق، وقاعدة كلّ هذا المولي، المولي لكسر اللَّعنة، لدرء فكرتي الشرِّيرة التي حوَّلت سكيلا من الأصل.

نفضتُ الرَّمل، ونهضتُ معلِّقةً حقيبة أعشابي من كتفي، وفيما مشيتُ رنَّت الزُّجاجات بخفوتٍ كماعز تهزُّ أجراسها، وفاحَت الرَّوائح من حولي مألوفةً كبشرتي، التُّربة والجذور المتأصِّلة، الملح والدَّم الحديدي.

***

في الصَّباح التَّالي رأيتُ الرِّجال مكفهرِّي الوجوه صامتين. زيَّت أحدهم محابس المجاذيف ليمنعها من الصَّرير، وراح آخر يدعك السَّطح المتَّسخ بوجهٍ محمرّ، وإن لم أدرِ إن كان من الشَّمس أم الأسى، فيما عكفَ ثالثٌ بلحيةٍ سوداء في المؤخِّرة على الصَّلاة وصبِّ النَّبيذ على الموج. لم يَنظُر أحدُهم إليَّ، فأنا أخت پاسيفاي على الرَّغم من كلِّ شيء، ولقد أخلوا أدمغتهم منذ وقتٍ طويل بالفعل من أيِّ فكرةٍ عن مساعدتها لهم، إلَّا أنَّني شعرتُ بتوتُّرهم ينطبع بقوَّةٍ على الهواء، وبالرُّعب الخانق يتزايَد فيهم لحظةً بعد لحظة. الموت قادم.

قلتُ لنفسي لا تُفكِّري في هذا. إذا تحلَّيتِ بالثَّبات فلن يموت أحدٌ اليوم.

لقائد الحرس عينان صفراوان في وجهٍ منتفخ. اسمه پوليداماس، وحجمه كبير، لكنَّني إلهة، وطولنا واحدٌ تقريبًا. خاطبته قائلةً: «أحتاجُ إلى معطفك وقميصك في الحال».

ضاقَت عيناه، ورأيتُ فيهما لاءه التّلقائيّة. لاحقًا، سأعرفُ هذا النّوع من الرّجال الغيورين على قوّتهم المحدودة. بالنّسبة إليهم أنا مجرّد امرأة.

قال: «لماذا؟».

ـ «لأنّني لا أرجو موت رفاقك. أتُخالِفني الشّعور؟».

حملَ الهواء كلامي عبر السّطح، وارتفعَت أربعٌ وسبعون عينًا تَنظُر إلينا. خلع ثيابه وناولَني إيّاها، وهي أفخر ثيابٍ على متن السّفينة، من الصّوف الأبيض الممشّط الباذخ، المؤطّر بالأرجوانيّ العميق، من طولها تكنس السّطح.

ناولته المعطف ليرفعه، وخلفه خلعتُ ثيابي وارتديتُ القميص. عليّ، كانت فُتحتا الذّراعيْن واسعتيْن والخصرُ منتفخًا، واكتنفَتني رائحةُ اللّحم البشري اللّاذعة.

ـ «هلّا تُساعِدني على ارتداء المعطف؟».

أسدلَه دايدالوس حولي مثبّتًا إيّاه بدبُّوسٍ ذهبيّ على شكل أخطبوط، ليتدلّى القُماش ثقيلًا كأغطية الفِراش، فضفاضًا ينزلق من فوق كتفَيّ.

قال دايدالوس: «آسفٌ لقولي هذا، لكنّكِ لا تبدين كالرّجال حقًّا».

رددتُ: «ليس قصدي أن أبدو كرجل، بل أن أبدو كأخي. سكيلا أحبّته قديمًا، وربما لا تزال تحبُّه».

مسستُ شفتَيّ بالمعجون الذي حضّرته من العيلان والعسل وزهور المُرّان وتاج الملوك المسحوقة مع لحاء شجر الجوز. لقد ألقيتُ تعاويذَ خداعٍ بصري على حيواناتٍ ونباتاتٍ من قبل، ولكنْ ليس على

نفسي قطُّ. انتابَني فجأةً شكٌّ غامر، غير أنّني نحّيتُ الفكرةَ جانبًا قسرًا، فالخوف من الفشل أسوأ شيءٍ لأيّ تعويذة، وبدلًا من ذلك ركّزتُ على پرسيس، بوجهه المتبجّح المسترخي وعضلاته المنتفخة وعُنقه الثّخين ويديه الخاملتين طويلتَي الأصابع. كلُّ ملمحٍ من تلك الملامح استدعيته بدوره، آمرةً إيّاه بالغوص فيَّ.

ولمّا فتحتُ عينَيّ رأيتُ دايدالوس يُحَملِق.

أخبرته: «ضع أكثر الرّجال ثباتًا على المجاذيف». تغيّر صوتي أيضًا، تضخّم وأفعمَتْه العجرفةُ الربّانيّة. «يجب ألّا يتوقّفوا لأيّ سببٍ ومهما حدثَ».

أومأَ برأسه. كان يحمل سيفًا، ورأيتُ الرّجال الآخرين مسلّحين أيضًا بالحِراب والخناجر والهراوات البسيطة.

قلتُ: «لا»، ولتسمعني السّفينة كلُّها. رفعتُ صوتي مواصلةً: «إنّها خالدة. الأسلحة عديمة الجدوى، وستحتاجون إلى أيديكم حُرّةً لتُحافِظوا على تقدُّم السّفينة».

في الحال سمعتُ احتكاك النّصال إذ أغمدوها، والدقّات المكتومة إذ وضعوا الحِراب، وحتى پوليداماس بقميصه المستعار أطاعَني. كدتُ أرغبُ في الضّحك، فلم يَحدث قطُّ أن رضخَ لي أحدٌ مثلما فعلوا الآن. أهكذا الأمر مع پرسيس؟ على أنّني بدأتُ أميّز شكلَ المضيق الباهت في الأفق، فالتفتُّ إلى دايدالوس قائلةً: «اسمع. هناك احتمال بأنَّ التّعويذة لن تخدعها، وأنّها ستتعرّفني. إذا فعلَت فاحرص على عدم الوقوف قُربي، احرص على ابتعاد الرّجال جميعًا عنّي».

* * *

أتى الضَّباب أوَّلًا، أطبقَ علينا بليلًا ثقيلًا حاجبًا الجروف، ثمَّ السَّماء نفسها. لم نرَ إلَّا القليل، وملأ آذاننا صوتُ الدوَّامةِ التي تمتصُّ كلَّ شيء. الدوَّامةُ هي بالطَّبع سبب اختيار سكيلا هذا المضيق، فلتلافي جاذبيَّتها على السُّفن أن تمضي على مقربةٍ من الجُرف المقابل، وهو ما يضعها أسفل أسنان سكيلا مباشرةً.

تقدَّمنا في الهواء الدَّامس، وإذ دخلنا المضيق صار الصَّوت أجوف، تُردِّد الجُدران الحجريَّة صداه، وابتلَّ جِلدي والسَّطح والحاجز وكلُّ شيءٍ بالرَّذاذ. رغا الماءُ وكَشَطَ أحد المجاذيف بوجه الصَّخر مُصدرًا صوتًا صغيرًا، إلَّا أنَّه أجفل الرِّجال كأنَّه هزيمُ الرَّعد.

ومن فوقنا، مدفونًا في الضَّباب، كان الكهف، وسكيلا.

تحرَّكنا، أو أنَّني حسبتُنا تحرَّكنا، لكنْ في هذا العالم الرَّمادي يستحيل أن تعرف المسافة التي تقطعها وبأيِّ سرعة. ارتجفَ الملَّاحون من الجهد والخوف، وصرَّت محابس المجاذيف على الرَّغم من تزييتها. مؤكَّد أنَّنا أسفلها الآن، وأنَّها تزحف إلى مدخل الكهف وتتشمَّم أكثرنا امتلاءً. تشبَّعت قمصان الرِّجال بالعرق، وانحنَت أكتافهم، وأقعى مَن لا يُجذِّفون وراء لفائف الحبال، أو قاعدة الصَّاري، أو أيِّ شيءٍ يستطيعون الاستتار به.

دقَّقتُ النَّظر إلى أعلى.. وأتت.

كانت رماديَّةً كالهواء، كالجُرف نفسه. لطالما تخيَّلتُ أنَّها ستبدو كشيءٍ ما، ثُعبان أو أخطبوط، أو حتى قرش، لكنَّني فُوجئتُ بحقيقتها الجارفة، الجسامة التي كافحتُ من أجل استيعابها. أعناقها أطول من صواري السُّفن، رؤوسها السِّتَّة مفغورة الأفواه مشوَّهةٌ على نحوٍ شنيع مثل صخرٍ صهرَته الحمم، ألسنتها السَّوداء تلعق أسنانًا بطول السُّيوف.

شخصَت أعيُنها إلى الرّجال الغافلين المتصبّبين عرقًا في خوفهم، وزحفَت مقتربةً منزلقةً على الصُّخور. أفعمَتْ أنفي رائحةٌ زاحفيّةٌ كريهة كجحور القوارض المعشّشة تحت الأرض، وتمايلَت أعناق سكيلا قليلًا في الهواء، ومن أحد أفواهها رأيتُ خيطًا لامعًا من اللُّعاب يتمدّد ويَسقُط. لم يظهر بدنُها المختفي في الضّباب مع سيقانها، تلك الأشياء الفظيعة عديمة العظام التي ذكرَتها سيلين قبل زمنٍ طويل، وأخبرني هرميز بأنّها تتشبّث بداخل الكهف كأطراف السّرطان النّاسك المعقوفة حين تخفض نفسها لتأكل.

بدأت أعناقها تتموّج وتلتوي على نفسها إلى الوراء، استعدادًا لتوجيه ضربتها.

وبصوتي الربّاني ناديتُ: «سكيلا!».

صرخَتْ، صوتها فوضى تَثقُب الأسماع، كألف كلبٍ يعوي في آنٍ واحد. أسقطَ بعض الملّاحين مجاذيفهم ليُغطّوا آذانهم، وعند حافة بصري رأيتُ دايدالوس يدفع أحدهم جانبًا ويأخذ مكانه. لا يُمكنني القلق عليه الآن.

ناديتُ ثانيةً: «سكيلا! أنا پرسيس! لقد أبحرتُ عامًا لأعثر عليكِ».

حدَّقت إليَّ بأعيُنٍ هي ثقوبٌ ميتة في لحمٍ رمادي، ومن أحد حلوقها صدرَ صوتٌ مخنوق. لم تَعُد لها أحبالٌ صوتيّة.

تابعتُ: «أختي الحقيرة نُفِيَتْ لقاء ما فعلَته بكِ، لكنّها استحقّت ما هو أسوأ. ما الانتقام الذي تشتهين؟ أخبِريني. أنا وپاسيفاي سنفعل ما تُريدينه».

جعلتُ نفسي أتكلّمُ ببُطء، لأنَّ كلَّ لحظةٍ تعني ضربةً أخرى للمجاذيف. ثبتَتْ عليَّ تلك الأعيُن الاثنتا عشرة، ورأيتُ بُقع الدّماء القديمة حول أفواهها، وبقايا اللّحم لا تزال عالقةً بالأسنان، وشعرتُ بغصّةٍ ترتفع في حلقي.

ـ «كنّا نبحث عن شفاءٍ لكِ، عن دواءٍ قويٍّ يُعيدكِ إلى نفسكِ. إنّنا نفتقدكِ كما كنتِ».

ما كان أخي ليتكلّم هكذا أبدًا، وإن لم يبدُ أنَّ لهذا أهمّيّة. كانت منصتةً، تلتفُّ وتنحلُّ على الصُّخور مجاريةً سفينتنا في حركتها. كم مرّةً ضربَت المجاذيف الماء؟ دستة؟ مئة؟ رأيتُ عقلها البليد يعمل. إله؟ ما الذي يفعله إلهٌ هنا؟

ـ «سكيلا، هل تقبلينه؟ هل تقبلين علاجنا؟».

أطلقَتْ فحيحًا، وخرجَت الأنفاس من حُلقومها نتنةً ساخنةً كالنّار، لكنّني كنتُ قد فقدتُ انتباهها بالفعل، والتفتَ اثنان من رؤوسها يُراقِبان الرّجال العاكفين على مجاذيفهم، وبدأت الرّؤوس الأخرى تتبعهما. رأيتُ أعناقها تلتوي ثانيةً، فصحتُ: «انظُري، ها هو ذا!».

رفعتُ الزُّجاجة المفتوحة في الهواء، والتفتَ عُنق واحد فقط ليرى، وهذا يكفي. ألقيتُ العقار ليصطدم بمؤخّرة أسنانها، وشاهدتُ حلقها يتموّج إذ ابتلعَته، وردّدتُ تعويذةً تُحوّلها إلى ما كانته.

لوهلةٍ لم يَحدث شيء، ثمَّ إنّها صرخَت بصوتٍ كفيلٍ بأن يتصدّع له العالم. ضربَت رؤوسها الهواء كالسّياط، وانقضّت عليَّ، ولم أجد وقتًا إلّا للتّمسّك بالصّاري، وفي نفسي قلتُ لدايدالوس: اهرب.

أصابَت مؤخَّرة السَّفينة ليُطَقطِق السَّطحُ كالخشب المجروف، وينخلع جزءٌ من الحاجز وتتطايَر الشَّظايا. من حولي ارتعدَ الرِّجال، وكنتُ لأسقط لولا تشبُّثي بالصَّاري. سمعتُ دايدالوس يزعق بالأوامر، لكنَّني لم أرَه. في تلك اللَّحظة كانت رقابها الأفعوانيَّة تتراجَع مجدَّدًا، وعلمتُ أنَّها لن تُخطئ هذه المرَّة. ستضرب السَّطح نفسه، وتفلق السَّفينة نصفيْن، ثمَّ تختطفنا واحدًا تلو الآخر من الماء.

لكنَّ الضَّربةَ لم تأتِ، بل ارتطمَت رؤوسها بالموج من ورائنا، وانتفضَ بدنُها مندفعًا في الماء وهي تعضُّ الهواء بتلك الفكوك الهائلة ككلبٍ يُقاوِم مِقوده. استغرقَ عقلي المشوَّش لحظةً كي يفهم أنَّها بلغَت نهاية نطاقها، أنَّ سيقانها لا تستطيع التَّمدُّدَ أكثر من دعامتها داخل الكهف. لقد عبرنا.

وبدأ أنَّها أدركَتْ هذا في اللَّحظة نفسها معي، وصرخَت ثائرةً ضاربةً أثر سفينتنا في الماء برؤوسها ومثيرةً أمواجًا عارمةً. تمايلَت السَّفينة إلى هذا الجانب وذاك، متجرِّعةً البحر من فوق جوانبها الواطئة في الاتِّجاهين، وقبضَ الرِّجال على الحبال وأقدامهم تنزلق في الماء، لكنَّهم تمسَّكوا. ومع كلِّ لحظةٍ ابتعدنا أكثر.

راحت سكيلا تضرب جانب الجُرف مطلقةً عُواء الإخفاق، إلى أن انغلقَ الضَّباب عليها، واختفَت.

أسندتُ جبهتي إلى الصَّاري. كانت الثِّياب تنزلق عن كتفَيّ، والمعطف ينجرُّ على عُنقي، وجِلدي يخزني من الحرارة. زالَت التَّعويذةُ، ورجعتُ إلى نفسي من جديد.

ـ «أيَّتها الربَّة».

وجدتُ دايدالوس راكعًا، والرِّجال الآخرين مصطفِّين على رُكبهم وراءه، وجوههم الغليظة والهزيلة، والنَّديبة والملتحية والمحروقة، كلُّها مربدٌّ مهتزٌّ يحمل خدوشًا وتورُّماتٍ من جرَّاء التَّخبُّط عبر السَّطح.

بالكاد رأيتهم. من أمامي كانت سكيلا بأفواهها المفترسة وتلك الأعيُن الخاوية الميتة. فكَّرتُ أنَّها لم تتعرَّفني، لا باعتباري پرسيس ولا أيَّ أحد، وأنَّ كوني من الآلهة وحده هو ما جعلَها تتردَّد مؤقَّتًا. لقد راح عقلها تمامًا.

قال دايدالوس: «سيِّدتي، سنُقدِّم لكِ القرابين كلَّ يومٍ ما حيينا من أجل ما فعلتِ. لقد أنقذتِنا، عبرتِ بنا المضيق أحياءً». وحذا الرِّجال حذوه مغمغمين بالصَّلوات وقد رفعوا أيديهم الكبيرة كالأطباق، ووضع بعضُهم رأسه على السَّطح على ديدن الشَّرقيِّين. مثل هذه العبادة هو ما يتطلَّبه نوعي مقابل ما يُسديه من خدمات.

وارتفعَت المِرَّة في حلقي.

ـ «يا لكم من حمقى! أنا التي صنعتُ ذلك الكائن، فعلتها بدافع الكبرياء والوهم الضَّال، وتَشكُرونني؟ اثنا عشر من رجالكم ماتوا لهذا السَّبب، وكم ألفًا سيلحقون بهم؟ هذا الدَّواء الذي أعطيتها إيَّاه هو أقوى ما لديَّ. أتفهمون أيها الفانون؟».

سفعَت الكلمات الهواء، وانصبَّ عليهم ضوء عينَيَّ.

ـ «لن أتحرَّر منها على الإطلاق. لا يُمكن إعادتها إلى ما كانته، لا الآن ولا أبدًا. ستبقى كما هي، وستتغذَّى على نوعكم أبد الدَّهر.

انهضوا إذن، انهضوا والزموا مجاذيفكم، ولا تدعوني أسمعكم ثانيةً تذكُرون امتنانكم الأبله وإلّا جعلتكم تندمون».

نكصوا وارتجفوا كما يليق بأجسادهم الضّعيفة، ونهضوا متلعثمين منسلّين بعيدًا. بالأعلى خلَت السّماء من السُّحب، وثبَّتت الحرارةُ الهواء بالسّطح. انتزعتُ المعطف عنّي وقد أردتُ أن تُلهبني الشّمس، أن تحرقني حتى العظم.



الفصل العاشر

طيلة ثلاثة أيّام ظللتُ واقفةً عند مقدّمة السّفينة. لم نقضِ اللّيل على جزيرةٍ مرّةً ثانية، بل تناوبَ الملّاحون التّجذيف وناموا فوق السّطح، وبعد أن أصلحَ دايدالوس الحاجز أخذَ دوره بينهم. عاملَني بتهذيبٍ لا يَنضُب، مقدّمًا لي الطّعام والشّراب وعارضًا عليّ لفّة فِراش، لكنّه لم يبقَ ويُكلّمني. ماذا توقّعتُ؟ لقد أطلقتُ عليه غضبتي كما لو أنّني أبي. شيءٌ آخر خرّبته.

وصلنا إلى جزيرة كريت قُبيل ظهيرة اليوم السّابع، وضوءُ الشّمس منعكِسٌ في ألواحٍ ضخمة على الماء ليُوقِد شراع سفينتنا. من حولنا ازدحمَ الخليج بالسُّفن؛ بوارج موكيانيّة، وسُفن تجاريّة فينيقيّة، وقوادس مصريّة، ومراكب حيثيّة وإثيوبيّة وهسبيريّة[1]. جميع التُّجّار الذين يَعبُرون هذه المياه يُريدون أن تكون مدينة كنوسوس الثّريّة من زبائنهم، وهو ما

(1) هسبيريا: اسم إغريقي قديم لشبه الجزيرة الإيطاليّة. (المترجم).

علمَه مينوس، فرحَّب بهم بمراسٍ واسعةٍ آمنة، ووُكلاء يُحصِّلون مقابل امتياز استخدامها. كلُّ خانٍ وماخور مِلكٌ لمينوس أيضًا، وهكذا يتدفَّق الذَّهب والجواهر إلى يديْه كنهرٍ عظيم.

وجَّهنا الرُّبَّانُ مباشرةً إلى المرسى الأوَّل المفتوح للسُّفن الملكيَّة، ومن حولي جلجلَت ضوضاء الأرصفة وحركتها، حيث يندفع الرِّجال هنا وهناك، يرفعون عقائرهم صائحين ويرفعون الصَّناديق إلى متون السُّفن. كلَّم پوليداماس قيِّم الميناء، ثمَّ التفتَ إلينا قائلًا: «ستأتين في الحال، أنتِ والحِرفيُّ معًا».

أشار لي دايدالوس بأن أتحرَّك أوَّلًا، وتبعنا پوليداماس على الأرصفة. أمامنا، بدَت سلالم الحجر الجيريِّ الضَّخمة كأنَّما ترتعش بفعل الحرارة، وانصبَّ النَّاس من خَدَمٍ ونُبلاء على حدٍّ سواء مارِّين بنا، أكتافهم مكشوفةٌ صبغَتها الشَّمس بالدُّكنة، وبالأعلى توهَّج قصر كنوسوس المنيف فوق تلِّه كخليَّة نحل. صعدنا السَّلالم، وسمعتُ أنفاس دايدالوس من ورائي وپوليداماس من أمامي. صارت الدَّرجات ملساءَ من سنواتٍ من الأقدام الهارعة بلا نهاية.

أخيرًا بلغنا القمَّة وعبرنا العتبة إلى داخل القصر، حيث اختفى الضَّوء المُعميُّ وترقرقَ ظلامٌ فاترٌ على بشرتي. تردَّد دايدالوس وپوليداماس وأخذا يطرفان بأعيُنهما، أمَّا عيناي فليستا عينَيْ فانيةٍ، ولم تحتاجا إلى وقتٍ للتَّكيُّف. ومن فوري رأيتُ جَمال المكان الذي ازدادَ منذ زُرته آخِر مرَّة. القصر كخليَّة نحلٍ حقًّا، كلُّ قاعةٍ فيه تقود إلى حُجرةٍ مزيَّنة، وكلُّ حُجرةٍ إلى قاعةٍ أخرى. في الجُدران شُقَّت نوافذُ تسمح لمربَّعاتٍ كثيفة من ضوء الشَّمس الذَّهبيِّ بالدُّخول، وعلى كلِّ جانبٍ

تبسط جِداريَّاتٌ منمَّقةٌ نفسها، مصوِّرةً دلافينَ ونساءً ضاحكاتٍ وصِبيةً يقطفون الزُّهور، وثيرانًا غائصة الصُّدور تُلوِّح بقرونها. في الخارج، في سُرادقاتٍ مفروشة بالبلاط تجري مياهُ النَّوافير الفضّيَّة، ويهرع الخدم بين أعمدةٍ فيها حُمرةُ الهيماتيت، وفوق كلِّ مدخلٍ عُلِّقت لابريس، فأس مينوس مزدوجة الرَّأس. تذكَّرتُ أنَّه أهدى إلى پاسيفاي قلادةً حِليتها على شكل لابريس في زفافهما، فأمسكَتْها كأنَّها دودة، ووقت المراسم لم يُزيِّن عُنقها إلَّا جزْعُها وكهرمانها هي.

قادَنا پوليداماس عبر الأروقة المتعرِّجة نحو مسكن الملكة. المكان هناك أشدُّ بذخًا، اللَّوحات غنيَّة بالمُغرة والنُّحاس الأزرق، لكنَّ النَّوافذ مغطَّاة، وبدلًا منها تتَّقد النَّار في مشاعلَ ذهبيَّةٍ وتضطرم في مستوقدات، في حين تسمح مناورُ مثبَّتةٌ بحذقٍ بدخول الضَّوء من دون أن تظهر لمحةٌ من السَّماء. خمَّنتُ أن هذا عمل دايدالوس، فپاسيفاي لم تحبَّ قطُّ نظرة أبينا المتطفِّلة.

توقَّف پوليداماس أمام بابٍ مزخرفٍ بالزُّهور والأمواج، وقال: «الملكة في الدَّاخل»، ثمَّ طرقَ الباب.

وقفنا في الهواء السَّاكن الظَّليل. لم أسمع شيئًا من وراء هذا الخشب الثَّقيل، وإن أدركتُ أنفاس دايدالوس الخشنة وهو واقف إلى جواري. بصوتٍ خفيض قال: «سيِّدتي، لقد أسأتُ إليكِ، وأنا آسف، لكنَّني أشدُّ أسفًا لما ستجدينه في الدَّاخل. ليتني...».

انفتحَ الباب، ووقفَت وصيفةٌ لاهثة أمامنا، شعرها مثبَّتٌ فوق قمَّة رأسها على الطِّراز الكريتي. بدأت تُخبِرنا: «الملكة في مخاضها...»، لكنَّ صوت أختي قاطعَها: «هل وصلا؟».

في منتصف الحُجرة، تمدَّدت پاسيفاي على أريكةٍ أرجوانيَّة، يلتمع العرق على جِلدها، وبطنُها متضخِّمٌ على نحوٍ صادم، منتفخٌ كالورم من قوامها النَّحيف. كنتُ قد نسيتُ كم هي نيِّرة، كم هي جميلة. حتى في ألمها أخضعَت الحُجرة لها مجتذبةً الضَّوء كلَّه إلى نفسها، ومستنزفةً الألوان من العالم حولها لتجعله شاحبًا كالفطر. لطالما كانت أشبهنا بأبينا.

دخلتُ من الباب قائلةً: «اثنا عشر، اثنا عشر رجلًا من أجل دُعابةٍ وغرورِكِ».

ابتسمَت بسخريةٍ إذ نهضَت تُحيِّيني، وقالت: «بدا من العدل أن تنال سكيلا فُرصة النَّيْل منكِ، ألا تظنِّين هذا؟ دعيني أخمِّنُ، لقد حاولتِ تبديلها إلى ما كانته»، وضحكَت ممَّا رأته على وجهي، ثمَّ أردفَت: «أوه، كنتُ أعلمُ أنَّكِ ستُحاوِلين! صنعتِ وحشًا وكلُّ ما يُمكنكِ التَّفكير فيه هو أسفكِ الجم. وا أسفاه على الفانين المساكين، لقد وضعتِهم في خطر!».

قاسية كالزِّئبق كالعادة، وهو ما بثَّ فيَّ نوعًا من الرَّاحة. قلتُ: «أنتِ التي وضعتِهم في الخطر».

- «لكنَّكِ أنتِ التي فشلتِ في إنقاذهم. أخبِريني، هل بكيتِ وأنتِ تُشاهِدينهم يموتون؟».

أجبرتُ صوتي على البقاء هادئًا إذ رددتُ: «أنتِ مخطئة. لم أرَ أحدًا يموت. الاثنا عشر رجلًا فُقِدوا في رحلة الذَّهاب».

قالت من دون أن تتردَّد ولو لحظةً: «لا يهمُّ. سيموت المزيد من كلِّ سفينةٍ تمرُّ»، ونقرَت على ذقنها بإصبعها مواصلةً: «كم واحدًا تحسبينه سيموت خلال عام؟ مئة؟ ألف؟».

كانت تُريني أسنان المِنك إيَّاها، تُحاوِل أن تدفعني إلى الذَّوبان كالنَّيادات في أبهاء أوقيانوس، ولكنْ ما من جرحٍ يُمكنها إصابتي به ولم أصب به نفسي بالفعل.

ـ «ليست هذه طريقةً للحصول على مساعدتي يا پاسيفاي».

ـ «مساعدتك! بحقِّكِ. أنا التي أخرجتكِ من تلك الجزيرة الشَّبيهة بلسان الرَّمل. سمعتُ أنَّكِ تنامين في صُحبة الأُسود والخنازير البرِّيَّة، لكنْ هذا تطوُّر لكِ، أليس كذلك؟ بعد جلاوكوس الحبَّار».

ـ «إذا لم تكوني في حاجةٍ إليَّ فيُسعدني أن أرجع إلى جزيرتي الشَّبيهة بلسان الرَّمل».

ـ «أوه، بحقِّكِ يا أختاه، لا تعبسي هكذا، إنَّها مجرَّد مزحة. وانظُري كم نضجتِ حتى استطعتِ الإفلات من سكيلا! كنتُ أعرفُ أنَّني محقَّة في استدعائي لكِ بدلًا من ذلك المتغطرس إييتيس. ابسطي ملامحكِ. لقد خصَّصتُ ذهبًا لأُسر الرِّجال المفقودين بالفعل».

ـ «الذَّهب لا يُعيد الأنفس الزَّاهقة».

ـ «واضح أنَّكِ لستِ ملكةً. صدِّقيني، أكثر الأُسر يُفضِّل الذَّهب. والآن، أهناك أيُّ...».

لم تتمَّ عبارتها، بل أنَّت وغرسَت أظفارها في ذراع وصيفةٍ راكعة عند قدميْها. لم ألحظ الفتاة قبلها، لكنَّني رأيتُ جِلد ذراعها مكدومًا وملطَّخًا بالدَّم.

قلتُ: «اخرُجي، اخرُجن جميعًا. ليس هذا مكانًا لكنَّ».

وشعرتُ بفيضٍ من الرِّضا من السُّرعة التي فرَّت بها الوصيفات.

واجهتُ أختي قائلةً: «إذن؟».

قالت پاسيفاي وسحنتها لا تزال منقلبةً ألمًا: «ماذا تظنّين؟ لقد مرّت أيّامٌ ولم يتحرّك إطلاقًا. يجب اقتطاعه من الرَّحم».

وخلعَت معطفها كاشفةً الجِلد المنتفخ. مرَّ تموُّج على سطح بطنها من اليسار إلى اليمين ثمَّ بالعكس.

كنتُ أعرفُ القليل عن الولادة، فلم أساعد أمّي أو أيًّا من بنات خالاتي في وضعهنّ قطُّ، لكنّني تذكّرتُ بضعةَ أشياءَ سمعتها. «هل جرّبتِ الدَّفع من رُكبتيكِ؟».

ـ «بالطَّبع جرّبته!» قالتها وصرخَت وقد أصابَها التَّشنُّج ثانيةً. «لقد وضعتُ ثمانية أطفال! اقتطِعي هذا الشَّيء اللَّعين من داخلي!».

أخرجتُ من حقيبتي عقّارًا للألم.

ـ «أأنتِ غبيّة؟ لن أُنوَّم كطفلٍ رضيع. أعطيني لحاء الصَّفصاف».

ـ «الصَّفصاف للصُّداع لا الجراحة».

ـ «أعطيني إيّاه!».

وأعطيتها إيّاه، وأفرغَت الزُّجاجةَ في جوفها، ثمَّ قالت: «دايدالوس، خُذ السكّين».

كنتُ قد نسيتُ وجوده وقد وقفَ في المدخل بمنتهى الثَّبات.

قلتُ: «پاسيفاي، لا تكوني عنيدةً. لقد أرسلتِ إليَّ، فاستغلّيني».

ضحكَتْ بشراسة، وقالت: «أتظنّينني أئتمنكِ على هذا؟ أنتِ لما بعد. على كلِّ حال، من اللّائق أن يفعلها دايدالوس، إنَّه يعرف السَّبب. أليس كذلك أيُّها الحِرفيّ؟ هل تُخبِر أختي الآن أم نجعلها مفاجأةً؟».

خاطبني دايدالوس: «سأفعلها، إنها مهمّتي»، وخطا إلى الطّاولة وتناول السكّين المشحوذ نصله حتى صار رفيعًا كالشّعرة.

أطبقَت بيدها على معصمه قائلةً: «تذكّر، تذكّر ما سأفعله إذا فكّرت في الحيد عن الطّريق».

أومأَ برأسه بخفّة، ولو أنّني ـ للمرّة الأولى ـ لمحتُ شيئًا يُشبِه الغضب في عينيْه.

جرّت ظُفرها على الجزء السّفلي من بطنها تاركةً أثرًا أحمر، ثمّ قالت: «هنا».

كانت الحُجرة حارّةً مكتومةً، وشعرتُ بالعرق يُلوّث يدَيّ. كيف أمسكَ دايدالوس السكّين بثباتٍ لا أدري، لكنّ الرّأس اخترقَ جِلد أختي لينبجس الدّمُ خليطًا من الأحمر والذّهبي. انشدّت ذراعاه من الجهد وانكبسَ فكّاه، واستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا لأنّ لحم أختي الربّاني قاومَ، إلّا أنّ دايدالوس واصل القطع بقُصارى التّركيز، وأخيرًا انشقّت العضلات الملتمعة واستسلمَ اللّحم تحتها، وخلا الطّريق إلى رحم أختي.

ناظرةً إليّ قالت بصوتٍ مبحوح متهتّك: «والآن أنتِ، أخرِجيه».

غرقَت الأريكةُ من تحتها تمامًا، وأفعمَت الحُجرة رائحة الدّم الأمبروزي الغامرة. كفّ بطنها عن التّموّج عندما بدأ دايدالوس يقطع، وبدا مشدودًا الآن، حتى إنّني فكّرتُ أنه ينتظر.

نظرتُ إلى أختي سائلةً: «ما الذي بالدّاخل؟».

أجابت وشعرها الذّهبي متلبّد: «ماذا تحسبين؟ جنين».

أدخلتُ يدَيّ من الفجوة في لحمها، وشعرتُ بنبضِ الدّم ساخنًا على جِلدي. بتؤدةٍ دسستهما عبر العضلات والبلل، وأطلقَت أختي صرخةً رفيعةً مخنوقةً.

بحثتُ في تلك اللُّزوجة. وأخيرًا، وجدتُ كُتلة الذِّراع الطَّريَّة.

شعرتُ بالارتياح. لم أدرِ ماذا خشيتُ. مجرَّد جنين.

قلتُ: «وجدته»، وتحرَّكت أصابعي إلى أعلى لأقبض عليه. أذكرُ قولي لنفسي إنَّ عليَّ توخِّي الحذر في العثور على رأسه، فلا أريده أن يلتوي حين أشرعُ في سحبه.

ثمَّ تفجَّر الألمُ في أصابعي صادمًا لدرجة أنَّني لم أستطع الصُّراخ، وما خطرَ لي لحظتها كان مرتبكًا؛ أن دايدالوس أسقطَ المبضع في داخلها، أو أنَّ عظمةً انكسرَت من جهدها وطعنَتني. لكنَّ الألم أطبقَ بمزيدٍ من الشدَّة منغرسًا في عُمق يدي، يَفرُمها.

أسنان، إنَّها أسنان.

عندئذٍ صرختُ. حاولتُ انتزاع يدي، لكنَّ الشَّيء أحكمَ عليها فكَّيه، وبذُعرٍ شددتها لتنفرج شفتا جرح أختي، وينزلق الشَّيء من بينهما متلوِّيًا كسمكةٍ على خُطَّاف، ويتناثَر الوسخ على وجوهنا.

كانت أختي تُوَلوِل، والشَّيء مثل المرساة يشدُّ ذراعي، وشعرتُ بمفاصل أصابعي تتمزَّق. صرختُ ثانيةً من الألم الملتهب، وسقطتُ فوق الكائن باحثةً عن حلقه بيدي الأخرى، ولمَّا وجدته بركتُ عليه مثبِّتةً جسمه تحتي، حيث راح كعباه يضربان الحجر، ورأسه يلتوي من جانبٍ إلى جانب. أخيرًا رأيته بوضوح: الأنفُ مسطَّحٌ عريض يلتمع بسوائل الولادة، والوجه المشعر الغليظ متوَّج بقرنيْن حادَّيْن، والجسد الضِّفدعي الصَّغير من تحتي يُقاوِم بقوَّةٍ غير طبيعيَّة، والعينان سوداوان مثبَّتتان عليَّ.

فكَّرتُ: ما هذا بحقِّ الآلهة؟

أصدرَ الكائن صوتًا مخنوقًا وفتحَ فمه، فانتزعتُ يدي الدّامية المشوَّهة. فقدتُ آخِر إصبعيْن وجزءًا من ثالثة، وتحرَّك فكُّ الشَّيء مبتلعًا ما أخذَه، وفي قبضتي التوى ذقنه محاولًا أن يعضَّني ثانيةً.

ظلَّ إلى جانبي، دايدالوس ممتقعًا ملطَّخًا بالدَّم. «أنا هنا».

قلتُ: «السكِّين».

ـ «ماذا تفعلين؟ لا تُؤذيه، يجب أن يعيش!». كانت أختي تُكافِح على أريكتها، لكنَّها لم تستطع النُّهوض بعضلاتها المشقوقة.

قلتُ: «الحبل». كان لا يزال يمتدُّ غليظًا كالغضاريف بين الكائن ورَحم أختي، فبدأ دايدالوس يَبتُره. حيث ركعتُ ابتلَّت رُكبتاي، ورأيتُ يدي كُتلةً شائهةً من الألم والدّماء.

ـ «والآن دثار، جوال».

جلبَ غطاءً من الصُّوف السَّميك وبسطَه على الأرض إلى جواري، وبأصابعي الممزَّقة جررتُ الشَّيء إلى منتصفه. ظلَّ يُقاوِم ويئنُّ بغضب، ومرَّتين كادَ يفلت منّي، إذ بدا أنَّه أصبح أقوى خلال اللَّحظات القليلة المنصرمة. غير أنَّ دايدالوس رفعَ الأركان معًا، ولمّا أغلقَها انتزعتُ يدي، وتلوَّى الكائن داخل طيّات الغطاء عاجزًا عن التَّمسُّك بشيء. تناولتُ من دايدالوس الأطرافَ المضمومةَ رافعةً الدّثار عن الأرض.

سمعتُ أنفاسه الخشنة، إذ قال: «قفص، نحتاج إلى قفص».

قلتُ: «أحضِر واحدًا. سأمسكه أنا».

جرى يبحث، وداخل الجوال ظلَّ الكائن يتلوّى كثُعبان. رأيتُ أطرافه بارزةً من وراء النَّسيج، وهذا الرَّأس الغليظ وطرفَي القرنيْن.

عادَ دايدالوس حاملًا قفص طيورٍ ما زالَت العصافير تضرب الهواء بأجنحتها في داخله، لكنَّه متينٌ وكبيرٌ بما يكفي. دسستُ الدِّثار في القفص، وصفقَ دايدالوس بابه، ثمَّ ألقى دثارًا آخر فوقه ليختفي الكائن.

نظرتُ إلى أختي المغطَّاة بالدَّم وبطنها كالمجزر، تتساقَط منها القطرات لتُبلِّل البساط الدَّامي على الأرض، وفي عينيْها نظرةٌ شرسة.

- «لم تُؤذِه؟».

حدَّقتُ إليها قائلةً: «أأنتِ مجنونة؟ لقد حاول أن يأكل يدي! أخبِريني كيف وُجِدَ هذا المسخ».

- «خيطي جرحي».

- «لا. ستُخبِرينني وإلَّا تركتكِ تنزفين دمكِ كلَّه».

قالت: «حقيرة»، لكنَّها كانت تتنفَّس بصعوبة، والألم يُضنيها. حتى أختي لها حدود، مكانٌ لا تستطيع الذَّهاب إليه. تبادَلنا النَّظرات بأعيُننا الصَّفراء، ثمَّ قالت أخيرًا: «حسن يا دايدالوس، إنَّها لحظتك. أخبِر أختي غلطةَ مَن هذا الكائن».

رمقَني بوجهٍ متعَب ملوَّث بالدَّم، وقال: «غلطتي، إنَّها غلطتي، أنا السَّبب في كون هذا الوحش حيًّا».

من القفص، أتى صوتُ مضغِ شيءٍ مبتل، وقد صمتَت العصافير.

- «الآلهة أرسلَت ثورًا أبيض ناصعًا يُبارِك مملكة مينوس، وأعجبَت الملكة بالمخلوق ورغبَت في رؤيته من كثب، لكنَّه فرَّ من كلِّ من اقتربَ منه، وهكذا بنيتُ تمثالًا أجوف لبقرةٍ، في داخله مكانٌ تستطيع الملكة الجلوس فيه، وركَّبتُ له عجلاتٍ كي نُدَحرِجه إلى الشَّاطئ فيما ينام المخلوق. حسبتُ فقط... لم أعلم...».

قاطعَته أختي بحدَّة: «أوه، بحقِّك. سينتهي العالم قبل أن تَفرُغَ من لعثمتك هذه. لقد ضاجعتُ الثَّور المقدَّس. والآن أحضِري الخيط».

* * *

خطتُ جرح أختي، ودخل بعض الجنود بوجوهٍ متحفِّظة خاليةٍ من التَّعبير، وحملوا القفص إلى خزانةٍ داخليَّة. نادَتهم پاسيفاي: «لا أحد يقترب منه إلَّا بأمري. وأعطوه شيئًا يأكله!». طوَت الوصيفات الصَّامتات البساط المشبَّع بالدَّم، ورفعن الأريكة التَّالفة ببساطةٍ كأنَّهنَّ يُمارِسن هذا العمل يوميًّا، وأحرقن لُبان الذَّكر والبنفسج العطريَّ لإخفاء الرَّائحة الكريهة، ثمَّ حملن أختي إلى المغطس.

بينما أخيطُ أخبرتها: «ستُعاقِبكِ الآلهة»، لكنَّها ضحكَت بشهوانيَّةٍ نشوانة، وردَّت: «ألا تدرين؟ الآلهة تحبُّ الوحوش».

أجفلَني الرَّدُّ، فسألتها: «هل تكلَّمتِ مع هرميز؟».

ـ «هرميز؟ ما علاقته بالأمر؟ لستُ محتاجةً إلى أوليمپي ليُخبرني بما هو واضحٌ أمام وجهي. هذا معلوم للجميع»، وأضافت بابتسامةٍ متهكِّمة: «باستثنائكِ كالعادة».

أعادَني حضورٌ إلى جواري إلى اللَّحظة الرَّاهنة. دايدالوس. للمرَّة الأولى منذ جاء إلى جزيرتي أصبحنا وحدنا. على جبهته قطراتٌ متناثرة من البنِّي، وذراعاه متَّسختان حتى المِرفق. سألني: «أتسمحين بأن أضمِّد أصابعكِ؟».

أجبته: «لا، أشكرك، سوف تُصلِح نفسها».

قال بتردُّد: «سيِّدتي، إنَّني مدينٌ لكِ ما حييتُ. لولا مجيئكِ لحدثَ هذا لي أنا».

لحظتُ الشدَّ في كتفيْه كأنَّهما وترُ قوس. آخِر مرَّةٍ شكرَني انفجرتُ في وجهه. لكن الآن أفهمُ أكثر، هو أيضًا يعرف معنى صُنع الوحوش.

قلتُ: «يسرُّني أنَّه لم يكن أنت»، وأشرتُ برأسي إلى أصابعه الملوَّثة ببُقع الدَّم المتخثِّر ككلِّ شيءٍ آخر، وأضفتُ: «أصابعك لن تنبت من جديد».

خفضَ صوته سائلًا: «أيُمكن أن يُقتَل المخلوق؟».

فكَّرتُ في أختي الصَّارخة مطالبةً بالحَذَر، وقلتُ: «لا أدري. يبدو أنَّ پاسيفاي تعتقد أنَّه قابل للقتل. ومع ذلك فهو ولد الثَّور الأبيض، قد يكون في حماية إله، أو قد يستنزل لعنةً على مَن يُؤذيه. يجب أن أفكِّر».

فركَ فروة رأسه، ورأيتُ الأمل في حلٍّ سهل يتسرَّب منه. قال: «عليَّ أن أذهب لأصنع قفصًا آخر إذن. الآخرُ لن يحتجزه طويلًا».

كانت الدِّماء المتجلِّطة تجفُّ على وجهي، وذراعاي زلقتيْن تُلوِّثهما رائحة الكائن النَّتنة. شعرتُ بنفسي مشوَّشةً ثقيلةً سقيمةً من دنس الدِّماء الغزيرة. لو ناديتُ الوصيفات فسيُحضِرن لي حوضَ استحمام، لكنَّني علمتُ أنَّ ذلك لن يكفي. لماذا أنجبَتْ أختي مسخًا كهذا؟ ولماذا استدعَتني؟ كان أكثر النِّيادات ليُولِّي الأدبار، ولكنْ لربَّما فعلَتها واحدة من النِّريادات، فهنَّ متأقلمات على الوحوش. أو پرسيس. لماذا لم تَطلُبه؟

لم أجد أجوبةً في عقلي الخامل البليد عديم الفائدة كأصابعي المفقودة. خاطرٌ واحد أتاني بوضوح: يجب أن أفعل شيئًا، فلا يُمكنني ألَّا أحرِّك ساكنًا فيما ينطلق هذا الرُّعب من عقاله على العالم. خطرَ لي أن أبحث عن حُجرة عمل أختي، فقد أعثر هناك على شيءٍ يُساعِدني، ترياقٍ ما أو عقَّار فعَّال.

لم تكن بعيدةً، بل قاعة متفرّعة من غُرفة نومها ويفصلها عنها ستار. لم أكن قد رأيتُ حُجرة أشغال ساحرٍ آخر من قبل، ومررتُ على رفوفها غيرَ داريةٍ ماذا أتوقَّعُ؛ مئةَ شيءٍ شنيع، أكباد كَراكِن[1]، أسنان تنانين، جلود عماليق مسلوخة. إلَّا أنَّ كلَّ ما رأيته كان أعشابًا، وأعشابًا أوليَّةً أيضًا، سمومًا وخشخاشًا وبعض جذور العلاج. لا ريب أنَّ أختي تستطيع عمل الكثير بها، فلطالما كانت قويَّة الإرادة، لكنَّها كسول، وها هو ذا الدَّليل. هذه الأعشاب القليلة قديمةٌ ضعيفةٌ كورق الشَّجر الميت، وجُمِعَت عشوائيًا، بعضُها ببراعمه، وبعضها ذابلٌ بالفعل، ومقطوعةٌ بأيِّ سكِّين في أيِّ وقتٍ من اليوم.

لحظتها أدركتُ شيئًا. قد تكون أختي ربَّةً أفضلَ منِّي مرَّتيْن، لكنَّني ساحرةٌ أفضلُ منها مرَّتيْن. لن أجد عونًا في قمامتها المتفتِّتة، وأعشابي من آيايا لن تكفي على الرَّغم من قوَّتها. الوحش مربوطٌ بكريت، وأيًّا كان ما يُمكن فعله فعلى كريت أن تُرشِدني.

عدتُ أدراجي عبر القاعات والأروقة إلى مركز القصر. كنتُ قد رأيتُ هناك سلالمَ لا تمتدُّ إلى الميناء بل إلى داخل اليابسة، إلى الحدائق والسُّرادقات الواسعة المُنيرة، التي تنفتح بدورها على الحقول البعيدة.

في كلِّ جهةٍ رأيتُ رجالًا ونساءً يكنسون الأرض المعبَّدة بالحجارة ويقطفون الفواكه ويرفعون سلال الشَّعير. لدى مروري خفضوا أبصارهم بدأب. أظنُّ أنَّ حياتهم مع مينوس وپاسيفاي عوَّدتهم تجاهُلَ أشياءَ أكثر

---

(1) الكراكِن: وحش بحريّ أسطوريّ عملاق يظهر على سطح البحر كجزيرة، وله أذرُع أخطبوطيّة طويلة تلتفُّ حول السُّفن وتُغرِقها. (المترجم).

دمويّةً منّي. مررتُ بمنازل الفلّاحين والرُّعاة القصيّة وبالقطعان الرّاتعة في مراعيها، وظهرَت التّلال وارفةَ الخُضرة مصبوغةً بذهب الشّمس، حتى بدا كأن الضّوء ينبعث منها، لكنّني لم أتوقّف لأستعذب المشهد، لأنّني ثبّتُّ عينَيّ على ذلك الشّكل الأسود المرتفع تحت السّماء.

اسمه جبل ديكتي، ولا دببة أو ذئاب أو أُسود تَجسُر على وطئه، بل وحدها الكباش المقدّسة بقرونها الضّخمة المنحنية كالقواقع. حتى في أشدّ الفصول حرارةً تظلُّ غاباته مظلمةً فاترةً، ويُقال إنَّ الصيّادة آرتميس تجوب تلاله بقوسها البرّاق، وإنَّ في أحد كهوفه الظّليلة وُلِدَ زوس نفسه وخُبّئَ من أبيه الملتهِم.

على الجبل أعشابٌ لا تنمو في مكانٍ عداه، شديدةُ النُّدرة حتى إنَّ قليلًا منها فقط له اسم، وكان بإمكاني الشُّعور بها تنتفش في تجاويفها متنفّسةً محالق السّحر في الهواء. زهرةٌ صفراءُ صغيرة بمركزٍ أخضر، زنبقةٌ متهدّلةٌ يتفتّح فيها البنّيُّ البرتقاليُّ، والأفضل من غيرها قاطبةً زهرةُ غُبيرة الأيل، ملكةُ الشّفاء.

لم أمشِ كما الفانين، بل كإلهة، فتوالَت الأميال تحت قدمَي. كان الغسق قد حلَّ عندما بلغتُ التّلال السّفحيّة، وبدأتُ أتسلّقُ. تتشابك الفروع من فوقي، ويرتفع الظّلُّ عميقًا كالمياه مدغدغًا بشرتي. أحسستُ كأنَّ الجبل بأكمله يطنُّ من تحتي، وعلى الرّغم من نزيفي وأوجاعي شعرتُ بدفقةٍ مفاجئة من الحبور. تتبّعتُ الطّحالبَ وروابي الأرض إلى أعلى. وعند قاعدة شجرة حَوْر بيضاءَ وجدتُ رُقعةً مزهرةً من غُبيرة الأيل أوراقُها مفتولةٌ بالقوّة، وضغطتها على أصابعي الخربة. بكلمةٍ استحكمَت التّعويذة، وبحلول الصّباح ستعودُ يدي كاملةً.

جمعتُ بعض الجذور والبذور لحقيبتي، ثمّ استأنفتُ المشي. لم تزل الرّائحة الكريهة وثقل الدّماء عليّ. وأخيرًا وجدتُ بِركةً باردةً صافيةً يُغذّيها الجليد الذّائب، ورحّبتُ بصدمة مياهها وألمها النّظيف المنظّف. ردّدتُ طقوس التّطهير الصّغيرة التي يعرفها الآلهة جميعًا، وبحصى الضفّة نظّفتُ القذارة.

بعدها جلستُ على الضفّة تحت أوراق الأشجار المفضّضة، وفكّرتُ في سؤال دايدالوس. أيُمكن أن يُقتَل المخلوق؟

بين الآلهة قلائل يملكون موهبة التّنبّؤ، القُدرة على النّظر في الغيوم ورؤية لمحةٍ ممّا ستجلبه الأقدار. ليس كلُّ شيءٍ قابلًا للتّنبّؤ، وأكثر الآلهة والفانين يقضون حيواتهم غير مقيّدين بشيء، يتشابكون وينحلّون هنا مرّةً وهناك مرّةً من دون خطّةٍ ثابتة. لكنّ هناك مَن يعيشون واضعين مصايرهم كالأنشوطة حول الرّقاب، الذين تمضي حيواتهم مستقيمةً كألواح الخشب مهما حاوَلوا الحيْد بها، وهؤلاء مَن يُمكن لأنبيائنا رؤيتهم.

يتمتّع أبي بتلك المعرفة المسبقة، وطيلة حياتي سمعتُ القول بأنّها صفة ورثَها أولاده أيضًا. لم أفكّر في اختبارها قطُّ، فقد نشأتُ على اعتقاد أنّني لا أملكُ شيئًا من قُواه، لكنّني لمستُ الماء الآن، وهمستُ: أرِني.

تكوّنت صورةٌ شاحبةٌ هشّة كأنّها مصنوعةٌ من ضبابٍ مضفور. ضوء مشعلٍ يتراقَص في دهاليزَ طويلةٍ، خيط ينحلُّ في ممرٍّ حجريٍّ، الكائن يخور كاشفًا عن أسنانه غير الطّبيعيّة، يقف بطول قامة رجلٍ مرتديًا أسمالًا متعفّنةً، فانٍ بسيف في يده يقفز من الظّلّ ليهوي عليه بضربةٍ قاضية.

انقشعَ الضَّباب وصفَت البِركة من جديد. نلتُ جوابي، لكنّه لم يكن كما أملتُ. الكائن فانٍ، لكنّه لن يموت طفلًا بيدي أو بيد دايدالوس. إنَّ له مصيرًا يَبعُد أعوامًا كثيرةً في المستقبل، ويجب أن يعيش حتى يُدرِكه، وحتى ذلك الحين لا يُمكن إلَّا احتواؤه. سيكون هذا عمل دايدالوس، ولكنْ قد تكون هناك طريقةٌ أساعده بها. ذرعتُ الأرض بين الأشجار الظَّليلة مفكِّرةً في الكائن ونقاطِ ضعفه المحتمَلة، وتذكَّرتُ عينيْه السَّوداويْن المثبَّتتيْن على عينَيَّ وقد أفعمَتْهما الرَّغبة في افتراسي، وجوعه الفتَّاك إذ قاتلَني على يدي. كم يتطلَّب إشباع تلك الشَّهيَّة؟ لو لم أكن إلهةً لابتلعَ ذراعي والتهمَني بوصةً بوصةً.

شعرتُ بفكرةٍ تتكوَّن في داخلي. سأحتاجُ إلى أعشاب ديكتي السرِّيَّة كلِّها، ومعها أقوى حشائش التَّسخير، جذر البلُّوط الأخضر والصَّفصاف السلَّال، والشَّمرة والشَّوكران وتاج الملوك والخَربَق. وسأحتاجُ أيضًا إلى ما تبقَّى من مخزوني من المولي. اندسستُ بين تلك الأشجار من دون أن أخطئ، ونقَّبتُ عن كلِّ مكوِّنٍ بدوره. إن كانت أَرتميس تسري ليلتها فقد تنحَّت عن طريقي.

حملتُ الأوراق والجذور إلى البِركة وطحنتها على صخورها، ثمَّ عبَّأتُ إحدى زجاجاتي بالمعجون، وأضفتُ القليل من ماء البِركة الذي لم يزل يحتوي على الدَّم الذي غسلَه عن يدَيَّ، دمي ودمِّ أختي. وكأنَّما يعلم، دارَ العقَّار في الزُّجاجة أحمر قانيًا.

لم أنم ليلتَها، وبقيتُ فوق ديكتي إلى أن اصطبغَت السَّماء بالرَّمادي، ثمَّ بدأتُ السَّير عودةً إلى كنوسوس، ولدى بلوغي القصر كانت الشَّمس ساطعةً على الحقول. مررتُ بساحةٍ لفتَت نظري في اليوم السَّابق، فتوقَّفتُ

لكي أُمعن إليها النَّظر، ليتَّضح أنَّها حلبةُ رقصٍ دائريَّة محاطة بالسّنديان وإكليل الغار وقايةً من لهيب الشَّمس. في البدء، حسبتُ أرضيَّتها من الحجر، لكنَّني رأيتُ أنَّها من الخشب، ألفُ بلاطةٍ خشبيَّة ممهَّدة ومصقولة بعنايةٍ جعلَتها تبدو كقطعةٍ واحدة، وقد رُسِمَ عليها شكلٌ لولبيٌّ يتفتَّح إلى الخارج من مركزه كقمَّة موجةٍ متدرِّجة. عمل دايدالوس لا غيره بكلِّ تأكيد.

وهناك كانت فتاةٌ تَرقُص، ورغم غياب الموسيقى حافظَت قدماها على إيقاعٍ مثالي، كلُّ خُطوةٍ دقَّةُ طبلةٍ صامتة. تحرَّكت الفتاة كأنَّها هي نفسها موجة، رشيقةً ولكنْ بحركةٍ مصمِّمةٍ نشيطة، وعلى رأسها تألَّق تاج أميراتٍ ذهبي. كنتُ لأتعرَّفها في أيِّ مكان. إنها الفتاةُ على مقدِّمة سفينة دايدالوس.

اتَّسعت عيناها عندما رأتني، تمامًا كتمثالها، وحنَت رأسها قائلةً: «الخالة سرسي، يسرُّني لقاؤكِ. أنا آريادني».

رأيتُ فيها لمحاتٍ من پاسيفاي، ولكنْ فقط إذا بحثتُ عنها، ذقنها ورقَّة ترقوتها.

قلتُ: «أنتِ ماهرة».

قالت مبتسمةً: «أشكركِ. والداي يبحثان عنكِ».

ـ «بلا شك، لكنْ عليَّ أن أجد دايدالوس».

أومأَت برأسها كأنَّني مجرَّدُ واحدةٍ من ألفِ يُريدونه بدلًا من والديْها، وقالت: «سآخذكِ، لكنْ علينا بالحذر، لأنَّ الحرس خرجوا يبحثون».

دسَّت أصابعها في أصابعي لأشعر بها دافئةً ورطبةً بعض الشَّيء من تمرينها، وعبر عشرات الممرَّات الجانبيَّة الضيِّقة قادَتني بقدميْن لا

تُصدِران صوتًا على الحجر، إلى أن بلغنا أخيرًا بابًا من البرونز طرقَته ستَّ مرّاتٍ بإيقاعٍ معيّن.

صاح صوتٌ من الدّاخل: «لا أستطيعُ اللّعب الآن يا آريادني. إنني مشغول».

قالت: «أنا مع الليدي سرسي».

انفتحَ الباب كاشفًا دايدالوس الملوّث بالسّناج والأوساخ، ومن ورائه ورشةٌ نصف مفتوحة على السّماء. رأيتُ تماثيلَ لا تزال تُغطّيها الأقمشة، وعُددًا وأدواتٍ أجهلها، وفي المؤخّرة مصهرًا ينبعث منه الدُّخان، ومعدنًا يتوهّج ساخنًا في قالب، وعلى الطّاولة، رأيتُ هيكلَ سمكةٍ إلى جواره سكّين محزّز غريب.

ـ «لقد ذهبتُ إلى جبل ديكتي، ورأيتُ لمحةً من مصير الكائن. من المُمكن أن يموت، ولكنْ ليس الآن. سيأتي فانٍ قدره أن يتخلّص منه. لا أدري كم سيستغرق ذلك. الكائن كان كاملَ النُّمو في رؤياي».

شاهدتُ المعرفة تستقرُّ عليه. كلُّ الأيّام التّالية التي عليه أن يقضيها متأهّبًا. أخذَ شهيقًا، وقال: «نحتويه إذن».

قلتُ: «نعم. لقد حضّرتُ تعويذةً ستُساعِد. إنّه يشتهي...»، وبترتُ عبارتي إذ شعرتُ بآريادني خلفي، ثمّ واصلتُ: «يشتهي اللّحم الذي رأيته يأكله. إنّه جزءٌ من طبيعته. لا يُمكنني أن أجرّده من هذا الجوع، ولكنْ قد يُمكنني أن أضع عليه قيودًا».

قال: «أيّ شيء. إنّني مُمتنّ».

ـ «لا تمتنّ بعدُ. طوال ثلاثة فصولٍ من السّنة ستُثبّط التّعويذة شهيّته، لكنّها ستعود مع كلّ حصاد، ولا بُدّ من إشباعها».

ألقى نظرةً خاطفةً على آريادني الواقفة ورائي، وقال: «مفهوم».

ـ «سيظلُّ خطرًا بقيَّة الوقت، ولكنْ كأيِّ حيوانٍ ضارٍ».

أومأَ برأسه، إلَّا أنَّني رأيتُ أنَّه يُفكِّر في وقت الحصاد وما يتضمَّنه ذلك من إطعام. رمقَ القوالب المخضَّبة بحُمرة الحرارة وراءه قائلًا: «سأفرغُ من القفص صباح الغد».

ـ «عظيم. كلَّما بكَّرت كان أفضل. سأُلقي التَّعويذة عندها».

بعد انغلاق الباب وقفَتْ آريادني منتظرةً، وقالت: «كنتما تتكلَّمان عن المولود، أليس كذلك؟ أهو الذي يجب الاحتفاظ به حتى يُقتَل؟».

ـ «هو».

ـ «الخدم يقولون إنَّه وحش، وأبي نهرَني حين سألتُ عنه، لكنَّه ما زال أخي، أليس كذلك؟».

تردَّدتُ.

ـ «إنَّني أعرفُ بأمر أمِّي والثَّور الأبيض».

لا طفل لباسيفاي من شأنه أن يبقى بريئًا طويلًا.

قلتُ: «أظنُّ أنَّ لكِ أن تقولي إنَّه أخوكِ غير الشَّقيق. والآن تعالي، خُذيني إلى الملك والملكة».

***

على الجُدران سوَّت الجَرافِن[1] ريشَها بنعومةٍ وفخامة، وانصبَّ ضوء الشَّمس من النَّوافذ، وتمدَّدت أختي على أريكتها الفضِّيَّة تتوهَّج

(1) الجريفين: مخلوق أسطوريّ له جسم أسد ورأس وجناحا عُقاب. (المترجم).

صحَّةً، يُجاوِرها على مقعدٍ من المرمر مينوس باديًا عجوزًا منتفخًا كشيءٍ تُرِكَ ميتًا في الماء.

قبضَت عيناه عليَّ مثلما تختطف طيور الخَطَّاف السَّمك، وبادرَني قائلًا: «أين كنتِ؟ الوحش محتاجٌ إلى عناية. لهذا السَّبب جُلِبتِ إلى هنا!».

قلتُ: «لقد صنعتُ عقَّارًا لننقله إلى قفصه الجديد بمزيدٍ من الأمان».

ـ «عقَّار؟ أريدُ أن يُقتَل!».

قالت پاسيفاي: «عزيزي، إنَّك تتكلَّم كالمحموم، ولم تسمع فكرة أختي حتى. أكمِلي يا سرسي من فضلكِ»، وأسندَتْ ذقنها إلى يدها منتظرةً على نحوٍ مسرحي.

ـ «العقَّار سيُخمِد جوعَ الكائن لثلاثة فصول من كلِّ سنة».

ـ «أهذا كلُّ شيء؟».

ـ «مهلًا يا مينوس، ستجرح مشاعر سرسي. أظنُّها تعويذةً ممتازةً يا أختاه. إنَّ شهيَّة ابني صعبةٌ نوعًا، أليس كذلك؟ لقد أكل أكثر سُجنائنا بالفعل».

ـ «أريدُ أن يموت الكائن، وهذا كلامي النِّهائي!».

أخبرتُ مينوس: «قتْله ليس مُمكنًا، ليس الآن. إنَّ له مصيرًا بعيدًا في المستقبل».

ردَّدت أختي مصفِّقةً بابتهاج: «مصير!»، ثمَّ أتبعَت: «أوه، أخبِرينا به. هل سيهرب ويأكل أحدًا نعرفه؟».

غاضت الدِّماء من وجه مينوس، ولو أنَّه حاول إخفاء هذا، وقال لي: «تأكَّدا، أنتِ والحِرفيُّ، تأكَّدا من تأمينه».

قالت أختي منغّمةً كلماتها: «أجل، تأكّدا. أكرهُ أن أفكّر في ما سيقع إذا خرجَ. قد يكون زوجي ابن زوس، لكنَّ جسده فانٍ حتى النُّخاع. الحقيقة...»، وخفضَت صوتها لتُتابع همسًا: «... أنّني أظنُّه يخشى الكائن».

مئة مرّةٍ رأيتُ أحمق ما وقعَ في براثن أختي، لكنَّ مينوس أساءَ تلقّي هذا أكثر من معظم الآخرين. شقَّ الهواء بإصبعه تجاهي قائلًا: «أتسمعين؟ لقد هدَّدتني جهرًا. هذه غلطتكِ، أنتِ وعائلتكِ الكاذبة. أبوكِ أعطاني إيّاها كأنَّها كنز، لكنْ لو علمتِ الأشياء التي فعلَتْها بي...».

ـ «أوه، أخبِرها ببعضها! أظنُّ أنَّ سرسي ستُقدّر ما في الأمر من سحر. ماذا عن الفتيات المئة اللاتي متنَ لمّا قذفت عليهنَّ نُطفتك؟».

شعرتُ بأَريادني الواقفة بثباتٍ تام إلى جانبي، وتمنّيتُ لو أنّها لم تكنْ حاضرةً.

ردَّ مينوس والمقت في عينيْه ككائنٍ حي: «أيّتها الهاربي[1] البغيضة! تعويذتكِ هي ما سبَّب موتهنَّ! سُلالتكِ كلُّها شرّيرة! كان يجب أن أنتزِع الوحش من رحمكِ الملعونة قبل أن يُولَد!».

ـ «لكنَّك لم تجرؤ، أليس كذلك؟ إنَّك تعلم ولعَ أبيك العزيز بتلك المخلوقات، وإلَّا فكيف يكتسب نُغوله الأبطال سُمعتهم!» وحنَت أختي رأسها جانبًا مواصلةً: «في الحقيقة، ألا يَجدُر بك أن تشتهي حمل السَّيف بنفسك؟ أوه، نسيتُ. إنَّك لا تحبُّ إلَّا قتل الخادمات. حقًّا يا أختاه، ينبغي أن تتعلَّمي تلك التَّعويذة. ستحتاجين فقط...».

---

(1) الهاربي: مسخ مجنَّح خبيث، له وجه وثديا امرأةٍ وجسم طائر. (المترجم).

كان مينوس قد نهضَ، وقاطعَها قائلًا: «أمنعكِ من قول المزيد!».

ضحكَتْ أختي بأصفى درجةٍ من صوتها الشَّبيه بنافورةٍ فضّيَّة، ضحكتها محسوبةٌ ككلِّ شيءٍ تفعله. استمرَّ مينوس في التَّميُّز غيظًا، لكنَّني كنتُ أراقبها هي. لقد تجاوزتُ عن جماعها الثَّور باعتباره نزوةً نزقةً، لكنَّ پاسيفاي ليست محكومةً بالشَّهوات، بل تَحكُم بها. متى كانت آخِر مرَّةٍ رأيتُ فيها عاطفةً حقيقيَّةً على وجهها؟ تذكَّرتُ تلك اللَّحظة على فِراش الولادة عندما صرخَتْ بوجهٍ ملتوٍ إلحاحًا أنَّ الوحش يجب أن يعيش. لماذا؟ ليس بدافع الحُبِّ، فهي خالية منه تمامًا، وعليه فمؤكَّدٌ أنَّ الكائن بشكلٍ ما يخدم أهدافها.

ساعاتي مع هرميز هي ما أعانَني على إيجاد جواب، كلُّ أخبار العالم التي أتاني بها. عندما تزوَّجتْ پاسيفاي بمينوس كانت كريت أغنى ممالكنا وأشهرها، ولكنْ منذ ذلك الحين، وكلَّ يوم، بدأت ممالك قويَّة أخرى تنهض في موكناي وطروادة والأناضول وبابل؛ ومنذ ذلك الحين أيضًا تعلَّم أحد أخويها إحياءَ الموتى، والثَّاني ترويض التَّنانين، وأختها حوَّلت سكيلا. لم يَعُد أحد يتحدَّث عن پاسيفاي. والآن بضربةٍ جعلَت نجمها الآفل يسطع مجدَّدًا، وسيحكي العالمُ بأسره قصَّة ملكة كريت، صانعة الثَّور العظيم آكل اللَّحم وأمّه.

ولن تفعل الآلهة شيئًا. فكِّر في الصَّلوات التي ستتلقَّاها.

كانت پاسيفاي تقول: «المسألة مضحكة للغاية. استغرقت كلَّ هذا الوقت حتى تفهم! أحسبتهنَّ يمتن من لذَّة معاشرتك؟ من الهناء الخالص؟ صدِّقني...».

التفتُّ إلى أَريادني الواقفة إلى جواري بسكون الهواء، وقلتُ: «تعالي. انتهينا هنا».

***

عُدنا إلى حلبة الرَّقص. ومن فوقنا، بسطَت السّنديانات وأكاليل الغار أوراقها الخضراء. قالت أَريادني: «حينما تُلقين تعويذتكِ لن يعود أخي متوحّشًا جدًّا».

ـ «هذا أملي».

مرَّت لحظة، ثمَّ رفعَت عينيْها إليَّ وقد ضمَّت يديْها إلى صدرها كأنَّها تكتم سرًّا هناك، وسألتني: «هلَّا تبقين قليلًا؟».

شاهدتها تَرقُص، ذراعاها تنطويان كجناحيْن، وساقاها الشَّابَّتان القويَّتان واقعتان في حُبِّ حركتهما. فكَّرتُ أنْ هكذا يجد الفانون الشُّهرة، من خلال التَّمرين والاجتهاد والعناية بمهاراتهم كالحدائق إلى أن تتوهَّج تحت الشَّمس. لكنَّ الآلهة وليدة المُهل والرَّحيق، تتفجَّر براعتها من أناملها بالفعل، ولذا تجد الشُّهرة بالعثور على ما يُمكنها تخريبه، بتدمير المُدن وبدء الحروب واستيلاد الأوبئة والوحوش. كلُّ الدُّخان المتصاعد بروائحَ طيِّبة من مذابحنا لا يَترُك وراءه إلَّا رمادًا.

قطعَت قدما أَريادني الخفيفتان الحلبةَ جيئةً وذهابًا، كلُّ خُطوةٍ مثاليَّة كهديَّةٍ تُهديها إلى نفسها وتبتسم حين تتلقَّاها. أردتُ أن أطبقَ على كتفيْها، أردتُ أن أقول لها إنَّه مهما فعلتِ فلا تتمادي في السَّعادة، فلسوف تستنزل على رأسكِ النِّيران.

إلَّا أنَّني لم أقل شيئًا، وتركتها تَرقُص.

الفصل الحادي عشر

عندما مسّت الشّمس الحقولَ البعيدة أتى الحرسُ ليأخذوا آريادنيِ. والدا الأميرة يُريدانها. ساقوها مبتعدين، وقادَني أحدهم إلى حُجرتي. وجدتها صغيرةً قريبةً من سكن الخدم، وهو ما كان الهدف منه الامتهان بالطّبع، لكنّني أحببتُ قضاء مُهلةٍ بين جُدرانٍ عارية من الطّلاء، والنّافذة الضيّقة التي لا تُظهِر إلّا شظيّةً صغيرةً من الشّمس التي لا ترحم. وكانت الحُجرة هادئةً أيضًا، لأنَّ الخدم جميعًا مرّوا بها بهدوءٍ تامٍّ عالمين مَن في داخلها. **الأخت السّاحرة**. في غيابي فقط تركوا لي الطّعام، وفقط بعد خروجي ثانيةً أخذوا الطّبق الخالي.

نمتُ، وفي الصّباح التّالي أتاني دايدالوس. حين فتحتُ الباب ابتسمَ، ووجدتُ نفسي أردُّ بابتسامة. شيءٌ واحدٌ يُمكنني أن أشكر عليه الكائن؛ أنَّ الأُلفة بيني وبين دايدالوس عادَت. تبعته إذ نزل درجًا إلى الدّهاليز المتمعّجة الممتدّة تحت القصر، ومررنا بأقبية غلالٍ ومخازنَ

مليئةٍ بصفوف البيثوي، الجرار السيراميك الضّخمة التي تحوي مخزون القصر الفائض من الزّيت والنّبيذ والشّعير.

ـ «ماذا حدثَ للثّور الأبيض؟ أتدري؟».

قال: «لا. لقد اختفى عندما بدأ بطن باسيفاي ينتفخ. قال الكهنة إنّها بَركة الثّور الأخيرة، واليوم سمعتُ أحدهم يقول إنّ الوحش عطيّة من الآلهة لمساعدتنا على الازدهار»، وهزّ رأسه مضيفًا: «إنّهم ليسوا حمقى بطبيعتهم، لكنّهم واقعون بين عقربيْن».

ـ «أريادني مختلفة».

وافقَني بإيماءةٍ من رأسه، وقال: «إنّ لديَّ آمالًا لها. هل سمعتِ الاسم الذي قرّروا إطلاقه على الشّيء؟ المينوتور. عند الظّهيرة ستُقلِع عشرُ سُفنٍ حاملةً النّبأ، وغدًا ستُقلِع عشرٌ أخرى».

ـ «ذكاء. يُباهي به مينوس، وبدلًا من أن يكون ديُوثًا يُشارِك في مجد أختي، يُصبح الملك العظيم الذي يُنجِب الوحوش ويُسمّيها تيمُّنًا بنفسه».

تنحنحَ دايدالوس قائلًا: «بالضّبط».

بلغنا القبو الواسع الذي يحوي قفص الكائن الجديد، العريض كسطح سفينةٍ ويُناهِز نصفها طولًا، والمصنوع من معدنٍ رماديٍّ مائلٍ إلى الفضّي. وضعتُ يدَيَّ على قضبانه الملساء الغليظة كجذوع الأشجار الصّغيرة، وشممتُ فيها رائحة الحديد، وإن لم أدرِ ما الموجود غيره.

علّق دايدالوس: «إنّها مادّةٌ جديدة، تشكيلُها أصعب لكنّها أمتن، ومع ذلك لن تحتجز الكائن إلى الأبد. إنّ قوّته فظيعة بالفعل على الرّغم

من أنَّه مولودٌ لتوِّه، لكنَّ القفص سيمنحني وقتًا لابتكار شيءٍ يدوم وقتًا أطول».

تبعَنا الجنود حاملين القفص القديم على عِصِيٍّ ليُحافِظوا على مسافةٍ بينهم وبينه، ووضعوه برنينٍ داخل الجديد، ثمَّ رحلوا قبل أن تخبو الأصداء.

تقدَّمتُ وركعتُ إلى جواره، ورأيتُ المينوتور أكبر حجمًا ممَّا كان، ممتلئَ الجسم المضغوط إلى الشَّبكة المعدنيَّة. الآن وقد نظفَ من سوائل الولادة وجفَّ، أصبح الخطُّ الفاصل بين الثَّور والوليد أبرز كثيرًا، كأنَّ مجنونًا ما بترَ رأس ثورٍ وخاطَه ببدن طفل. فاحَت منه رائحةُ اللَّحم القديم النَّتنة، وخشخشَت على قاع القفص العظامُ الطَّويلة، وشعرتُ بالغثيان يغمرني. واحدٌ من سُجناء كريت.

كان يُراقِبني بعينيْن ضخمتيْن، ثمَّ إنَّه نهضَ ومدَّ رأسه إلى الأمام يستنشق، وصدرَ منه أنينُ إثارةٍ حاد. لقد تذكَّرني، تذكَّر رائحتي ومذاق لحمي، وفتحَ فمه المكتنز كفرخ طائرٍ يتوسَّل. المزيد.

استغللتُ اللَّحظة، وردَّدتُ كلمات القوَّة، وصببتُ العقَّار من بين قضبان القفص في جوفه المفتوح، ليختنق الكائن وينقضَّ مرتطمًا بالقضبان، ولكنْ بينما حدثَ هذا كانت عيناه تتغيَّران والثَّورة فيهما تنحسر. ثبَّتُّ ناظرَيَّ على ناظريْه، ومدَدتُ يدي سامعةً دايدالوس يشهق، غير أنَّ الكائن لم يُهاجِمني، بل ارتخَت أطرافه المتصلِّبة. انتظرتُ لحظةً أخرى، ثمَّ فتحتُ القفل وبعده باب القفص.

جرجرَ قدميْه قليلًا والعظم يُخَشخِش من تحتهما، وغمغمتُ: «لا بأس»، ولو أنَّني لم أدرِ إن كان قولي موجَّهًا لنفسي أم لدايدالوس أم

للكائن. ببُطءٍ حرَّكتُ يدي نحوه، واتَّسعت طاقتا أنفه. مسستُ ذراعه، وأطلقَ نفخةَ دهشةٍ، لكنَّه لم يفعل أكثر من ذلك.

همستُ: «تعالَ»، ففعل مقعيًا متعثِّرًا بعض الشَّيء إذ مرَّ من فتحة القفص الصَّغيرة، ورفعَ عينيْه إليَّ بتوقُّع، بتعبيرٍ أقرب إلى العذوبة.

أخي. هكذا دعَته آريادني، إلَّا أنَّ هذا الكائن ليس مخلوقًا ليكون فردًا من أيِّ عائلة. إنَّه انتصار أختي، طموحها وقد صار من لحم، سوْطها الذي ستستخدمه ضدَّ مينوس. وعلى سبيل العرفان، لن يعرف رفيقًا أو حبيبًا أبدًا، لن يرى الشَّمسَ أو يخطو خُطوةً حُرَّةً، وما من شيءٍ سيحظى به في العالم إلَّا الكراهية والظُّلمات وأسنانه.

حملتُ القفص القديم وتراجعتُ، وإذ ابتعدتُ راقبَني المينوتور حانيًا رأسه إلى الجانب بفضول، قبل أن أغلق باب القفص لتنتبه أُذناه مع الصَّوت المعدنيّ. في وقت الحصاد ستثور ثائرته ويَصرُخ ويخمش القضبان محاولًا اقتلاعها.

أطلقَ دايدالوس زفيرًا خفيضًا، وسألني: «كيف فعلتِ هذا؟».

ـ «إنَّه نصف حيوان. كلُّ الحيوانات في آيايا مروَّض».

ـ «أيُمكن إبطال التَّعويذة؟».

ـ «ليس على يد أحدٍ غيري».

أوصدنا القفص فيما يُراقِبنا الكائن طوال الوقت، وأصدرَ صوتًا خافتًا وفركَ وجنته المشعرة بإحدى يديْه، ثمَّ أغلقنا باب الحُجرة الخشبيِّ ولم نرَ المزيد.

ـ «والمفتاح؟».

ـ «أنوي التَّخلُّص منه. حين نضطرُّ إلى نقله سأقصُّ القضبان».

قطعنا الدَّهاليز التَّحتيَّة عائدَيْن وصعدنا الدَّرج إلى الأروقة بالأعلى. في القاعة الملوَّنة كان النَّسيم يهبُّ والهواء وضَّاءً، ومرَّ النُّبلاء الفارهون على كلِّ جانبٍ متمتمين بأسرارهم. هل يُدرِكون ما يعيش تحتهم؟ مؤكَّد.

قال دايدالوس: «ستُقام مأدبةٌ هذا المساء».

ـ «لن أذهب. لقد فرغتُ من بلاط كريت».

ـ «سترحلين قريبًا إذن؟».

ـ «إنَّني تحت رحمة الملك والملكة في هذا، فهما مَن يملكان السُّفن، لكنَّني لا أتصوَّرُ أنَّ رحيلي سيتأخَّر. أظنُّ أنَّ مينوس سيسعد لنقصان عدد السَّحرة في كريت. سيكون جميلًا أن أعود إلى الدِّيار».

قلتها صادقةً، لكنْ في تلك الأروقة المنمَّقة كانت فكرة الرُّجوع إلى آيايا غريبةً. تلالها وساحلها، المنزل الحجريُّ وحديقتي، كلُّ هذا بدا بعيدًا للغاية.

قال: «يجب أن أريهم وجهي اللَّيلة، لكنَّني آملُ أن أستطيع الاستئذان في الانصراف قبل الأكل»، وتردَّد لحظةً قبل أن يُردِف: «أيَّتها الربَّة، أعرفُ أنَّني أتجرَّأ، لكنْ هلَّا تُشرِّفينني بتناوُل العشاء معي؟».

* * *

أخبرني أن آتي حين يطلع القمر. كان مسكنه في طرف القصر الآخر من مسكن أختي، ولا أدري إن كان ذلك حظًّا أم عمدًا. استقبلَني بمعطفٍ أفخم ممَّا رأيته يرتدي من قبل، وإن وجدته حافي القدمَيْن،

وقادَني من يدي إلى مائدةٍ حيث صبَّ لنا نبيذًا قاتمًا كالتُّوت، وقد ارتصَّت أطباقٌ مكوَّمة عليها الفواكه والجُبنة البيضاء المالحة.

ـ «كيف كانت المأدبة؟».

أجاب بنبرةٍ ناقمة: «يسرُّني أنَّني رحلتُ. لقد جلبوا مغنِّيًا يحكي حكاية ميلاد الرَّجل الثَّور المجيد. الكائن هوى من نجمٍ على ما يبدو».

جرى صبيٌّ من حُجرةٍ داخليَّة. آنذاك، لم أكن أعرفُ أعمار الفانين جيِّدًا، لكنَّني أظنُّه كان في الرَّابعة أو نحوها. حول أُذنيْه تجعَّد شعره الأسود غزيرًا منفوشًا، وبدَت أطرافه مستديرةً ما زالَت مثل الرُّضَّع، وكان له أعذب وجهٍ رأيتُه على الإطلاق، بما في ذلك وجوه الآلهة.

قال دايدالوس: «ابني».

حدَّقتُ. لم أفكِّر مجرَّد تفكير أنَّ سرَّ دايدالوس قد يكون طفلًا.

انحنى الصَّبيُّ كفرد حاشيةٍ حديث السِّن، وقال بصوتٍ رفيع: «سيِّدتي النَّبيلة، مرحبًا بكِ في منزل أبي».

قلتُ: «شكرًا لك. وهل أنت صبيٌّ مطيع لأبيك؟».

أومأَ برأسه بجدِّيَّة مجيبًا: «أوه، نعم».

ضحكَ دايدالوس قائلًا: «لا تُصدِّقي كلمةً. إنَّه يبدو حُلوًا كالقشدة، لكنَّه يفعل ما يُريد».

ابتسمَ الصَّبيُّ لأبيه. إنَّها دُعابةٌ قديمة بينهما.

بقيَ معنا بعض الوقت مثرثرًا عن عمل أبيه ومساعدته إيَّاه، وأخرجَ المِلقط الذي يحبُّ استخدامه، وأراني بمسكةٍ متمرِّسة كيف يضعه في

النَّار من دون أن تحرقه. أومأتُ له، لكنَّ أباه هو مَن راقبتُ، إذ لانَت ملامح دايدالوس كالفاكهة النَّاضجة، وانتبهَت عيناه ولمعَتا. قبلها لم تُراوِدني فكرة الإنجاب البتَّة، لكنَّني بالنَّظر إليه وجدتُني أتخيَّلها لحظةً، كأنَّني نظرتُ في بئرٍ، وبعيدًا في القاع رأيتُ لمحةً من الماء.

لا ريب أنَّ أختي رأت هذا الحُبَّ على الفور.

وضعَ دايدالوس يده على كتف ابنه، وقال: «إيكاروس، إنَّه وقت الفِراش. اذهب إلى مربِّيتك».



ـ «ستأتي وتُعطيني قُبلة قبل النَّوم؟».

ـ «بالطَّبع».

شاهدناه يذهب، يحتكُّ كعباه الصَّغيران بقميصه الأطول من اللَّازم.

قلتُ: «إنَّه وسيم».

ـ «إنَّ له ملامحَ أمِّه». ثمَّ إنَّه أجاب عن السُّؤال قبل أن ألقيه: «لقد ماتَت في أثناء وضعه. كانت امرأةً صالحةً، ولو أنَّني لم أعرفها طويلًا. أختكِ رتَّبت الزِّيجة».

لم أكن مخطئةً في النِّهاية إذن. أختي وضعَت طُعمًا في الصِّنارة، لكنَّها صادَت السَّمكة بطريقةٍ أخرى.

ـ «آسفة».

حنى رأسه قائلًا: «أقرُّ بأنَّ المسألة صعبة. لقد بذلتُ أفضل ما بوسعي لأكون له أبًا وأمًّا أيضًا، لكنَّني أعلمُ أنَّه يَشعُر بما يَنقُصه. كلَّما مررنا بامرأةٍ سألَني إن كنتُ سأتزوَّجها».

ـ «وهل ستفعلها؟».

صمتَ بُرهةً، ثمَّ قال: «لا أظنُّ. إنَّ لدى باسيفاي ما يكفي لتعذيبي بالفعل، وما كنتُ لأتزوَّج في المقام الأوَّل لولا إصرارها. أنا أعرفُ أنَّني لا أصلحُ زوجًا، لأنَّني في أسعد حالاتي عندما تنشغل يداي بالعمل، وبعدها أرجعُ إلى المنزل متأخِّرًا متَّسخًا».

ـ «هذا عاملٌ مشترَك بين السِّحر والاختراع. لا أظنُّني أصلحُ زوجةً أيضًا. لكنَّ الخُطَّاب لا يدقُّون بابي ليلَ نهار على كلِّ حال. يبدو أنَّ سوق السَّاحرات الموصومات كاسدة».

قال مبتسمًا: «أظنُّ أنَّ أختكِ ساعدَت على تسميم تلك البئر».

كان سهلًا الكلام معه بهذه الصَّراحة، فوجهه كالبِركة السَّاكنة التي تحتفظ بكلِّ شيءٍ في أمانِ أعماقها.

ـ «هل عرفت بعدُ كيف ستحتجز الكائن حينما ينمو؟».

أومأَ إيجابًا، وقال: «كنتُ أفكِّرُ. لقد رأيتِ كيف يُشبِه القصر قُرص العسل تحت الأرض. هناك المئات من المخازن غير المستخدمة، فثروة كريت كلُّها في الذَّهب هذه الأيَّام، وليس الغلال. أظنُّني أستطيعُ أن أصنع من تلك الحُجرات ما يُشبِه المتاهة، وأسدُّها من كلا الطَّرفيْن وأترك الكائن يجوبها. كلُّها محفور في القاعدة الصَّخريَّة، فلن تكون هناك بُقعةٌ يهرب منها».

فكرةٌ طيِّبة، وعلى الأقل سيحظى الكائن بمساحةٍ أوسع من القفص الضيِّق. قلتُ: «ستكون أعجوبةً. متاهةٌ تحتوي وحشًا كامل النُّمو. عليك أن تبتكر اسمًا مناسبًا لها».

ـ «أنا واثق بأنَّ مينوس سيُلقي اقتراحًا يتضمَّن نفسه».

ـ «آسفةٌ لأنَّني لا أستطيعُ البقاء للمساعدة».

ردَّ: «لقد ساعدتِ أكثر ممَّا أستحقُّ»، وارتفعَت نظرته تمسُّ نظرتي.

تنحنحَ أحدهم، ثمَّ قالت المربِّية الواقفة في المدخل: «ابنك يا سيِّدي».

قال دايدالوس: «آه. بعد إذنكِ».

غلبَ تململي قُدرتي على الجلوس بصبر، فجلتُ في الحُجرة التي توقَّعت أن تكون ملأى بالمزيد من الأعاجيب، بالتَّماثيل والزَّخارف في كلِّ رُكن، لكنَّني وجدتها بسيطةً وأثاثها من الخشب التَّقليدي غير المنقوش. على أنَّني رأيتُ بصمة دايدالوس مع النَّظر من كثب، إذ التمعَت طبقة الصَّقل وصُنفِرَت حُبيبات الخشب حتى حاكَت بتلات الزَّهر في النُّعومة، ولمَّا تحسَّستُ كُرسيًّا لم أجد فيه وصلات.

عادَ دايدالوس وقال مفسِّرًا: «قُبلة قبل النَّوم».

ـ «طفلٌ سعيد».

جلسَ وأخذَ رشفةً من النَّبيذ، ثمَّ قال: «في الوقت الرَّاهن. إنَّه أصغر من أن يعرف أنَّه سجين»، وبدَت النُّدوب البيضاء على يديْه كأنَّما تتَّقد إذ أضاف: «ما زال القفص الذَّهبيُّ قفصًا».

ـ «وأين ستذهب إذا استطعت الفرار؟».

ـ «إلى أيِّ مكانٍ يقبلني، لكنْ إن كان لي الاختيار فمصر. هناك يبنون أشياءَ تجعل كنوسوس تبدو كسهلٍ منبسِط. إنَّني أتعلَّمُ اللُّغة من بعض تُجَّارهم على أرصفة الميناء، وأظنُّ أنَّهم سيُرحِّبون بنا».

تطلَّعتُ إلى وجهه الطيِّب، ليس لأنَّه وسيم، بل لأنَّه نفسه، كالمعدن الممتاز المسقًى المطرَّق من أجل اكتساب القوَّة. وحشان قاتلناهما جنبًا إلى جنبٍ ولم يتذبذَب. أردتُ أن أقول له تعالَ إلى آيايا، لكنَّني علمتُ أنَّ لا شيء له هناك.

وبدلًا من ذلك قلتُ: «آملُ أن تذهب إلى مصر يومًا».

***

فرغنا من وجبتنا، وقطعتُ الأروقة المظلمة عودةً إلى حُجرتي. كانت الأمسية سارَّةً، إلَّا أنَّني شعرتُ بنفسي معكَّرةً مشوَّشةً، عقلي مثل غرين الأنهار الثَّائر من قيعانها. لم أستطع التَّوقُّف عن سماع دايدالوس يتكلَّم عن حرِّيَّته بنبرةٍ مفعمة بالحنين وبالمرارة أيضًا. على الأقل استحقَقتُ أنا منفاي، أمَّا دايدالوس فبريء، محتجَز هنا فقط على سبيل كونه غنيمةً تُرضي غرور أختي ومينوس. فكَّرتُ في عينيْه حين تكلَّم عن إيكاروس، في ذلك الحُبِّ الخالص الوهَّاج. عند أختي لا يُعَدُّ حُبُّه هذا أكثر من أداة، سيفٍ مصلت على رأسه تجعله به عبدها. تذكَّرتُ الاستمتاع على وجهها عندما أمرَته بفتح بطنها، النَّظرة نفسها التي تصدَّرت ملامحها لمَّا دخلتُ من الباب.

لقد انشغلتُ تمامًا بالمينوتور، حتى إنَّني لم أرَ أنَّ الأمر كلَّه انتصارٌ كبيرٌ لها، ليس فقط الوحش وشُهرتها المستجدَّة، بل كلُّ شيءٍ يتضمَّنه هذا؛ إجبار دايدالوس على التَّواطؤ، وذلَّة مينوس ومهانته، وكريت بأكملها رهينة الخوف. وأنا، أنا أيضًا انتصارٌ لها. كان بإمكانها أن تستدعي غيري، ولكنْ لطالما كنتُ أنا الكلبة التي تحبُّ جَلدها. پاسيفاي علمَتْ كم سأكونُ مفيدةً، أنَّني سأنظِّفُ فوضاها بطاعة، وأحمي دايدالوس وأحرصُ

على احتواء الوحش، وطيلة الوقت بإمكانها الضَّحك وهي متّكئة على أريكتها الذَّهبيَّة. **أتُعجِبكم حيوانتي الأليفة الجديدة؟ لا تنال منّي إلَّا الضَّرب، ومع ذلك انظُروا كيف تهرع إليَّ بمجرَّد أن أصفر لها!**

أحسستُ بحريقٍ في معدتي، والتفتُّ عن حُجرتي ومشيتُ كالآلهة غير مرئيَّة، مرورًا بالحرس الغافلين والخدم اللَّيليّين، حتى بلغتُ باب حُجرة أختي ودخلتُ منه. وقفتُ فوق سريرها. كانت وحدها، فأختي لا تثق بأحدٍ في نومها إلَّا نفسها. حين عبرتُ العتبة استشعرتُ التَّعاويذ، لكنَّها لم تستطع منعي.

خاطبتها قائلةً: «لماذا استدعيتِني إلى هنا؟ دعيني أسمعكِ تعترفين».

انفتحَت عيناها في الحال، يقظتَيْن كأنَّها كانت في انتظاري، وردَّت: «إنَّها هديَّة بالطَّبع. مَن غيركِ كان ليستمتع برؤيتي أنزفُ كلَّ هذا الدَّم؟».

- «يُمكنني التَّفكير في ألف».

ابتسمَت كما تبتسم القِطط، فاللَّعب بفأرٍ حي أمتع دومًا، وقالت: «مؤسفٌ للغاية أنَّكِ لا تستطيعين استخدامَ تعويذة التَّقييد الجديدة مع سكيلا. لكنَّكِ ستحتاجين إلى دم أمّها بالطَّبع، ولا أظنُّ أنَّ تلك المفترسة كراتائيس ستُسدي إليكِ ذلك المعروف».

كنتُ قد فكَّرتُ في ذلك بالفعل. لطالما عرفَتْ پاسيفاي أين تُسدّد الطَّعنة.

قلتُ: «لقد أردتِ إهانتي».

تثاءبَت ليظهر لسانها الورديُّ بين أسنانها البيضاء، ثمَّ قالت: «أفكّرُ في تسمية ابني آستريون. هل يُعجِبكِ؟».

آستريون، «النَّجمي».

أجبتُ: «أجمل اسمٍ سمعته على الإطلاق لآكل لحم نوعه».

عقَّبتْ: «لا تكوني دراميَّةً. لا يُمكن أن يكون آكل لحم نوعه، لأنَّه لا تُوجَد مينوتورات أخرى يأكلها»، وقطَّبتْ وجهها بعض الشَّيء مميِّلةً ذقنها، وأضافت: «ولو أنَّني أتساءلُ، هل تُحسَب السَّنتورات[1]؟ مؤكَّد أنَّ هناك صلة قرابة بينها وبينه، ألا تظنِّين هذا؟».

قلتُ رافضةً أن أتركها تستدرجني: «كان بإمكانكِ أن تُرسِلي إلى برسيس».

لوَّحت بيدها مردِّدةً: «برسيس»، ولم أدرِ ما يعنيه ذلك.

- «أو إيتيس».

اعتدلَتْ جالسةً لتَسقُط الأغطية عنها وينكشف بدنُها العاري إلَّا من قلادةٍ عبارة عن مربَّعاتٍ من الذَّهب المطرَّق، وكلُّ مربَّعٍ منقوشٌ بشكلِ شمسٍ أو نحلةٍ أو فأسٍ أو هيكل ديكتي الشَّامخ. قالت: «أوه، أتمنَّى أن نظلَّ نتكلَّم اللَّيل بطوله. سأجدلُ شعركِ ونضحك من خُطَّابنا»، وخفضَت صوتها متابعةً: «أعتقدُ أنَّ دايدالوس سيقبلكِ في لحظة».

قلتُ وقد فاضَ غضبي عن ضفافه: «أنا لستُ كلبتكِ يا پاسيفاي، ولا دُبَّتكِ لتُلقي لي طُعمًا. لقد جئتُ لمعاونتكِ على الرَّغم من تاريخنا، على الرَّغم من الرِّجال الذين أرسلتِهم إلى حتفهم، وساعدتكِ في شأن وحشكِ، قمتُ بعملكِ بدلًا منكِ، ولا أنالُ منكِ إلَّا التَّهكُّم والاحتقار.

(1) السَّنتور: مخلوق أسطوري نصفه رجل ونصفه حصان. (المترجم).

مرّةً واحدةً في حياتكِ الملتوية قولي الحقيقة. لقد جلبتِني إلى هنا لتجعليني مهرّجتكِ».

ـ «أوه، شيء كهذا لا يتطلّب جهدًا منّي، إنّكِ مهرّجة من تلقاء نفسكِ». على أنّه كان ردًّا انعكاسيًّا وليس إجابةً حقيقيّةً، وهكذا انتظرتُ.

واصلَت: «طريفٌ أنّكِ بعد كلّ هذا الوقت ما زلتِ مؤمنةً بأنّكِ تستحقّين المكافأة لمجرّد أنّكِ كنتِ مطيعةً. حسبتكِ تعلّمتِ ذلك الدّرس في أبهاء أبينا. لا أحد استكانَ أو تزلّف مثلكِ، ومع ذلك داسكِ هيليوس العظيم أسرع من غيركِ، لأنّكِ كنتِ قابعةً عند قدميْه بالفعل».

تكلّمتْ مائلةً إلى الأمام وشعرها الذّهبي يسترسل مطرّزًا ملاءة السّرير من حولها.

ـ «دعيني أخبركِ بحقيقةٍ عن هيليوس وبقيّتهم. إنّهم لا يكترثون لكونكِ صالحةً، وبالكاد يكترثون إن كنتِ طالحةً. الشّيء الوحيد الذي يجعلهم يُصغون هو القوّة. لا يكفي أن تكوني المفضّلة عند أحد الأعمام أو تُمتّعي إلهًا ما في فِراشه، ولا يكفي حتى أن تكوني جميلةً، لأنّكِ حين تذهبين إليهم وتركعين قائلةً إنّكِ تصرّفتِ بصلاحٍ وتُريدين المساعدة، عندها يعقدون حواجبهم. أوه يا حُلوتي، غير مُمكن. أوه يا عزيزتي، عليكِ أن تتعلّمي التّعايُش مع الأمر. وهل سألتِ هيليوس؟ تعلمين أنّني لا أفعلُ شيئًا من دون إذنه».

وبصقَت على الأرض.

ـ «إنّهم يأخذون ما يُريدون، وفي المقابل لا يُعطونكِ إلّا أغلالكِ. ألف مرّةٍ رأيتكِ تُسحَقين، وسحقتكِ بنفسي أيضًا، وكلّ مرّةٍ حسبتها النّهاية، لقد انتهَت، ستبكي حتى تتحوّل إلى حجرٍ أو طائرٍ ينعق،

ستتركنا وتذهب إلى حيث ألفَت، لكنَّكِ ما برحتِ ترجعين في اليوم التَّالي. كلُّهم اندهشَ عندما اتَّضح أنَّكِ ساحرة، لكنَّني عرفتُ هذا قبلهم بزمنٍ طويل. على الرَّغم من بُكائكِ كالفأر المبتل رأيتُ أنَّكِ لن تنهزِمي. لقد احتقرتِهم مثلما احتقرتُهم. أظنُّ أنَّ من هذا أتت قُوانا».

كانت كلماتها تتساقَط على رأسي كشلَّالٍ عظيم، وبالكاد استطعتُ استيعابها. هي كرهَت عائلتنا؟ لقد بدَت لي دائمًا أنَّها خُلاصتها المقطَّرة، صرح متألِّق لقسوة دمائنا وغرورها. لكنْ ما قالته صحيح، فالحوريَّات مسموح لهنَّ بالعمل من خلال قُوى الآخرين فحسب، ولا يتوقَّعن شيئًا منها لأنفُسهنَّ.

قلتُ: «إن صحَّ كلُّ هذا فلِمَ عاملتِني بمنتهى القسوة؟ أنا وإيبتيس كنَّا وحدنا، وكان بإمكانكِ أن تكوني صديقتنا».

ردَّدت ساخرةً: «صديقتكما». شفتاها بلون الأحمر الدَّموي المثالي، الدَّرجة التي لا تصل إليها جميع الحوريَّات الأخريات إلَّا بالطِّلاء. «ليس هناك أصدقاء في تلك الأبهاء، وإيبتيس لم يحبَّ امرأةً في حياته كلِّها».

- «غير صحيح».

سألت: «لأنَّكِ تحسبين أنَّه أحبَّكِ؟» وضحكت مردفةً: «لقد احتملَكِ لأنَّكِ كنتِ قردةً مروَّضةً تُصفِّق لكلِّ كلمةٍ يقولها».

- «أنتِ وپرسيس لم تكونا مختلفيْن».

- «لستِ تعلمين شيئًا عن پرسيس. أتدرين كيف حافظتُ على رضاه؟ الأشياء التي اضطررتُ إلى فعلها؟».

لم أُرد أن أعرف المزيد. كان وجهها مكشوفًا أكثر من أيِّ مرَّةٍ رأيته فيها، وكلُّ كلمةٍ حادَّةٌ كأنَّها قضَت سنينًا في نحتها وتشكيلها.

- «ثمَّ أعطاني أبونا لذلك الحمار مينوس. حسنٌ، كان بإمكاني العمل معه، ولقد فعلتُ. إنَّه مربوطٌ الآن، لكنَّ الطَّريق كان طويلًا، ولن أرجع أبدًا إلى ما كنته. أخبِريني إذن يا أختاه، إلى مَن كان عليَّ أن أرسل بدلًا منكِ؟ إلى إلهٍ لا يطيق صبرًا على الاستهزاء بي وجعلي أتوسَّلُ الفُتات؟ أم إلى حوريَّةٍ تتبختر عبر البحر بلا طائل؟». وضحكَتْ ثانيةً مضيفةً: «كان كلاهما ليهرب صارخًا عند مرأى النَّاب الأوَّل. إنَّهم لا يقوون على احتمال أيِّ ألمٍ على الإطلاق، إنَّهم ليسوا مثلنا».

كلماتها كانت صدمةً، كأنَّ يديْها طوال الوقت كانتا خاليتيْن، ثمَّ أخرجَت السكِّين. غمرَ الغَثَيان حلقي كالطُّوفان، وتراجعتُ.

- «أنا لستُ مثلكِ».

لوهلةٍ رأيتُ الدَّهشة على وجهها، ثمَّ اختفَت كموجةٍ يتشرَّبها الرَّمل، وقالت: «أجل، لستِ مثلي. إنَّكِ مثل أبينا، غبيَّةٌ مرائيَّة، تغضِّين بصركِ عن كلِّ شيءٍ لا تفهمينه. أخبِريني، ما الذي تحسبينه سيَحدث إن لم أصنع الوحوش والسُّموم؟ مينوس لا يُريد ملكةً، بل هُلامٌ يتكلَّف التَّبسُّم يحتفظ به في جرَّةٍ ويستولده حتى الموت. سيُسعِده أن يُكبِّلني بالسَّلاسل إلى الأبد، وما عليه إلَّا أن يقول كلمةً لأبيه كي يفعلها. لكنَّه لا يفعل ذلك، لأنَّه يَعْلم ما سأفعله به أوَّلًا».

تذكَّرتُ ما قاله أبي عن مينوس. **سيجعلها تلزم مقامها.** «لكنْ أبانا لن يسمح لمينوس بالتَّمادي أكثر من اللَّازم».

كالمخالب خدشَت ضحكتها أُذنَيَّ، وقالت: «سيُكبّلني أبونا بالسّلاسل بنفسه إن حافظَ ذلك على حِلفه الثَّمين. أنتِ دليلٌ على هذا. زوس مرعوبٌ من السّحر وأرادَ قُربانًا، واختاركِ أبونا لأنّكِ أقلُّنا قيمةً، والآن أنتِ معزولة على تلك الجزيرة ولن تبرحيها أبدًا. كان عليَّ أن أعرف أنّكِ لن تنفعيني بشيء. اخرُجي، اخرُجي ولا تجعليني أراكِ ثانيةً أبدًا».

* * *

قطعتُ تلك الأروقة عائدةً، عقلي عارٍ وجِلدي يخزني كأنّه يُريد أن ينخلِع عن لحمي. كلُّ جَلَبة، كلُّ لمسة، كلُّ حجرٍ تحت قدمَيَّ، تناثُر الماء في النّوافير خارج نافذة، كلُّها زحفَ بشرٌّ على حواسّي، وحمل الهواء ثقلًا شائكًا كموج المحيط، حتى شعرتُ بنفسي غريبةً في هذا العالم.

حين انفصل الجسم عن ظلال بابي كنتُ خدرةً لا أقوى على مجرّد الصّياح. باضطرابٍ بحثَت يدي عن حقيبة العقاقير، لكنْ عندها سقطَ ضوء المشعل البعيد على وجهه المحجوب.

قال بخفوتٍ لم يكن ليسمعه إلّا إله: «كنتُ أنتظركِ، لكنْ ما عليكِ إلّا أن تقولي كلمةً وسأرحلُ».

استغرقتُ لحظةً حتى فهمتُ. لم أحسبه بهذه الجرأة، إلّا أنّه تحلّى بها بالطّبع. فنّان، مبدع، مخترع، أعظم مَن عرفَه العالم. الجُبن لا يخلق شيئًا.

ماذا كنتُ لأقول لو أنّه أتى قبلها؟ لا أدري، لكنّ صوته في تلك اللّحظة كان كالبلسم على جِلدي المكشوف. اشتقتُ إلى يديْه، إليه كلّه على الرّغم من كونه فانيًا، على الرّغم من أنّه كان وسيبقى بعيدًا مآله الموت.

وقلتُ: «ابقَ».

* * *

لم نُشعِل شموعًا. كانت الحُجرة مظلمةً ودافئةً من حرارة النَّهار، والظِّلال تكسو الفِراش. لم تنقَّ ضفادع أو تصِحْ طيور، كأنَّنا وجدنا قلب الكوْن السَّاكن، ولم يتحرَّك إلَّانا شيء.

بعدها، تمدَّدنا جنبًا إلى جنبٍ ونسيم اللَّيل يهبُّ شيئًا فشيئًا على أطرافنا. خطرَ لي أن أحكي له عن الشِّجار مع پاسيفاي، غير أنَّني لم أردها هناك معنا. في الخارج كانت النُّجوم محتجبةً، وعبرَ أحد الخدم السَّاحة بمشعلٍ متذبذب. في البدء حسبتُني تخيَّلتها، تلك الهزَّة الخفيفة التي رجَّت الحُجرة.

- «أتشعُر بهذا؟».

أومأَ دايدالوس برأسه مجيبًا: «الهزَّات ليست قويَّةً أبدًا. القليل من التَّصدُّعات في الجِصّ. في الفترة الأخيرة كثُرَ تكرارها».

- «لن تُتلِف القفص».

قال: «لا. ليَحدث ذلك يجب أن تسوء كثيرًا»، ومرَّت لحظةٌ قبل أن يأتي صوته هادئًا في الظُّلمة: «عند الحصاد، عندما ينضج الكائن، ما الدَّرجة المتوقَّعة من السُّوء؟».

- «نحو خمسة عشر شخصًا خلال شهر».

سمعته يأخذ شهيقًا عميقًا، ثمَّ يقول: «أشعرُ بثقل الأمر بلا انقطاع. كلُّ تلك الأنفُس. لقد ساعدتُ على صُنع ذلك الكائن، والآن لا أستطيعُ تدميره».

هذا الثّقل الذي ذكرَه أعرفه. كانت يده إلى جوار يدي، متكلّسةً ولكنْ ليست خشنةً، وفي الظَّلام تحسَّستها بأصابعي بحثًا عن الرُّقع الملساء الباهتة التي هي ندوبه.

سألني: «كيف تحتملين ذلك؟».

انبعثَ ضوءٌ خافتٌ من عينَيّ، وفيه رأيتُ وجهه، ليُدهِشني أن أتبيَّن أنَّه ينتظر جوابًا، أنّه اعتقدَ أنَّ لديَّ واحدًا. فكَّرتُ في حُجرةٍ معتمة أخرى مع سجينٍ آخر. هو أيضًا كان حِرفيًّا، وعلى أساس معرفته شُيِّدَت الحضارة. طيلة هذا الوقت كمنَت كلماتُ پروميثيوس العميقةُ كالجذور منتظرةً في داخلي.

أجبته: «نحتمله بأفضل ما بمقدورنا».

***

من عادة مينوس أن يبخل بسُفنه، والآن وقد تمَّ احتواء الكائن جعلَني أنتظرُ على راحته. «أحد تُجّاري يمرُّ في طريقه قُرب آيايا. سيُبحِر خلال أيّامٍ قليلة. يُمكنكِ أن تذهبي حينها».

لم أرَ أختي مرَّةً أخرى إلَّا من بعيد، محمولةً إلى نزهاتها وتساليها. ولم أرَ آريادني كذلك، مع أنَّني بحثتُ عنها في حلبة الرَّقص. سألتُ أحد الحُرَّاس أن يأخذني إليها، ولا أظنُّني تخيَّلتُ ابتسامته السَّاخرة إذ قال: «الملكة حرَّجت ذلك».

پاسيفاي وانتقاماتها التَّافهة. لسعَني وجهي، لكنَّني لن أمنحها رضا معرفة أنَّ قسوتها أصابَت الهدف. تجوَّلتُ في أراضي القصر وأروقته المعمَّدة ومنتزهاته وحقوله، وشاهدتُ الفانين يمرُّون بوجوههم

غير المروَّضة المثيرة للاهتمام، وكلَّ ليلةٍ طرقَ دايدالوس بابي سرًّا. كنَّا نعرف أنَّ وقتنا معًا لن يطول، وهو ما جعل لقاءاتنا أحلى فأحلى.

أتى الحرس بعد انبلاج فجر اليوم الرَّابع مباشرةً، وكان دايدالوس قد غادرَ بالفعل، إذ أحبَّ أن يكون في البيت عند استيقاظ إيكاروس. وقف الرِّجال أمامي متخشِّبين في حراملهم الأرجوانيَّة، متأهِّبين كأنَّني قد أراوغهم وأهربُ إلى التِّلال. تبعتهم عبر القاعات الملوَّنة ونزولًا على السَّلالم العظيمة، ووجدتُ دايدالوس منتظرًا وسط فوضى رصيف الميناء.

قلتُ: «ستُعاقِبك پاسيفاي على هذا».

ردَّ: «ليس أكثر ممَّا تُعاقِبني بالفعل»، وتنحَّى جانبًا لتُساق إلى السَّفينة الخراف الثَّمانية التي أرسلَها مينوس على سبيل الشُّكر، وعلَّق «أرى أنَّ الملك سخيٌّ كديدنه»، ثمَّ أشار إلى صندوقيْن ضخميْن حُمِّلا على متن السَّفينة بالفعل، واستطردَ: «أذكرُ أنَّكِ تُحبِّين الانشغال. إنَّه من تصميمي».

- «أشكرك. إنَّك تُشرِّفني».

- «لا، إنَّني أعلمُ ما ندين لكِ به، ما أدينُ به».

شعرتُ بحريقٍ في مؤخِّرة حلقي، لكنَّني شعرتُ بالأعيُن التي تُراقِبنا، ولم أرغب في أن أزيد الأمر عليه سوءًا، وهكذا قلتُ: «هلَّا تُودِّع آريادني من أجلي؟».

- «سأفعلُ».

صعدتُ إلى ظهر السَّفينة ورفعتُ يدي، ورفعَ دايدالوس يده. لم أكن قد خدعتُ نفسي بأملٍ زائف. أنا ربَّةٌ، وهو فانٍ، وكلانا سجين.

ولكنْ كما تُطبَع الأختام في الشَّمع طبعتُ وجهه على وجداني لكي أحمله معي.

لم أفتح الصُّندوقيْن حتى غبنا عن الأنظار، وأتمنَّى لو أنَّني فعلتها قبل ذلك حتى أشكره كما يليق. داخل أحدهما وجدتُ أصوافًا غير مصبوغة وخيوطًا وكتَّانًا من كلِّ صنف، وفي الثَّاني أجمل منوالٍ رأيته على الإطلاق، مصنوعًا من خشب الأَرز المصقول.

ما زال المنوال عندي، يقف إلى جوار مستوقدي، كما أنَّه وجدَ طريقه إلى الأغاني أيضًا. قد لا تكون هذه مفاجأةً، فالشُّعراء يحبُّون التَّناظُر. السَّاحرة سرسي الموهوبة في غزل التَّعاويذ والخيوط على حدٍّ سواء، في نسج التَّمائم والأقمشة. مَن أنا لأفسد وزنًا سُداسيًّا تلقائيًّا كهذا؟ لكنْ أيَّة أعجوبةٍ تتضمَّنها أقمشتي تأتي من ذلك المنوال والفاني الذي صنعَه. حتى بعد مرور كلِّ تلك القرون ما زالَت أوصاله قويَّةً، ولمَّا تنزلق الوشيعة داخل سَداة النَّسيج، تملأ رائحة الأَرز الهواء.

بعد رحيلي بنى دايدالوس متاهته العُظمى بالفعل، التِّيه الذي احتوَت جُدرانه غضبة المينوتور. تكوَّم حصادٌ فوق حصاد، وفي الممرَّات المتعرِّجة تكوَّمت العظام بارتفاع الكاحل، وقال خدم القصر إنَّك إذا أصغيت فستسمع الكائن يتحرَّك جيئةً وذهابًا. وطوال الوقت ظلَّ دايدالوس يعمل، فدهنَ هيكليْن خشبيَّيْن بالشَّمع الأصفر، وعليهما ثبَّت الرِّيش الذي جمعَه من طيور البحر الضَّخمة التي تقتات على سواحل كريت، ريش أبيض طويل عريض صنعَ منه مجموعتيْن من الأجنحة، ربطَ إحداهما بذراعيْه والثَّانية بذراعَي ابنه، ثمَّ وقفا فوق قمَّة أعلى جروف كنوسوس وقفزا.

تلقَّفتهما تيَّارات هواء المحيط وحملَتهما عاليًا. وشرقًا ذهبا صوب الشَّمس المشرقة وإفريقيا. صاح إيكاروس جذلًا، فعندها كان قد أضحى فتى شابًّا، وهذه أوَّل مرَّةٍ يذوق فيها الحرِّيَّة. ضحكَ أبوه لمرآه يغوص ويدور، وظلَّ الفتى يرتفع أكثر فأكثر مبهورًا برحابة السَّماء فيما يضرب لظى الشَّمس كتفيْه بلا هوادة. لم يُلقِ إيكاروس انتباهًا لصيحات أبيه المحذِّرة، ولم يلحظ الشَّمع الذَّائب، وسقطَ الرِّيش، وسقطَ الفتى وراءه، وابتلعَته الأمواج.

تحسَّرتُ لموت الصَّبيِّ العذب، لكنَّني تحسَّرتُ أكثر على دايدالوس الذي واصل طريقه بإصرارٍ جارًّا تلك اللَّوعة اليائسة خلفه. هرميز هو من أخبرني بالطَّبع فيما يرشف من نبيذي رافعًا قدميْه على مستوقدي. أغلقتُ عينَيَّ لأجد انطباع وجه دايدالوس الذي احتفظتُ به في عقلي، وتمنَّيتُ لو أنَّه وضعَ في بطني طفلًا يكون عزاءً له. على أنَّها كانت فكرةً غريرةً سخيفةً. كأنَّ الأطفال أجولةٌ من الحبوب، يُستَبدَل أحدهم بالآخر.

لم يعِش دايدالوس طويلًا بعد موت ابنه. ذبلت أطرافه ووهنَت، واستحالَت قوَّته كلُّها إلى دُخان. لم يكن لي حقٌّ في اعتباره لي، وعرفتُ هذا، لكن في حياة العُزلة ثمَّة لحظاتٌ نادرة تهبط روح أخرى قُرب روحك، كما تمسُّ النُّجومُ الأرض مرَّةً كلَّ عام، وبالنِّسبة إليَّ كان دايدالوس كوكبةً.

الفصل الثّاني عشر

سلكنا الطّريق الطّويل في العودة إلى آيايا لنتفادى سكيلا، واستغرقَت الرّحلة أحد عشر يومًا. انحنَت قُبّة السّماء من فوقنا صافيةً منيرةً، وأمعنتُ النّظر إلى الأمواج المُعمية والشّمس المضطرمة بياضًا من دون أن يُزعِجني أحد. لدى مروري أشاحَ الرّجال بأبصارهم، ورأيتهم يُلقون حبلًا لمسته في الماء، وهو ما لم ألمهم عليه، فقد عاشوا في كنوسوس، وعرفوا أكثر من اللّازم بالفعل عن صناعة السّحر.

عندما رسوْنا في آيايا حملوا المنوال بطاعةٍ عبر الغابة ووضعوه أمام مستوقدي، وقادوا الخراف الثّمانية أيضًا. عرضتُ عليهم نبيذًا ووجبةً، لكنّهم رفضوا بالطّبع، وهرعوا عائدين إلى سفينتهم، وانحنوا على مجاذيفهم بعزمٍ متلهّفين إلى الغياب في الأفق، وقد شاهدتُ حتى اللّحظة التي اختفوا فيها كلهب شمعةٍ انطفأ.

حدّقت اللّبؤة من مكانها على عتبة بابي، ولوّحت بذيلها في الهواء كأنّما تقول: **الأفضل أن تكون هذه نهاية الأمر.**

قلتُ: «أظنُّها كذلك».

بعد سُرادقات كنوسوس المشمسة الرَّحبة، شعرتُ بمنزلي ضيِّقًا كالجُحر. مشيتُ في حُجراته المرتَّبة مستشعرةً الصَّمت والسُّكون وغياب وقع الأقدام باستثناء قدمَيّ، ووضعتُ يدي على كلِّ سطح، على كلِّ صوانٍ وكوب، وكان كلُّها كما كان وكما سيكون دومًا.

خرجتُ إلى حديقتي، حيث أزلتُ الحشائش التي تنمو من جديدٍ دائمًا، وزرعتُ الأعشاب التي جِمعتها من جبل ديكتي. بدَت غريبةً بعيدًا عن غيطانها المضاءة بالقمر، ومحشورةً بين أحواضي اللَّامعة البهيجة، وبدا طنينها أخفت ولونها أبهت. لم يكن قد خطرَ لي أنَّ قُواها لن تتحمَّل زرعها في غير بيئتها.

خلال السَّنوات التي عشتها في آيايا لم أشعر قطُّ بالضِّيق من محبسي. فبعد أبهاء أبي بدَت لي الجزيرة أجمع حرِّيَّةٍ في الدُّنيا وأطيبها، سواحلها وذُراها جميعًا مفتوحة على الأفق زاخرة بالسِّحر. ولكنْ عند النَّظر إلى تلك الأزهار الهشَّة شعرتُ للمرَّة الأولى بثقل منفاي الحقيقي. إذا ماتَت فلن أستطيع حصاد المزيد، لن أمشي ثانيةً أبدًا على منحدرات ديكتي الطنَّانة أو أسحب الماءَ من بِركته الفضِّيَّة. كلُّ الأمكنة التي حكى لي هرميز عنها، جزيرة العرب وآشور ومصر، ضائعةٌ منِّي إلى الأبد.

لن تبرحيها أبدًا. هكذا قالت أختي.

* * *

من باب التَّحدِّي، ألقيتُ نفسي في حياتي القديمة. فعلتُ ما شئتُ لحظة أن عنَّ لي. غنَّيتُ على الشَّواطئ، وأعدتُ ترتيب حديقتي.

ناديتُ الخنازير وحككتُ ظهورها الخشنة، مشَّطتُ صوف الخرفان واستدعيتُ الذِّئاب لتتمدَّد لاهثةً على أرضيَّة منزلي. رمقَتني اللَّبؤة باستهجانٍ بعينيْها الصَّفراويْن، إلَّا أنَّها أحسنَت الأدب، لأنَّ قانوني أن تحتمل حيواناتي كلُّها بعضَها بعضًا.

كلَّ ليلةٍ خرجتُ لاستخلاص أعشابي وجذوري، ومارستُ كلَّ تعويذةٍ خطرَت لي لمجرَّد أن أشعر بلذَّة حبكها بين يدَيَّ. في الصَّباح قطفتُ الزُّهور لمطبخي، وفي المساء بعد العشاء جلستُ أمام منوال دايدالوس. استغرقتُ بعض الوقت حتى فهمته، ذلك أنَّه ليس كأيِّ منوالٍ عرفْتُه في أبهاء الآلهة، إذ يشمل تصميمه مقعدًا، وتُسحَب خيوط اللُّحمة إلى أسفل بدلًا من أعلى. لو رأته جدَّتي لعرضَت حيَّتها البحريَّة لقاءه، فالقُماش الذي يُنتِجه أفضل من أفضل قُماشٍ تنسجه. لقد أحسن دايدالوس التَّخمين، أنَّه سيروقني للغاية بما فيه من بساطةٍ ومهارةٍ في الحال، ورائحة الخشب، وصوت الوشيعة، والطَّريقة المُرضية التي يرتصُّ بها بعض الخيوط فوق بعض. فكَّرتُ أنَّ الأمرَ يُشبِه عمل التَّعاويذ نوعًا، فعلى يديْك أن تكونا مشغولتيْن، وعقلك أن يكون صافيًا منتبهًا. على أنَّ الجزء المفضَّل عندي لم يكن المنوال نفسه على الإطلاق، بل الأصباغ. ذهبتُ أصطاد أفضل الألوان؛ الزَّعفران وجذر الفُوَّة، وحشرة القرمز، والمريق القاني كالنَّبيذ من البحر، إضافةً إلى الشبَّة المطحونة لتَثبُت الألوان في الصُّوف. اعتصرتُ هذه المكوِّنات ودققتها ونقعتها في قدورٍ ضخمة فوق النَّار إلى أن رغَت السَّوائل كريهة الرَّائحة زاهيةً كالزُّهور: قرمزي وأصفر زعفراني، والأرجواني الغامق الذي يرتديه الأمراء. لو أنَّني أملكُ مهارة أثينا لنسجتُ جداريَّةً عظيمةً لآيريس ربَّة قوس قزح التي تُلقي ألوانها من السَّماء.

لكنَّني لستُ أثينا، وقد رضيتُ بالوشاحات البسيطة والمعاطف والدُّثر التي وُضِعَت كالجواهر على مقاعدي. كسوتُ لبؤتي بواحدٍ، وسمَّيتها ملكة فينيقيا. وجلسَت هي مدوِّرةً رأسها في هذا الاتِّجاه وذاك، كأنَّها تستعرض الأرجوانيَّ الذي جعل فرْوها يَبرُق ذهبًا.

لن تري فينيقيا أبدًا.

نهضتُ من فوق مقعدي، وجعلتُ نفسي أتجوَّلُ في الجزيرة مستمتعةً بالتَّغيُّرات التي تأتي بها كلُّ ساعةٍ؛ حشرات متزلِّج المياه المارَّة فوق أسطُح البِرك، والأحجار التي سوَّتها التيَّارات النَّهريَّة وصبغَتها بالخُضرة، والنَّحل الطَّائر على ارتفاعٍ منخفض محمَّلًا بحبوب اللَّقاح. امتلأت الخلجان بالأسماك السَّابحة بسرعة، وانبثقَت البذور من قرونها، ورغم كلِّ شيءٍ ازدهرَ ما جمعتُ من غُبيرة الأيل والزَّنابق في كريت.

قلت لأختي: أرأيتِ؟

وكان دايدالوس هو من ردَّ عليَّ: **ما زال القفص الذَّهبيُّ قفصًا.**

* * *

استحال الرَّبيع إلى صيف، والصَّيف إلى خريفٍ عطر. الآن في الصَّباح ضباب، وأحيانًا في اللَّيل عواصف. قريبًا سيحلُّ الشِّتاء بجَماله الخاص، عندما تلتمع أوراق الخَربَق الخضراء وسط البنِّي، وترتفع أشجار السَّرو طويلةً سوداء إلى السَّماء المعدنيَّة. لم يكن الطَّقس باردًا حقًّا قطُّ، ليس كقمَّة جبل ديكتي، لكنَّني سررتُ بمعاطفي الجديدة التي ارتديتها إذ تسلَّقتُ الصُّخور ووقفتُ في الرِّياح. ولكنْ مهما كانت المحاسنُ التي سعيتُ لها والمباهج التي عثرتُ عليها، تبعَتني كلمات أختي، تسخر منِّي وتنخر نخرًا في أعماق عظمي ودمي.

قلتُ لها: «أنتِ مخطئة بشأن السّحر. إنّه لا يَنبُع من الكراهية. تعويذتي الأولى صنعتها من أجل حُبّي جلاوكوس».

كأنّها واقفةٌ أمامي، سمعتُ صوتها المِنكي يقول: لكنْ ما فعلتِ كان تحدّيًا لأبينا، تحدّيًا لكلِّ مَن استخفُّوا بكِ وأرادوا صدَّكِ عن أمنياتكِ.

لقد رأيتُ النَّظرةَ في عينَيْ أبي حين عرفَ ماهيتي أخيرًا. ساعتها فكّر أنّه كان يَجدُر به أن يَخنُقني في مهدي.

بالضَّبط. انظُري كيف كبتوا رحم أمِّنا. ألم تلحظي الشهولة التي تتلاعب بها بأبينا وخالاتنا؟

لاحظتُ هذا بالفعل، وبدا لي أنَّ المسألة تتجاوَز الجَمال، تتجاوَز أيًّا كان ما تعرفه من حيل الفِراش. «إنّها ذكيّة».

ضحكَت پاسيفاي قائلةً: ذكيّة! لطالما استهنتِ بها. لن يُدهِشني أن تكون في عروقها دماء السَّحرة أيضًا. إنّنا لم نرث سحرنا من هيليوس.

كنتُ قد تساءلتُ عن ذلك عن نفسي.

إنّكِ آسفةٌ الآن لأنّكِ ترفّعتِ عنها. قضيتِ كلَّ يومٍ تلعقين قدمَيْ أبينا آملةً أن يُهمِلها.

ذرعتُ الصَّخر ذهابًا وإيابًا. مئةَ جيلٍ عشتُها على الأرض، لكنّني ما زلتُ أعاملُ نفسي بطفوليّة. الغضب والأسى، والآمال الخائبة، والشَّهوة ورثاء الذّات. تلك مشاعر تعرفها الآلهة حقَّ المعرفة، أمّا الذّنب والخجل والنَّدم والتّناقُض فبلادٌ غريبة على نوعنا، وعلينا أن نكتشفها حَجَرًا حَجَرًا. لم أستطع الكفَّ عن التَّفكير في وجه أختي، في صدمتها المشدوهة عندما قلتُ لها إنّني لن أكون مثلها أبدًا. ماذا كانت تأمل؟ أنّنا

سنتبادل البعث بالرَّسائل في أفواه طيور البحر؟ أنَّنا سنتشارك التَّعاويذ ونُقاتِل الألهة؟ أنَّنا سنكون، على طريقتنا الخاصَّة، أختيْن أخيرًا؟

حاولتُ أن أتخيَّل ذلك! أتخيَّل رأسيْنا المائليْن معًا فوق الأعشاب، وضحكتها إذ يتفتَّق ذهنها عن حيلةٍ ذكيَّة ما. عندها تمنَّيتُ... أوه، عشرات الأشياء المستحيلة؛ لو أنَّني علمتُ ماهيتها في وقتٍ أبكر، لو أنَّنا ترعرعنا في مكانٍ آخر بخلاف تلك الأبهاء البرَّاقة. لأمكنَني وقتها أن ألطِّف سمومها، أجتذبها بعيدًا عن إساءاتها، أعلِّمها كيف تجمع أفضل الأعشاب.

هاه! لن أتلقَّى دروسًا من الحمقى مثلكِ. أنتِ ضعيفة عمياء، والأسوأ أنَّكِ اخترتِ هذا. في النِّهاية ستندمين.

لطالما كان الأمر أسهل وهي كريهة. «لستُ ضعيفةً، ولن أندم أبدًا على أنَّني لستُ مثلكِ، أتسمعين؟».

ولم يأتِ ردٌّ بالطَّبع، ولم يكن هناك إلَّا الهواء يلتهم كلماتي.

* * *

رجعَ هرميز. لم أعد أظنُّ أنَّه تآمر مع پاسيفاي. إنَّها طبيعته لا أكثر، أن يستعرض معرفته ويضحك مما يجهله الآخرون.

قال وهو مستريحٌ على مقعدي الفضِّي: «ما رأيك في كريت؟ سمعتُ أنَّكِ حظيتِ بالقليل من الإثارة».

قدَّمتُ له الطَّعامَ والشَّراب، وأخذته إلى فِراشي ليلتها. كان وسيمًا كالمعتاد، وحاميًا عابثًا في جماعنا، لكنَّ نفورًا بدأ يتصاعَد في داخلي حين أنظرُ إليه. في لحظةٍ أضحك، وفي التَّالية تفسد دُعاباته في

حلقي، ولمَّا تمتدُّ يداه إليَّ أشعرُ بانفصامٍ غريب، فهما مثاليَّتان خاليتان من النُّدوب.

شجَّعه تناقُضي هذا بالطَّبع، كلُّ تحدٍّ لُعبة، وكلُّ لُعبةٍ مُتعة. لو أحببته لرحلَ، لكنَّ اشمئزازي أعاده مرَّةً تلو المرَّة، وبذل هو جهدًا كبيرًا كي يستحوذَ على انتباهي، راويًا عليَّ حكاية المينوتور كاملةً من دون أن أطلب.

حكى أنَّ بعد رحيلي، زارَ آندروجيوس ابن پاسيفاي ومينوس الأكبر البرَّ الرَّئيس وقُتِلَ قُرب مدينة أثينا. وعندها كان أهل كريت ناقمين على اضطرارهم إلى فقدان أبنائهم وبناتهم عند كلِّ حصاد، ويُنذِرون بالتَّمرُّد. اقتنصَ مينوس الفُرصة، وطالبَ تعويضًا عن ابنه أن يُرسِل ملك الأثينيِّين سبعة شُبَّان وسبع شابَّات لإطعام الوحش، وإلَّا لشنَّت بحريَّة كريت القديرة عليهم الحربَ. وافقَ الملك الخائف، وكان أحد المختارين ابنه الشَّاب ثيسيوس.

هذا الأمير هو الفاني الذي رأيته في بِركة الجبل، غير أنَّ رؤياي لم تُخبِرني بكلِّ شيء، بأنَّه كان ليموتُ لولا الأميرة آريادني التي وقعَت في حُبِّه، ولإنقاذ حياته هرَّبت له سيفًا ولقَّنته الطَّريق عبر التِّيه، وهو ما تعلَّمته من دايدالوس نفسه. لكنْ حين خرجَ ثيسيوس من تلك المتاهة بيديْن ملطَّختيْن بدم الوحش بكَت آريادني، وليس فرحًا.

قال هرميز: «سمعتُ أنَّها كانت تكنُّ حُبًّا غير طبيعيٍّ للكائن، واعتادَت التَّردُّد إلى قفصه ومخاطبته برفقٍ من وراء القضبان، وإعطاءه أطايب الطَّعام من مائدتها. في مرَّةٍ اقتربَت أكثر من اللَّازم، فأطبقَت أسنانه على كتفها. فرَّت وخاطَ دايدالوس الجرح، لكنَّه خلَّف عند قاعدة عُنقها نَدبةً على شكل تاج».

تذكَّرتُ وجهها إذ قالت: أخي. «هل عُوقِبَت على مساعدتها ثيسيوس؟».

ـ «لا. لقد فرَّت معه بعد قتل الوحش. كان ثيسيوس ليتزوَّجها، لكنَّ أخي قرَّر أنَّه يُريدها لنفسه. تعلمين كم يحبُّ ذوي الأقدام الخفيفة. قال لثيسيوس أن يَترُكها على جزيرة، وإنَّه سيذهب ليأخذها».

عرفتُ أيَّ أخٍ يعني. ديونيسوس سيِّد اللَّبلاب والعنب، ابن زوس العربيد الذي يُلقِّبه الفانون بالمعتِق، لأنَّه يُحرِّرهم من همومهم. فكَّرتُ أنَّها مع ديونيسوس ستَرقُص كلَّ ليلةٍ على الأقل.

هزَّ هرميز رأسه قائلًا: «لقد وصل بعد فوات الأوان. أريادني غابَت في النَّوم وقتلَتها أرتميس».

قالها ببساطةٍ بالغة، حتى إنَّني للحظةٍ حسبتُني أسأتُ السَّمع. «ماذا؟ ماتَت؟».

ـ «قُدتها إلى العالم السُّفلي بنفسي».

تلك الفتاة الرَّشيقة المفعمة بالأمل. «لأيِّ سبب؟».

ـ «لم أنلْ إجابةً مباشرةً من أرتميس. تعرفين مزاجها السيِّئ. إهانةٌ ما مستغلقة على الفهم». قالها وهزَّ كتفيْه.

كنتُ أعلمُ أنَّ سحري ليس ندًّا للأوليمب، لكنَّني أردتُ أن أحاول في تلك اللَّحظة أن أستدعي تعاويذي كلَّها وألقي إرادتي على أرواح الأرض، على الحيوانات والطَّير، وأطلقها في أعقاب أرتميس حتى تعلم حقًّا معنى أن تكونَ مطاردةً.

قال هرميز: «بحقِّكِ، إذا بكيتِ كلَّما ماتَ فانٍ فستغرقين خلال شهر».

قلتُ: «اخرُج».

* * *

إيكاروس، دايدالوس، آريادني. كلُّهم ذهبَ إلى تلك الحقول المظلمة، حيث لا تُشكّل الأيدي إلّا الهواء، حيث ما عادَت الأقدام تلمس الأرض. فكَّرتُ أنَّني لو كنتُ هناك... ولكنْ ماذا كان وجودي ليُغيِّر؟ ما قاله هرميز صحيح. كلٌّ لحظةٍ يموت الفانون، بالسَّيف والسُّفن الغارقة، بضواري الحيوانات والبشر، بالمرض والإهمال والشَّيخوخة. إنَّه قدرهم كما أخبرني پروميثيوس، القصّة التي يشتركون فيها أجمعين. لا يهمُّ كم كانوا أشدَّاء في الحياة، لا يهمُّ كم كانوا باهرين، لا يهمُّ ما صنعوا من أعاجيب. في النِّهاية مآلهم التُّراب والدُّخان. وفي تلك الأثناء يستمرُّ كلُّ إلهٍ تافهٍ عديم الفائدة في امتصاص الهواء النيِّر حتى تنطفئ النُّجوم.

***

رجعَ هرميز كالعادة، وسمحتُ له. عندما يتألَّق في بهوي لا أشعرُ بأنَّ سواحلي ضيِّقة، ولا تُثقِلني معرفتي بمنفاي كثيرًا. قلتُ له: «احكِ لي الأخبار، احكِ لي عن كريت. كيف تلقَّت پاسيفاي موت المينوتور؟».

ـ «تقول الشَّائعة إنَّها جُنَّت، والآن لا ترتدي إلَّا أسود الحِداد».

ـ «لا تكن أحمق. إذا جُنَّت فهذا لأنَّ في الجنون منفعةً له لا أكثر».

ـ «يُقال إنَّها لعنَت ثيسيوس، ومنذ ذلك الحين والمصائب تنهال عليه. أسمعتِ كيف ماتَ أبوه؟».

لم أبالِ بثيسيوس، وأردتُ أن أسمع عن أختي. مؤكَّدٌ أنَّ هرميز ضحكَ إذ أطعمَني الحكايةَ بعد الحكاية؛ كيف أنَّها حرَّمت فِراشها على مينوس، وأنَّ بهجتها الوحيدة ابنتها الصُّغرى فايدرا، وكيف أنَّها تجوب

منحدرات ديكتي، وتُنقِّب في الجبل كلّه بحثًا عن سمومٍ جديدة، واختزنتُ أنا كلَّ تفصيلةٍ كما تَحرُس التَّنانين كنوزها. أدركتُ أنَّني أبحثُ عن شيءٍ ما.. ولكنْ ما هو لا أدري.

كجميع الحكَّائين البارعين ادَّخر هرميز الأفضل للنِّهاية. ذات مساءٍ حكى لي عن حيلةٍ مارسَتها پاسيفاي على مينوس في أيَّام زواجهما الأولى. تعوَّد مينوس أن يأمر أيَّ فتاةٍ تروقه بالذَّهاب إلى حُجرة نومه أمام وجه پاسيفاي، وهكذا لعنَته بتعويذةٍ أحالَت نُطفته إلى ثعابين وعقارب، ومتى نامَ مع امرأةٍ لدغَتها حتى الموت من الدَّاخل.

تذكَّرتُ الشِّجار الذي سمعته بينهما. مئة فتاةٍ بحسب ما قالته پاسيفاي. لا شكَّ أنَّهنَّ كنَّ خادماتٍ وإماءً وبنات تُجَّار، أيَّ فتاةٍ لا يَجسُر أبوها على الاحتجاج على أمر الملك. كلُّهنَّ انطفأت حياتها للا شيء إلَّا المتاع التَّافه والانتقام.

صرفتُ هرميز، وأغلقتُ نوافذي على غير العادة. كان أيُّ أحدٍ ليحسبني ألقي تعويذةً عظيمةً، لكنَّني لم أمسَّ أيَّ أعشاب. شعرتُ بسرورٍ بلا وزن. القصَّة قبيحةٌ جدًّا، عجيبةٌ ومقزِّزة جدًّا لدرجة أنَّني أحسستُ بها كأنَّها حُمَّى في مرحلة الزَّوال. إذا كنتُ سجينة هذه الجزيرة فعلى الأقل لستُ مضطرَّةً إلى تقاسُم العالم معها ومع نوعها. ذارعةً الأرضَ إلى جوار لبؤتي قلتُ: «انتهى الأمر. لن أفكِّر فيهم ثانيةً أبدًا. لقد طردتهم وفرغتُ منهم».

أراحت القطَّةُ وجنتها على كفَّيها المطويَّتيْن، وأبقَت نظرتها على الأرض. ربَّما كانت تعلم إذن ما لم أعلمه.

الفصل الثَّالث عشر

حلَّ الرَّبيع، وكنتُ على المنحدر الشَّرقي أجني باكورة الفراولة. تهبُّ رياح البحر بِقوَّةٍ هناك، ودائمًا ما يشوبِ الفواكه مذاقُ الملح. بدأت الخنازير تقبع، فرفعتُ ناظرَيَّ لأرى سفينةً تشقُّ طريقها نحونا في ضوء الأصيل المائل، وعلى الرَّغم من إبحارها في ريحٍ معاكسة فإنَّها لم تُبطئ حركتها أو تنحرف عن المسار، وقادَها الملَّاحون مباشرةً كأنَّها سهمٌ محكَم الإطلاق.

انقلبَت معدتي. هرميز لم يُحذِّرني، ولم أستطع التَّفكير في ما قد يعنيه هذا. كان المركب موكياني الطِّراز، ويحمل تمثال مقدِّمةٍ عملاقًا من المؤكَّد أنَّ وزنه بدَّل الغاطس، وفوق البدن تصاعدَ الدُّخان من مستوقدَيْن كعينيْن سوداوَي الحواف. التقطَ أنفي رائحةً غريبةً خفيفةً في الرِّيح، وتردَّدتُ لحظةً، ثمَّ مسحتُ يدَيَّ ونزلتُ إلى الشَّاطئ.

عندئذٍ كانت السَّفينة قد اقتربَت من السَّاحل، تُلقي مقدِّمتها ظلًّا يُشبِه الإبرة على الأمواج. عددتُ نحو ثلاث دستاتٍ من الرِّجال على

متنها. لاحقًا، بالطَّبع، سيَزعُم ألفٌ أنَّهم كانوا حاضرين، أو يخترعون سلاسل نسبٍ تردُّ دماءهم إلى مَن كانوا حاضرين. أعظم أبطال جيلهم كما أُطلِقَ عليهم، أشاوسُ صناديد، أربابُ مئة مغامرةٍ محفوفة بالأخطار. مؤكَّدٌ أنَّهم بدوا مناسبين تمامًا لهذا الدَّوْر، بطابع الأمراء والقامات الفارعة والمناكب العريضة والمعاطف الفاخرة والشَّعر الغزير، وقد تربَّوا على أفضل ما في ممالكهم من مميِّزات. رأيتهم شاكي السِّلاح بالبساطة نفسها التي يرتدي بها معظم الرِّجال ثيابهم، ولا شكَّ أنَّهم يُصارِعون الخنازير البرِّيَّة ويَقتُلون العمالقة منذ كانوا في المهد.

على أنَّ وجوههم وهُم واقفون عند الحاجز كانت ممصوصةً متوتِّرةً. اشتدَّت تلك الرَّائحة، وشعرتُ بأنَّ للهواء ثقلًا، وطأةً شديدةً بدَت كأنَّها معلَّقة من الصَّاري نفسه. رأوني، لكنَّهم لم يُصدِروا صوتًا أو يُبدوا أمارةً على التَّحيَّة.

سقطت المرساة ناثرةً الماء، وتبعَها لوح العبور، وبالأعلى دارَت النَّوارس تتصايَح. نزل فردان بذراعيْن متلامستيْن ورأسيْن محنيَّيْن: رجلٌ عريض الصَّدر مفتول العضلات، يُحرِّك نسيمُ آخِر النَّهار شعره، ومعه ـ وهو ما أدهشَني ـ امرأةٌ طويلة القامة متَّشحة بالأسود، ومن ورائها تُرَفرِف طرحةٌ طويلة. تقدَّم الزَّوجان منِّي برشاقةٍ وبلا تردُّدٍ كأنَّهما ضيفان منتظَران، وركعا عند قدمَيَّ، ورفعَت المرأة يديْن طويلتَي الأصابع عاريتيْن من أيِّ زينة. كانت طرحتها مرتَّبةً بحيث لا تُظهِر ولو خُصلةً واحدةً من شعرها، وقد أبقَت ذقنها منخفضًا بثباتٍ ليتوارى وجهها.

قالت المرأة: «أيَّتها الربَّة، يا ساحرة آيايا، جئناكِ نَطلُب العون». تكلَّمت بصوتٍ خفيض، لكنَّه واضح، فيه نغمةٌ موسيقيَّة كأنَّ الغناء

من عاداته. «لقد فررنا من شرٍّ عظيم، ولكي نفرَّ اقترفنا شرًّا عظيمًا. إنَّنا ملوَّثان».

أمكنَني الشُّعور بهذا بالفعل، إذ تكثَّف الهواء الفاسد طاليًا كلَّ شيءٍ بثقلٍ زيتي. اسمه «الميازما»، التَّلوُّث، وينبعث من الجرائم التي لم يُكفَّر عنها، من الأفعال المرتكَبة ضدّ الآلهة ومن سفك الدِّماء غيلةً. لقد مسَّني بعد ميلاد المينوتور، ولم أتخلَّص منه إلَّا بعدما غسلَتني مياه ديكتي، لكنَّه هنا أقوى، عدوى مقيتة ناضحة.

سألتني: «هلَّا تُساعِديننا؟».

وقال الرَّجل: «ساعِدينا أيَّتها الربَّة العظيمة. إنَّنا تحت رحمتكِ».

لم يكن السِّحر مطلبهما، بل أقدم طقوس نوعنا، «الكثارسيس»، التَّطهير بالدُّخان والصَّلاة والماء والدَّم. كان محرَّمًا عليَّ أن أستجوبهما، أن أسألهما عن خطاياهما، إن كانت خطايا. دوري فقط أن أجيب بالقبول أو الرَّفض.

لم يتمتَّع الرَّجل بانضباط شريكته، ولمَّا تكلَّم ارتفعَ ذقنه بعض الشَّيء، ولمحتُ وجهه. كان صغير السِّن، أصغر ممَّا حسبتُ، لم تزل لحيته رُقعًا من الشَّعر، وبشرته لوَّحتها الرِّيح والشَّمس، وإن توهَّجت بالعافية. وكان جميلَ المحيَّا... كإلهٍ كما قد يقول الشُّعراء، لكنَّ عزمه الفاني هو أكثر ما أثَّر فيَّ، ثبات عُنقه بشَجاعةٍ على الرَّغم من الهمّ الذي يحمله.

قلتُ: «انهضا وتعالَيا. سأساعِدكما قدر المستطاع».

* * *

قُدتهما إلى أعلى التَّل على دروب الخنازير، وقد قبضَت يده على ذراعها باهتمامٍ كأنَّما يُريد أن يُثبّتها، بَيْدَ أنَّها لم تتعثَّر على الإطلاق، بل غالبًا ما تحرَّكت قدماها بخُطًى أوثق من قدميْه، وظلَّت حريصةً على خفض وجهها.

دخلتُ بهما إلى المنزل، حيث تجاوَزا الكراسي وركعا بصمتٍ على الأرض الحجريَّة. كان دايدالوس لينحت لهما تمثالًا جميلًا يُسمِّيه «التَّواضُع».

ذهبتُ إلى الباب الخلفيّ وجرَت إليَّ الخنازير، فوضعتُ يديَّ على أحدها، واحدٍ صغيرٍ سنُّه أقلُّ من نصف عام، نقي وغير مرقَّط. لو أنَّني كاهنٌ لخدَّرته كي لا يفزع ويُقاوِم فيُفسِد الطَّقس. ولكن بين يدَي ارتخى جسمه كطفلٍ نائم، وغسلته وربطتُ العصابة المقدَّسة، وحبكتُ طوقًا لرقبته، وظلَّ طيلة الوقت هادئًا كأنَّه يعرف ويُوافِق.

وضعتُ الحوض الذَّهبيَّ على الأرض، والتقطتُ السكِّين البرونزي الكبير. لم يكن لي مذبح، غير أنَّني لم أحتَج إلى واحد، فأيُّ مكانٍ أوجدُ فيه هو معبدي. بيُسرٍ انشقَّ حلق الحيوان تحت النَّصل، ولحظتها رفسَ، ولكنْ للحظةٍ فقط. أمسكته بإحكامٍ حتى سكنَت قدماه فيما انصبَّ السَّيلُ الأحمرُ في الحوض، ثم ردَّدتُ التَّرانيمَ وغسلتُ أيديهما ووجهيهما بالماء المقدَّس في أثناء احتراق الأعشاب العطرة. شعرتُ بالثِّقل يرتفع، ونظفَ الهواء وخفتَت الرَّائحة الزَّيتيَّة، وخلال ذهابي لصبِّ الدَّم على جذور شجرةٍ متجعِّدة عكفا على الصَّلاة. لاحقًا، سأقطِّعُ الجثَّة وأطبخها لوجبتهما.

لدى عودتي أخبرتهما: «انتهى الأمر».

رفعَ حاشية معطفي إلى شفتيْه، وقال: «أيَّتها الربَّة العظيمة».

لكنَّها هي من راقبتُ، إذ أردتُ أن أرى وجهها وقد انعتقَ أخيرًا من حبسته الحذرة.

رفعَت عينيْن متّقدتيْن كالمشاعل، ثمَّ أزاحَت طرحتها كاشفةً عن شعرٍ كالشَّمس على تلال كريت. نصف إلهة، ذلك الخليط القويُّ من الإنسانيَّة والرُّبوبيَّة، والأهمُّ أنَّها من ذوي قُرباي، فلا أحد يملك هذا المظهر الذَّهبيَّ إلَّا سُلالة هيليوس المباشرة.

قالت: «آسفةٌ لخداعي، لكنَّني لم أستطع المخاطرة بأن تصرفيني، في حين أنَّني تمنَّيتُ طيلة حياتي أن أعرفكِ».

كانت لها سمة عصيَّة على الوصف، توهُّجٌ، حرارةٌ تُدوِّخ المرء. توقَّعتُ أن تكون جميلةً، لأنَّها تمشي كملكةٍ من ملكات الآلهة، لكنَّني ألفيتُ جَمالها غريبًا يختلف عن جَمال أمِّي أو أختي. كلُّ ملمحٍ من ملامحها لا يُمثِّل شيئًا بمفرده، فأنفها أحدُّ من اللَّازم، وذقنها أقوى ممَّا ينبغي، إلَّا أنَّ اجتماع ملامحها معًا صنعَ شكلًا كاملًا أشبهَ بقلب اللَّهب، لا يُمكنك الإشاحةُ عنه بنظرك.

تابعَت وعيناها ملتصقتان بي كأنَّهما تُريدان تقشيري: «أنتِ وأبي كنتما قريبيْن في طفولتكما. لم أدرِ أيَّ رسائل ربَّما أرسلَها إليكِ عن ابنته العاصية».

هذه القوَّة فيها! هذه الثِّقة! كان حريًّا بي أن أتعرَّفها من النَّظرة الأولى، من مجرَّد ثبات كتفيْها.

قلتُ: «أنتِ ابنة إيتيس»، واستعدتُ اسمها الذي أخبرني به هرميز. «ميديا، أليس كذلك؟».

- «وأنتِ عمّتي سرسي».

فكّرتُ أنّها تُشبِه أباها، بهذه الجبهة المرتفعة والعينيْن الثّاقبتيْن الصّلبتيْن. لم أقل المزيد، بل نهضتُ وذهبتُ إلى المطبخ، حيث وضعتُ أطباقًا وخُبزًا على صحفة، وأضفتُ جُبنةً وزيتونًا وكؤوسًا ونبيذًا. القانون أن يشبع الضّيوف قبل فضولِ المضيف.

قلتُ: «أنعِشا نفسيْكما. سيكون هناك وقتٌ لتوضيح كلّ شيء».

قدّمت الطّعام للرّجل أوّلًا، تُطعِمه أطرى اللُّقم، وتحثّه على القضمة بعد القضمة، وأكل هو ما أعطته إيّاه بجوع، ولمّا أعدتُ مَلء الصّحفة مضغَ هذا أيضًا وفكّه البطولي يتحرّك بثبات. أمّا هي فأكلَت القليل، وقد خفضَت عينيْها مضمرةً أسرارها من جديد.

أخيرًا دفعَ الرّجل طبقه قائلًا: «اسمي جيسون، وريث مملكة إيولكوس الشّرعي. كان أبي ملكًا فاضلًا لكنْ رقيق القلب. وفي طفولتي استولى عمّي على عرشه. قال إنّه سيُعيده إليّ حينما أكبرُ إذا منحتُه دليلًا على جدارتي، صوفًا ذهبيًا يحتفظ به مشعوذٌ في أرضه كولخيس».

صدّقتُ أنّه أميرٌ حقيقيٌّ، يتمتّع بحيلة التّحدُّث كالأمراء، مدحرجًا الكلمات كجلاميدَ عظيمة، وضائعًا في تفاصيلِ أسطورته الشّخصيّة. حاولتُ تخيُّله راكعًا أمام إيبتيس وسط نوافير اللّبن والتّنانين الملتفّة على أنفُسها، وخطرَ لي أنّ أخي كان ليعدّه بليدًا علاوةً على غطرسته.

- «الليدي هيرا واللورد زوس بارَكا بُغيتي، وأرشَداني إلى سفينتي، وأعاناني على جمع رفاقي. عندما وصلنا إلى كولخيس عرضتُ على الملك إيبتيس كنزًا سخيًا ثمنًا للصّوف، لكنّه رفضَ. قال إنّني أستطيعُ نيْله في حال أدائي مهمّةً له فقط: ربط ثوريْن بالنّير، وحرث وبذر حقلٍ

شاسع في يومٍ واحد. كنتُ مستعدًّا بالطَّبع، وقبلتُ في الحال، ومع ذلك...».

بسلاسة الماء، انسابَ صوت ميديا بين كلماته: «ومع ذلك كانت المهمَّة مستحيلةً، مجرَّد حيلةٍ لمنعه من الحصول على الصُّوف. لم يكن أبي ينوي أن يُعطيه له، لأنَّه شيءٌ ذو قصَّةٍ وقوَّةٍ عظيمتيْن. لا فانيَ مهما كان مقدامًا شُجاعًا...» ـ وفي هذه اللَّحظة، التفتَتْ إلى جيسون ومسَّت يده ـ «... يستطيع إنجاز مثل هذه الأشياء بلا مساعدة. الثّوران كانا من سحر أبي ذاته، مصنوعيْن من البرونز الحاد كالخناجر، وينفثان النَّار. حتى إذا ربطَهما جيسون بالنِّير، فالبذور التي عليه أن يغرسها كانت فخًّا آخر. كانت ستتحوَّل إلى مُحاربين ينبثقون من الأرض لقتله».

تكلَّمتْ ونظرتها مركَّزة بعاطفةٍ مشبوبة على وجه جيسون، وتكلَّمتُ أنا لأعيدها إلى اللَّحظة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

ـ «ولذا دبَّرتِ حيلةً».

لم يَرُق هذا جيسون. إنَّه بطلٌ من العصر الذَّهبيّ العظيم. والخداع للجُبناء، للرِّجال الذين لا يتَّسمون بالجرأة الكافية لإظهار الشَّجاعة الحقيقيَّة.

بهدوءٍ قالت ميديا رغم عبوسه: «كان حبيبي ليَرفُض أيَّ مساعدة، لكنَّني أصررتُ لأنَّني لم أحتمل أن أراه في خطر».

ليَّنه قولُها. هذه حكاية سارَّة أكثر؛ الأميرة المغرمة به تنبذ أباها القاسي لتكون معه، وتأتيه في اللَّيل سرًّا ووجهها هذا هو الضَّوء الوحيد. مَن كان ليقوى على الرَّفض؟

على أنَّ وجهها مختبئ الآن، وصوتها خفيضٌ موجَّهٌ إلى يديْها المتشابكتيْن.

- «إنَّني أتمتَّعُ بالقليل من المهارة في الصَّنعة التي تعرفينها أنتِ وأبي، وهكذا حضَّرتُ عقَّارًا بسيطًا يحمي جِلد جيسون من نار الثَّوريْن».

بعدما عرفتُ مَن هي، بدا هذا الخنوع سخيفًا عليها، مثل عُقابٍ عظيم يُحاول التَّكوُّر على نفسه في عُشّ عُصفور. وصفَتِ العقَّار بالبساطة؟ لم أتصوَّر قطُّ أنَّ فانيًا يقدر على صُنع السِّحر إطلاقًا، ناهيك بتعويذةٍ قويَّة كهذه. لكنَّ جيسون عادَ يتكلَّم مدحرجًا المزيد من الجلاميد: ربطُ الثَّوريْن بالنِّير، وغرْسُ البذور في الحقل.

قال إنَّه حين انبثقَ المُحاربون من الأرض كان يعرف سرَّ التَّغلُّب عليهم، لأنَّ ميديا أخبرَته به. عليه أن يُلقي بينهم صخرةً، وفي خضم غضبتهم سيُهاجِم بعضهم بعضًا. وهكذا فعلَ، إلَّا أنَّ إييتيس لم يتنازَل عن الصُّوف على الرَّغم من ذلك، وقال إنَّ على جيسون أوَّلًا أن يهزم التِّنين الخالد الذي يَحرُسه، وهو ما حادَ بميديا إلى خلط عقَّارٍ آخر نوَّم الدُّودة. ثمَّ إنَّ جيسون هرعَ إلى سفينته، ومعه الصُّوف وميديا أيضًا... فما كان شرفه ليسمح له أبدًا بالتَّخلِّي عن فتاةٍ بريئة مثلها لطاغيةٍ شرِّير كأبيها.

في عقله، كان يحكي الحكاية لبَلاطه بالفعل، للنُّبلاء متَّسعي الأعيُن والعذراواتِ المغشي عليهنَّ. لم يَشكُر ميديا على عونها، بل إنَّه بالكاد نظرَ إليها، كأنَّ خدمة نصف إلهةٍ له - مهما فعل - حقُّه لا أكثر.

مؤكَّد أنَّها استشعرَت استيائي، لأنَّها قالت: «إنَّه شريفٌ حقًّا. لقد تزوَّجني على متن السَّفينة في اللَّيلة نفسها فيما تُطارِدنا قُوَّات أبي. عندما يستردُّ عرشه في إيولكوس سأصبحُ ملكته».

هل تخيَّلتُ هذا أم أنَّ ضوء جيسون خبا بعض الشَّيء على إثر قولها؟

ران الصَّمت فترةً، ثمَّ سألتُ: «وماذا عن الدَّم الذي غسلته عن أيديكما؟».

أجابت بخفوت: «نعم. وصلتُ إلى هذه النُّقطة. ثارَ أبي وخرجَ يُطارِدنا مجتذبًا الرِّياح بسحره إلى شراعه، ومعَ طلوع الصُّبح اقتربَ كثيرًا. كنتُ أعلمُ أن تعاويذي لا تقوى على قهر تعاويذه، وأنَّ سفينتنا مهما كانت مباركةً لا تستطيع أن تسبقه. كان لديَّ أملٌ وحيد: أخي الصَّغير الذي أخذته معنا. كان وريثَ أبي، وخطرَ لي أن أبادله كرهينةٍ مقابل سلامتنا، لكنْ حين رأيتُ أبي واقفًا عند مقدِّمة سفينته يصبُّ علينا اللَّعنات عبر الماء، أدركتُ أنَّ ذلك لن يَصلُح. كانت الثَّورة القاتلة جليَّةً على وجهه، ولن يُرضيه إلَّا دمارنا. ردَّد تعاويذه في الهواء، ورفعَ عصاه ليستنزلها على رؤوسنا، وشعرتُ بخوفٍ عظيم يجتاحني. ليس على نفسي، بل على جيسون الذي لم يقترف ذنبًا وعلى طاقمه».

نظرَت إلى جيسون، لكنه كان مشيحًا بوجهه إلى النَّار.

ـ «في تلك اللَّحظة... لا يُمكنني أن أصف الأمر. تملَّكني جنون. أطبقتُ على جيسون وأمرته بأن يَقتُل أخي، ثمَّ قطَّعتُ الجثَّة وألقيتُ القطع في الماء. على الرَّغم من ثورة أبي علمتُ أنَّه سيتوقَّف مُرغمًا ليدفنه دفنةً لائقةً، ولمَّا أفقتُ من نوبتي وجدتُ البحر خاليًا. حسبته حُلمًا إلى أن رأيت يدَيَّ ملطَّختَيْن بدم أخي».

ورفعَتْهما إليَّ كأنَّما تُريد إعطائي بُرهانًا، لكنَّهما نظيفتان الآن، أنا نظَّفتهما.

كان جِلد جيسون قد صار رماديًّا كالرَّصاص الخام.

قالت: «زوجي»، فجفل مع أنَّها تكلَّمت بهدوء. «كأس نبيذك فارغة. هل أملأها لك؟» ونهضتْ حاملةً الكأس إلى الوعاء المليء عن آخِره. لم يُشاهِدها جيسون، ولم أكن لألحظ لو أنَّني لستُ ساحرةً أيضًا، لكنَّها أسقطَت رشَّةً من مسحوقٍ ما في النَّبيذ، وهمسَت بكلمة.

ـ «هاك يا حبيبي».

نطقَتْها بنبرةٍ حانية كأُم، وتناول جيسون منها النَّبيذ وشربَ، وعندما سقط رأسه إلى الوراء وكادت الكأس لتقع من يده التقطَتْها، وبحرصٍ وضعَتها على المائدة، وعادَت تجلس.

قالت: «يجب أن تفهمي أن المسألة صعبةٌ عليه للغاية. إنَّه يلوم نفسه».

ـ «لم يُصِبكِ الجنون».

ثقبَت عيناها الذَّهبيَّتان عينَيَّ وهي تقول: «نعم، لكنَّ بعضهم يصف العُشَّاق بالجنون».

ـ «لو عرفتُ لما أدَّيتُ الطَّقس».

أومأَتْ برأسها قائلةً: «أنتِ وأكثر الآخرين. ربَّما لهذا السَّبب لا يُستجوَب الملتمسون. كم منَّا كان ليُمنَح العفو لو عُرِفَ مكنون أفئدتنا؟».

خلعَتْ معطفها الأسود، ووضعَته على المقعد المجاور لها ليظهر فُستانها الأزرق اللازوردي المربوط بحزامٍ فضِّيٍّ رفيع.

ـ «ألا تَشعُرين بالنَّدم؟».

ـ «أظنُّ أنَّ بإمكاني أن أبكي وأفركَ عينَيَّ لإرضائكِ، لكنَّني أختارُ ألَّا أحيا في زيْف. كان أبي ليُدمِّر السَّفينة عن آخِرها لو لم أتصرَّف. أخي كان جنديًّا، وضحَّى بنفسه من أجل النَّصر في الحرب».

ـ «لكنَّه لم يُضحِّ بنفسه. أنتِ اغتلتِه».

ـ «لقد سقيته عقَّارًا كي لا يُعاني. هذا أفضل مما يناله معظم البشر».

ـ «كان دمكِ».

اشتعلَت عيناها كمذنَّبٍ في سماء اللَّيل، وقالت: «هل لنفسٍ واحدة قيمةٌ أعلى من أخرى؟ لم أعتقد ذلك قطُّ».

ـ «لم يكن ضروريًا أن يموت. كان يُمكنكِ أن تُسلِّمي نفسكِ بالصُّوف، أن ترجعي إلى أبيكِ».

النَّظرة التي مرَّت على وجهها كالمذنَّب بحقٍّ، حينما ينحرف نحو الأرض ويُحيل الحقول إلى رماد.

قالت: «لأُجبِرت على المشاهدة فيما يُمزِّق أبي جيسون وطاقمه إربًا إربًا قبل أن أعذَّب عن نفسي. سامِحيني إن لم أعدَّ ذلك خيارًا». ولمَّا رأت النَّظرة على وجهي، سألت: «ألا تُصدِّقينني؟».

ـ «لقد ذكرتِ عدَّة أشياء عن أخي لا أميِّزها».

ـ «دعيني أقدِّمه لكِ إذن. أتدرين ما هي تسلية أبي المفضَّلة؟ كثيرًا ما يأتي الرِّجال إلى جزيرتنا ساعين لإثبات أنفُسهم ضد مشعوذٍ شرِّير، ويحبُّ أبي أن يُطلِق قباطنة تلك السُّفن بين تنانينه ويُشاهِدهم يُحاولون الهرب. أمَّا أفراد الأطقُم فيستعبدهم، يسلبهم عقولهم فلا يعودون يتمتَّعون بإرادةٍ أكثر من الأحجار. للتَّرفيه عن ضيوفه، رأيتُ أبي يُوقِد شُعلةً ويرفعها إلى ذراعَيْ أحد أولئك الرِّجال، فيقف العبد في مكانه ويحترق إلى أن يَترُكه أبي. لقد تساءلتُ إن كانوا مجرَّد هياكل فارغة أم أنَّهم يستوعبون ما يَحدث لهم ويَصرُخون في أعماقهم! إذا قبضَ عليَّ أبي فسأعرفُ الإجابة، لأنَّ هذا هو ما سيفعله بي».

لم تتكلَّم بالنَّبرة التي استخدمَتْها مع جيسون، تلك العُذوبة المتخِمة، ولا بأسلوبها البرَّاق الواثق بالنَّفس كذلك، بل خرجَت كلُّ كلمةٍ قاتمةً كرأس البلطة، ثقيلةً حازمةً، واستنزفَت كلُّ ضربةٍ دمي.

ـ «مؤكَّد أنَّه لن يُؤذي طفلته».

ردَّت ساخرةً: «إنَّه لا يعدُّني طفلته. كنتُ بالنِّسبة إليه شيئًا يتصرَّف فيه، مثل مُحاربيه المزروعين أو ثيرانه نافثة النَّار، مثل أمِّي التي تخلَّص منها ما إن وضعَت له وريثًا. لربَّما اختلفَ الأمرُ لو أنِّي لا أتمتَّعُ بقُوًى سحريَّة، لكنْ لدى بلوغي العاشرة باتَ باستطاعتي ترويض الأفاعي في جحورها، وقتل الحملان بكلمةٍ وإعادتها إلى الحياة بأخرى. عاقبَني على هذا. قال إنَّه يجعلني بائرةً، لكنَّ الحقيقة أنَّه لم يُرِد أن أنقل أسراره لزوجي».

سمعتُ پاسيفاي كأنها تهمس في أُذني: **إيتيس لم يحبَّ امرأةً في حياته كلِّها.**

ـ «كان رجاءه الأعظم أن يُقايِض بي إلهًا مشعوذًا مثله، مقابل بعض السُّموم الأجنبيَّة، ولمَّا لم يُفلِح في العثور على أحدٍ غير أخيه پرسيس عرضَني عليه. إنَّني أردِّدُ صلوات الشُّكر كلَّ ليلةٍ لأنَّ ذلك الوحش لم يُرِدْني. إنَّ عنده إلهةً سومريَّةً يحتفظ بها مقيَّدةً بالسَّلاسل باعتبارها زوجةً».

تذكَّرتُ ما قصَّه عليَّ هرميز عن پرسيس وقصره المبني بالجُثث، وقول پاسيفاي: **أتدرين كيف حافظتُ على رضاه؟**

قلتُ ليَسقُط وقعُ الكلمات على أُذنَيَّ أنا نفسي واهنًا: «غريبٌ هذا. لطالما كرهَ إيتيس پرسيس».

ـ «ليس الآن. إنَّهما صديقان حميمان. وعندما يزوره پرسيس لا يتكلَّمان إلَّا عن إحياء الموتى وهدْم أوليمپوس».

سألتها شاعرةً بالخَدَر، كأنّي جدباءُ كحقلٍ شتوي: «هل يعرف جيسون كلَّ هذا؟».

ـ «بالطَّبع لا، أأنتِ مجنونة؟ كلَّما نظرَ إليَّ فكَّر في السُّموم والجِلد المحروق. الرَّجل يُريد زوجته كالعُشب البِكر، خضراء طازجةً».

ألم ترَ جيسون يجفل؟ أم أنَّها لم تُرِد أن ترى؟ إنَّه يَنكُص منكِ بالفعل.

نهضَتْ بفُستانها الوضَّاء كذُروة موجة، وقالت: «ما زال أبي يُلاحقنا. يجب أن نُغادر في الحال ونُواصِل الطَّريق إلى إيولكوس. إنَّ لديْهم جيشًا لا يقدر هو نفسه على مواجهته، لأنَّ الربَّة هيرا تُقاتِل معهم. سيُجبَر على الانسحاب، وحينئذٍ سيُصبح جيسون ملكًا وأنا ملكةً إلى جانبه».

كان وجهها متَّقدًا، ولفظَتْ كلَّ كلمةٍ كأنَّها حجرٌ تبني به مستقبلها، إلَّا أنَّها بدَت لي للمرَّة الأولى كمخلوقٍ يتشبَّث بقمَّة هاوية، يائس، مخالبُهُ بدأت تنزلق بالفعل. صغيرةٌ هي، أصغرُ من جلاوكوس عندما قابلته أوَّل مرَّة.

رمقتُ جيسون المخدَّر بفمه المفتوح، وسألتها: «أأنتِ واثقةٌ بتقديره لكِ؟».

في لحظةٍ احتدَّ صوتها: «أتقترحين أنَّه لا يُحبُّني؟».

ـ «إنَّه ما زال نصف طفل، وفانيًا كاملًا علاوةً على ذلك. لا يُمكنه أن يفهم تاريخكِ، ولا سحركِ».

ـ «لا داعي لأن يفهمهما. إنّنا متزوّجان الآن، وسأمنحه ورثةً، وسينسى كلَّ هذا كأنَّه حُلم حُمَّى. سأكونُ زوجته الصَّالحة، وسنزدهر».

مسستُ ذراعها بأصابعي لأجد بشرتها باردةً، كأنَّها أمضَت وقتًا طويلًا في المشي في الرِّيح، وقلتُ: «يا ابنة أخي، أخشى أنَّكِ لا ترين بوضوح. قد لا يكون استقبالكِ في إيولكوس كما تخالين».

عابسةً سحبَت ذراعها، وردَّت: «ماذا تعنين؟ ولِمَ لا؟ إنَّني أميرةٌ تليق بجيسون».

ـ «أنتِ أجنبيَّة». فجأةً، أمكنَني رؤية الصُّورة جليَّةً كأنَّها مرسومةٌ أمامي. النُّبلاء المشاكسون ينتظرون عودة جيسون في وطنه، يحتال كلٌّ منهم لتزويج ابنته بالبطل الجديد ونيل قطعةٍ من مجده. ستكون ميديا الشَّيء الوحيد الذي يتَّفقون عليه. «سيسخطون عليكِ، والأسوأ أنَّهم سيرتابون فيكِ، لأنَّكِ ابنةُ مشعوذٍ وساحرةٌ قائمة بذاتكِ. إنَّكِ لم تعيشي إلَّا في كولخيس، ولا تُدركين كم يخشى الفانون الفارماكيا. سيسعون لإحباطكِ عند كلِّ فُرصة، ولن يهمَّ أنَّكِ ساعدتِ جيسون. سيتناسون هذا، أو يستخدمونه ضدَّكِ دليلًا على أنَّكِ غير طبيعيَّة».

حدَّقت إليَّ، لكنَّني لم أتوقَّف، وتداعَت كلماتي مشتعلةً نارًا مع خروجها منِّي: «لن تجدي أمانًا هناك أو سلامًا، ولكنْ ما زالت لديْكِ فُرصةُ التَّحرُّر من أبيكِ. لا يُمكنني أن أخلِّصكِ من قسوته السَّابقة، لكنَّني أستطيعُ أن أضمن ألَّا تتبعكِ أكثر من هذا. ذات مرَّةٍ قال إنَّ السِّحر لا يُعلَّم، وكان مخطئًا. لقد كتمَ معرفته عنكِ، لكنَّني سأعلِّمكِ كلَّ ما أعرفه. حين يأتي سنردعه معًا».

صمتَت طويلًا قبل أن تسأل: «وماذا عن جيسون؟».

- «دعيه يكون بطلًا. أنتِ شيءٌ آخر».

- «ألا وهو؟».

في مخيِّلتي، رأيتنا بالفعل برأسَيْن محنيَّيْن معًا فوق أزهار تاج الملوك الأرجوانيَّة وجذور المولي السَّوداء. يُمكنني أن أنقذها من ماضيها الملوَّث.

أجبتُ: «ساحرة ذات قوَّةٍ بلا حدود، لا تأتمر إلَّا بأمر نفسها».

قالت: «مفهوم. مثلكِ؟ منفيَّةٌ مثيرةٌ للشَّفقة تفوح منها رائحة الوحدة؟». وحين رأت الصَّدمةَ على وجهي، أردفَت: «ماذا؟ أتحسبين أنَّكِ تخدعين أحدًا لمجرَّد أنَّكِ تُحيطين نفسكِ بالقِطط والخنازير؟ لم تعرفيني مدَّة أصيلٍ كامل، ومع ذلك تسعين للاحتفاظ بي. تدَّعين أنَّكِ تُريدين مساعدتي، ولكنْ مَن تُساعِدين حقًّا؟ أوه يا ابنة أخي، ابنة أخي الغالية! سنكون أفضلَ صديقتيْن، ونُمارِس سحرنا جنبًا إلى جنب. سأبقيكِ قريبةً منِّي كي تملأي أيَّامي العقيمة»، وزمَّت شفتيْها مضيفةً: «لن أحكم على نفسي بهذا الموت الحي».

ضجرةً حسبتُ نفسي، ضجرةً فقط في تلك الأيَّام وحزينةً بعض الشَّيء، لكنَّها جرَّدتني حتى الجِلد. والآن رأيتُ نفسي في عينيْها حيزبونًا مهجورةً مريرةً، عنكبوتًا تُخطِّط لامتصاص حياتها.

بوجهٍ ملسوع نهضتُ أواجهها قائلةً: «أفضل من الزَّواج بجيسون. إن كنتِ لا ترين كم هو ضعيفٌ خرِعٌ فأنتِ عمياء. إنَّه يجفل منكِ بالفعل. وأنتما متزوِّجان منذ متى؟ ثلاثة أيَّام؟ ماذا سيفعل بعد سنة؟ إنَّه منقاد بحُبِّه لنفسه... أنتِ مجرَّد مطيَّة. في إيولكوس سيعتمد وضعكِ

على رضاه، وكم تحسبين ذلك سيدوم حين يأتي أهلُ بلده صارخين بأنَّ مقتل أخيكِ الصَّغير استنزل على أرضهم لعنةً؟».

ردَّت مكوِّرةً قبضتيْها: «لن يعلم أحدٌ بموت أخي. لقد جعلتُ الطَّاقم يُقسِم على الصَّمت».

ـ «لا يُمكن أن يبقى سرٌّ كهذا طيَّ الكتمان. لو لم تكوني طفلةً لعرفتِ هذا. لحظة أن يَخرُج هؤلاء الرِّجال من نطاق سمعكِ سيشرعون في النَّميمة، وفي غضون يومٍ ستعرف المملكة بأكملها، وسيرجُون حبيبَكِ جيسون الرَّاجف إلى أن يتهاوى. أيُّها الملك العظيم، موت الصَّبيِّ ليس غلطتك، بل غلطةُ تلك الشرِّيرة، السَّاحرة الأجنبيَّة. لقد مزَّقت لحمها ودمها أشلاء، فما الشُّرور الأسوأ التي ترتكبها الآن؟ اطرُدها، طهِّر الأرض واتَّخذ واحدةً أفضل بدلًا منها».

ـ «لن يُنصِت جيسون لذلك القذف أبدًا! لقد سلَّمته الصُّوف! إنَّه يُحبُّني!». وقفَتْ راسخةً في غضبها، متوهِّجةً مفعمةً بالتَّحدِّي، ولم ينجح كلُّ ما هويتُ عليها به من طرقاتٍ إلَّا في جعلها تزداد عنادًا. مؤكَّدٌ أنَّني بدوتُ هكذا لجدَّتي حين قالت لي: **هذا شيء وهذا شيء**.

قلتُ: «أصغي إليَّ يا ميديا. أنتِ صغيرةٌ، وإيولكوس ستجعلكِ عجوزًا. لن تجدي أمانًا هناك».

ـ «كلُّ يومٍ يمرُّ يجعلني عجوزًا. إنَّني لا أتمتَّعُ بسنينكِ الطَّويلة لأبدِّدها. وبالنِّسبة إلى الأمان فلا أريده. إنَّه مزيد من السَّلاسل لا أكثر. فليُحاولوا النَّيْل منِّي إن جسروا. لن يأخذوا جيسون منِّي أبدًا. إنَّ لديَّ قُواي، وسأستخدمها».

كلَّما نطقَتْ اسمه ومضَ حُبٌّ عُقابيٌّ شرسٌ في عينيْها. لقد أحكمَت قبضتها عليه، وستظلُّ تضغطها إلى أن يموت.

أضافت: «وإذا حاولتِ إثنائي فسأقاتلكِ أيضًا».

فكَّرتُ أنَّها ستفعل ذلك حقًّا، مع أنَّني ربَّة وأنَّها فانية. ستُقاتِل العالم أجمع.

تحرَّك جيسون. كانت التَّعويذةُ تخبو.

قلتُ: «لن أبقيكِ هنا ضدَّ رغبتكِ يا ابنة أخي، لكنْ إذا...».

قاطعَتني: «لا، لستُ أريدُ المزيد منكِ».

قادَت جيسون إلى السَّاحل من دون أن يتوقَّفا للرَّاحة أو الأكل أو ينتظرا طلوع الفَجر. رُفِعَت المرساة وأبحرَت السَّفينة في الظَّلام، لا يُضيء طريقَها إلَّا القمر المحجوب وذهب عينَيْ ميديا العازم. بقيتُ بين الأشجار كي لا تراني أشاهدُ وتتهكَّم عليَّ لأجل ذلك أيضًا، ولكنْ ما كان عليَّ أن أزعج نفسي، فهي لم تَنظُر إلى الوراء.

على الشَّاطئ كانت الرِّمال فاترة الحرارة، وضوء النُّجوم يُبَرقِش جِلدي، فيما يطمس الموج آثار أقدامهما. أسبلتُ جفنَيَّ تاركةً النَّسيم يهبُّ عليَّ حاملًا روائح الملح وطحالب المحيط، وبالأعلى شعرتُ بالكوكبات تدور في دروبها البعيدة. انتظرتُ هناك وقتًا طويلًا، أصغي وأرسلُ عقلي بين الأمواج، فلم أسمع شيئًا، لا صوت مجاذيف، لا حركة شراع، لا كلام تحمله الرِّيح.. غير أنَّني عرفتُ حين أتى، وفتحتُ عينَيَّ.

كان البدن المقوَّس يمخر مياه مرفأي، ووقفَ هو عند المقدِّمة ووجهه الذَّهبيُّ محدَّدٌ تحت سماء الفجر البازغ، وفي داخلي تصاعدَ سرورٌ شديد القِدم والحدَّة، حتى إنَّني شعرتُ به كأنَّه ألم. أخي.

رفعَ يده، فتوقَّفت السَّفينة بثباتٍ تام بين الأمواج.

صاح عبر الماء الفاصل بيننا: «سرسي»، ليرنَّ صوتُه في الهواء كالبرونز تحت المطرقة. «ابنتي أتت إلى هنا».

- «نعم، أتت».

التمعَ الرِّضا على وجهه. في صِباه بدا لي رأسه هشًّا كالزُّجاج، وتعوَّدتُ أن أتحسَّس عظمه بإصبعي وهو نائم.

- «كنتُ أعلمُ هذا. إنَّها يائسة. لقد سعَت لتقييدي، لكنَّها قيَّدت نفسها فحسب. سيظلُّ قتلها شقيقها معلَّقًا فوقها طيلة عُمرها».

- «إنَّني حزينة لموت ابنك».

- «ستدفع الثَّمن. أرسِليها إليَّ».

صمتَت غابتي من خلفي، وسكنَت الحيوانات كلُّها وربضَت على الأرض. في طفولته أحبَّ أن يُسنِد رأسه إلى كتفي ويُشاهِد النَّوارس تغوص في الماء لتصطاد السَّمك، وكانت ضحكته مشرقةً كشمس الصَّباح.

قلتُ: «لقد قابلتُ دايدالوس».

قطَّب وجهه قائلًا: «دايدالوس؟ إنَّه ميت منذ أعوام. أين ميديا؟ أعطيني إيَّاها».

- «ليست هنا».

لو أنِّي حوَّلتُ البحر إلى حجرٍ فلا أظنُّ أنَّ صدمته كانت لتزيد، وعلى وجهه أزهرَ الغضب وعدم التَّصديق.

- «تركتِها ترحل؟».

- «لم ترغب في البقاء».

ـ «لم ترغب؟ إنَّها مجرمةٌ وخائنة! كان واجبكِ أن تُبقي عليها من أجلي!».

لم أرَه غاضبًا هكذا من قبلُ قطُّ، لم أرَه غاضبًا على الإطلاق. وعلى الرَّغم من هذا ظلَّت طلعته جميلةً، كالأمواج عندما ترفع رؤوسها العاصفة. لم يزل بإمكاني أن أطلب مغفرته، فلم يَفُت الأوان. بإمكاني أن أقول إنَّها خدعَتني، إنَّني أختُه البلهاء سريعةُ الثِّقة العاجزة عن النَّفاذ ببصيرتها إلى شقوق العالم، وعندها كان ليترجَّل من سفينته، ومعًا... إلَّا أنَّ عقلي لم يتمَّ الفكرة. من ورائه على دِكك المجاذيف كان رجاله جالسين يُحدِّقون أمامهم مباشرةً، لا يتحرَّكون ولو لذبِّ ذُبابةٍ أو حكِّ حكَّة، وجوهُهم جامدةٌ خاوية، وأذرُعهم مغطَّاة بالنُّدوب وجُلب الجروح... والحروق القديمة.

لقد فقدته قبل زمنٍ طويل.

زعقَ والهواء يعصف من حولنا: «أتسمعين؟ حريٌّ بي أن أعاقبكِ».

قلتُ: «لا. في كولخيس لك أن تُعمِل إرادتك، لكنْ هذه آيايا».

لحظة ثانية لاحَت فيها دهشةٌ حقيقيَّةٌ على وجهه، ثمَّ التوى فمه إذ قال: «لم تفعلي شيئًا. سألحقُ بها في النِّهاية».

ـ «قد يكون ذلك صحيحًا، لكنَّني لا أحسبها ستُسهِّل عليك الأمر. إنَّها مثلك يا إييتيس، كالسِّنديان للسِّنديان. عليها أن تعيش مع هذه الحقيقة، وكذا أنت على ما يبدو».

أصدرَ صوتًا ينمُّ عن الاستخفاف، ثمَّ دارَ ورفع ذراعه، فبدأ بحَّارته يُحرِّكون مفاصلهم في الحال، وضربَت المجاذيف الماء، وحملَته بعيدًا عنِّي.

الفصل الرَّابع عشر

بدأت أمطار الشِّتاء تَسقُط في الخارج. وضعَت لبؤتي، وتحرَّك أشبالها متعثِّرين في أنحاء البيت على كفوفهم الحديثة الخرقاء. لم أستطع الابتسام للمشهد. خُيِّلَ إليَّ أن الأرض تُردِّد صدى خُطاي حيثما أمشي، وبالأعلى بسطَت السَّماء يديْها الخاليتيْن.

انتظرتُ أن يأتي هرميز حتى أسأله عمَّا جرى لميديا وجيسون، وإن بدا لي دومًا أنَّه يعرف متى أريده فيظلُّ بمنأى. حاولتُ أن أغزل، غير أنَّني شعرتُ بعقلي مثقوبًا كأنَّما انغرسَت فيه إبر. الآن وقد أشارَت إليها ميديا، أصبحت وحدتي تتدلَّى من كلِّ شيء، لزجةً كشِباك العناكب، لا مفرَّ منها. بطول الشَّاطئ جريتُ، وجيئةً وذهابًا قطعتُ دروب الغابة لاهثةً أحاولُ أن أنفض عنِّي الشُّعور بالوحدة، ومحَّصتُ ذكرياتي عن إيتيس وأعدتُ تمحيصها، كلَّ تلك السَّاعات التي استندَ فيها كلانا إلى الآخر. عادَ ذلك الإحساس المغثيُّ القديم، الإحساس بأنَّني في كلِّ لحظةٍ من حياتي كنتُ حمقاء.

ذكَّرتُ نفسي بأنّني ساعدتُ بروميثيوس، لكنْ حتى في أُذنَيَّ شخصيًّا بدا وقعُ الذّكرى مثيرًا للشّفقة. كم سأبقى متمسّكةً بتلك الدّقائق المعدودة، محاولةً أن أغطّي نفسي بما هو بمثابة دثارٍ هزيل؟ لا يهم ما فعلته في ذلك الحين، فبروميثيوس معلّقٌ على جُرفه، وأنا هنا.

مرَّت الأيّام ببُطء، تتساقَط كبتلات وردةٍ متفتّحة. أمسكتُ المنوال الأَرزيَّ وجعلتُ نفسي أستنشق شذاه، وحاولتُ أن أتذكّر ملمس ندوب دايدالوس تحت أصابعي، لكنَّ تلك الذّكريات كانت من هواء، وذراها الهواء. فكّرتُ أنَّ أحدًا سيأتي. كلُّ ما في العالم من سُفن، كلُّ ما فيه من بشر. لا شكَّ أنَّ أحدًا سيأتي. حملقتُ إلى الأفق إلى أن غشي بصري آملةً أن أبصر بعضَ الصيّادين، أو سفينةَ بضائع، أو حتى حُطامًا، وما رأيتُ شيئًا.

لصقتُ وجهي بفرو لبؤتي. مؤكّدٌ أنَّ هنالك حيلةً ربّانيّةً ما تُسرّع مرور السّاعات، تجعلها تمضي من دون أن ألحظها، أن أنام سنينًا، ولمّا أستيقظُ يكون العالم قد تجدّد. أغلقتُ عينَيَّ، ومن النّافذة سمعتُ النّحلَ يُغنّي في الحديقة، فيما راحت لبؤتي تضرب حجارةَ الأرض بذيلها.

وعندما فتحتُ عينَيَّ بعد أبديّةٍ كاملة لم تكن الظّلال قد تحرّكت.

* * *

وجدتها واقفةً فوقي مقطّبةً جبينها، داكنة الشّعر والعينيْن، أطرافها مستديرة ورأسها منتظم كصدر العندليب، ومن بشرتها تفوح رائحةٌ مألوفة، زيتُ الورد ونهر جدّي.

قالت: «جئتُ لكي أخدمكِ».

كنتُ غافيةً على مقعدي. حدَّقتُ إليها بوسنٍ حاسبةً إيَّاها خيالًا، هلوسةً سبَّبتها عُزلتي، وغمغمتُ: «ماذا؟»

تقلَّص أنفها، فعلى ما يبدو أنَّها استنفدَت تواضُعها كلَّه في الكلمات المعدودة التي نطقَتها. «أنا آلكي. أليست هذه آيايا؟ ألستِ ابنة هيليوس؟».

ـ «بلى».

ـ «أنا محكومٌ عليَّ بأن أكون خادمتكِ».

شعرتُ كأنَّني أحلمُ، وبتؤدةٍ قمتُ قائلةً: «محكومٌ عليكِ؟ ومَن حكمَ عليكِ؟ لم أسمع بشيءٍ كهذا. تكلَّمي، ما القوَّة التي أرسلَتكِ؟»

تظهر على النَّيادات مشاعرهنَّ كما تظهر على الماء التَّموُّجات. كيفما أخبرَتْ نفسها بأنَّ الأمر سيمضي، فإنَّه لم يكن هكذا. «الآلهة العُظمى أرسلَتني».

ـ «زوس؟».

ـ «لا. أبي».

ـ «ومَن هو؟».

ذكرَتْ اسم أحدَ سادة الأنهار صغار الشَّأن في شبه جزيرة الپيلوپونيز، واحدًا سمعتُ عنه، وربَّما قابلته مرَّةً، ولو أنه لم يجلس قطُّ في أبهاء أبي.

ـ «ولِمَ يُرسِلكِ إليَّ؟».

رمقَتني كأنَّني أكبرُ حمقاء التقَتها على الإطلاق، وقالت: «أنتِ ابنة هيليوس».

كيف نسيتُ طبائعَ الأمور بين الآلهة الأدنى شأنًا؟ التَّشبُّث اليائس بأيِّ مزيَّة؟ حتى في هواني ما زال دمُ الشَّمس يجري في عروقي، وهو ما جعلَني سيِّدةً تُبتغى. والحقيقة أنَّ بالنِّسبة إلى أمثال أبيها يُعَدُّ هواني مشجِّعًا، إذ يخفض منزلتي لدرجةٍ تجعله يَطلُب شيئًا من العُلا.

- «لماذا عُوقِبتِ؟».

- «وقعتُ في هوى فانٍ، راعٍ نبيل، وهو ما استنكرَه أبي. والآن عليَّ أن أقضي سنةً في التَّكفير».

تأمَّلتها. ظهرها مستقيم، وعيناها مرفوعتان، ولا تُبدي خوفًا منّي أو من ذئابي وأُسودي... وأبوها أنكرَ عليها فعلتها.

قلتُ: «اجلسي. مرحبًا بكِ».

جلسَتْ، لكنَّها لوَت فمها كأنَّها قضمَت من زيتونةٍ غير ناضجة، وتطلَّعت حولها بنفور. عندما قدَّمتُ لها طعامًا أشاحَت برأسها كطفلةٍ واجمة، وعندما حاولتُ أن أكلِّمها عقدَتْ ذراعيْها على صدرها وزمَّت شفتيها، ولم تنفتح هاتان الشَّفتان إلَّا للضَّجِّ بالشَّكوى؛ من رائحة الأصباغ المغليَّة فوق الموقد، ومن شعر الأُسود على البُسط، وحتى من منوال دايدالوس. وعلى الرَّغم من كلِّ توكيداتها بخصوص الخدمة لم تعرض أن تحمل ولو طبقًا واحدًا.

حدَّثتُ نفسي بأن لا داعي للدَّهشة. إنَّها حوريَّة، أيْ إنَّ لا طائل منها. قلتُ لها: «عودي إلى ديارِكِ إذن ما دُمتِ بائسةً. إنَّني أعتقكِ من عقوبتكِ».

- «لا يُمكنكِ. الآلهة العُظمى أمرتني. لا يُمكنكِ أن تفعلي شيئًا لإطلاق سراحي. سأبقى سنةً».

كان المفترَض أن يُزعِجها الموقف، لكنَّها قالتها وعلى شفتيْها ابتسامةُ تبجُّحٍ وخُيَلاء، كأنَّها تستعرض ظَفرَها أمام جمهور، وشاهدتُها أنا. حين ذكرَتْ أنَّ الآلهة نفوها لم تُبدِ غضبًا أو حزنًا، بل عدَّت سُلطتهم

طبيعيَّةً لا تُقاوَم، تمامًا كحركةِ أجرام السَّماء. أمَّا أنا فحوريَّة مثلها، ومنفيَّة أيضًا. سليلةُ أبٍ عظيم، نعم. لكنَّني بلا زوج، وأصابعي متَّسخة، وتصفيفة شعري عجيبة.. وهكذا استنتجَتْ أنَّ هذا يضعني في متناولها، وأنَّني أنا مَن ستُقاتِل.

إنَّكِ تتصرَّفين بحماقة. أنا لستُ عدوَّتكِ، وقلبكِ سحنتكِ ليس قوَّةً حقيقيَّةً. لقد أقنعوكِ... ولكنْ بينما تكوَّنت الكلمات في فمي تخلَّيتُ عنها. كأنَّني أحدِّثها بالفارسيَّة، ولن تفهمني ولو بعد ألف عام، ولقد فرغتُ من تلقين الدُّروس.

ملتُ إلى الأمام، وتكلَّمتُ اللُّغةَ التي تفهمها: «إليكِ كيف سيمضي الأمر يا آلكي. لن أسمعكِ، لن أشمَّ زيتَ الورد الذي تتعطَّرين به، أو أجد شعركِ السَّاقط في منزلي. ستُطعمين نفسكِ وتعتنين بنفسكِ، وإذا سبَّبتِ لي لحظةً متاعبَ إضافيَّةً فسأحوِّلكِ إلى دودةٍ عمياء وألقيكِ في البحر للسَّمك».

انمحَت ابتسامتها المصطنعة، وغاضَ الدَّم من وجهها، ووضعَت أصابعها على فمها ولاذَت بالفرار. وبعدها ظلَّت بمعزلٍ عنِّي كما أمرتُها. على أنَّ الخبر انتشرَ بين الآلهة عن أنَّ آيايا مكانٌ مناسبٌ لإرسال البنات صعبات المراس، فوصلَتْ دِريادة فرَّت من زوجها المزمع، وتبعَتها أُريادتان متحجِّرتا الوجه نُفِيَتا من جبليْهما. والآن متى حاولتُ إلقاءَ تعويذةٍ لم أعد أسمع إلَّا صلصلةَ الأساور، وفيما أعملُ على المنوال ألمحهنَّ برُكن عينَيَّ يَرُحن ويَجِئن مسرعات. من كلِّ رُكنٍ تهامَسنَ وأصدرنَ حفيفًا، ومتى رغبتُ في السِّباحة وجدتُ واحدةً مائلةً بوجهٍ مستديرٍ فوق البِركة، وإذا مررتُ انصبَّت ضحكاتهنَّ المكتومة في أعقابي.

لن أعيش هكذا ثانيةً، ليس على آيايا.

ذهبتُ إلى المنطقة الخالية وناديتُ هرميز، فأتى مبتسمًا بالفعل، وقال: «إذن؟ ما رأيكِ في وصيفاتكِ الجديدات؟».

ـ «لا أحبُّهن. اذهبْ إلى أبي واعرفْ كيف يُمكن صرْفهنَّ من هنا».

خشيتُ أن يحتجَّ على إرساله في مأموريَّة، إلَّا أنَّ الموقف كان أكثر إمتاعًا من أن يُفوِّته، ولمَّا رجعَ قال: «ماذا توقَّعتِ؟ أبوكِ مغتبط. يقول إنَّ اللَّائق أن يخدم الأرباب الأدنى دماءه الأسمى، وسيُشجِّع مزيدًا من الآباء على إرسال بناتهم».

ـ «لا، لن أقبل المزيد. أخبِر أبي».

ـ «عادةً لا يُملي السُّجناء شروط سجنهم».

لسعَني وجهي، لكنَّني كنتُ أعقل من أن أريه ذلك وأنا أقول: «قُل لأبي إنَّني سأفعل بهنَّ شيئًا شنيعًا إذا لم يرحلنَ، سأحوِّلهنَّ إلى جرذان».

ـ «لا أتصوَّرُ أنَّ ذلك سيُعجِب زوس. ألم تُنفَي أصلًا لارتكابكِ أفعالًا ضد أهلكِ؟ جديرٌ بكِ أن تحذري المزيد من العقاب».

ـ «يُمكنك أن تتكلَّم نيابةً عنِّي. حاوِل أن تُقنِعه».

ردَّ وعيناه السَّوداوان تلتمعان: «أخشى أنَّني مجرَّد رسول».

ـ «أرجوك. إنَّني لا أريدهنَّ هنا، حقًّا. لستُ أمزحُ».

ـ «نعم، لستِ تمزحين، بل تتصرَّفين ببلادةٍ شديدة. استعملي خيالكِ. مؤكَّدٌ أنَّهنَّ ينفعن في شيءٍ ما. خُذيهن إلى فِراشكِ».

ـ «هذا سُخف. سيجرين صارخات».

ـ «هكذا تفعل الحوريَّات دائمًا. لكنَّني سأخبركِ بسر: إنَّهنَّ فاشلاتٌ في الهرب».

خلال مأدبةٍ فوق أوليمپوس كان الضَّحك المدوّي ليتبع مزحةً كهذه. انتظرَ هرميز وعلى شفتيْه ابتسامةٌ عريضةٌ كالماعز. لكن كلَّ ما شعرتُ به هو غضبٌ باردٌ خالص.

قلتُ له: «لقد فرغتُ منك، فرغتُ منك قبل زمنٍ طويل. لا تدعني أراكَ ثانيةً».

لم تَزُل ابتسامته، بل اتَّسعت. اختفى هرميز ولم يرجع، ولكنْ ليس بدافع الطَّاعة. هو أيضًا فرغَ منِّي، لأنَّني ارتكبتُ جريمة البلادة التي لا تُغتفَر. كان بإمكاني تخيُّل القصص التي يحكيها عنِّي وعن كوني بلا حسِّ دُعابة، سريعةَ الضِّيق، رائحتي كالخنازير. بين الحين والآخر شعرتُ به خارجَ مجال بصري مباشرةً، يجد حوريَّاتي في التِّلال ويُعيدهنَّ متورِّدات الوجه ضاحكاتٍ بنشوةٍ لأن الأوليمپيَّ العظيم أراهنَّ حظوته. بدا أنَّه يحسبني سأُجنُّ من الغيرة والوحدة، وأحوِّلهنَّ إلى جرذانٍ بالفعل. مئة عامٍ ظلَّ يأتي إلى جزيرتي، وطيلة كلِّ هذا الوقت لم يعبأ بشيءٍ إلَّا تسليته.

بقيَت الحوريَّات، ولمَّا أنهين فترة الخدمة وصلَت أخرياتٌ وحللنَ محلَّهنَّ.. أحيانًا أربع، وأحيانًا ستٌّ أو سبع. لدى مروري ارتجفنَ وحنيْنَ الرُّؤوس ودعونَني بسيِّدتي، لكنْ هذا لم يعنِ شيئًا. لقد وُضِعتُ في مقامي. بكلمةٍ ونزوةٍ من أبي ذرَت الرِّيحُ كلَّ ما افتخرتُ به من قوَّة. وليس أبي نفسه حتى، فأيُّ إلهِ أنهارٍ له الحقُّ في مَلء جزيرتي بالمنفيَّات، وليس بمقدوري أن أمنعه.

انطلقَت الحوريّات من حولي، وحملَت الأروقةُ أصواتَ ضحكهنّ المكبوت. قلتُ لنفسي إنّهنّ لسن إخوتهنّ الذين كانوا ليتبجّحوا ويتقاتَلوا ويصطادوا ذئابي. غير أنَّ ذلك لم يكن خطرًا حقيقيًا قطُّ، فالأبناء لا يُعاقَبون.

جلستُ عند مستوقدي أشاهدُ النُّجوم تدور من نافذتي وقد شعرتُ بالبرد، بالبرد كحديقةٍ في الشّتاء اختبأَتْ نباتاتها في عُمق الأرض. ألقيتُ تعاويذي، وغنّيتُ وعملتُ على منوالي وزاوجتُ حيواناتي، لكنّني شعرتُ بحجم كلّ هذا متقلّصًا كالنّمل. الجزيرة لم تحتَج إلى يديَّ قطُّ، لأنّها مهما فعلتُ تزدهر. تكاثرَت الخرافُ وجالَت طليقةً، ورعَت على العشب دافعةً جِراء الذّئاب بوجوهها الجِلْفة. أمّا لبؤتي فظلّت في الدّاخل إلى جوار النّار وقد بقّع الفرو الأبيض فمها. غدا لأحفادها أحفادٌ، وإذا مشَت ارتجفَت قوائمها. لقد عاشَت معي مئةَ عامٍ على الأقل، تتحرّكُ إلى جواري ويُطيل عُمرها قُربها من نبضي الربّاني. بدَت لي تلك المُدّة كأنّها عقدٌ واحدٌ، وافترضتُ أنَّ عقودًا كثيرةً أخرى ستمضي. لكنْ ذات صباحٍ استيقظتُ لأجدها باردةً إلى جانبي على الفِراش. حملقتُ إلى جوانبها الهامدة وقد أصابَ الغباء عقلي من عدم التّصديق، ولمّا هززتها طارَت ذُبابةٌ مصدرةً أزيزها. فتحتُ فكّيْها المتيبّسيْن قسرًا، ودسستُ في حلقها أعشابًا مردّدةً إحدى التّعاويذ ثمّ أخرى، وما تحرّكت قيد أُنملةٍ وقد انطفأَ كلُّ ما تمتّعت به من قوّةٍ ذهبيّة. ربّما كان إيبتيس ليستطيع إعادتها، أو ميديا، أمّا أنا فلا.

بيدَيَّ بنيتُ المحرقة من أخشاب الأَرز والطّقسوس والدّردار الجبلي التي قطّعتها بنفسي، يتطايَر لبُّها الأبيض حيثما هوى نصل البلطة. لم أستطع أن أرفع الجثّة، فصنعتُ مزلجةً من القُماش الأرجواني

الذي ربطته حول عُنقها، وجررتها عبر القاعة فوق الأحجار التي سوَّتها خُطى كفوفها العظيمة، ثمَّ سحبتها إلى أعلى المحرقة وأشعلتُ اللَّهب. يومها لم تهبَّ الرِّيح، فتوهَّجت النَّار ببُطء، ومرَّ الأصيل بأكمله حتى اسودَّ فروها واحترقَ جسمُها الأصفر الطَّويل مستحيلًا إلى رماد. للمرَّة الأولى بدا عالم الفانين السُّفلي البارد رحمةً، فعلى الأقل يبقى جزءٌ منهم حيًّا، أمَّا هي فضاعَت تمامًا.

شاهدتُ حتى همدَ اللَّهب، ثمَّ عدتُ إلى الدَّاخل. كان الألم ينهش صدري، فضغطتُ عليه بيدي، على الفراغات والعظام الصُّلبة. جلستُ أمام منوالي، وشعرتُ أخيرًا بأنَّني المخلوقةُ التي وصفَتها ميديا؛ العجوزُ المهجورةُ الوحيدة، بلا روح، ورماديَّةٌ كالصُّخور ذاتها.

* * *

اعتدتُ الغناء كثيرًا في تلك الأيَّام، لأنَّها أفضل صُحبةٍ حظيتُ بها. في ذلك الصَّباح كانت أنشودةً قديمةً في مديح الزِّراعة. راقَتني صيغتها على شفتَيَّ، والقوائم المريحة بالنَّباتات والمحاصيل، والمزارع والحظائر، والقطعان والأسرابِ، والنُّجوم التي تدور فوقها. تركتُ الكلمات تطفو في الهواء وأنا أقلِّبُ مِرجلَ الصِّبغة المغليَّة. كنتُ قد رأيتُ ثعلبةً وأردتُ أن أحاكي لون فروها. رغا السَّائل القائم على الزَّعفران المخلوط بالفُوَّة، وقبلها فرَّت حوريَّاتي من الرَّائحة المنفِّرة، ولو أنَّها أعجبَتني بما تُسبِّبه من لسعةٍ حادَّة في حلقي وإراقة الدَّمع في عينَيَّ.

الأغنية هي ما لفتَ انتباههم، إذ حمل الهواء صوتي على الدُّروب إلى الشَّاطئ، وقد تبعوه بين الأشجار حتى أبصَروا الدُّخان المتصاعد من مدخنتي.

ونادى صوتُ رجل: «هل من أحدٍ هنا؟».

أذكرُ صدمتي لحظتها. زُوَّار. التفتُّ بسرعةٍ بالغة حتى إنَّ الصَّبغة تناثرَت، وسقطَت قطرةٌ حارقة على يدي، فمسحتها إذ هرعتُ إلى الباب.

كانوا عشرين. لوَّحت الرِّيحُ بشرتهم، وأكسبَتها الشَّمسُ لمعةً. أيديهم متكلِّسة بشدَّة، وأذرُعهم متغضِّنة بالنُّدوب القديمة. بعد ذلك الزَّمن الطَّويل وسْط رتابة الحوريَّات الملساء، وجدتُ كلَّ شائبةٍ فيهم مصدرَ سرور؛ التَّجاعيد حول أعيُنهم، والجُلب على سيقانهم، والأصابع المكسورة عند المفاصل. تشرَّبتُ ثيابهم الرثَّة ووجوههم المرهَقة. هؤلاء ليسوا أبطالًا أو طاقمَ سفينةِ ملك، بل عليهم أن يكدحوا لكسب رزقهم مثل جلاوكوس في ما مضى، أن يُلقوا الشِّباك ويحملوا البضائع المتنوِّعة، ويقتنصوا ما يَعثرون عليه من أجل العشاء. شعرتُ بدفءٍ يسري فيَّ، وبشوقٍ في أصابعي كأنَّما إلى خيطٍ وإبرة. ها هو ذا شيءٌ ممزَّق يُمكنني أن أرتقه.

تقدَّم رجل طويل أشيب نحيل، وقد أبقى كثيرٌ من الرِّجال الواقفين خلفه أيديَهم على مقابض سيوفهم، وهو التَّصرُّف الحكيم. فالجُزر أماكن خطرة تلقى فيها الوحوش مثلما تلقى الأصدقاء.

قال: «سيِّدتي، إنَّنا جوعى وضائعون، ونأمل أن تُساعِدنا ربَّةٌ مثلكِ في حاجتنا».

ابتسمتُ، وكان للابتسامة شعورٌ غريبٌ على وجهي بعد ذلك الوقت الطَّويل، وقلتُ: «مرحبًا بكم هنا، مرحبًا بكم جدًّا. ادخُلوا».

طردتُ الأُسود والذِّئاب إلى الخارج، فليس كلُّ الرِّجال بثبات دايدالوس، وهؤلاء البحَّارة بدوْا كأنَّهم خبروا ما يكفي من الصَّدمات

بالفعل. قُدتهم إلى موائدي، ثمَّ أسرعتُ إلى المطبخ لأجلب أطباقًا كوَّمتُ عليها التِّين المسلوق والسَّمك المشويّ والجُبنة المملَّحة والخُبز. في الطَّريق إلى الدَّاخل رمقَ الرِّجال خنازيري متلامزين ومتهامسين بصوتٍ مسموع عن أملهم في أن أقتلَ واحدًا، لكنْ حين وُضِعَت الأسماكُ والفواكهُ أمامهم كانوا جائعين لدرجة أنَّهم لم يشتكوا أو يتوقَّفوا حتى لغسل أيديهم وخلع سيوفهم، فلاكوا وازدردوا بشراهة، وصبغَ الدُّهن والنَّبيذ لحاهم بالدُّكنة. جلبتُ المزيد من السَّمك والجُبنة، وكلَّما مررتُ حنوْا رؤوسهم لي. **سيِّدتي، مولاتي، لكِ شكرنا.**

لم أستطع الكفَّ عن الابتسام. هشاشة الفانين تستولِد الطِّيبةَ والأدب، ويعرفون كيف يُقدِّرون الصَّداقة والسَّخاء. قلتُ لنفسي ليت المزيد منهم يأتي! سأطعمُ سفينةً كاملةً يوميًا وبكلِّ سرور، سفينتيْن، ثلاثًا، وقد أبدأُ أشعرُ بنفسي على طبيعتي من جديد.

اختلسَت الحوريَّات النَّظر بأعيُنٍ متَّسعة من المطبخ، فأسرعتُ إليهنَّ وصرفتهنَّ قبل أن يلحظوا وجودهن. هؤلاء الرِّجال لي، ضيوفي لأرحِّب بهم كما أشاءُ، وقد استمتعتُ بتوفير سُبل الرَّاحة لهم بنفسي. صببتُ ماءً نظيفًا في الأوعية كي يغسلوا أيديهم، وسقط سكِّين على الأرض فالتقطته، ولمَّا فرغَ كوبُ قائدهم ملأته من الوعاء المترع بالنَّبيذ، فرفعَه لي قائلًا: «أشكركِ أيتها الحُلوة».

حُلوة. أدهشَتني الكلمة بُرهةً. لقد دعوني بالربَّة من قبلُ، وهكذا اعتقدتهم حسبوني، لكنَّني أدركتُ أنَّهم لا يُظهِرون خشيةً أو إكبارًا دينيًا، وأنَّ اللَّقبَ كان مجرَّد مجاملةٍ وإطراءٍ على امرأةٍ وحيدة. تذكَّرتُ

ما أخبرني به هرميز قبل زمنٍ طويل: إنَّ لكِ صوتًا كالفانين. لن يخشوكِ مثلما يخشون بقيَّتنا.

ولم يخشوني بالفعل، والواقع أنَّهم حسبوني مثلهم. وقفتُ هناك مفتونةً بالفكرة. كيف ستكون نفسي الفانية؟ عاملة أعشابٍ مغامِرة؟ أرملة مستقلَّة؟ لا، ليس أرملةً، فلستُ أريدُ تاريخًا كئيبًا. قد أكونُ كاهنةً، ولكنْ ليس لإلهٍ ما.

أخبرتُ الرَّجل: «دايدالوس زارَ هذا المكان ذات مرَّة. إنَّني محتفظةٌ بمقامٍ لهذه الزِّيارة».

أومأَ برأسه، وخيَّبتْ لامبالاته أملي. كأنَّ هناك مقاماتٍ للأبطال الموتى في كلِّ مكان. ربَّما! فأنَّى لي أن أعرف؟

بدأت شهيَّةُ الرِّجال تثبط، وارتفعَت رؤوسهم عن الأطباق. رأيتهم يشرعون في التَّطلُّع حولهم إلى زينة الأوعية الفضِّيَّة والكؤوس الذَّهبيَّة والجداريَّات. تعدُّ حوريَّاتي هذا التَّرف حقَّهنَّ، لكنَّ نظرات الرِّجال تألَّقت عجبًا في بحثها عن كلِّ تُحفةٍ جديدة. فكَّرتُ في أنَّ عندي صناديقَ ملأى بالوسائد المحشوَّة بالرِّيش، ما يكفي لعمل أسرَّةٍ لهم على الأرض، وعندما أناولهم إيَّاها سأقول: **هذه مصنوعةٌ للآلهة**، فتتَّسع أعينُهم.

عادَ القائد يتكلَّم: «سيِّدتي، متى سيرجع زوجكِ؟ نودُّ أن نشرب نخب هذه الضِّيافة الكريمة».

ضحكتُ مجيبةً: «أوه، ليس لي زوج».

ابتسمَ ردًّا، وقال: «بالطَّبع. إنَّكِ أصغر من أن تكوني متزوِّجةً. أبوكِ إذن هو مَن علينا أن نَشكُره».

كان الظَّلام قد بسطَ كامل سُلطانه في الخارج، وتوهَّجت الحُجرة ببهاءٍ ودفء. قلتُ: «أبي يعيش بعيدًا»، وانتظرتُ أن يسألوا مَن هو. مُشعل قناديل. ابتسمتُ لنفسي مفكّرةً أنَّها ستكون دُعابةً طيِّبةً.

ـ «أهناك مضيفٌ آخر يُمكننا أن نَشكُره إذن؟ عمٌّ أو أخ؟».

ـ «إذا أردتم شُكر مضيفكم فاشكُروني أنا. هذا المنزل منزلي وحدي».

ومع هذه الكلمة تبدَّل الهواء في المكان.

تناولتُ وعاء النَّبيذ قائلةً: «إنَّه فارغ. دعوني أحضرُ لكم المزيد»، وإذ درتُ كان بإمكاني سماع أنفاسي، والشُّعور بأجسادهم العشرين تملأ الفراغ من ورائي.

في المطبخ رفعتُ يدي إلى أحد عقاقيري قائلةً في قرارة نفسي إنَّني أتصرَّفُ بسخافة. لقد اندهشوا من إيجادهم امرأةً بمفردها. هذا كلُّ شيء! على أنَّ أصابعي كانت تتحرَّك بالفعل، فخلعتُ غطاء جرَّةٍ، ومزجتُ محتوياتها بالنَّبيذ، ثمَّ أضفتُ العسل ومصل الحليب لإخفاء الطَّعم، وبعدها خرجتُ بالوعاء لتتبعني عشرون نظرة.

قلتُ: «تفضَّلوا. لقد ادَّخرتُ الأفضل للنِّهاية. يجب أن تشربوا جميعًا. إنَّه من أفضل كرمةٍ في كريت».

ابتسموا مسرورين لهذا البذخ الفائض، وشاهدتُ كلَّ رجلٍ يملأُ كوبه، شاهدتهم يشربون. مؤكَّدٌ أنَّه عندها كان في معدة كلٍّ منهم مِلءُ برميلٍ كامل، وقد فرغَت الأطباق تمامًا حتى من الفُتات.

مال بعض الرِّجال على بعضٍ متكلِّمين بأصواتٍ خفيضة. وحين تكلَّمتُ شعرتُ بصوتي أعلى من اللَّازم. «هلمُّوا، لقد أطعمتكم جيِّدًا. ألن تُخبِروني بأسمائكم؟».

رفعوا أعيُنهم، واندفعَت نظراتهم كأبناء مقرضٍ إلى قائدهم، الذي نهضَ لتحتكَّ الدكَّةُ بالحجر، وقال: «أخبِرينا باسمكِ أوَّلًا».

حملَت نبرته شيئًا ما، وكدتُ ألفظها لحظتها ـ كلمة التَّعويذة التي من شأنها أن تُنوِّمهم، ولكنْ حتى بعد كلِّ ما مرَّ من سنين ظلَّت قطعةً منِّي لا تنطق إلَّا بما يُطلَب منِّي.

أجبتُ: «سرسي».

لم يعنِ الاسم لهم شيئًا، بل سقطَ على الأرض كأنَّه حجر. ثانيةً احتكَّت الدِّكك بالأرض، وبدأ جميع الرِّجال ينهضون مثبِّتين عليَّ أنظارهم. ومع ذلك لم أقل شيئًا، مع ذلك حدَّثتُ نفسي بأنِّي مخطئة، حتمًا مخطئة. لقد أطعمتهم، وشكروني. إنَّهم ضيوفي.

تقدَّم منِّي القائد. كان أطول قامةً منِّي، وكلُّ وترٍ في جسده مشدودًا من الكدِّ. فكَّرتُ... فيمَ؟ أنَّني أتصرَّفُ بحُمق، أنَّ شيئًا آخر سيَحدث، أنَّني شربتُ أكثر من اللَّازم من نبيذي، وهذا هو الخوف الذي أفضى إليه شُربي، أنَّ أبي سيأتي، أبي! لم أُرد أن أكون حمقاء، أن أثير هرجًا ومرجًا من لا شيء، إذ كان بإمكاني سماع هرميز يحكي الحكاية لاحقًا. لطالما كانت هستيريَّةً.

دنا القائد، وأحسستُ بحرارة بشرته. كان وجهه محفَّرًا، مشقَّقًا كقيعان الجداول القديمة. ظللتُ أنتظرُ أن يقول شيئًا تقليديًّا، أن يُقدِّم شكره، أن يُلقي سؤالًا. في مكانٍ ما في قصرها كانت أختي تضحك. قضيتِ حياتكِ كلَّها وديعةً، والآن ستندمين. نعم يا أبتِ، نعم يا أبتِ... انظُري إلامَ أودى بكِ هذا.

لمسَ لساني شفتَيّ، وبدأت أقول: «أهناك...»، لكنّ الرَّجل دفعَني نحو الجِدار، ليرتطم رأسي بالحجارة غير المستوية، ويتطايَر الشَّرر في الحُجرة. فتحتُ فمي لأصيح بالتَّعويذة، لكنَّه ضغطَ ذراعه على قصبتي الهوائيَّة واختنقَ الصَّوت. لم أستطع الكلام، لم أستطع التَّنفُّس. قاومته، إلَّا أنَّني وجدته أقوى ممَّا حسبتُ، أو ربَّما كنتُ أنا أضعف. صدمَني وزنه المُفاجئ، ودَفعة جِلده المشحَّم على جِلدي. كان عقلي لا يزال مشتَّتًا من عدم التَّصديق. بيُمناه مزَّق ثيابي بحركةٍ متمرِّسة، وبيُسراه أبقى ثقله على حلقي. لقد قلتُ إنَّ لا أحد غيري على الجزيرة، لكنَّه تعلَّم ألَّا يُجازِف، أو أنَّه لم يحبَّ الصُّراخ فحسب.

لا أدري ماذا فعل رجاله. تفرَّجوا ربَّما. لو كانت لبؤتي موجودةً لحطَّمت الباب بمخالبها، لكنَّها أمسَت رمادًا في الرِّيح. سمعتُ الخنازير تقبع في الخارج، وأذكرُ أنِّي فكَّرتُ وأنا عاريةٌ على الأحجار السَّاحجة أنَّني مجرَّدُ حوريَّةٍ في النِّهاية، فلا شيءَ أشيع بيننا من هذا.

لو أنِّي فانيةٌ لفقدت الوعي، لكنَّني ظللتُ واعيةً كلَّ لحظة. وأخيرًا شعرتُ بالرَّجل يرتعد وبذراعيْه ترتخيان. كان حلقي مسحوقًا إلى الدَّاخل كجذع شجرةٍ عفِن، ولم أقوَ على الحركة. سقطَت قطرةٌ من العَرق من شعره على صدري العاري وبدأت تنزلق، ووعيتُ أن رجاله يتكلَّمون من ورائه. كان أحدهم يسأل إن كنتُ قد مِتُّ. يُستحسَن ألَّا تكون ميْتةً، إنَّه دوري. لاح وجهٌ من فوق كتف القائد: عيناها مفتوحتان.

تراجعَ القائدُ وبصقَ على الأرض لترتجف الكُتلة الهُلاميَّة فوق الحجر، وظلَّت قطرةُ العَرق تنزلق شاقَّةً أخدودها اللَّزج. في السَّاحة صرخَت خنزيرة، وبتشنُّجٍ ابتلعتُ ريقي، وطقطقَ حلقي. شعرتُ بفراغٍ

ينفتح في داخلي. تعويذةُ النَّوم التي كنتُ سألقيها راحت، جفَّت، ولم يَعُد بإمكاني إلقاؤها حتى إذا أردتُ. لكنَّني لم أُرد. ارتفعَتْ عيناي إلى وجهه المحفَّر. لهذه الأعشاب استخدامٌ آخر، وأعرفُ ما هو. أخذتُ شهيقًا، ونطقتُ كلمتي.

وغامَت عيناه بغير فهم. «ماذا...».

لم يُكمِل السُّؤال. طقطقَ قفصه الصَّدري وبدأ يتورَّم، وسمعتُ صوت اللَّحم الرَّطب يتمزَّق والعظم يتكسَّر. انتفخَ أنفه من وجهه، وذبلَت ساقاه كذُبابةٍ مصَّتها عنكبوت، ثمَّ سقطَ على أربعٍ صارخًا، ومعه صرخَ رجاله جميعًا.. واستمرَّ هذا وقتًا طويلًا.

اتَّضح إذن أنَّني قتلتُ بعض الخنازير ليلتها رغم كلِّ شيء.



الفصل الخامس عشر

عدلتُ الدِّكك المقلوبة، ومسحتُ الأرضيَّات المتَّسخة، وكوَّمتُ الأطباق وحملتها إلى المطبخ. قبلها، حككتُ نفسي بالرَّمل وسط الأمواج إلى أن زال الدَّم، ووجدتُ كُتلة البُصاق على الأرض الحجريَّة وحككتها أيضًا، ولم يُؤتِ ما فعلتُ نفعًا، وظللتُ كلَّ لحظةٍ شاعرةً ببصمات أصابعه.

عادَت الذِّئاب والأُسود إلى المنزل كظلالٍ في الظُّلمة، وتمدَّدتْ لاصقةً وجوهها بالأرض. وأخيرًا، عندما لم يَعُد هناك شيءٌ يحتاج إلى تنظيف، جلستُ أمام رماد المستوقد. كففتُ عن الارتجاف، ولم أتحرَّك على الإطلاق. بدا كأنَّ لحمي تحجَّر حولي، وتمدَّد جِلدي فوقه كشيءٍ ميت، شيءٍ مطَّاطيٍّ كريه.

بدأت ألوانُ السَّماء تتدرَّج إلى الفجر، عندما تذهب خيول القمر الفضِّيَّة إلى اسطبلاتها. كانت عربةُ عمَّتي سيلين تامَّة الامتلاء طوال اللَّيل،

ونورها قويًا في السَّماء، وتحت بريق وجهها جررتُ تلك الجُثث الوحشيَّة إلى القارب، وقدحتُ الصوَّان، وشاهدتُ اللَّهب يستعر. مؤكَّدٌ أنَّها أخبرَت هيليوس بالفعل، وفي أيِّ لحظةٍ سيظهر أبي، ربُّ العائلة الغاضب لانتهاك طفلته، ويصرُّ سقفي مع انضغاط كتفيْه عليه. طفلتي المسكينة، ابنتي المنفيَّة المسكينة، ما كان عليَّ أن أترك زوس يُرسِلكِ إلى هنا.

اصطبغَت الحُجرة بالرَّمادي ثمَّ الأصفر، وهبَّ نسيم البحر، لكنَّه لم يكفِ لطرد رائحة اللَّحم المحروق. كنتُ أعلمُ أنَّ أبي لم يتكلَّم بهذه الطَّريقة قطُّ في حياته كلِّها، لكنَّني فكَّرتُ أنَّه سيأتي بالتَّأكيد ولو لمجرَّد أن يُؤنِّبني. إنَّني لستُ زوس، وليس مسموحًا لي بإرداء عشرين رجلًا دُفعةً واحدةً. بصوتٍ عالٍ كلَّمتُ حافة عربة أبي الشَّاحبة التي بدأت ترتفع في السَّماء. أسمعتِ بالذي فعلته؟

تحرَّكت الظِّلال على الأرض، وزحفَ الضَّوءُ على قدمَيَّ حتى مسَّ حاشية فُستاني، وامتدَّت كلُّ لحظةٍ إلى التَّالية من دون أن يأتي أحد.

تبادر إلى ذهني أنَّ المفاجأة الحقيقيَّة ربما أنَّ ما حدثَ لم يَحدُث في وقتٍ أقرب. لقد اعتادَت أعيُنُ أعمامي الزَّحفَ عليَّ زحفًا وأنا أصبُّ لهم النَّبيذ، ووجدَتْ أياديهم طريقها إلى لحمي بقرصةٍ أو تمسيدةٍ أو الاندساس تحت كُمِّ ثوبي. جميعهم لهم زوجات، أي أنَّ الزَّواج ليس ما فكَّروا فيه. وفي النِّهاية كان أحدُهم ليسعى لي ويدفع لأبي ثمنًا مجزيًا. شرف على كلِّ جانب.

لمسَ الضَّوءُ المنوالَ، فبدأت رائحته الأرزيَّة تنبعث في الهواء، وكانت ذكرى يدَيْ دايدالوس بندوبهما البيضاء، والمتعة التي نلتها منهما، كسلكٍ ساخن اخترقَ مخِّي. غرستُ أظفاري في معصمي. ثمَّة

عرَّافاتٌ مبعثراتٌ في أراضينا، ومقاماتٌ حيث تتنفَّس الكاهنات الأبخرة المقدَّسة وينطقن بالحقائق التي يجدنها فيها، وعلى أبوابهنَّ نُقِشَت عبارة «اعرف نفسك». إلَّا أنَّني كنتُ غريبةً عن نفسي، تحوَّلتُ إلى حجرٍ بلا سببٍ محدَّد.

في مرَّةٍ، حكى لي دايدالوس قصَّةً عن سادة كريت الذين اعتادوا استئجاره لتوسعة منازلهم، فيصل بأدواته ويشرع في هدم الحوائط وخلع الأرضيَّات؛ ولكنْ متى وجدَ مشكلةً كانت خفيَّةً ولا بُدَّ من إصلاحها، عبسوا في وجهه. **لم يكن هذا اتِّفاقنا!**

ويقول دايدالوس: بالطَّبع لا، فالمشكلة كانت مختبئةً في الأساس، ولكن انظُروا، ها هي ذي، واضحةً وضوحَ النَّهار. أترى هذه العارضة المتصدِّعة؟ أترى الخنافس التي تأكل الأرضيَّة؟ أترى كيف تغوص الحجارة في المستنقع؟

وهو ما أفضى إلى المزيد من غضب السَّادة لا أكثر. **كان البناء بخيرٍ إلى أن نقَّبتَ عن المشكلة! لن ندفع! سدَّ الفتحة واطلِها بالجِص. لقد ظلَّ البناء قائمًا زمنًا طويلًا، وسيبقى قائمًا زمنًا أطول.**

وهكذا يُخبَّئ العيب، وفي الموسم التَّالي ينهار المنزل، وعندها يذهبون إليه مطالبين باستعادة مالهم.

قال لي: «لقد أخبرتهم، أخبرتهم وأخبرتهم. عندما يكون في الجُدران عفنٌ فما من حلولٍ إلَّا واحد».

بدأت الكدمة الأرجوانيَّة على حلقي تستحيل إلى الأخضر عند حوافها، وضغطتُ عليها شاعرةً بالألم المشروخ.

وقلتُ لنفسي اهدمي، اهدمي وابني من جديد.

* * *

أتوا، ولا أدري لِمَ. ثورةٌ ما للأقدار ربّما، أو تغييرٌ ما في طُرق التّجارة والشَّحن، أو رائحةٌ ما تنبعث في الهواء قائلةً: ها هنا حوريّات، ويعشن وحدهنَّ. إلى مرفأي طارت القوارب كأنَّها مشدودةٌ على رباط، وإلى الشَّاطئ خاضَ الرِّجالُ الماء ونظروا حولهم مسرورين. مياهٌ عذبة، صيدٌ، سمكٌ، فاكهة. وأظنُّ أنّني رأيتُ دُخانَ مستوقدٍ فوق الأشجار. أهناك مَن تُغنّي؟

كان بإمكاني أن أحيط الجزيرة بخداعٍ بصريٍّ يحول دون مجيئهم، فهذه إحدى قُواي، أن أكسو سواحلي اللَّطيفة بصورة صخورٍ منفِّرة ودوّاماتٍ وجروفٍ محزَّزة غير قابلة للتّسلُّق. وعندها كانوا ليُواصِلوا الإبحار، ولا أضطرُّ إلى رؤيتهم أو رؤية غيرهم ثانيةً أبدًا.

لكنْ لا، فاتَ أوان ذلك. لقد عُثِرَ عليَّ. فليروني إذن كما أنا، فليتعلَّموا أنَّ العالم ليس كما يحسبون.

تسلَّقوا الدُّروب، واجتازوا حجارة ممرِّ حديقتي حاملين جميعًا القصَّة البائسة نفسها: إنَّهم ضائعون، إنّهم متعَبون، إنَّهم بلا طعام، سيمتنُّون لمساعدتي أيّما امتنان.

قلّةٌ من هؤلاء، قلَّةٌ قليلة أستطيعُ أن أحصيها على أصابعي، تركتها ترحل. لم يرَني هؤلاء عشاءهم، بل كانوا رجالًا ورعين ضائعين حقًّا، وقد أطعمتهم، وإذا كان بينهم واحدٌ وسيمٌ أخذته إلى فِراشي أحيانًا. لم تكن رغبةً، ولا حتى قشورَ رغبة، بل نوعٌ من الغضب، سكّينٌ استخدمته على نفسي. فعلتُ هذا لأثبت أنَّ جِلدي لا يزال ملكي، فهل أعجبَتني الإجابة التي وجدتها؟

قلتُ لهم: «ارحلوا».

وركعوا لي على رمالي الصَّفراء قائلين: «أيَّتها الربَّة، على الأقل أعطينا اسمكِ كي نُرسِل إليك صلواتِ الشُّكر».

لم أحتَج إلى صلواتهم، ولا إلى اسمي على أفواههم. أردتُ أن يرحلوا، أردتُ أن أفرك نفسي في البحر حتى ينبثق الدَّم.

أردتُ أن يصل أفرادُ الطَّاقم التَّالي حتى أرى لحمهم الممزَّق مجدَّدًا.

هناك دومًا قائد، ليس أكبرهم حجمًا، وليس ضروريًّا أن يكون الرُّبَّان، لكنَّه مَن يتطلَّعون إليه ناشدين تعليمات الوحشيَّة. له نظرةٌ باردة وفيه توتُّر ملتفٌّ كالثُّعبان، كما قد يقول الشُّعراء، لكنَّني في ذلك الحين كنتُ قد صرتُ خبيرةً بالثَّعابين. أعطِني حنشًا صاقًّا يلدغني إذا أزعجته، وليس قبل ذلك.

لم أعد أصرف حيواناتي حينما يأتي الرِّجال، بل تركتها تسترخي حيث تشاء في أنحاء الحديقة وتحت طاولاتي، إذ سرَّني أن أرى الرِّجال يمشون بينها مرتجفين من أسنانها ووداعتها غير الطَّبيعيَّة. ولم أعد أتظاهَر بكوني فانيةً، بل أريتهم عينَيَّ الصَّفراويْن البرَّاقتيْن عند كلِّ فُرصة، ولا شيء من هذا صنعَ فرقًا. إنَّني وحدي، وامرأة، وهذا هو كلُّ ما يهمُّ.

أمامهم أضعُ ولائمي، اللُّحوم والأجبان والفواكه والأسماك، وأضعُ أيضًا أكبر وعاء خلطٍ برونزي عندي، مليئًا حتى الحافة بالنَّبيذ، ويتجرَّعون ويمضغون، ويقبضون على قطع الضَّأن التي تنزُّ دُهنًا، ويُلقونها في أجوافهم. يصبُّون ويصبُّون ثانيةً مبلِّلين أفواههم وملوِّثين الموائد

بالحُمرة، وقد التصقَت قطعٌ من الشَّعير والأعشاب بشفاههم، ويقولون لي إنَّ الوعاءَ فرغَ فاملئيه، وأضيفي المزيد من العسل هذه المرَّة، فهذه الخمرُ لها نكهةٌ مُرَّة.

وأقول: بالطَّبع.

الحدَّة مصدرها جوعهم. يشرعون في النَّظر حولهم، وأراهم يلحظون الأرضيَّات الرُّخام والصِّحاف ونسيج ثيابي الفاخر، وترتسم على شفاههم أنصافُ ابتسامات. إن كان هذا ما جرؤت على أن أريهم إيَّاه، فتخيَّلوا ما هو مخبَّأ في الخلفيَّة!

يقول القائد: «سيِّدتي، لا تقولي لي إنَّ حسناءَ مثلكِ تعيش وحدها».

وأجيبُ: «أوه، نعم، وحدي تمامًا».

عندئذٍ يبتسم، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه. إنَّه لا يعرف الخوف أبدًا، ولِمَ؟ لقد لاحظ بالفعل أنَّه ليس هناك معطفُ رجلٍ معلَّقًا عند الباب، لا قوس صيَّاد، لا عصا راعٍ، لا أثر لإخوةٍ أو آباء أو أبناء، لا ثأر سيُلاحِقه بعدها. لو أنَّ لي قيمةً عند أحدٍ لما تُرِكتُ لأعيش بمفردي.

يقول: «يُؤسِفني أن أسمع هذا».

وتحتكُّ الدكَّة بالأرض وينهض، ويُشاهِد الرِّجال بأعيُنٍ تتألَّق، راغبين في رؤية التَّجمُّد، الجفول، التَّوسُّل المنتظَر.

كانت تلك لحظتي المفضَّلة: رؤيتهم يعقدون الحواجب، ويُحاولون أن يفهموا سببَ غيابِ خوفي، وفي داخل أجسادهم أشعرُ بأعشابي كأوتارٍ تنتظر أن يُعزَف عليها. أستمتعُ بارتباكهم، بالخوف الذي حلَّ عليهم، ثم أبدأُ العزف على الأوتار.

تنحني ظهورهم مرغمةً إيَّاهم على السُّقوط على أيديهم ورُكبهم، فيما تنتفخ وجوههم كجُثث الغرقى، ويتلوُّون، وتنقلب الدُّكك ويتناثَر النَّبيذ على الأرض، ويتحوَّل صريخهم إلى قباع، وأنا واثقةٌ بأنَّهم تألَّموا.

ودائمًا أحتفظ بقائدهم حتى النِّهاية كي يُشاهِد، ويتقلَّص القائد ملتصقًا بالحائط. أرجوكِ، اصفحي عنِّي، اصفحي عنِّي، اصفحي عنِّي.

وأقول لا، مستحيل.

ولمَّا ينتهي الأمرُ يتبقَّى فقط أن أسوقهم إلى الزَّريبة، فأرفعُ عصاي المصنوعة من خشب المُرَّان، وينطلقون إلى الخارج. ثمَّ تنغلق البوَّابة وراءهم، ويلصقون أنفُسهم بالأعمدة وأعيُنهم الخنزيريَّة لا تزال مبتلَّةً بآخِر ما ذرفوا من دموعٍ بشريَّة.

لا تقول حوريَّاتي شيئًا، مع أنَّني أظنُّهنَّ يتفرَّجن أحيانًا من فُرجة الباب.

ـ «سيِّدتي سرسي، سفينةٌ أخرى. هل نعود إلى حُجرتنا؟».

ـ «من فضلكنَّ، وأخرِجن لي النَّبيذ قبل أن تذهبن».

من مهمَّةٍ إلى مهمَّةٍ تنقَّلتُ، أغزلُ وأعملُ وأُطعمُ خنازيري، وأقطعُ الجزيرة طولًا وعرضًا. أتحرَّكُ بظهرٍ مستقيم كأنَّ إناءً مترعًا ضخمًا يستقرُّ بين يدَيَّ، وإذ مشيتُ تموَّج السَّائل القاني، دائمًا على وشك الطَّفح، لكنَّه لا يطفح أبدًا. فقط إذا توقَّفتُ، إذا استلقيتُ، شعرتُ به يبدأ في النَّزيف.

تُسمَّى الحوريَّات عرائسَ، لكنَّ العالم لا يرانا هكذا حقًّا. إنَّنا وليمةٌ لا نهاية لها على مائدةٍ جميلةٍ تتجدَّد، وفاشلاتٌ جدًّا جدًّا في الهرب.

تشقَّقتْ أسوار زريبتي بفعل الزَّمن والاستعمال. وبين الحين والآخر تداعى الخشب وفرَّ أحد الخنازير. في أغلب الأحيان كان يُلقي بنفسه من فوق الجروف، وهو ما امتنَّت له طيورُ البحر التي بدَا كأنَّها قطعَت نصف العالم لتلتهم الرُّفات الممتلئ. وقتها أقفُ لأشاهدها تُجرّد الجثَّة من الشَّحم والأوتار، ومن أحد مناقيرها تتدلَّى كالدُّودةِ قطعةٌ ورديَّةٌ صغيرة من جِلد الذَّيل. أتساءلُ إن كنتُ لأشفق عليه لو أنَّه رجل، لكنَّه ليس رجلًا.

وحين أمرُّ بالزَّريبة في طريق العودة يُحدِّق أصدقاؤه إليَّ بوجوهٍ متوسِّلة، يتأوَّهون ويصرُّون ويُمرّغون خطومهم في التُّراب. **نحن آسفون، نحن آسفون.**

آسفون لأنَّكم وقعتم، آسفون لأنَّكم حسبتونني ضعيفةً، لكنَّكم أخطأتم.

على فِراشي أسندَتِ الأُسودُ ذقونها إلى بطني، فدفعتها وقمتُ لأمشي من جديد.

* * *

سألني ذات مرَّةٍ عن سبب اختياري الخنازير. كنَّا جالسيْن أمام مستوقدي على مقعديْنا المفضَّليْن. أحبُّ هو المقعد المكسو بجِلد الأبقار، المطعَّمة نقوشُه بالفضَّة، وأحيانًا كان يَفرُك النُّقوش الحلزونيَّة بإبهامه بشرود.

علَّقتُ: «ولِمَ لا؟».

منحَني ابتسامةً خالصةً قائلًا: «أعني ما أقول، أودُّ أن أعرف».

علمتُ أنَّه يعنيها. لم يكن رجلًا متديّنًا، لكنَّ التَّفتيش عمَّا يُخفى من أشياء كان عنده أسمى درجات العبادة.

وجدتُ في نفسي أجوبةً، شعرتُ بها مدفونةً في أعماقي كبُصيلات العام المنصرم، يتعاظَم حجمها وتتشابَك جذورها بتلك اللَّحظات التي قضيتها مدفوعةً إلى الحائط، عندما غابَت أُسودي واحتبسَت تعاويذي في داخلي وصرخَت خنازيري في السَّاحة.

بعدما أبدّلُ طاقمًا كنتُ أشاهدُ أفراده يتخبَّطون ويصيحون في الزَّريبة، يَسقُط بعضهم فوق بعضٍ وقد أصابَهم الرُّعب بالغباء. كم كرهوا كلَّ هذا؛ لحمهم الشَّهواني المستجد، وأكارعهم المستدقَّة المشقوقة، وبطونهم المنتفخة المجرورة في قذارة الأرض. إنَّها مَهانةٌ، إذلالٌ، وقد أسقمَتهم اللَّهفةُ على أيديهم، تلك الزَّوائد التي يستعملها الرِّجال لتقييد العالم.

وأقول لهم إنَّ الأمر ليس بهذا السُّوء. حريٌّ بكم أن تُقدِّروا امتيازات الخنازير، فكونها زلقةً في الوحل وسريعةً يُصعِّب الإمساك بها، وكونها قريبةً من الأرض يحول دون إسقاطها بسهولة. إنَّها ليست كالكلاب، لا تحتاج إلى حُبِّ أحد، وتستطيع العيش في أيِّ مكانٍ على أيِّ شيءٍ من الفُتات والقمامة. ثمَّ إنَّها تبدو بليدةً بلهاء، وهو ما يُغري أعداءها، لكنَّها ذكيَّةٌ، وتَذكُر وجهَ المرء.

لكنَّهم لم يُصغوا قطُّ. الحقيقة أنَّ الرِّجال خائبون في كونهم خنازير.

على مقعدي عند المستوقد رفعتُ كأسي، وأخبرته: «أحيانًا عليك أن تقنع بالجهل».

لم تَرُقه الإجابة، بَيْدَ أنَّ ذلك كان سمتَ الانحراف فيه، فبشكلٍ ما راقته الإجابة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. لقد رأيتُ كيف يستطيع استخلاصَ

الحقائق من الرّجال مثل اللُّب من المحار، كيف يستطيع سبرَ أغوار الصُّدور بنظرةٍ وكلمةٍ تُقال في الوقت المناسب. قليلٌ جدًّا من العالم لم يُذعِن لاستجلائه، وفي النِّهاية أظنُّ أنَّ حقيقة أنَّني لم أذعن كانت أكثر ما يُفضّله فيَّ.

لكنَّني أستبقُ الأحداث.

***

قالت الحوريّات إنَّ هناك سفينةً، بدنُها مليءٌ بالرُّقع ومرسومةٌ عليه أعيُن.

أثار هذا اهتمامي. القراصنة التَّقليديُّون لا يملكون ذهبًا يُبدِّدونه على الطِّلاء. لكنَّني لم أذهب لأنظر، فالتَّرقُّب جزءٌ من المتعة، اللَّحظة التي أسمعُ فيها الطَّرقة وأقوم عن أعشابي لأفتح البابَ على مصراعيْه. لم يَعُد هناك رجال أتقياء منذ زمنٍ طويل، وصارت التَّعويذةُ مصقولةً في فمي كحجرٍ نهري.

أضفتُ حفنةً من الجذور إلى العقّار الذي أحضّره. كان يحتوي على المولي، وبرقَ السّائل.

مرَّ الأصيل من دون أن يظهر البحّارة، وأبلغتني حوريّاتي بأنَّهم خيَّموا على الشّاطئ وأشعلوا بؤر النّار. ثمَّ مرَّ يومٌ آخر، وأخيرًا في اليوم الثّالث سمعتُ الطَّرْقة.

سفينتهم المطليّة تلك كانت أفخمَ شيءٍ فيهم. وجدتُ وجوههم متغضّنةً كالأجداد، وأعيُنهم ميتةً محتقَنةً بالدِّماء، وأجفلَتهم حيواناتي.

قلتُ: «دعوني أخمّنُ. أنتم ضائعون؟ جائعون ومتعَبون وحزانى؟».

أكلوا بشهيّة، وشربوا أكثر. كانت أجسادهم غليظةً هنا وهناك من الدُّهون، ولو أن العضلاتِ أسفلها صُلبةٌ كالأشجار، وندوبهم طويلةً ومحزَّزةً وضخمةً. لقد حظوْا بموسمٍ جيّد، ثمَّ لاقوا أحدًا لم تُعجِبه لصوصيَّتهم. لم أشكَّ إطلاقًا في كونهم سلَّابين نهّابين، إذ لم تكفَّ أعيُنهم لحظةً عن عدّ كنوزي، وابتسموا ابتساماتٍ واسعةً للإجمالي الذي وجدوه.

لم أعد أنتظر أن يقفوا ويُهاجِموني. رفعتُ عصاي ونطقتُ الكلمة، وذهبوا صارخين إلى زريبتهم ككلِّ مَن سبقوهم.

ساعدتني الحوريّات على عدل الدِّكك المقلوبة ومسحِ بُقع النَّبيذ. وفي أثناء هذا نظرَت إحداهنَّ من النَّافذة، ثمَّ قالت: «سيِّدتي، رجلٌ آخر على الدَّرب».

كنتُ قد فكَّرتُ أنَّ الطَّاقم أقلُّ عددًا من أن يستطيع الإبحار بسفينة. مؤكَّدٌ إذن أنَّ بعضهم انتظرَ على الشَّاطئ، والآن أُرسِلَ أحدُهم لاستطلاع ما جرى لرفاقه. جلبَت الحوريّات نبيذًا جديدًا، ثمَّ انسحَبن.

فتحتُ الباب على إثر طَرْقة الرَّجل، وأبصرتُ شمسَ الغروب واقعةً عليه لتُبرِزَ الأحمرَ في لحيته المشذَّبة والفضّيَّ الخفيف في شعره. كان يتمنطق بحزامٍ يتدلَّى منه سيفٌ برونزي، وليس طويل القامة كبعض الرِّجال، لكنَّني رأيته قويًّا متين المفاصل.

قال: «سيِّدتي، لقد أوى طاقمي إلى منزلكِ، وآملُ أن تسمحي لي أيضًا».

وضعتُ ضياء أبي كلَّه في ابتسامتي إذ أجبتُ: «مرحبًا بك مثل أصدقائك».

راقبته وأنا أملأ كأسيْن مفكّرةً أنّه لصٌّ آخر، إلّا أنَّ عينيْه مرّتا على بهارجي الباذخة مرور الكرام، وبدلًا من إمعان النَّظر إليها ثبتتا على كرسيٍّ ما زال مقلوبًا على الأرض، ثمَّ إنَّه مال وعدلَه.

قلتُ: «أشكرُك. قِططي ـ إنَّها تُسقِط شيئًا ما دومًا».

ـ «بالطَّبع».

جلبتُ له طعامًا وشرابًا، وقُدته إلى مستوقدي. فتناول الكأسَ وجلسَ على المقعد الفضّي الذي أشرتُ إليه. رأيتُ على وجهه تعبيرَ ألمٍ خفيفًا إذ انحنى، كأنَّ السَّبب جروحٌ حديثة، ولمحتُ نَدبةً محزَّزةً ممتدَّة على رَبلة ساقه العضليَّة من الكعب إلى الفخذ، لكنَّها قديمةٌ باهتة.

أشار بكأسه قائلًا: «لم أرَ منوالًا كهذا قطُّ. أهو تصميمٌ شرقي؟».

ألفٌ من نوعه شهدَتْهم هذه الحُجرة، وفهرَسوا كلَّ بوصةٍ من الذَّهب والفضَّة، لكنَّ أحدًا منهم لم يلحظ المنوال قطُّ.

تردَّدتُ لحظةً وجيزةً للغاية قبل أن أجيب: «مصري».

ـ «آه. المصريُّون يصنعون أفضل الأشياء، أليس كذلك؟ من الذَّكاء استعمال بَكَرةٍ ثانيةٍ بدلًا من أثقال المنوال، وأكفأ كثيرًا جدًّا أن تُسحَب خيوطُ اللُّحمة إلى أسفل. أحبُّ أن أحظى برسمٍ تخطيطي». تكلَّم بصوتٍ دافئ رنَّان، له جاذبيَّةٌ ذكَّرتني بتيَّارات المحيط. «ستتحمَّس زوجتي للغاية. تلك الأثقال كانت تُثير جنونها، وظلَّت تقول إنَّ على

أحدهم أن يخترع شيئًا أفضل. للأسف لم أجد وقتًا للانكباب على ذلك العمل. أحد إخفاقاتي الزّوجيّة العديدة».

زوجتي. رجّتني الكلمة. إن كانت لأيٍّ من رجال كلِّ تلك الأطقُم زوجة فإنّه لم يَذكُرها البتّة.

ابتسمَ لي ناظرًا بعينيْه الدّاكنتيْن في عينَيّ، وارتفعت كأسه باسترخاءٍ في يده كأنّه سيشرب في أيِّ لحظة.

ـ «ولو أنَّ الحقيقةَ أنَّ أكثر ما تُفضّله في الغزل، أنّها بينما تعمل يحسبها الجميع لا تسمع ما يقولونه. وبهذه الطّريقة تجمع أفضل الأخبار. يُمكنها أن تقول لكِ مَن سيتزوّج، ومَن حُبلى، ومَن على وشك بدء نزاع».

ـ «يبدو أنَّ زوجتك امرأةٌ ذكيّة».

ـ «هي كذلك. لا يُمكنني أن أعلّل زواجها بي، ولكنْ ما دامَ هذا في صالحي فإنّني أحاولُ ألّا أُلفت انتباهها إليه».

فاجأتني الضّحكةُ الصّاخبة التي أطلقتها. أيُّ رجلٍ يتكلّم هكذا؟ لا رجل التقيته على الإطلاق. ومع ذلك، في الآن نفسه، شعرتُ بشيءٍ فيه يكاد يكون مألوفًا.

ـ «أين زوجتك الآن؟ على سفينتك؟».

ـ «في الوطن والشُّكر للآلهة. لا يُمكنني أن أجعلها تُبحِر مع مجموعةٍ مزرية كهذه. إنّها تُدير المنزل أفضل من أيِّ وكيل».

كان انتباهي منصبًّا عليه بالكامل الآن. البحّارة التّقليديّون لا يتحدّثون عن الوُكلاء، ولا يبدون في بيئتهم الطّبيعيّة إلى جوار زخارف الفضّة. كان مستندًا إلى ذراع المقعد المنقوشة كأنّه على فِراشه.

ـ «تنعت طاقمك بالمجموعة المزرية؟ إنَّهم لا يبدون لي مختلفين عن سائر الرِّجال».

ردَّ: «لُطف منكِ أن تقولي هذا، لكنَّني أخشى أنَّهم يتصرَّفون نصف الوقت كالحيوانات»، وتنهَّد متابعًا: «إنَّها غلطتي. باعتباري قائدهم، عليَّ أن أحكم سيطرتي عليهم أكثر، لكنَّنا كنَّا في حرب، وأنتِ تعلمين كيف يُلوِّث هذا أفضل الرِّجال. وهؤلاء، مع أنَّني أحبُّهم كثيرًا، لن يصفهم أحد بالأفضل أبدًا».

تكلَّم بثقةٍ كأنَّني أفهمُ، لكنَّ كلَّ ما عرفته عن الحروب أتى من قصص أبي عن الجبابرة.

رشفتُ من نبيذي، ثمَّ قلتُ: «لطالما بدت لي الحرب خيارًا أحمق للرِّجال. مهما جنوْا منها فلن يستمتعوا به إلَّا سنواتٍ قليلةً قبل أن يموتوا، والأرجح أنهم سيهلكون في أثناء المحاولة».

ـ «هناك مسألة المجد. لكنَّني أتمنَّى لو أنَّكِ حدَّثتِ قائدنا الأعلى، فلربَّما وفَّرتِ علينا جميعًا الكثير من المتاعب».

ـ «علام كان القتال؟».

قال: «دعيني أرَ إن كنتُ أتذكَّرُ القائمة»، وبدأ يعدُّ على أصابعه مردفًا: «الانتقام، الشَّهوة، الكبرياء، الجشع، السُّلطة. ماذا نسيتُ؟ آه، نعم، الغرور والسُّخط».

ـ «كأنَّه يومٌ تقليديٌّ بين الآلهة».

ضحكَ رافعًا يده، وقال: «إنَّه امتيازكِ الربَّاني أن تقولي هذا يا سيِّدتي، أمَّا أنا فسأكتفي بامتناني لقتالِ كثيرين من هؤلاء الآلهة في صفِّنا».

امتيازي الربّاني. عرفَ إذن أنّني ربّة، لكنّه لم يُبدِ رهبةً إطلاقًا، كأنّني جارته التي مال فوق سياج حديقتها ليُناقِشها حول محصول التّين.

ـ «الآلهة قاتلَت بين الفانين؟ مَن؟».

ـ «هيرا، پوسايدون، أفروديت. وأثينا بالطّبع».

قطّبتُ وجهي. لم أسمع شيئًا عن هذا، ولكنْ من ناحيةٍ أخرى لم تَعُد عندي وسيلةٌ أسمع بها. هرميز رحل قبل زمنٍ طويل، وحوريّاتي لا يكترثن لأخبار العالم، والرّجال الذين جلسوا إلى موائدي لم يُفكّروا إلّا في شهواتهم. لقد ضاقَت أيّامي حتى اقتصرَت على مجال بصري وأطراف أصابعي.

قال: «لا تخافي. لن أُثقل عليكِ بكامل الحكاية الطّويلة، لكنْ لهذا السّبب أصابَ رجالي الهزال. لقد أمضينا عشرة أعوامٍ في القتال على سواحل طروادة، والآن يتحرّقون شوقًا إلى العودة إلى ديارهم وذويهم».

ـ «عشرة أعوام؟ مؤكّد أنّ طروادة قلعةٌ منيعة».

ـ «أوه، لقد كانت حصينةً بما فيه الكفاية، لكنّ ضعفنا هو ما أطال الحرب وليس قوّتها».

هذا أيضًا أدهشني، ليس لأنّه صحيح، بل لأنّه اعترف به. كانت هذه الإدانة الجهيمة ملطّفةً.

ـ «وقتٌ طويلٌ قضيتموه بعيدًا عن الوطن».

ـ «والآن صار أطول. لقد أقلعنا من طروادة قبل عامين، لكنّ رحلة العودة كانت أصعبَ بعض الشّيء ممّا رجوتُ».

ـ «لا داعي إذن للقلق بشأن المنوال. مؤكّدٌ أنّ زوجتك تحسبك في عداد الموتى، واخترعت واحدًا أفضل بنفسها».

ظلَّ التَّعبير على محيَّاه دمثًا، وإن رأيتُ شيئًا يتبدَّل فيه، إذ قال: «إنَّكِ محقَّة على الأرجح. مؤكَّدٌ أنَّها ضاعفت مساحة أراضينا أيضًا، لن يُدهِشني هذا».

- «وأين أراضيكم هذه؟».

- «قُرب آرجوس. أبقار وشعير، كما تعلمين».

- «أبي أيضًا يُربِّي الأبقار. يُفضِّل جِلدها أبيضَ ناصعًا».

- «استيلادها صعبٌ حقًّا. عليه أن يُحسِن مزاوجتها».

- «أوه، هذا هو ما يفعله. إنَّه لا يُبالي بشيءٍ آخر».

كنتُ أراقبه. يداه عريضتان متكلِّستان، وبينما يتكلَّم يُشير بكأسه هنا وهناك مدوِّرًا نبيذه، ولكنْ من دون أن يَسكُبه أبدًا، ومن دون أن يمسَّ به شفتيْه ولو مرَّةً.

قلتُ: «يُؤسِفني أن خمري لا تروقك».

خفض عينيْه كأنَّه مندهشٌ من أنَّ الكأس لا تزال في يده، وقال: «تقبَّلي اعتذاري. إنَّني مستمتعٌ بحُسن ضيافتكِ لدرجة أنَّني نسيتُ»، ونقر على صُدغه بمفاصل أصابعه مواصلًا: «رجالي يقولون إنَّني كنتُ لأنسى رأسي لو أنَّه ليس على عُنقي. أخبِريني ثانيةً، أين قلتِ إنَّهم ذهبوا؟».

أردتُ أن أضحك من شعوري بالانتشاء، لكنَّني حافظتُ على حياد صوتي مثله وأنا أقول: «إنَّهم في الحديقة الخلفيَّة. هناك بقعة ظليلة ممتازة يستريحون فيها».

- «أعترف بأنَّني مذهول. إنَّهم لا يهمدون أبدًا. مؤكَّدٌ أنَّ لكِ تأثيرًا عظيمًا عليهم».

سمعتُ طنينًا مثل التَّعويذة قبل أن تُلقى، ورأيتُ نظرته نصلًا مشحوذًا. كلُّ هذا كان تمهيدًا، وكأنَّنا في مسرحيَّةٍ. نهضنا.

قلت: «لم تشرب. ذكاءٌ منك. لكنَّني ما زلتُ ساحرةً، وأنت في منزلي».

ـ «آملُ أن نُسوِّي هذه المسألة بالعقل». كان قد وضعَ كأسه. ومع أنَّه لم يستلَّ سيفه فقد أراح يده على المقبض.

ـ «الأسلحة لا تُخيفني، ولا منظرُ دمي».

ـ «أنتِ أشجع من معظم الآلهة إذن. في مرَّةٍ رأيتُ أفروديت تترُك ابنها يموت في ميدان المعركة بسبب خدش».

ـ «السَّحَرة ليسوا بتلك الرقَّة».

كان مقبض سيفه مشوَّهًا بعد عشرة أعوامٍ من القتال، وجسده النَّديب وطيدًا مستعدًّا، وساقاه قصيرتيْن ولكنْ مفتولتَي العضلات. وخزَتني بشرتي إذ أدركتُ أنَّه وسيم.

ـ «أخبِرني، ما الذي في هذه الحقيبة التي تُبقيها قُرب خصرك؟».

ـ «عُشبٌ وجدته».

ـ «جذورٌ سوداء وزهورٌ بيضاء».

ـ «بالضَّبط».

ـ «الفانون لا يستطيعون قطف المولي».

قال ببساطة: «نعم، لا يستطيعون».

ـ «مَن أعطاه لك؟ لا، لا عليكَ، إنَّني أعرف». فكَّرتُ في المرَّات العديدة التي شاهدني فيها هرميز أحصد نباتاتي، وألحَّ في السُّؤال عن

تعاويذي. «إن كانت المولي معك فلِمَ لم تشرب؟ مؤكَّدٌ أنَّه أخبرَك بأنْ لا تعويذة ألقيها من شأنها أن تمسّك».

ـ «أخبرني بالفعل، لكنَّ فيَّ خَصلة حرصٍ لا يُمكن كسرها بسهولة. على الرَّغم من امتناني البالغ لسيّد الاحتيال فإنَّه ليس معروفًا بموثوقيَّته. مساعدتكِ على تحويلي إلى خنزير دُعابةٌ من النَّوع الذي يطرب له».

ـ «أأنت شكَّاك هكذا دومًا؟».

بسط كفَّيْه مجيبًا: «ماذا أقول؟ العالم مكانٌ قبيح، وعلينا أن نعيش فيه».

ـ «أظنُّ أنَّك أودسيوس المولود من نسل سيّد الاحتيال نفسه».

لم تُجفِله المعرفة المدهشة. هذا رجل اعتادَ التَّعامُل مع الآلهة. «وأنتِ الربَّة سرسي ابنة الشَّمس».

اسمي في فمه. حرَّك هذا فيَّ إحساسًا حادًّا توَّاقًا، وفكَّرتُ أنَّه مثل تيَّارات المحيط بالفعل. يُمكنك أن تَنظُر إلى أعلى، ويكون الشَّاطئ قد اختفى.

ـ «أكثرُ الرِّجال لا يعرفون مَن أنا».

ـ «أكثر الرِّجال ـ بحسب خبرتي ـ حمقى. أقرُّ بأنَّكِ كدتِ تجعلينني أفشي اللُّعبة. أبوكِ راعي الأبقار؟».

قالها مبتسمًا داعيًا إيَّاي إلى الضَّحك، كأنَّنا طفلان مشاغبان.

ـ «أأنت ملك؟ سيّد؟».

ـ «أمير».

- «حسنٌ أيُّها الأمير أودسيوس، نحن في طريقٍ مسدود. إنَّ معك المولي، وعندي رجالك. لا يُمكنني أن أوذيك، لكنْ إن هاجمتني فلن يعودوا أنفُسهم ثانيةً أبدًا».

- «كما خشيتُ، وطبعًا أبوكِ هيليوس حامٍ في انتقامه. أتصوَّرُ أنَّ رؤيته غاضبًا لن تُعجِبني».

ما كان هيليوس ليُدافع عنّي أبدًا، لكنَّني أبيْتُ أن أخبر أودسيوس بذلك. «عليك أن تفهم أنَّ رجالك كانوا ليسرقوا كلَّ ما أملكُ».

- «آسفٌ لهذا. إنَّهم حمقى، وصغارٌ أيضًا، ولقد تساهلتُ كثيرًا معهم».

لم تكن المرَّة الأولى التي يعتذر فيها عن هذا. تركتُ عينَيَّ تستقرّان عليه وتتشرَّبانه، ووجدته يُذكِّرني بدايدالوس باعتداله وبديهته. لكنْ تحت سَكينته شعرتُ بثورةٍ لم يتَّسم بها دايدالوس قطُّ، وأردتُ أن أراه يُفصِح عنها.

- «قد يُمكننا العثور على سبيلٍ آخر».

ظلَّت يده على مقبض السَّيف، غير أنَّه تكلَّم كأنَّنا نُقرِّر ماذا سنأكل على العشاء. «ماذا تقترحين؟».

- «أتدري أنَّ هرميز أخبرني بنبوءةٍ عنك ذات مرَّة؟».

- «حقًّا؟ وما هي؟».

- «أنَّ قدرك أن تزور أبهائي».

- «و...؟».

- «هذا كلُّ شيء».

رفع حاجبه قائلًا: «أخشى أنَّها أسخفُ نبوءةٍ سمعتها على الإطلاق».

ضحكتُ شاعرةً كأنّني صقرٌ متّزن فوق قمّة جُرف، ما زالَت براثني متمسّكةً بالصّخر لكنَّ عقلي في الهواء.

قلتُ: «أقترحُ هُدنةً، نوعًا من الاختبار».

سألني: «اختبارٌ من أيِّ نوع؟». ومال إلى الأمام قليلًا، وهي البادرة التي عرفتها جيّدًا في ما بعدُ. حتى هو لا يستطيع إخفاءَ كلِّ شيء. أعطِه أيَّ تحدٍّ وسيهرع لملاقاته. رائحة جِلده كالعمل الشّاق والبحر، ويعرف قدر عشرة أعوامٍ من القصص. شعرتُ بحماسةٍ وجوعٍ كالدّببة في الرّبيع.

ـ «سمعتُ أنَّ كثيرين يَعثرون على الثّقة في الحُبِّ».

فاجأه قولي، ولكم طابَت لي ومضةُ الدَّهشة قبل أن يُواريها.

قال: «سيّدتي، وحده الأحمق مَن يقول لا لعرضٍ كهذا، لكنَّ الحقيقةَ أنّني أظنُّ أنَّ وحده الأحمق مَن يقول نعم كذلك. إنّني فانٍ. لحظة أن أترك المولي لأنضمَّ إليكِ في الفِراش سيُمكنكِ أن تُلقي تعويذتكِ»، وصمت لحظةً قبل أن يُضيف: «ما لم تُقسِمي على عدم أذيّتي بالطّبع، تُقسِمي بنهر الموتى».

القَسَم بنهر ستيكس من شأنه أن يربط زوس نفسه.

ـ «أنت حريص».

ـ «يبدو أنّنا نشترك في هذا».

فكّرت أن لا، إنّني لستُ حريصةً، بل متهوّرة، طائشة. إنّه سكّين آخر، ويُمكنني الشُّعور بهذا، من نوعٍ مختلف لكنّه سكّين. لم أبالِ، وقلتُ في قرارة نفسي: أعطِني النّصل. بعض الأشياء يستحقُّ إراقة الدّم.

وقلتُ: «سأُقسم».

الفصل السَّادس عشر

لاحقًا، بعد سنوات، سأسمعُ أغنيةً مؤلَّفةً عن لقائنا. لم يكن الفتى الذي غنَّاها موهوبًا، فنشزَ عن النَّغمات أكثر ممَّا التزمَها، بَيْدَ أنَّ الموسيقى العذبة التي صاحبت الأبيات تألَّقت على الرَّغم من غنائه المشوَّه. لم تُدهِشني الطَّريقةُ التي صُوِّرتُ بها؛ السَّاحرة المزهوَّة بنفسها وقد قهرَها سيف البطل فتركع وتتوسَّل الرَّحمة. يبدو لي أنَّ إذلال النِّساء من تسالي الشُّعراء الأساسيَّة، كأن القصَّة لا يُمكن أن تَحدُث ما لم نزحف وننتحب.

نمنا معًا في فِراشي الذَّهبيّ العريض. أردتُ أن أراه يلين من الاستمتاع، عاطفيًا، مكشوفًا. ومع أنَّه لم ينكشِف قطُّ فقد رأيتُ البقيَّة، ووجدنا شيئًا من الثِّقة بيننا بالفعل.

قال: «أنا لستُ من آرجوس حقًّا». كان ضوء النَّار يتذبذَب ملقيًا ظلالًا طويلةً على الملاءة. «جزيرتي إثاكا. طبيعتها الحجريَّة لا تَصلُح لتربية الأبقار. بدلًا من ذلك نُربِّي الماعز ونزرع الزَّيتون».

ـ «والحرب؟ خياليّة أيضًا؟».

ـ «الحرب كانت حقيقيّةً».

لم يكن في داخله استقرار، بل بدا كأنَّ بإمكانه أن يتفادى حربةً ملقاةً من قلب الظّلال، لكنَّ الإرهاق بدأ يكشف عن نفسه كالصَّخر عندما ينحسر المدُّ. بحسب قانون الضّيافة، لا يُمكنني أن أسأله عن شيءٍ قبل أن يأكل ويُنعِش نفسه، إلّا أنّنا تجاوَزنا مثل هذه الالتزامات.

ـ «ذكرتَ أنّك خضتَ رحلةً صعبةً».

ـ «لقد أبحرتُ من طروادة باثنتيْ عشرة سفينةً». في الضّوء الأصفر، لاح وجهه كتُرسٍ قديم أبلَته الضّربات وحفّرته. «نحن كلُّ مَن تبقّى».

رغمًا عني صُدِمتُ. إحدى عشرة سفينةً تعني أنّه فقدَ أكثر من خمسمئة رجل. «كيف أصابَتكم كارثة كهذه؟».

سردَ القصّة كأنّه يُعطي وصفةً لطبخ اللّحم. العواصف التي أطاحَت بهم إلى النّصف الآخر من العالم، الأراضي الحافلة بآكلي لحوم البشر والهمج الحاقدين، علاوةً على القوم المنغمسين في الملذّات الذين خدّروا إراداتهم. وبالإضافة إلى هذا، باغتَهم بالهجوم السّيكلوبس بوليفيمس، العملاق الوحشي ذو العيْن الواحدة الذي أنجبَه پوسايدون، فالتهمَ نصف دستةٍ من الرّجال وامتصَّ النُّخاع من عظامهم، واضطرَّ أودسيوس إلى إعمائه من أجل أن يفرُّوا. والآن يُطارِدهم پوسايدون عبر البحار سعيًا للانتقام.

لا عجب أنّه يعرج، لا عجب أنّه شابَ. **هذا رجل جابهَ وحوشًا.**

ـ «والآن أولتني أثينا التي لطالما كانت مرشدتي ظهرَها».

لم يُدهِشني سماعُ اسمها، فابنة زوس الحاذقة تجلُّ الدَّهاء والاختراع فوق كلِّ شيء، وأودسيوس ينتمي إلى صنف الرِّجال الذي تُقدِّره حقَّ التَّقدير.

ـ «وما الذي أساءَ إليها؟».

لم أكنْ واثقةً بأنَّه سيُجيب، لكنَّه أخذَ نَفَسًا عميقًا، ثمَّ قال: «الحرب تستولد خطايا عديدةً، ولم أكن آخِر مَن يرتكبها. متى طلبتُ منها الصَّفح منحَتني إيَّاه، ثمَّ وقعَ نهْب المدينة، فقُوِّضَت المعابد وسُفِكَت الدِّماء على المذابح».

أعظم انتهاكٍ للحُرمات، الدَّم على مقدَّسات الآلهة.

ـ «شاركتُ في تلك الأشياء مع البقيَّة، لكنْ عندما بقيَ آخرون ليصلُّوا لها لم أبقَ معهم. كنتُ... نافد الصَّبر».

ـ «لقد أمضيتَ عشرةَ أعوامٍ في القتال. هذا مفهوم».

ردَّ: «أنتِ لطيفة، لكنَّ كليْنا يَعْلم على ما أظنُّ أنَّه ليس مفهومًا. ما إن صعدتُ إلى متن سفينتي حتى رفعَ البحرُ من حولي رؤوسه الغاضبة، واكفهرَّت السَّماء حتى حاكَت الحديد. حاولتُ أن أدور بالأسطول وأعود، ولكنْ بعد فوات الأوان، ودفعَتنا عاصفتها بعيدًا عن طروادة»، وفركَ مفاصل أصابعه كأنَّها تُؤلِمه، وأضاف: «والآن، حينما أخاطبها لا تُجيبني».

كارثةٌ فوق كارثة. ومع ذلك فقد دخل منزلَ ساحرةٍ على الرَّغم من إنهاكه وأساه الصِّرف، وجلسَ عند مستوقدي من دون أن يُبدي شيئًا إلَّا الكياسةَ والابتسامات، فيا للعزم الذي تطلَّبه هذا، يا للإرادة اليقِظة! على أن لا بشريَّ بلا حدود، والآن يُلطِّخ الإعياء وجهه، ويخرُج

صوته مبحوحًا. لقد دعوته بالسكّين، لكنّني رأيتُ أنّه هو نفسه مقطَّعٌ حتى العظم، وفي صدري شعرتُ بوجعٍ يردُّ على وجعه. حين أخذته إلى فراشي كان هذا نوعًا من التَّحدّي، لكنَّ الإحساس الذي اختلجَ في داخلي بعدها أقدمُ كثيرًا. ها هو ذا، لحمه مشقوقٌ أمامي. شيء ممزَّق يُمكنني أن أرتقه.

وضعتُ الفكرةَ في يدي. لمّا جاء الطّاقم الأوّل كنتُ كائنًا يائسًا على استعدادٍ للتّودُّد إلى أيِّ أحدٍ يُعطيني ابتسامةً، ثمّ غدوتُ ساحرةً رهيبةً أُثبتُ قوّتي بزريبةٍ تلو الزّريبة. فجأةً ذكّرني هذا بالامتحانات القديمة التي تعوّد هرميز أن يضعني فيها. هل أكون حليبًا مقشودًا أم هاربي؟ نورسًا أبله أم وحشًا بغيضًا؟

لا يُمكن أن تكون تلك خياراتي الوحيدة حتى الآن.

أمسكتُ يده وسحبته إلى أعلى، قائلةً: «أودسيوس يا ابن لايرتيس، لقد مررتَ بمِحَنٍ عصيبة. إنّك جافٌّ كأوراق الشّجر في الشّتاء، لكنَّ لك هنا ملاذًا».

ترقرقَ الارتياح في عينيْه دافئًا على بَشرتي. قُدته إلى قاعتي، وأمرتُ حوريّاتي بالحرص على راحته، بأن يملأن له حوضَ الاستحمام الفضّيّ، ويغسلن أطرافه الملوّثة بالعرق، ويجلبنَ له ثيابًا نظيفةً. بعدها وقف لامعًا قشيبًا أمام الموائد التي كوّمنا عليها الطّعام، لكنّه لم يتحرّك ليجلس، وقال ناظرًا في عينَيَّ: «سامحيني، لا يمكنني أن آكل».

عرفتُ ماذا يُريد. لم يَثُر أو يتوسّل، بل اكتفى بانتظار قراري.

شاعرةً بالهواء مخطَّطًا بالذّهب من حولي، قلتُ: «تعال»، وقطعتُ القاعة بخطواتٍ واسعة، وخرجتُ إلى الزّريبة، وانفتحَت بوّابتها عن آخِرها

بلمسةٍ منّي. صرخت الخنازير، لكنْ لمّا رأته ورائي خفّ ذُعرها. مسحتُ كلَّ خطمٍ بالزّيت ولفظتُ تعويذةً، ليَسقُط الشَّعر الخشن وينهض الرّجال على أقدامهم ويهرعون إليه باكين شادّين على يديْه. هو أيضًا بكى، ليس بصوتٍ عالٍ، ولكن بغزارةٍ إلى أن ابتلّت لحيته وصارت غامقةً. بدوا كأبٍ وأبنائه الضّالين. كم كانت سنُّهم عندما رحل إلى طروادة؟ أغلبهم كان بالكاد أكبر من صبيٍّ. وقفتُ على مسافةٍ بعيدةٍ بعض الشّيء، كراعٍ يُراقِب قطيعًا. وعندما هدأت دموعهم، قلتُ: «مرحبًا بكم. اسحبوا سفينتكم إلى الشّاطئ وأحضِروا رفاقكم. مرحبًا بكم جميعًا».

* * *

أكلوا بشهيّةٍ ليلتها، وتضاحكوا وشربوا الأنخاب، وبدوا لي أكثر شبابًا، مخلوقين من جديدٍ من فرط ارتياحهم. وزال تعب أودسيوس أيضًا، وشاهدته وأنا جالسة إلى منوالي وقد أثار اهتمامي أن أرى وجهًا آخرَ له، وجه القائد مع رجاله، وهو ما أتقنَه ككلِّ مَن سواه، تُسلّيه طرائفهم، ويُوبِّخهم برفق، ويجلس رائقَ البال على نحوٍ مطمئِن، وداروا هُم حوله كما النَّحل حول خليّته.

عندما فرغَت الأطباق واسترخى الرّجال على دككهم ناعسين، أعطيتهم أغطيةً وقلتُ لهم أن يفترشوا أيَّ بُقعةٍ يجدونها مريحةً، فتمدَّد بعضُهم في الحُجرات الشّاغرة، في حين خرجَ معظمهم لينام تحت نجوم الصَّيف.

وحده أودسيوس بقيَ. قُدته إلى المقعد الفضّي عند المستوقد، وصببتُ لنا النَّبيذ. على وجهه كان تعبيرٌ دمث، وعاد يميل إلى الأمام كأنَّه متحمّسٌ لأيِّ شيءٍ أقدّمه.

قلتُ له: «المنوال الذي أعجبَك، لقد صنعَه الحِرفيُّ دايدالوس. أتعرف الاسم؟».

اغتبطتُ لرؤية دهشةٍ وسرورٍ حقيقيَّين على أساريره، وقوله: «لا غرو أنه أعجوبةٌ بديعة. أتسمحين؟».

أشرتُ برأسي علامة الإيجاب، فذهب إليه في الحال ليتحسَّس بكرتيْه من القاعدة إلى القمَّة. لمسته توقيريَّة كأنَّه كاهنٌ على مذبح.

ـ «كيف حصلتِ عليه؟».

ـ «هديَّة».

لاح في عينيه تأمُّلٌ، فضولٌ زاهٍ، لكنَّه لم يلحَّ في السُّؤال، وبدلًا من ذلك قال: «في صباي، عندما كان الجميع يلعبون مصارعةَ الوحوش على غرار هرقل، حلمتُ أنا بأن أكون دايدالوس. بدا لي أن النُّبوغ الأعظم أن ينظُر المرء إلى الخشب والحديد الخام، ويتخيَّل العجائب. خيَّب أملي اكتشافي أنَّني لا أتمتَّعُ بتلك الموهبة. دائمًا كنتُ أجرحُ أصابعي».

فكَّرتُ في النُّدوب البيضاء على يدَيْ دايدالوس، لكنَّني كتمتُ التَّعليق.

استراحت يده على البَكَرة الجانبيَّة، كأنَّها رأسُ كلبٍ محبوب، وسألني: «هل لي أن أشاهدكِ تنسجين عليه؟».

لم أعتد أن يكون أحدٌ على هذه المقربة منِّي فيما أعملُ، فبدا كأنَّ خيوطَ الغزل غلظَت بين أصابعي وتشابكَت. تابعت عيناه كلَّ حركة، وألقى أسئلةً عن وظيفة كلِّ قطعة، وكيفيَّة اختلافِه عن الأنوال الأخرى.

أجبته قدر المستطاع، وإن اعترفتُ مضطرَّةً في النّهاية بأنّني لا أعرفُ شيئًا أقارنه به. «هذا هو المنوال الوحيد الذي استخدمته طوال حياتي».

ـ «تخيَّلي تلك السّعادة، كأنّكِ تشربين النَّبيذ طيلة عُمركِ بدلًا من الماء، كأن يقوم أخيل بالمهام لحسابكِ».

لم أكن على معرفةٍ بهذا الاسم.

انساب صوته كصوت شاعر: أخيل، أمير فثيا، أسرع الإغريق، أفضلُ المُحاربين الآخيِّين في طروادة، الجميل، الألمعيُّ، المولود من رحم النّريادة[1] المهيبة ثيتيس المميتة كالبحر ذاته. أمامه سقط الطرواديُّون كالعُشب أمام المنجل، وهلكَ الأميرُ القديرُ هكتور نفسه برأس حربته المصنوعة من خشب المُرّان.

قلتُ: «لم تكن تحبُّه».

مسَّ نوعٌ من الاستمتاع الدَّاخلي قسماتِه، وقال: «لقد قدَّرته على طريقته، لكنَّه كان جنديًّا رديئًا على الرّغم من كلِّ الرِّجال الذين أراق دماءهم. كان عنده عددٌ من الأفكار المزعجة عن الولاء والشَّرف، وكان كلُّ يومٍ بمثابة كفاحٍ متجدِّد لتسخيره لبُغيتنا وإثنائه عن الحيْد عن الطَّريق. ثمَّ ماتَ أفضلُ جزءٍ فيه، وبعدها صار أصعب مراسًا. لكنْ كما قلتُ، إن أمَّه ربَّةٌ، وكانت النُّبوءاتُ معلَّقةً عليه كطحالب المحيط، فصارعَ مسائلَ أكبر من أن أفهمها أبدًا».

لم تكن كذبةً، إلَّا أنَّها لم تكن الحقيقة كذلك. لقد دعا أثينا براعيته ونصيرته، ومشى مع مَن يستطيعون كسر العالم كالبيضة.

---

(1) النّريادة: حوريّة البحر. (المترجم).

- «ماذا كان أفضل جزءٍ فيه؟».

- «حبيبه پاتروكلوس. لم يكن يحبُّني كثيرًا، لكنْ عمومًا لا أحد من خيرة النَّاس يحبُّني أبدًا. عندما ماتَ جُنَّ جنون أخيل».

وقتها كنت قد التفتُّ عن المنوال، لأنَّني رغبتُ في مشاهدة وجهه وهو يتكلَّم. عبر النَّافذة بدأت ظلمة السَّماء تتقهقر مفسحةً المجال للرَّمادي، وتنهَّدت ذئبةٌ مسندةً رأسها إلى كفوفها.

قال: «أيَّتها الليدي سرسي، يا ساحرة أيايا الذَّهبيَّة، لقد مننتِ علينا بالرَّحمة، وكنَّا في حاجةٍ إليها. سفينتنا حُطام، والرِّجال على شفا الانكسار. يُخجِلني أن أطلب المزيد، ولكنْ أظنُّ أنَّ عليَّ أن أفعل. إنَّ أعز آمالي أن نبقى شهرًا. أتلك مدَّة مبالغٌ فيها؟».

دفقةٌ من الابتهاج كالعسل في حلقي.

لكنَّني حافظتُ على ثبات وجهي، وقلتُ: «لا أظنُّ أنَّ مدَّة شهرٍ مبالَغٌ فيها».

* * *

قضى نهاراته يعمل على السَّفينة، وخلال الأماسي جلسنا أمام المستوقد فيما يتناول الرِّجال عشاءهم، وليلًا أتى إلى فِراشي. كانت كتفاه غليظتيْن، نحتَتهما السَّاعاتُ التي قضاها مُحاربًا. تحسَّستُ ندوبه المتعرِّجة. كانت في جُماعنا لذَّةٌ، لكنَّني ـ صدقًا ـ وجدتُ اللذَّةَ الأكبر في ما بعده، حين نتمدَّد جنبًا إلى جنبٍ في الظَّلام، ويحكي لي قصصًا عن طروادة، وحربةً حربةً يصف لي الحربَ وصفًا حيًّا. أجاممنون المعتدُّ بنفسه، قائد الجيش الهش كالحديد الذي لم يُسَقَّ بما فيه الكفاية.

منيليوس، أخوه الذي قامَت بسبب اختطاف زوجته هلن الحرب. آياكس بليد العقل ذو البنية الشَّبيهة بالجبل. ديوميدس، يد أودسيوس اليمنى عديم الشَّفقة. ثمَّ الطرواديُّون: باريس الوسيم، سارقُ قلب هلن الضَّاحك. أبوه بريام صاحب اللِّحية البيضاء، ملك طروادة المحبوب من الآلهة لحِلمه. هيكوبا، الملكة ذاتُ روح المُحارب التي حملت رَحمُها عديدَ الثِّمار النَّبيلة. هكتور، أكبر أبنائها، الوريث النَّبيل وحامي مدينته المسوَّرة العظيمة.

وأودسيوس، فكَّرتُ أنا، الصَّدفةُ اللَّولبيَّة، دائمًا فيها انحناءةٌ أخرى خارج مجال البصر.

بدأتُ أرى ما قصدَه لمَّا ذكرَ ضعفَ جيشه. ليس أوتارهم ما تذبذَب، بل انضباطهم. لم يشهد العالمُ قطُّ رتلًا من الرِّجال أعلى كبرياءً، أو أشدَّ عِنادًا أو أمتن، يُؤمِن كلٌّ منهم بأنَّ من دونه نهاية الحرب الهزيمة.

ذات ليلةٍ سألني: «أتعلمين مَن ينتصر في الحروب حقًّا؟».

كنَّا متمدِّدَيْن على البُسط عند قدم فراشي. لحظةً بلحظةٍ عادت إليه حيويَّته، وتألَّقت عيناه كما البرق. عندما يتكلَّم فكأنَّه في آنٍ واحد محامٍ وشاعرٌ ودجَّالٌ على مفترق طُرق، يترافع في قضيَّته ويُسلِّي، ويُميط اللِّثام ليُريك أسرار العالم. لم يكن لكلامه وحده الأثر، بل كلُّ الأشياء معًا؛ وجهُه وإشاراتُه ونبراتُ صوته المتبدِّلة. كنتُ لأقول إنَّها تعويذةٌ ألقاها، لكنْ لا تعويذةً ممَّا أعرفُ من شأنها مضاهاة هذا. إنَّها موهبته وحدها.

ـ «القادة ينسبون الفضل إلى أنفُسهم، وهُم مَن يزوِّدونكِ بالذَّهب بالفعل، لكنَّهم يستدعونكِ طوال الوقت إلى خيمتهم، ويطلُبون منكِ

التَّقارير، ويسألونكِ عمَّا تفعلينه بدلًا من تركِكِ تذهبينَ لفعله. الأغاني تقول إنَّ الأبطال أصحابُ النَّصر. هؤلاء قطعةٌ أخرى. عندما يضع أخيل خوذته، ويشقُّ طريقه الأحمر عبر ميدان المعركة، تنتفض قلوبُ الرِّجال العوام في صدورهم، يُفكِّرون في القصص التي ستُحكى ويشتاقون إلى أن تضمَّهم. قاتلتُ إلى جوار أخيل، وقفتُ وتُرسي ملتصقٌ بتُرس آياكس، شعرتُ بريح وروح حربتيْهما العظيمتيْن. هؤلاء الجنود قطعةٌ أخرى بالطَّبع، فمع أنَّهم ضعافٌ مزعزَعون، عندما يُحشَدون معًا سيحملونكِ إلى النَّصر. لكنَّ هناك يدًا عليها جمعُ كلِّ تلك القطع معًا لعمل كلٍّ متكامل، عقلًا يُرشِدها في بُغيتها ولا يَنكُص عن ضرورات الحرب».

ـ «وهذا دورك، وهو ما يعني أنَّك مثل دايدالوس في النِّهاية، لكنْ بدلًا من الخشب تشتغل بالرِّجال».

حدجَني بنظرةٍ كأنقى خمرٍ صافية، وقال: «بعد موت أخيل سمَّاني أجاممنون أفضلَ الإغريق. ثمَّة رجالٌ آخرون قاتلوا بشجاعة، لكنَّهم نكصوا عن طبيعة الحرب الحقيقيَّة، ووحدي تمتَّعتُ بالجرأة على رؤية ما يجب فعله».

كان صدره عاريًا ومنقوشًا بالنُّدوب، فنقرتُ عليه كأنَّما أجسُّ ما في داخله، وسألته: «ألا وهو؟».

ـ «ما يَحدث، أنَّكِ تعدين الجواسيس بالرَّحمة ليُفصِحوا عمَّا لديهم، وبعدها تقتُلينهم، وتضربين المتمرِّدين، وتُلاطِفين الأبطال ليَخرُجوا من وجومهم، وتُحافظين على علوِّ المعنويَّات بأيِّ ثمن. عندما أعجزَ البطلَ العظيم فيلوكتتيس جرحٌ تعفَّن، فقدَ الرَّجل شجاعته، فتركتُه على جزيرةٍ وزعمتُ أنَّه أراد أن يُترَك. آياكس وأجاممنون كانا لينهالا بالضَّربات على

بوّابةِ طروادةَ الموصدة إلى أن يموتا، لكنْ أنا الذي فكّرتُ في خدعة الحصان العملاق، وغزلتُ القصّةَ التي أقنعَت الطرواديّين بأخذه إلى داخلِ المدينة، وقبعتُ داخلَ البطن الخشبي مع صفوة رجالي، وإذا ارتجفَ أيُّهم خوفًا أو قلقًا وضعتُ سكّيني على حلقه. لمّا نام الطرواديُّون أخيرًا عثنا بينهم كالثّعالب بين الأفراخ ناعمة الرّيش».

لم تكن تلك أغانيَ تُغنّى في بلاطٍ ملكي، أو حكاياتٍ من العصر الذّهبي، لكنّها بشكلٍ ما لم تبدُ في فمه مشينةً، بل عادلةً فذّةً حكيمة في عمليّتها.

ـ «لماذا ذهبتَ إلى الحرب في المقام الأوّل ما دُمت تعرف كنْهَ الملوك الآخرين؟».

فرك خدّه قائلًا: «أوه، بسببِ قَسَمٍ أحمق أقسمته. حاولتُ التّنصّل منه. كان ابني في سنته الأولى، ولم أزل أشعرُ بأنّي حديث الزّواج. فكّرتُ أنّ فرصةً لأمجادٍ أخرى ستُتاح يومًا، وحين جاء رجل أجاممنون لأخذي تظاهرتُ بالجنون. خرجتُ عاريًا، وبدأتُ أحرثُ حقلًا شتويًا، فوضعَ ابني الرّضيع في طريق المحراث، وتوقّفتُ بالطّبع لأنضمَّ إلى المحشودين».

مفارقةٌ مريرة: للاحتفاظ بابنه عليه أن يفقده.

ـ «مؤكّدٌ أنّك كنت غاضبًا».

رفع يديْه ثمّ تركهما تَسقُطان، وقال: «العالم مكانُ ظُلم. انظُري ما جرى لمستشار أجاممنون. كان اسمه بالاميدس، وقد أحسن خدمة الجيش، لكنّه وقع في حُفرةٍ في أثناء الحراسة اللّيليّة. أحدُهم غرسَ خوازيقَ مدبّبةً في القعر. خسارةٌ فادحة».

التمعت عيناه. لو كان خيرةُ النَّاس پاتروكلوس موجودًا، لقال: سيِّدي، لستَ بطلًا حقيقيًّا، لستَ هرقل، لستَ جيسون. إنَّك لا تُلقي خُطبًا صادقةً من أعماق فؤادك الصَّافي، ولا أنت صاحبُ مأثرَ نبيلة حقَّقتها في ضوء الشَّمس.

لكنَّني التقيتُ جيسون، وأعلمُ نوع المآثر القابلة للتَّحقيق في ضوء الشَّمس، وهكذا لم أقل شيئًا.

* * *

مرَّت الأيَّام ومعها اللَّيالي. بات منزلي مزدحمًا بنحو أربع دستاتٍ من الرِّجال. وللمرَّة الأولى في حياتي وجدتُ نفسي منغمسةً في لحم الفانين. أجسادهم الواهنة هذه تحتاج إلى رعايةٍ لا تهدأ، من طعامٍ وشراب، ونومٍ وراحة، وتنظيف الأطراف والفضلات. فكَّرت أنَّ الفانين يتمتَّعون لا بُدَّ بصبرٍ وافر لكي يجرُّوا أنفُسهم خلال هذا ساعةً بعد ساعة. في اليوم الخامس انزلقَ مخراز أودسيوس وثَقَبَ قاعدة إبهامه، فأعطيته مرهمًا واستعنتُ بتعاويذي للحيلولة دون تلوُّث الجرح، لكنَّه استغرق نصف شهرٍ حتى شُفِيَ، ورأيتُ نوبات الألم تتعاقب على وجهه. الآن يتألَّم، والآن لا يزال يتألَّم، والآن، والآن. وهذه مجرَّد واحدةٍ من متاعبه الأخرى، كتيبُّس الرَّقبة والحموضة في معدته وحكَّة الجروح القديمة. مرَّرتُ يدي على ندوبه المحزَّزة محاولةً إراحته قدر المستطاع، وعرضتُ أن أخلِّصه من هذه النُّدوب، فهزَّ رأسه قائلًا: «وكيف أعرفُ نفسي؟».

سرَّني هذا في قرارة نفسي، فهذه النُّدوب تُناسِبه. إنَّه أودسيوس المتين، الاسم مخيطٌ في جِلده، وعلى كلِّ مَن يراه أن يُحيِّيه، ويقول: هو ذا رجل رأى العالم، هو ذا قائدٌ عنده قصص يحكيها.

ربَّما حكيتُ له في تلك السَّاعات قصصًا عنِّي. سكيلا وجلاوكوس، إيبتيس، المينوتور، الجدار الحجري ينغرس في ظهري، أرضيَّة قاعتي المبلَّلة بالدِّماء التي انعكس عليها القمر، الجُثث التي جررتها واحدةً واحدةً إلى أسفل التَّل وأحرقتها مع السَّفينة، الصَّوت الذي يَصدُر من اللَّحم عندما يتمزَّق ويتكوَّن من جديد، وكيف بإمكاني في أثناء تحويل رجلٍ أن أوقف تبدُّله في منتصفه، فيموت ذلك الشَّيءُ الوحشيُّ نصف الحيواني.

وفيما يُصغي يتصدَّر التَّركيز وجهه، ويعمل عقله النَّشط دومًا على الفحص والتَّقييم والفهرسة. مهما تظاهرتُ بإجادتي إخفاء أفكاري مثله، كنتُ أعلمُ أنَّ ذلك ليس صحيحًا، أنَّه يسبر أغواري حتى العظم، ويجمع نقاط ضعفي معًا، ويُضيفها إلى مجموعته مع نقاط ضعف أخيل وآياكس، محتفظًا بها معه طوال الوقت كما يحتفظ الآخرون بسكاكينهم.

نظرتُ إلى بدني العاري في ضوء النَّار، وحاولتُ أن أتخيَّل تاريخه مدوَّنًا عليه: الألمُ كصاعقة البرق في كفِّي، وأصابعُ يدي المفقودة، والألف جرحٍ من أعمال السِّحر، والأخاديدُ التي حفرَتها فيَّ نيران أبي، وجلدُ وجهي المشوَّه كشمعةٍ شبه ذائبة. وهذه هي الأشياء التي تركت علاماتٍ فحسب.

لن تكون هناك تحيَّات. بِمَ وصف إيبتيس الحوريَّة القبيحة؟
وصمةٌ على وجه العالم.

توهَّج بطني الأملس تحت يدي بلون العسل إذا التمعَ في الشَّمس، وسحبتُ أودسيوس إليَّ. إنني ساحرةٌ ذهبيَّةٌ بلا ماضٍ على الإطلاق.

* * *

بدأتُ أعرفُ رجالَه بعض الشَّيء، تلك القلوب المزعزعة التي تكلَّم عنها، تلك الأوعية المثقوبة. پوليتس أكثر تهذيبًا من الآخرين، ويوريلوكوس عنيدٌ وعابس، وإلپينور ذو الوجه النَّاحل له ضحكة مثل نئيم البومة. ذكَّروني بجِراء الذِّئاب، عندما تمتلئ بطونهم تتلاشى أحزانهم. إذا مررتُ خفضوا أبصارهم، كأنَّهم يتيقَّنون من أنَّ أيديهم ما زالت لهم.

قضوا كلَّ نهارٍ في الألعاب، وأقاموا سباقاتٍ عبر التِّلال وعلى الشَّاطئ، ودائمًا هرعوا إلى أودسيوس لاهثين. هلَّا تُحكِّم في مسابقة الرِّماية؟ رمي الجُلَّة؟ القتال بالحِراب؟

أحيانًا ذهب معهم باسمًا، غير أنَّه في أحيانٍ أخرى زعقَ فيهم أو ضربهم. لم يكن سلسًا متَّزنًا كما يتظاهر. الحياةُ معه كالوقوف على شطِّ البحر؛ في كلِّ يومٍ لونٌ مختلف، وارتفاعٌ جديد مكلَّلٌ بالرَّغوة، لكنْ دائمًا تستمرُ الشِّدَّة المتواصلة نفسها في السُّحب نحو الأفق. عندما انكسر حاجزُ سفينته كالَ له الرَّكلات حانقًا وألقى الشَّظايا في البحر، وفي اليوم التَّالي ذهب متجهِّمًا إلى الغابة ببلطته، ولمَّا عرضَ يوريلوكوس مساعدته كشَّر عن أنيابه. لم يزل بإمكانه توجيه نفسه، وإظهار الوجه الذي لا شكَّ في أنَّه وضعَه كلَّ يوم من أجل تسخير أخيل، ولو أنَّ هذا كلَّفه ثمنًا، وبعدها أصبح عُرضةً لتقلُّبات المزاج والانفعال. في تلك الأوقات ينسلُّ الرِّجال مبتعدين، وأرى الارتباك على وجوههم. في مرَّةٍ قال لي دايدالوس: **حتى أفضل الحديد يصير هشًّا إذا جاوزَتْ ضرْبات المطرقة الحدَّ.**

كنتُ ناعمةً كالزَّيت، هادئةً كمياهٍ بلا ريح، فسحبته من انغلاقه وسألته أن يروي لي قصصًا عن أسفاره في البلدان الغريبة بين

الأغراب. حكى لي عن مِمنون ابن الفجر وملك إثيوبيا، والخيَّالات الأمازونيّات بتروسهنَّ هلاليّة الشّكل، وعن سماعه أنَّ بعضَ الفراعنة في مصر نساء يرتدين ملابس الرِجال، وأنَّ في الهند ـ كما سمعَ ـ نملًا بحجم الثّعالب يُنقّب عن الذّهب بين الكُثبان. أمّا في الشّمال القصيّ فهناك شعبٌ لا يُؤمِن بأنَّ نهر أوقيانوس يجري حول الأرض، وبدلًا من ذلك يُؤمِن بأفعى عظيمةٍ تُطوّق العالم، سُمكُ جسمها بحجم القارب ودائمًا جائعة، فلا تهدأ أبدًا لأنَّ شهيّتها تدفعها إلى الأمام بلا توقُّف، لتلتهمَ كلَّ شيءٍ قضمةً قضمةً، ويومًا ما بعدما تأكل العالم بأكمله، ستلتهم نفسها.

لكنْ مهما ابتعد فقد عاد دائمًا إلى إثاكا، إلى زيتون بساتينه وماعزه، وخَدَمِهِ المخلصين وكلابه الممتازة التي ربّاها بيديْه على الصّيد، وأبويْه النّبيليْن ومربّيته العجوز، وأوّل مرّةٍ خرج فيها لصيد الخنازير البرّيّة، وهو الصّيد الذي خرج منه بالنّدبة الطّويلة التي رأيتها على ساقه. مؤكّدٌ أنّ ابنه تليماكوس تعوّد النّزول بالقطعان من الجبال. سيُحسِن معاملتها مثلما أحسنتها دومًا. على كلّ أميرٍ أن يعرف أرضه، وما من وسيلةٍ أفضل للتّعلُّم من رعي الماعز. لم يقل قطُّ: ماذا لو عدتُ إلى الدّيار ووجدتها كلَّها رمادًا؟

لكنّني رأيت الهاجس حيًّا في داخله كجسدٍ ثانٍ، يتغذّى في الظّلام.

* * *

حلَّ الخريف، ومع حلوله قلّت ساعات الضّوء، وبدأ العُشب يتهشّم تحت الأقدام، وكادَ الشّهر ينتهي. كنّا متمدّديْن في فِراشي حين قال: «أظنُّ أنَّ علينا الرّحيل قريبًا جدًّا، وإلّا لمكثنا الشّتاء بطوله».

كانت النَّافذةُ مفتوحةً والنَّسيم يهبُّ علينا. واحدةٌ من حِيَله أن يضع جُملةً في الهواء كالطَّبق على مائدةٍ، ويرى ما ستغرفه فيه، إلَّا أنَّه فاجأني إذ تابع: «إذا قبلتِني فأسبقى حتى الرَّبيع فقط، وسأرحل ما إن تُصبح البحار قابلةً للاجتياز. لن يكون تأخيرًا طويلًا على الإطلاق».

آخِرُ عبارةٍ لم تكن لي، بل لشخصٍ ما جادله بصمت. رجاله ربَّما، أو زوجته، لكنَّني لم أبالِ.

ظللتُ مشيحةً بوجهي كي لا يرى سروري، وقلتُ: «أقبلك».

* * *

تبدَّل شيءٌ ما فيه بعدها: إفراغ التَّوتُّر الذي لم أُدرك أنَّه احتواه. في اليوم التَّالي، ذهب يُدَندِن إلى السَّاحل مع طاقمه، وسحبوا السفينةَ إلى كهفٍ محمي، حيث ثبَّتوها بالأوتاد وطووْا الشِّراع وحزموا العُدد كلَّها، للحفاظ عليها خلال العواصف الشَّتويَّة حتى الرَّبيع.

في بعض الأحيان رأيته يُراقبني. تلوح على وجهه نظرةُ تصميم، ويبدأ في طرح أسئلته العرَضيَّة الثَّانويَّة، عن الجزيرة، عن أبي، والمنوال، وتاريخي، والسِّحر. صرتُ أعرفُ تلك النَّظرة جيِّدًا، فهي النَّظرةُ نفسُها التي تعتلي ملامحه حينما يلمح سرطانَ بحرٍ بمخلبٍ ثلاثي، أو يتساءَل عن التيَّارات المخادعة في خليج آيايا الشَّرقي. العالم مصنوعٌ من الغوامض، وأنا مجرَّد أحجيةٍ أخرى من ملايين. لم أجبه، وعلى الرَّغم من تظاهُره بالإحباط لا أكثر بدأت أبصرُ أنَّ غياب الجواب يسرُّه على نحوٍ غريب. البابُ الذي لا ينفتح بطَرقةٍ منه طُرفةٌ قائمة بذاتها، ونوعٌ من الرَّاحة أيضًا. العالم أجمع كان يعترف له، وهو اعترفَ لي.

بعض القصص حكاه لي في ضوء النَّهار، وبعضها لم يُحكَ إلَّا بعد خمود النَّار، حين لا يعود أحدٌ يعرف وجهَهُ غيرُ الظِّلال.

ـ «كان هذا بعد السَّيكلوپس. أخيرًا، طاوعَنا شيءٌ من الحظّ، ورسوْنا على جزيرة الرِّياح. أتعرفينها؟».

قلتُ: «الملك إيولوس». أحد حيوانات زوس الأليفة، وظيفته متابعة هبَّات الرِّيح التي تُزجي السُّفنَ في أنحاء العالم.

ـ «سُرَّ بي، وأرسلَنا في طريقنا مسرعين، وأعطاني إضافةً إلى هذا جرابًا ضخمًا يحوي كلَّ الرِّيح المعاكسة كي لا تُزعجنا. طوال تسعة أيَّام وتسع ليالٍ مخرنا عباب الموج، ولم أنم ولو ساعةً لأنَّني كنتُ أحرسُ الجراب. لقد أخبرتُ رجالي بما فيه بالطَّبع، ولكنْ...»، وهزَّ رأسه مواصلًا: «قرَّروا أنَّه كنز لا أريدُ اقتسامه معهم. كانت أنصبتهم التي تلقُّوها من طروادة قد ضاعت في الماء قبل وقتٍ طويل، ولم يرغبوا في العودة إلى الوطن بوفاضٍ خالٍ. طيِّب...»، وأخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يُضيف: «لكِ أن تتخيَّلي ما جرى».

وتخيَّلته. الآن رجاله أشدّ انفلاتًا من قبل، منتشون بفكرة قضاء شتاءٍ كامل في الاسترخاء. في اللَّيل أحبُّوا أن يلعبوا لعبة إلقاء ثُمالة النَّبيذ، واختاروا صحفة طعامٍ وجعلوها الهدف، غير أنَّ تصويبهم كان شنيعًا، لأنَّهم يشربون قبلها ملء وعاءٍ بعد ملء وعاء، فتتَّسخ المائدةُ كأنَّ مذبحةً وقعت فوقها، وينظُرون إلى حوريَّاتي كي ينظِّفنها، ولمَّا أقول لهم أن يُنظِّفوها بأنفُسهم يتبادَلون النَّظر. لو كنتُ أحدًا آخر لأجابوني بالتَّحدّي، لكنَّهم لم ينسوا خطومهم.

أكمل أودسيوس: «أخيرًا، عندما لم أعد أستطيع المقاومة، غبتُ في النَّوم. لم أشعر بهم يأخذون الجراب من يدي، بل كان عُواء الرِّيح هو

ما أيقظني. خرجَتْ تدور من الجراب، ودفعَتنا إلى الخلف كأنَّنا لم نتحرَّك قطُّ. كلُّ فرسخٍ قطعناه كأنَّه لم يكن. إنَّهم يحسبونني حزينًا على رفاقهم الموتى، وهذا صحيح؛ لكنْ أحيانًا أجدُني أحشد قُواي كلَّها كي لا أفتك بهم بنفسي. إنَّ لديْهم تجاعيدَ لكنهم بلا حكمة. لقد أخذتُهم إلى الحرب قبل أن يفعلوا أيًّا من الأشياء التي تُعلِّم الرَّجل الاستقرار. حين رحلوا كانوا عُزبًا، بلا أطفال، لم يشهدوا أعوامًا من الحصاد الفقير فيكون عليهم اللُّجوء إلى بقايا البقايا من مؤنهم، ولا أعوامًا طيِّبةً كذلك تُعلِّمهم الادِّخار. لم يروْا آباءهم وأمَّهاتهم يطعنون في السِّن ويُصيبهم الوهن، لم يروْهم يموتون. أخشى أنَّني لم أحرمهم شبابهم فحسب، بل شيخوختهم أيضًا».

فرك مفاصل أصابعه. في شبابه كان أودسيوس قوَّاسًا، والقوَّة التي يتطلَّبها شدُّ الوتر وتثبيت السَّهم وإطلاقه تُكلِّف الأيدي ضريبةً باهظةً. عند ذهابه إلى الحرب تركَ قوسه، لكنَّ الألم تبعَه. في مرَّةٍ قال لي إنَّه لو أخذ القوس لكان أفضل رامٍ في كلا الجيشيْن.

ـ «لماذا تركته إذن؟».

شرح أنَّ السِّياسة هي السَّبب. القوس سلاح پاريس، پاريس سارق الزَّوجات الوسيم. «بين الأبطال كان يُعَدُّ جبانًا. لا قوَّاس كان ليُسمَّى أفضل الإغريق أبدًا مهما بلغَتْ براعته».

قلتُ: «الأبطال حمقى».

فضحك قائلًا: «أتَّفقُ معكِ».

انغلقَت عيناه وصمتَ طويلًا جدًّا، حتى إنَّني حسبته نامَ، ثمَّ إنَّه قال: «لو رأيتِ كم دنوْنا من إثاكا. كان بإمكاني أن أشمَّ رائحة السَّمك المشوي على الشَّاطئ».

بدأتُ أطلبُ منه خدماتٍ صغيرةً. هلّا يقنص ظبيًا للعشاء؟ هلّا يصطاد بعض السّمك؟ زريبتي تتداعى، فهل يُمكن أن يُصلِح بعضَ الأعمدة؟ بثّت فيّ سرورًا بليغًا رؤيته يدخُل من الباب بشِباكٍ ممتلئة أو سلالٍ من فواكه بساتيني. انضمّ إليّ في الحديقة، وثبّت النّباتات المعترشة على أوتاد، وتكلّمنا عن نوع الرّياح الهابّة، وكيف بدأ إلپينور يعتاد النّوم على السّطح، وإن كان علينا أن نحظر هذا.

قال: «ذلك الأحمق، سوف يكسر عُنقه».

ـ «سأخبره بأنّه لن ينال الإذن إلّا وهو مستفيق».

علّق ساخرًا: «لن يَحدث أبدًا».

كنتُ أعي أنّني حمقاء. حتى إذا بقيَ بعد الرّبيع إلى الرّبيع التّالي، فرجلٌ مثله لن يعرف السّعادةَ أبدًا وهو محصورٌ على سواحلي الضيّقة. وحتى إذا وجدتُ وسيلةً ما لإشعاره بالقناعة، فما زالت هناك حدود، لأنّه فانٍ، وليس شابًا. قلتُ لنفسي امتنّي، شتاءٌ واحد مُدّةٌ أطول ممّا أمضيتُ مع دايدالوس.

ولم أمتنّ. تعلّمتُ طهو أطعمته المفضّلة، وابتسمتُ لمرأى تلذّذه بها. وليلًا جلسنا معًا عند المستوقد، وتحدّثنا عن النّهار المنقضي. «ما رأيك في السّنديانة الضّخمة التي ضربَها البرق؟ أتحسب أنّ في داخلها عفنًا؟».

ـ «سأنظرُ. إن وجدتُ فيها عفنًا، فلن يكون إسقاطها صعبًا. سأفعلها قبل العشاء غدًا».

قطعَ الشّجرة، وقضى بقيّة النّهار في جزّ شُجيراتي. «كانت مفرطةً في النّمو. ما تحتاجين إليه حقًّا هو بعض الماعز. من شأن قطيعٍ من أربع ماعز أن يُسوّيها في غضون شهر، وسيُحافِظ على استوائها».

ـ «وأين أجدُ الماعز؟».

الكلمة بيننا، إثاكا، ككسر تعويذة.

قلتُ: «لا عليك. سأحوّلُ بعض الخراف. سيتكفَّل هذا بإصلاح الأمر».

* * *

على العشاء بدأت حوريّاتي يَمكُثن قرب الرّجال، ويأخذن مَن يُعجِبوهنَّ إلى الفِراش. سرَّني هذا أيضًا، اختلاط أهل بيتي بأهل بيته. في مرَّةٍ، قلت لدايدالوس إنَّني لن أتزوَّج أبدًا لأنَّ يدَيَّ ملوَّثتان وأحبُّ عملي للغاية. لكنَّ هذا رجل يداه ملوَّثتان أيضًا.

وأين تحسبينه تعلَّم كلَّ هذه الدَّقائق الأُسريَّة يا سرسي؟

زوجتي. هكذا قال متى تكلَّم عنها. زوجتي، زوجتي. هذه الكلمة المحمولة أمامه كالتُّرس، كأهل الرِّيف الذين لا يَذكُرون اسم إله الموت خشية أن يأتي ويأخذ سُويداء قلوبهم. اسمها پنلوپي. وبعد غيابه في النَّوم كنتُ أحيانًا أنطقُ مقاطع هذا الاسم في الهواء الأسود، كأنَّه تحدٍّ، أو ربَّما بُرهان. أترين؟ إنَّها لا تأتي، ليست تتمتَّع بالقوَّة التي تعتقدينها.

نأيتُ بنفسي عن ذكرها أطول فترةٍ مُمكنة، لكنَّها في النِّهاية كانت قشرةَ الجرح التي لا مفرَّ من أن أحكَّها.

انتظرتُ صوتَ تنفُّسه الذي يعني أنَّه مستيقظٌ بما فيه الكفاية للكلام، ثمَّ سألته: «هلَّا تحكي لي عنها؟».

حدَّثني عن طبعها الرَّقيق، وتوجيهاتها الهادئة التي تجعل الرِّجال يهبُّون من أماكنهم بسرعةٍ لا تحثُّ عليها أيُّ صيحة، وعن كونها سبَّاحةً

ممتازةً، وأنَّ زهرتها المفضَّلة الزَّعفران، ولذا تضع أوَّل واحدةٍ تتفتَّح في شعرها طلبًا للحظِّ. انطوى كلامه عنها على حيلةٍ تجعلها كأنَّها في الحُجرة المجاورة، كأنَّما لا يفصل بينهما اثنتا عشرة سنةً وبحورٌ شاسعة.

قال إنَّها ابنة عمومة هلن، ألف مرَّةٍ أذكى وأحكم، ولو أنَّ هلن ذكيَّة على طريقتها الخاصَّة، غير أنَّها بالطَّبع متقلِّبة. في ذلك الحين كنتُ قد سمعتُ قصصه عن هلن، ملكة أسبرطة وابنة زوس الفانية، أجمل امرأةٍ في العالم، التي اختطفَها باريس أمير طروادة من زوجها منيليوس بادئًا بهذا الحرب.

سألته: «هل رحلتْ مع باريس طواعيةً أم عنوةً؟».

- «مَن يدري؟ طيلة عشرة أعوامٍ ظللنا مخيَّمين خارج بوَّابتها، ولم تُحاوِل الهرب ولو مرَّةً بحسب ما سمعتُ، لكنْ لحظة أن اقتحمَ منيليوس المدينة ألقت نفسها عليه عاريةً، وأقسمت أنَّها كانت في عذابٍ ولا تريد إلَّا العودة إلى زوجها. لن تَحصُلي على الحقيقة الكاملة منها أبدًا. إنَّها ملتويةٌ كالثَّعابين، ودائمًا تُحسِن استغلال الفُرص لمنفعتها».

فكَّرتُ: ليس على عكسك.

قال: «أمَّا زوجتي فراسخة، راسخة في كلِّ شيء. حتى الحُكماء يضلُّون عن الطَّريق أحيانًا، ولكنْ ليس هي. إنَّها نجمةٌ ثابتةٌ، قوس محكم الصُّنع»، ثمَّ ساد صمتٌ شعرتُ به خلاله يتحرَّك في أعماق ذكرياته، وبعده أردف: «لا شيء تقوله له معنًى واحد أو نيَّةٌ واحدة، ومع ذلك مستقرَّة. إنَّها تعرف نفسها».

انغرسَت الكلمات فيَّ بنعومةِ سكِّينٍ مصقول. منذ اللَّحظة التي تكلَّم فيها عن حياكتها علمتُ أنَّه يحبُّها، ورغم ذلك بقيَ شهرًا بعد شهر،

وتركتُ نفسي أطمئنُّ. والآن رأيتُ بمزيدٍ من الوضوح أنَّ كلَّ تلك اللَّيالي في فِراشي لم تكن إلَّا الحكمة التي اكتسبَها من السَّفر. عندما تكون في مصر فإنَّك تَعبُد إيزيس، وعندما تكون في الأناضول تَقتُل حَمَلًا لكوبيلي، وهو ما لا تتعدَّى به على ربَّتك أثينا التي لا تزال في الوطن.

ولكن بينما خطرَ لي هذا عرفتُ أنَّ الإجابة ليست كاملةً. تذكَّرتُ السَّاعات الطَّويلة التي قضاها في الحرب، يسوس أمزجةَ الملوك الهشَّة هشاشة الزُّجاج، ووجومَ الأمراء، ويُوازِن بين كلِّ مُحاربٍ أنوف ورفاقه. إنَّها مأثرةٌ تُعادِل ترويض ثيران إيبتيس نافثة النَّار، مع فرق أنَّه لا يملك شيئًا يستعين به إلَّا حصافته. أمَّا في وطنه إثاكا، فلا أبطال شكِسون أو مجالس أو غاراتٍ في منتصف اللَّيل، لا خِدع يائسة يجب أن تتفتَّق عنها قريحته وإلَّا ماتَ الرِّجال. وكيف يرجع رجلٌ مثل هذا إلى دياره؟ إلى أصدقائه وزيتونه؟ أدركتُ أنَّ تناغُمه الأُسريَّ معي أقرب إلى نوعٍ من التَّدريب. متى جلسنا عند المستوقد، ومتى عملَ في حديقتي، كان يُحاول تذكُّر تلك الحياة، وكيف تهوي الفؤوس على الخشب بدلًا من اللَّحم، وكيف يجعل نفسه مناسبًا لپنلوپي مجدَّدًا بنعومةٍ واحدةٍ من مفصلات دايدالوس.

نام إلى جانبي. وبين الحين والآخر احتبسَت أنفاسه في مؤخَّرة حلقه. تيك.

كانت پاسيفاي لتنصحني بأن أصنع عقَّار حُبٍّ وأربطه بي، وكان إيبتيس ليقول إن عليَّ أن أسلبه عقله. تخيَّلتُ وجهه خاليًا من أيِّ أفكارٍ باستثناء ما أضعه فيه، وجلوسه على رُكبتيَّ محدِّقًا إلى الفراغ، أبله متيَّمًا خاويًا.

* * *

بدأت أمطار الشّتاء تسقُط، وفاحت من الجزيرة بأكملها رائحةُ التُّربة. كم أحببتُ هذا الفصل، حينما تَبرُد الرّمال ويُزهِر الخربق الأبيض. اكتسبَ أودسيوس وزنًا، ولم يَعُد الألم يبدو عليه كثيرًا عندما يتحرَّك، وانحسرَ أسوأ نوبات غضبه. حاولتُ أن أجد في هذا رضًى، وقلتُ لنفسي إنَّ الأمر كرؤية حديقةٍ معتنى بها باهتمام، كمشاهدة الحُملان الوليدة تُكافِح للوقوف على أقدامها.

ظلَّ الرّجال قريبين من المنزل، يُدفِّئون أنفُسهم بالشُّرب، وللتَّرفيه عنهم قصَّ أودسيوس عليهم قصصًا بطوليَّةً عن أخيل وآياكس وديوميدس، جاعلًا إيَّاهم أحياء من جديدٍ في هواء الغسق، ويقومون بصنائعهم المجيدة. أطربت قصصه الرّجال وكسَت وجوههم بالعجب، وتهامسوا بإجلال: **تذكَّروا أنَّنا مشينا بينهم، وأنَّنا وقفنا ضد هكتور. سيحكي أبناؤنا الحكاية.**

ابتسمَ لهم كأبٍ سمِح، لكنْ ليلتها قال ساخرًا: «لم يكن باستطاعتهم الوقوف أمام هكتور أكثر من استطاعتهم الطَّيران. كلُّ ذي عقلٍ كان يفرُّ حين يراه».

- «بما في ذلك أنت؟».

- «بالطَّبع. آياكس استطاعَ الصُّمود أمامه بالكاد، ووحده أخيل قدرَ على هزيمته. إنَّني مُحاربٌ كُفءٌ بما فيه الكفاية، لكنَّني أعرفُ حدودي».

فكَّرتُ أنَّه يعرفها حقًّا. كثيرون جدًّا يُسبِلون أجفانهم ويغزلون أوهامًا عن القوَّة التي يتمنَّونها، أمَّا هو فمرسومٌ وممسوحٌ كالخريطة، كلُّ قطعة حجرٍ وربوةٍ ملحوظةٍ بدقَّةٍ ثاقبة، ومواهبه محسوبةٌ بمنتهى الإحكام.

قال: «التقيتُ هكتور مرَّةً. كان ذلك في أيَّام الحرب الأولى، ونحن لا نزال نتظاهَر بأنَّ الهُدنة ممكنة. يومها جلسَ إلى جوار أبيه پريام على كرسيٍّ متداعٍ فجعلَه يبدو كالعرش. لم يكن يَبرُق كالذَّهب، لم يكن مصقولًا مثاليًا، لكنَّ باطنه لم يختلف مقدار ذرَّةٍ عن ظاهره، كأنَّه قالبٌ من الرُّخام مقطوعٌ بكامله من مقلعٍ واحد. صبَّت زوجته آندروماكا لنا النَّبيذ، ولاحقًا سمعنا أنَّها وضعَت له ابنًا، آستيانكس، أي «قائد المدينة»، لكنَّ هكتور سمَّاه سكامندريوس على اسم النَّهر الذي يجري مارًّا بطروادة».

شيءٌ ما في صوته.

ـ «ماذا حدثَ له؟».

ـ «ما يَحدث لكلِّ الأبناء في الحرب. أخيل قتل هكتور، ولاحقًا عندما اقتحمَ ابنه پيروس القصر، أخذ آستيانكس الطِّفل وهشَّم رأسه. كانت فعلةً شنعاء ككلِّ شيءٍ يفعله پيروس، لكنَّها كانت ضروريَّةً. كان الطِّفل ليكبر وفي قلبه نصل، فأسمى واجبات الابن أن يثأر لأبيه. لو عاش لجمعَ رجالًا إلى جانبه ولاحقنا».

كان القمر قد تقلَّص إلى شظيَّةٍ صغيرة خارج النَّافذة، وصمت أودسيوس فترةً متقلِّبًا في ذكرياته.

ـ «غريبٌ كم تُريحني الفكرة، أنَّني إذا قُتِلتُ فسيخرُج ابني عابرًا البحار ويُطارِد من أطاحوا بي. سيقف أمامهم ويقول: لقد جرؤتم على إراقة دم أودسيوس، والآن تُراق دماؤكم في المقابل».

ساد السُّكون الحُجرة. كانت ساعةً متأخِّرةً، والبوم ذهب إلى أشجاره قبل وقتٍ طويل.

ـ «كيف كان ابنك؟».

فرك قاعدة إبهامه حيث جرحَها المخراز، وقال: «سمَّيناه تليماكوس تيمُّنًا بمهارتي في استخدام القوس». تليماكوس، أي «المُقاتل البعيد». تابع: «لكنَّ الدُّعابة أنَّه ظلَّ يَصرُخ طوال يومه الأوَّل في الحياة كأنَّه يعيش في قلب ميدان المعركة. جرَّبت النِّساء كلَّ حيلةٍ يعرفنها، الهدهدة والتَّمشية به، ولفِّ ذراعيْه بالقماط، وتبليل إصبعٍ بالنَّبيذ ليمصَّها. قالت القابلةُ إنَّها لم ترَ عاطفةً بهذه الحرارة قطُّ، وحتى مُرضِعتي العجوز غطَّت أُذنيْها. اكفهرَّ وجه زوجتي خشية أن تكون فيه علَّةٌ ما، فقلت لها أن تُعطيني إيَّاه، ورفعته أمامي ونظرتُ في وجهه الصَّارخ، وقلتُ: ابني الجميل، أنت محقٌّ، هذا العالم مكانٌ قاسٍ فظيع ويستحقُّ الصُّراخ فيه، لكنَّك آمنٌ الآن، وكلُّنا يحتاج إلى النَّوم، فهلَّا تسمح لنا بالقليل من السَّلام؟ هدأ وسكنَ بين يدَيَّ. وبعدها لم يكن يُمكنكِ أن تجدي طفلًا أسهل، يبتسم دائمًا ويضحك لأيِّ أحدٍ يتوقَّف ليُكلِّمه. بدأت الخادماتُ يختلقن حججًا للمجيء وقرْصِ وجنتيْه السَّمينتيْن، وكنَّ يقلن: يا للملك الذي سيكونه يومًا ما! وديع كريح الغرب، أوه!».

واصل سردَ ذكرياته. قضمةُ تليماكوس الأولى من الخُبز، كلمته الأولى، حبُّه الماعز واختباؤه تحت المقاعد مقهقهًا إلى أن يعثُروا عليه. خطر لي أنَّ لديْه قصصًا عن ابنه من عامٍ واحد أكثر ممَّا لدى أبي عنِّي في عُمرٍ كامل.

ـ «أعرفُ أنَّ أمَّه ستُحافِظ على وجودي في عقله، لكنَّني في سِنِّه كنتُ أقودُ حملات الصَّيد، وقتلتُ خنزيرًا برِّيًّا بنفسي. أرجو فقط أن يتبقَّى شيءٌ أعلِّمه إيَّاه عندما أعود. أريدُ أن أترك عليه علامةً».

قلتُ شيئًا مبهمًا مريحًا لا شكَّ. ستَترُك علامةً. كلُّ صبيٍّ يحتاج إلى أب، وسينتظرك. لكنَّني كنتُ أفكِّرُ مرَّةً أخرى في عناد حيوات الفانين. ونحن نتكلَّم كانت اللَّحظات تمرُّ بالفعل، واختفى الطِّفل الجميل. ابنه يكبر، ينمو، يتحوَّل مشحوذًا إلى رجل. ثلاثة عشر عامًا فقدَها أودسيوس منه بالفعل، فكم عامًا آخر تبقَّى؟

كثيرًا ما عادَت أفكاري إلى ذلك الصَّبي اليقظ هادئ العينَيْن، وتساءلتُ إن كان يعرف ما توقَّعه أبوه، إن كان شعرَ بثقل تلك الآمال! تخيَّلته واقفًا فوق الجروف كلَّ يومٍ داعيًا الآلهة أن يرى سفينةً، وتخيَّلتُ تعبه وحُزنه الدَّاخلي الهادئ وهو يخلد إلى النَّوم كلَّ ليلة ويتكوَّر على فِراشه كما توسَّد يدَيْ أبيه من قبل.

ضممتُ يدَيَّ في الظَّلام. إنَّني بلا ألف حيلة، ولستُ نجمةً ثابتةً، لكنَّني شعرتُ للمرَّة الأولى بشيءٍ ما في ذلك الفراغ، بأملٍ، بروحٍ حيَّة من الممكن أن تنمو.



الفصل السَّابع عشر

كانت الأشجارُ في بداية تبرعُمها، ومع أنَّ البحرَ لم يزل ثائرًا، فقريبًا ستهدأ أمواجه ويحلُّ الرَّبيع، ويحين وقت رحيل أودسيوس. سينطلق عابرًا البحر، يتعرَّج في سبيله بين العواصف ويد پوسايدون العظيمة وقد وضع الوطن نُصب عينيْه، وعندئذٍ سيُخيِّم الصَّمتُ على جزيرتي من جديد.

اضطجعتُ إلى جواره في نور القمر كلَّ ليلة، أتخيَّلُ نفسي أقول له أن يبقى فصلًا آخر، حتى نهاية الصَّيف فقط، ففي ذلك الحين يهبُّ أفضل الرِّيح. كان طلبٌ كهذا ليُدهِشه، ولَلمحتُ في عينيْه ومضةَ إحباطٍ في غاية الخفوت، فلا يُفترض أن تتوسَّل السَّاحرات الذَّهبيَّات. وهكذا تركتُ الجزيرة تُناشده نيابةً عنِّي، تُكلِّمه بجمالها البليغ. كلَّ يومٍ تخلَّصت الحجارةُ من المزيد من برودتها الجليديَّة وترعرعت الأزهار، وذهبنا في نُزهاتٍ وأكلنا على الكلأ الأخضر، وتمشَّينا على الرِّمال التي دفَّأتها الشَّمس، وسبحنا في الخليج الرَّائق، وأخذته إلى ظلِّ شجرة تُفَّاح

يتنسَّم عبيرها وهو نائم. أمامه، فردتُ بدائعَ آيايا كلَّها كالبساط، ورأيته يبدأ في التَّردُّد.

وهو ما رآه رجالُه أيضًا. ثلاثة عشر عامًا عاشوها إلى جانبه، وعلى الرَّغم من تجاوز أفكاره الملتوية إدراكَهم في أغلب الأحيان، فقد استشعروا فيه تغييرًا مثلما تشمُّ كلابَ الصَّيد أمزجةَ سيِّدها. يومًا بعد يومٍ ازداد ضجرهم، ومتى سنحَت الفُرصة قالوا بصوتٍ عالٍ: إثاكا، الملكة پنلوپي، تليماكوس. جرجرَ يوريلوكوس قدميْه في أبهائي محدِّقًا بعبوس، ورأيته يتهامَس مع آخرين في الأركان، وإذا مررتُ خفضوا أبصارهم ولاذوا بالصَّمت. فُرادَى ومثانيَ ذهبوا إلى أودسيوس متسلِّلين. وانتظرتُ أن يصرفهم، لكنَّه اكتفى بالنَّظر من فوق أكتافهم إلى هواء الغروب الأغبر، لأفكِّر أنا أنَّه كان عليَّ أن أتركهم خنازير.

***

أخو الموت هو الاسم الذي يُطلِقه الشُّعراء على النَّوم. بالنِّسبة إلى معظم البشر، تُعَدُّ ساعاتُ الظُّلمة هذه تذكيرًا بالهمود المنتظَر في آخِر الزَّمان، أمَّا أودسيوس فهجوعه مثل حياته، مليءٌ بالتَّقلُّب والاضطراب والهمهمات الثَّقيلة التي جعلَت ذئابي تُرهِف آذانها. تأمَّلته في ضوء الفجر الرَّماديِّ المتلألئ، بما على وجهه من اختلاجاتٍ وفي كتفيْه من شدٍّ جاهد، وكيف يلوي الملاءات كأنَّها خصومٌ يُحاول التَّغلُّب عليهم في مباراة مصارعة. عامًا من السَّلام قضى معي، ومع ذلك لم يزل يخوض الحربَ كلَّ ليلة.

كانت النَّوافذ مفتوحةً، وفكَّرتُ أنَّ السَّماء أمطرت ليلًا بالتَّأكيد، لأنَّ الهواء الدَّاخل مغسولٌ نقيٌّ للغاية، وقد علِق فيه كلُّ صوت ـ صياح

الطُّيور، وحفيف أوراق الشَّجر، وتدفُّق الموج الهادئ ـ بوقعٍ رنَّان. ارتديتُ ثيابي، وتبعتُ هذا الشموَّ إلى الخارج. وجدتُ رجاله نائمين، وقد تمدَّد إلپينور على السَّطح ملتفًّا بأحد أفضل دُثري. تموَّجتِ الرِّيحُ من حولي كأنغام القيثار، وبدا كأنَّ أنفاسي نفسها تُزمِّر معها بانسجام. سقطت قطرةُ ندى من فرع شجرة، وضربَت الأرضَ بصوتٍ كرنين الأجراس.

وشعرتُ بفمي يجفُّ.

خرجَ من دغل الغار، كلُّ خطٍّ من خطوط جسده جميلٌ مثاليُّ التَّناسُق، ويُتوِّج شعرَه الفاحمَ المسترسلَ إكليلٌ، ومن كتفه يتدلَّى قوسٌ لامع فضّيُّ الأطراف منحوتٌ من خشب الزَّيتون.

قال أپولو: «سرسي»، وكان قوله أعظم رنينٍ على الإطلاق. كلُّ لحنٍ في العالم ينتمي إليه. رفع يدًا أنيقةً متبعًا: «أخي حذَّرني من صوتكِ. أظنُّ أنَّ الأفضل أن تتكلَّمي قليلًا قدر الإمكان».

لم يحمل صوته غِلًّا، ولكنْ قد تكون هذه نبرةَ الغلِّ إذا لُفِظَت بهذا التَّنغيم المثاليِّ.

ـ «لن يُسكِتني أحدٌ على جزيرتي».

كشَّر قائلًا: «هرميز قال إنَّكِ صعبة. لقد جئتُ بنبوءةٍ لأودسيوس».

شعرتُ بنفسي أتوتَّرُ. أحاجي الأوليمپ دائمًا ذاتُ حدَّيْن. «إنَّه في الدَّاخل».

ـ «نعم، أعرفُ».

ضربتني الرِّيحُ على وجهي، ولم أجد وقتًا للصُّراخ. اندفعَتْ داخل حلقي شاقَّةً طريقها العنيف إلى بطني، كأنَّ السَّماء كلَّها تنصبُّ عبري.

تشنَّجتُ راغبةً في القيْء، لكنَّ شدَّتها المتعاظمة ظلَّت تنصبُّ وتنصبُّ خانقةً أنفاسي ومغرقةً إيَّاي في قوَّتها الغريبة، وشاهدَ أبولو بوجهٍ بهيج.

اكتُسِحَت فسحةُ الجزيرة، ورأيتُ أودسيوس واقفًا على ساحلٍ ومن حوله ترتفع الجروف، ومن بعيدٍ ماعزًا وبساتين زيتون. ورأيتُ منزلًا واسع الأبهاء، ساحته معبَّدة بالأحجار، وتلتمع على جُدرانه أسلحةُ الأسلاف. إثاكا.

ثمَّ وقف أودسيوس على ساحلٍ آخر، رمالُه قاتمةٌ وسماؤه لم تعرف ضوءَ أبي قطُّ، تلوح عليه أشجار الحوْر الظَّليلة وتجرُّ أشجارُ الصَّفصاف أوراقها في مياهٍ سوداء. لا طيور تصدح، ولا حيوانات تتحرَّك. عرفتُ المكان في الحال، مع أنَّني لم أزُره قطُّ. فغرَ كهفٌ عظيمٌ فاه، وفيه وقف رجل مسنٌّ بعينيْن لا تريان، وسمعتُ اسمه في عقلي: تيريسياس.

ألقيتُ نفسي على تُراب حديقتي، ونبشتُ، وشددتُ جذور المولي، ودسستُ بعضها في فمي والتُّربة البنِّيَّة لا تزال عالقةً بها. وعلى الفور سكنَت الرِّيحُ وهمدت بنفس سرعة هبوبها. سعلتُ ليهتزَّ جسدي كلُّه، وأحسستُ بمذاق الطِّين والرَّماد على لساني.

كافحتُ للقيام على رُكبتَيَّ، ثمَّ قلتُ: «أتجرؤ؟ أتجرؤ على إساءة معاملتي على جزيرتي؟ إنَّني من دم الجبابرة. سيُشعِل هذا الحربَ. إنَّ أبي...».

قاطعني: «أبوكِ هو من اقترح هذا. يجب أن تحتوي آنيتي على التنبُّؤ في دمائها. المفترض أن تعدِّي هذا تكريمًا، فقد حملتِ رؤيا لأبولو».

كان صوته ترنيمةً، ولم يُبدِ وجهه الجميل إلَّا دهشةً خفيفةً للغاية. أردتُ أن أمزِّقه بأظفاري. الآلهة وقواعدها المستغلقة على الفهم. دائمًا هناك سببٌ يُجبِرك على الرُّكوع.

- «لن أخبر أودسيوس».

- «ليس هذا من شأني. النُّبوءة أوصِلَت».

قالها واختفى. أسندتُ جبهتي إلى جذع شجرة زيتون متغضِّنٍ شاعرةً بجَيَشان صدري ومرتجفةً غضبًا ومهانةً. كم مرَّةً عليَّ أن أتعلَّم؟ كلُّ لحظةٍ من سلامي كذبةٌ، لأنَّها تأتي فقط بحسب هوى الآلهة. لا يهمُّ ماذا أفعلُ أو كم أعيشُ، فمتى عنَّ لهم، بإمكانهم أن يمدُّوا أيديهم من أعلى ويفعلوا بي ما يشاؤون.

لم تكن السَّماء قد ازرقَّت بالكامل بعدُ. في الدَّاخل وجدتُ أودسيوس ما زال نائمًا، فأيقظته وقُدته إلى القاعة، لكنَّني لم أخبره بالنُّبوءة، بل شاهدته يأكل وداعبتُ غضبي كأنَّه رأسُ سكِّين. أردت أن أبقيه حادًّا لأطول مُدَّةٍ ممكنة، إذ عرفتُ ما سيَحدث بعدها. في الرُّؤيا، رأيته عاد إلى إثاكا، أي إنَّ آخِرَ آمالي الصَّغيرة انمحى.

وضعتُ على المائدة أفضلَ أصنافي، وفتحتُ أقدم نبيذي، لكنَّ الوجبة خلت من الاستمتاع. كلَّل الشُّرود وجهه، وطيلة النَّهار ما برح يلتفت لينظُر من النَّافذة كأنَّ أحدهم سيأتي. تكلَّمنا بكياسة، لكنَّني شعرتُ به ينتظر أن يأكل الرِّجال أو يخلُدوا للفِراش، ولمَّا غاب آخِرُ أصواتهم في النَّوم ركع أمامي.

قال أودسيوس: «أيَّتها الربَّة».

لم يدعُني بهذا الاسم قطُّ. وهكذا عرفتُ، عرفتُ حقًّا. ربَّما زاره أحد الأرباب أيضًا، أو ربَّما حلمَ ببِنلوبي. انتهت معزوفتنا. نظرتُ إلى شعره الموخوط بالشَّيب، ورأيتُ كتفيْه جامدتيْن، وقد خفض نظره أرضًا. شعرتُ بحَنَقٍ باهت. يُمكنه على الأقل أن ينظُر في وجهي.

بصوتٍ عالٍ قلتُ: «ما الأمر أيُّها الفاني؟» وتحرَّكت أُسودي.

ـ «يجب أن أرحل. لقد مكثتُ وقتًا طويلًا جدًّا، ورجالي يتبرَّمون».

ـ «ارحل إذن. أنا مضيفةٌ لا سجَّانة».

عندها نظر إليَّ، قائلًا: «أعرفُ هذا يا سيِّدتي، وامتناني لكِ بلا حدود».

كانت عيناه بنِّيَّتيْن دافئتين كتُربة الصَّيف، وكلماته بسيطةً لا فنَّ فيها، وهذا بالطَّبع نوع من الفنِّ أيضًا. لطالما عرف كيف يُظهِر نفسه، ويستغلُّ هذا لأقصى درجة.

شعرتُ بأنَّه نوع من الانتقام أن أقول: «لديَّ رسالةٌ لك من الآلهة».

ردَّد وقد لاح الحذر على وجهه: «رسالة».

ـ «تقول إنَّك ستصل إلى الوطن، لكنَّها تأمرك أوَّلًا بالكلام مع النَّبيِّ تيريسياس في دار الموت».

لا عاقل يسمع شيئًا كهذا من دون أن يرتجف فَرَقًا. تيبَّس أودسيوس وشحبَ كالحجر، وسألني: «لماذا؟».

ـ «للآلهة أسبابها التي لم تشأ الإفصاح عنها».

ـ «ألن ينتهي كلُّ هذا أبدًا؟».

قالها بصوتٍ موجوع ووجهٍ كجرحٍ انفتحَ من جديد، ولحظتها فرغَ غضبي. إنَّه ليس غريمي، وطريقه سيكون شاقًّا بما فيه الكفاية من دون أن يجرح كلانا الآخر.

لمستُ صدره حيث ينبض قلب القائد العظيم، وقلتُ: «تعال. إنَّني لن أهجرك»، ثمَّ قُدته إلى حُجرتي، وهناك ذكرتُ له المعرفة التي

ظلَّت تتصاعد في داخلي طيلة اليوم بسرعةٍ وتتلاحُق مثل الفقاقيع في غدير.

ـ «ستحملك الرِّيح مرورًا بالأراضي والبحار حتى حافة عالم الأحياء. ثمَّة شريطٌ ساحليٌّ هناك، عليه بستان حوْرٍ أسود، ومياهٌ راكدة مظلمة ينمو عليها الصَّفصاف. هذا مدخل العالم السُّفلي. احفر حُفرةً بالحجم الذي سأريك إيَّاه، واملأها بدماء شاةٍ وكبشٍ أسودَيْن، وصُبَّ الخمرَ حولها. ستأتي الظِّلال الجائعة محتشدةً مشتاقةً إلى حرارة الحياة بعد أزمنةٍ طويلة في الظُّلمات».

أغلقَ عينيْه، يتخيَّل ـ ربَّما ـ الأرواحَ المنصبَّةَ من أبهائها الرَّماديَّة. لا شكَّ أنَّه سيعرِّف بعضها؛ أخيل وپاتروكلوس، آياكس، هكتور، وجميع مَن قُتل من طراوديِّين، ومن إغريق أيضًا، وأفراد طاقمه الذين أُكِلوا وما زالوا يصيحون مطالبين بالعدالة. لكنَّ ذلك لن يكون أسوأ ما في الأمر، فسيجد هناك أيضًا أرواحًا لم يتوقَّعها، أرواحَ أهل وطنه الذين ماتوا في غيابه. ربَّما والداه أو تليماكوس، ربَّما پنلوپي نفسها!

ـ «يجب أن تدرأها عن الدِّماء إلى أن يأتي تيريسياس. سيشرب حتى يرتوي ويُعطيك حكمته، ثمَّ سترجع إلى هنا لمدَّة يومٍ واحد، فقد يُمكنني أن أمدَّك بمزيدٍ من العوْن».

أومأ برأسه، وكان جفناه رماديَّيْن.

لمستُ وجنته قائلةً: «نَم. ستحتاج إلى النَّوم».

ردَّ: «لا أستطيعُ».

فهمتُ. إنَّه يعدُّ نفسه، يستجمع قوَّته من أجل خوض المعركة مرَّةً أخرى. تمدَّدنا متجاورَيْن في يقظةٍ صامتة خلال ساعات اللَّيل الطَّويلة،

ولمَّا طلعَ الفجر ساعدته على ارتداء ثيابه بيدَيَّ، فثبَّتُّ معطفه حول كتفيْه، وربطتُ حزامه وناولته سيفه.

عندما فتحنا الباب الأماميَّ وجدنا إلپينور ملقًى على الأرض الحجريَّة. أخيرًا سقط من فوق سطحي. حدَّقنا إلى شفتيْه الزَّاحفة عليهما الزُّرقة، وزاوية عُنقه القبيحة.

ـ «بدأنا». لفظَها أودسيوس باستسلامٍ كئيب، وأدركتُ ما يعنيه. ها هو ذا يرزح تحت نير الأقدار مجدَّدًا.

ـ «سأحتفظُ به لك. ليس لديْك وقت لجنازةِ الآن».

حملنا الجثَّة إلى أحد أسرَّتي ولففناها بملاءة، ثمَّ أخرجتُ مؤونةً لرحلتهم، وجلبتُ الماشية التي يحتاج إليها لأجل الطَّقس. كانت السَّفينةُ جاهزةً بالفعل، إذ هيَّأها رجالُه للإبحار قبل أيَّام، والآن حمَّلوا عليها متاعهم ودفعوها بين الأمواج. كان البحر متقلِّبًا باردًا، والهواء زاخرًا بالرَّذاذ. عليهم أن يُكافِحوا لقطع كلِّ فرسخ، وعند حدود اللَّيل ستكون أكتافهم قد تخشَّبت. فكَّرتُ أنَّه كان عليَّ أن أعطيهم مراهمَ لتليينها، ولكنْ بعد فوات الأوان.

شاهدتُ السَّفينة تُصارِع الموج حتى غابت في الأفق، وبعدها عدتُ إلى الدَّاخل، ورفعتُ الملاءة عن جثمان إلپينور. الجُثث الوحيدة التي رأيتها من قبل كانت تلك التي انطرحَت مشوَّهةً على أرضي، ولم يَعُد ممكنًا تمييز أنَّها لرجال. لمستُ صدره لأجده صُلبًا فاتر الحرارة. كنتُ قد سمعتُ أنَّ في الموت تبدو الوجوهُ أصغر سنًّا، لكنَّ إلپينور كان ضحوكًا، ومن دون شرارة الحياة امتلأ وجهه بالتَّجاعيد. غسَّلته، ومرختُ جِلده بالزُّيوت بمنتهى الحذر، كأنَّ بإمكانه الإحساس بأصابعي. وفيما

أعملُ غنّيتُ لحنًا يُصاحِب روحه في أثناء انتظارها عبور النَّهر العظيم إلى العالم السُّفلي، ثمَّ لففته بالكفن ثانيةً، وردَّدتُ تعويذةً تحفظه من التَّعفُّن، وأغلقتُ الباب ورائي.

في حديقتي كانت الأوراق الخضراء جديدةً لدرجة أنَّها برقَت كالنِّصال. مرَّرتُ أصابعي في الثَّرى مفكِّرةً أنَّ الصَّيف الرَّطب يدنو. وقريبًا عليَّ أن أبدأ تثبيت النَّباتات المعترشة على أوتاد. في العام الماضي ساعدَني أودسيوس على هذا. تحسَّستُ الخاطر كأنَّه كدمة، مختبرةً مقدار ألمه. حين يموت، هل سأكون مثل أخيل الذي ولولَ على حبيبه الفقيد باتروكلوس؟ حاولتُ أن أتخيَّل نفسي أجري هنا وهناك على الشَّواطئ، أمزِّقُ شعري وأحتضنُ قميصًا قديمًا مهترئًا تركَه، أبكي فقدان نصف روحي.

لم أستطع تخيُّل المنظر، وجلبَتْ هذه المعرفة نوعها الخاصَّ من الألم. لكنْ قد يكون هذا هو المقدَّر المحتوم، ففي القصص لا يقترن الآلهة والفانون طويلًا.

ليلتها بقيتُ في مطبخي أقشِّر أوراق تاج الملوك. سيكون أودسيوس في مواجهة موتاه الآن بالفعل. وهو راحلٌ، دسستُ في يده قارورةً، وسألته أن يجلب لي دمًا من الحُفرة التي سيَحفُرها. ستصبُّ الأطياف فيها حضورها البارد، وأردتُ أن أشعر بتلك القوَّة الرَّماديَّة اللَّا أرضيَّة. والآن ندمتُ على طلبي، فهذا شيءٌ قد يفعله پرسيس أو إيتيس، شيءٌ يليق بأحدٍ في عروقه السِّحر وحده ولا دفء.

تحرَّكتُ بحرصٍ في عملي، أصابعي مضبوطةٌ تعي كلَّ إحساس، ومن فوق رفوفها شاهدتني نباتاتي صفًّا فوق صفٍّ من الأعشاب التي حصدتُ قُواها بيدَيَّ. طاب لي أن أراها هناك في أوعيتها وقواريرها؛

العَيزُقان والورد، والفراسيون والهندباء والغار البرّي، والمولي في زُجاجتها المسدودة. وأخيرًا، في صندوقه المصنوع من خشب الأَرز، السيلفيوم المطحون مع الشّيح، العقّار الذي تعاطيته كلَّ شهرٍ منذ نمتُ مع هرميز أوَّل مرَّة... كلَّ شهرٍ ما عدا هذا الشّهر الأخير.

* * *

انتظرتُ مع حوريّاتي على الرِّمال نُشاهد السّفينة تدنو. خاض الرِّجال المياه الضّحلة إلى الشّاطئ صامتين، وقد تهدّلت وجوههم كأنّها مثقلةٌ بالحجارة، سقيمة يبدو عليها العجز. فتّشتُ في وجه أودسيوس المريع ولم أستطع قراءته. حتى ثيابهم بهتَت، خلا نسيجها من ألوانه وأمسى رماديًا. بدوا كالأسماك الحبيسة تحت طبقة جليدٍ في الشّتاء.

تقدّمتُ ملقيةً ضوء عينَيّ عليهم، وصحتُ: «مرحبًا! مرحبًا بعودتكم يا ذوي القلوب الذّهب، أيُّها الرِّجال الأصلاب! أنتم أبطال يليقون بالأساطير. لقد نفّذتم واحدًا من أعمال هرقل، رأيتم دار الموت وعشتم. تعالوا، في انتظاركم دُثرٌ مبسوطةٌ على العُشب النّاعم، وخمرٌ وطعام. استريحوا وكونوا بخير!».

تحرّكوا ببُطءٍ كالشُّيوخ، لكنّهم جلسوا إلى أطباق اللّحم المشوي وأكواب النّبيذ الأحمر القاني. قدّمنا لهم الطّعام وصببنا لهم الشّراب إلى أن عاد اللّون إلى خدودهم، وانهالت عليهم أشعّة الشّمس بحرارتها حارقةً غيوم الموت الباردة.

سحبتُ أودسيوس إلى دَغلٍ أخضر، وقلتُ: «احكِ لي».

- «إنّهم أحياء. هذا أفضل خبرٍ عندي. ابني وزوجتي حيّان، وأبي أيضًا».

أمَّا أمُّه فلا. انتظرتُ.

رمق رُكبتيْه النَّديبتيْن مواصلًا: «أجاممنون كان هناك. زوجته اتَّخذت عشيقًا، وعندما عادَ ذبحَته كالثَّور في حوض الاستحمام. رأيتُ أخيل وپاتروكلوس أيضًا، وآياكس بالجرح الذي أصابَ به نفسه. حسدوني على حياتي، لكنْ على الأقل انتهت معاركهم».

ـ «ومعركتك ستنتهي. ستَبلُغ إثاكا، لقد رأيتُ هذا».

ـ «سأبلغها، لكنَّ تيريسياس قال إنَّني سأجدُ لدى وصولي رجالًا يُحاصِرون منزلي، يأكلون مؤني ويغتصبون مكاني. يجب أن أجد وسيلةً لقتلهم، لكنْ بعدها سيُميتني البحر وأنا لا أزالُ على اليابسة. كم تحبُّ الآلهة الأحاجي».

كان صوته محمَّلًا بمرارةٍ لم أسمع مثلها فيه قطُّ.

ـ «لا يُمكنك أن تُفكِّر في ذلك. سيُعذِّبك لا أكثر. فكِّر بدلًا منه في الطَّريق أمامك، الطَّريق الذي يحملك إلى الوطن حيث زوجتك وابنك».

قال بِجهامة: «طريقي. لقد بسطَه تيريسياس أمامي. يجب أن أمرَّ بثريناكيا».

كلمته كانت سهمًا أصابَ الهدف. كم سنةً مرَّت منذ سمعتُ اسم تلك الجزيرة؟ ارتفعَت الذِّكرى أمامي؛ أختاي البرَّاقتان، والعزيزة والحسناء والأخريات، يتمايَلن كالزَّنابق في الغسق المذهَّب.

ـ «إذا لم أزعج الأبقار فسأصل إلى الوطن مع رجالي، لكنْ إذا أصابها أذًى فسيفتح أبوكِ أبواب غضبته، وستمرُّ سنواتٌ قبل أن أرى إثاكا ثانيةً ويموت رجالي جميعًا».

ـ «لن تتوقَّف إذن، لن ترسو على السَّاحل حتى».

ـ «لن أتوقَّف».

على أنَّ المسألةَ ليست بتلك البساطة، وكنَّا نعلم هذا. الأقدار تستدرج وتحتال، تضع أمامك عقباتٍ تسوقك إلى شِراكها، وكلُّ شيءٍ مسخَّرٌ لخدمتها: الرِّياح والأمواج وقلوب البشر الضَّعيفة.

قلتُ: «إذا جنحتم إلى اليابسة فالزموا البقاء على الشَّاطئ. لا تَنظُروا إلى القطعان، فلستم تعرفون كيف ستُغويكم في جوعكم. إنَّها بالنِّسبة إلى الأبقار كما الآلهة بالنِّسبة إلى البشر».

ـ «سأصمدُ».

ليس إرادته ما خشيتُ، ولكنْ ما جدوى أن أقول هذا ليجثم قولي فوق بابه كبومة الموت؟ إنَّه يعرف رجاله. وثمَّة خاطرٌ جديدٌ تصاعد من أعماقي إذ تذكَّرتُ الطُّرق البحريَّة التي رسمها لي هرميز قبل زمنٍ طال جدًّا، وتتبَّعتها في عقلي. إن مرَّ بثريناكيا فـ...

أغلقتُ عينَيَّ. عقابٌ آخر من الآلهة، له ولي أيضًا.

ـ «ما الأمر؟».

فتحتُ عينَيَّ، وقلتُ: «أصغِ إليَّ. ثمَّة أشياءُ يجب أن تعرفها»، ورسمتُ له مسار الرِّحلة، وواحدًا تلو الآخر شرحتُ له الأخطار التي عليه أن يتحاشاها، من المياه الضَّحلة إلى جُزر البرابرة إلى السَّايرينات، تلك الطُّيور ذات رؤوس النِّساء، التي تستدرج الرِّجال إلى حتفهم بغنائها. وأخيرًا لم أعد أستطع التَّأجيل، فأضفتُ: «طريقك سيجعلك تمرُّ بسكيلا أيضًا. أتعرفها؟».

كان يعرفها. شاهدتُ الضَّربةَ تهوي عليه. ستَّةُ رجال، أو اثنا عشر.

ـ «لا بُدَّ من وسيلةٍ ما لصدِّها، سلاحٌ ما يُمكنني استخدامه».

أحد أشيائي المفضَّلة فيه أنَّه يُقاتِل دومًا في سبيل فرصة. أشحتُ بوجهي كي لا أرى وجهه وأنا أردُّ: «لا، ليس هناك شيءٌ، ولا حتى لفانٍ مثلك. لقد واجهتها مرَّةً منذ زمنٍ طويل، ولم أفرَّ إلَّا بقُوى السِّحر والرُّبوبيَّة. لكنْ مع السَّايرينات يمكنك استخدام حِيَلك. املأ آذان رجالك بالشَّمع، واتركْ أُذنيْك أنت مفتوحتيْن. إذا قيَّدت نفسك إلى الصَّاري فقد تُصبح أوَّل رجلٍ يسمع أغانيهنَّ ويعيش ليحكي الحكاية. ألن تكون تلك قصَّةً جيِّدةً لزوجتك وابنك؟».

أجاب: «بلى»، لكنَّ صوته خرج باهتًا كسيفٍ مثلوم. لم يكن هناك ما يُمكنني أن أفعله. كان ينفلت من بين يدَي بالفعل.

حملنا إلبينور إلى محرقته، ومارسنا الشَّعائر من أجله، وغنَّينا عن مآثره في الحرب، ووضعنا اسمه في سجلِّ البشر الذين عاشوا. ولولَتْ حوريَّاتي، وبكى الرِّجال. أمَّا أنا وهو فوقفنا صامتيْن بأعيُنٍ جافَّة. بعدها حمَّلنا السَّفينةَ بكلِّ ما يُمكنها احتواؤه من مؤني، ووقف رجالُه عند الحبال والمجاذيف مستعجلين الرَّحيل، يتبادلون النَّظرات الخاطفة ويُجَرجِرون أقدامهم على السَّطح. شعرتُ بالخواء، كأنِّي مجوَّفةٌ كشاطىءٍ تحت قعرِ مركب.

أودسيوس بن لايرتيس، الرحَّالةُ العظيم، أميرُ الحِيَل والخِدَع وألف وتيرة. أراني ندوبه، وفي المقابل تركني أتظاهرُ بأنِّي بلا ندوب.

صعد إلى متن سفينته، ولمَّا التفتَ يبحث عنِّي لم يجدني.

الفصل الثّامن عشر

كيف قد تُصوِّر الأغاني المشهد؟ الربَّة فوق مرتفَعها الموحش، وحبيبها يتضاءل من بعيد. عيناها دامعتان ولكنْ غامضتيْن، تنظُران إلى الخواطر السرِّيَّة في داخلها. تجتمع الدَّوابُ عند حاشية فُستانها، وتُونع أشجارُ الزَّيزفون. وأخيرًا، قُبيل اختفائه في الأفق، ترفع يدًا وتجسُّ بها بطنها.

بدأت أحشائي تتهيَّج لحظةَ أن ارتفعت المرساة. أنا التي ما عرفتُ المرض في حياتي قطُّ، صرتُ أعانيه كلَّ لحظة. تقيَّأتُ حتى تمزَّق حلقي وارتجَّت معدتي بصوتٍ أجوف كجوزةٍ قديمة، وتشقَّق فمي عند رُكنيه، كأنَّ جسدي يريد أن يلفظ كلَّ ما أكلَه منذ مئة عام.

فركتْ حوريَّاتي أيديَهنَّ ذُعرًا، وقبض بعضُهن على بعض، إذ لم يرْيْن شيئًا كهذا على الإطلاق. خلال الحَمْل يتوهَّج نوعنا ويتفتَّح كالبراعم. وهكذا حسبنَني سُمّمتُ، أو لُعِنتُ بتحوُّلٍ بغيضٍ

ليبدأ جسدي في الانقلاب من الدَّاخل إلى الخارج. عندما حاولن مساعدتي دفعتهنَّ بعيدًا عنِّي. سيُسمَّى الطِّفلُ الذي أحمله نصفَ إله، لكنَّ هذه الكلمة خادعة، فمن دمي سيرث بعضَ النِّعم الخاصَّة، كالجمال أو السُّرعة أو القوَّة أو الفتنة، لكنَّ البقيَّة كلَّها ستأتي من أبيه، ذلك أنَّ في التَّكاثُر تطغى البشريَّة دومًا على الألوهيَّة، وسيخضع جسده للأخطار ومسبِّبات الموت الألف ذاتها التي تُهدِّد كلَّ إنسان، وأنا لم أئتمن على هذه الهشاشة أيَّ إلهٍ أو أيَّ فردٍ من عائلتي، لا أحد إلَّا نفسي.

بصوتي المبحوح الجديد قلتُ لهنَّ: «ارحلن الآن. لا أبالي كيف... أرسِلن إلى آبائكنَّ واذهبن. هذا لي وحدي».

لم أعرف قطُّ رأيهنَّ في كلامي هذا. هاجمَتني نوبةٌ أخرى، أعمَت عينَيَّ وأدمعتهما. ولدى وصولي إلى المنزل، كنَّ قد غادَرن. أظنُّ أنَّ آباءهنَّ أذعنوا من خشيتهم انتشار عدوى الحَمْل من فانٍ. شعرتُ بالمنزل غريبًا من دونهنَّ، لكنَّني لم أملك وقتًا للتَّفكير في ذلك، أو وقتًا للحزن على أودسيوس أيضًا. لم ينقطِع الغَثَيان، وامتطاني امتطاءً كلَّ ساعة، ولم أفهم لِمَ يُهاجِمني بهذا العُنف. تساءلتُ إن كان الدَّم البشري يُقاتِل دمي، أو إن كنتُ ملعونةً حقًّا بفعل تعويذةٍ شاردة من إيتيس ظلَّت تدور طوال الوقت، وأخيرًا وجدَتني. إلَّا أنَّ العلَّة لم تخضع لأيِّ تعويذةٍ مضادَّة، ولا حتى للمولي. قلتُ لنفسي إنَّه لا لُغز في الأمر، ألم تصرِّي دائمًا على أن تكوني صعبةً في كلِّ ما تفعلين؟

علمتُ أنَّني لا أستطيعُ الدِّفاع عن نفسي ضد البحَّارة في حالتي هذه، فزحفتُ إلى أوعية أعشابي، وألقيتُ التَّعويذة التي فكَّرتُ فيها قبل

زمنٍ طويل، الوهم الذي يجعل الجزيرة تبدو لأيِّ سفينةٍ مارَّة كصخورٍ وعرة قمينة بتحطيمها. وبعدها تمدَّدتُ على الأرض أتنفَّسُ بجهد. سأترَكَ في سلام.

سلام. لو لم أكن متوعِّكةً إلى هذا الحدّ لضحكت. لذعةُ الجُبنة الحامضة في المطبخ، رائحةُ الطَّحالب الملحيَّة المنفِّرة المحمولة على النَّسيم، التُّربةُ النَّخرة بعد المطر، الوردُ السَّقيم الذي يتحوَّل لونه إلى البنِّيّ على الشُّجيرات... كلُّ هذا رفعَ المِرَّة اللّاذعة إلى حلقي، ثمَّ بدأ صداعٌ كأشواك قنفذٍ مغروسةٍ في عينَيّ. فكَّرتُ أنَّ هكذا أحسَّ زوس بالتَّأكيد قبل أن تثب أثينا من جمجمته. زحفتُ إلى حُجرتي، واستلقيتُ في ظلام النَّوافذ المغلقة أحلمُ بحلاوة أن أجزَّ عُنقي وأضع نهايةً للألم.

لكنَّني، ورغم غرابة هذا، في خضمِّ أعتى مراتب البؤس، لم أكن بائسةً بالكامل. لقد اعتدتُ التَّعاسة الهُلاميَّة المبهمة الممتدَّة من الأفق إلى الأفق، أمَّا هذه فلها شُطآن وأعماق، لها غرضٌ وشكلٌ، وتنطوي على أمل، لأنَّها ستنتهي وتجلب لي طفلي، ابني. سواء أكان السِّحر السَّببَ أم التَّنبُّؤ في دمي، فقد عرفتُ أنَّه سيكون ابنًا.

نما، ومعه نمت هشاشته، ولم أشعر قبلها قطُّ بالسَّعادة للحمي الخالد المرتَّب حوله كالدِّرع. جذلتُ للشُّعور بركلاته الأولى، وكلَّمته كلَّ لحظةٍ فيما أطحن أعشابي وأقصُّ له ثيابًا وأجدل له مهدًا من الأسَل. تخيَّلته يمشي إلى جانبي، الطِّفلَ والفتى والرَّجلَ الذي سيصيره. سأريه كلَّ ما جمعت له من أعاجيب؛ هذه الجزيرة وسماءها، والفواكه والخراف، والأمواج والأُسود. العُزلة المثاليَّة التي لن تعود وحدةً ثانيةً أبدًا.

لمستُ بطني. ذات مرّةٍ قال أبوك إنّه يريد مزيدًا من الأطفال، لكنّك لست حيًّا لهذا السّبب. أنت لي وحدي.

***

أخبرني أودسيوس بأنّ آلام پنلوپي بدأت خفيفةً للغاية، حتى إنّها حسبَتْها مغصًا من جرّاء أكل الكثير من الكمّثرى. آلامي أنا هوَت عليّ من السّماء كالصّاعقة. أذكر زحفي إلى المنزل من الحديقة منثنيةً على نفسي من الانقباضات الممزّقة. كنتُ قد جهّزتُ عقار الصّفصاف، فشربتُ القليل منه، ثمّ الباقي كلّه. وفي النّهاية كنتُ ألعق عُنق الزُّجاجة.

لم أكن أعرف إلّا النّزر اليسير عن الوضع ومراحله وتقدُّمها. تبدّلت الظّلال، غير أنّ كلّ شيءٍ امتدّ كلحظةٍ واحدة بلا نهاية فيما يطحنني الألم طحنًا. وطوال ساعاتٍ صرختُ ودفعتُ، ومع ذلك لم يخرُج الرّضيع. عند القابلات حِيَل يُساعِدن بها على تحريك الجنين، لكنّني كنتُ أجهلها. شيءٌ واحد فهمته: إذا استغرقَ الأمرُ وقتًا أطول من اللّازم فسيموت ابني.

واستمرّت المعاناة. في غمرة الأوجاع قلبتُ طاولةً، ولاحقًا ألفيتُ الحُجرة مقلوبةً رأسًا على عقبٍ كأنّما طاحَت فيها الدّببة؛ المعلّقات منزوعة عن الجدران، والكراسي محطّمة، والأطباق مهشّمة. لم أذكر شيئًا من ذلك وعقلي يترنّح بين ألف رُعبٍ ورُعب. هل مات الجنين بالفعل؟ أم أنّني مثل أختي، ينمو في رحمي وحش؟ بدا الألمُ المطّردُ توكيدًا لمخاوفي. فلو كان الجنين سليمًا طبيعيًّا فلِمَ لم يَخرُج؟

أغلقتُ عينَيّ ودسستُ يدي في داخلي متحسّسة انحناءة رأس الجنين الملساء، فلم أجد قرنيْن أو أهوالًا أخرى بحسب تقديري. كان عالقًا فقط في الفتحة الدّاخليّة، معتصَرًا بين عضلاتي وعظامي.

صلَّيتُ لأيليثيا ربَّة الولادة، التي تتمتَّع بقوَّة إرخاء قبضة الرَّحم والإتيان بالأطفال إلى العالم، ويقال إنَّها تُشرِف على مولد كلِّ إلهٍ ونصف إله. صحتُ طالبةً منها المساعدة، لكنَّها لم تأتِ. في أركانها أنَّت الحيوانات، وبدأتُ أتذكَّر همسات بنات خالاتي في أبهاء أوقيانوس قبل دهر. إن كان إله ما لا يشاء أن يُولَد طفلٌ فإنَّه يمنع آيليثيا.

أطبقَ الخاطرُ على عقلي المنطلق. أحدُهم يمنعها عنِّي، أحدُهم يجرؤ على محاولة إيذاء ابني. مدَّني هذا بالقوَّة التي أحتاجُ إليها، وهكذا كشَّرتُ عن أنيابي للظَّلام وزحفتُ إلى المطبخ، حيث قبضتُ على سكِّينٍ وسحبتُ مرآةً كبيرةً من البرونز ووضعتها قُبالتي، لأنَّ دايدالوس لم يَعُد موجودًا ليُعينني. استندتُ إلى الجِدار الرُّخام بين سيقان الموائد المكسورة فهدَّأتني برودة الحجر. الطِّفل ليس مينوتورًا، بل فانٍ، ولذا عليَّ ألَّا أشقَّ على عُمقٍ بليغ.

خشيتُ أن يُجهِز عليَّ الألم، لكنَّني بالكاد شعرتُ به. سمعتُ صوت احتكاكٍ كالحَجَر بالحَجَر، وأدركتُ أنَّه صوت أنفاسي، وانشقَّت طبقات اللَّحم، ورأيته أخيرًا. أطرافه مطويَّة كالحلزون في قوقعته. حدَّقتُ متخوِّفةً من تحريكه. ماذا لو أنَّه ماتَ بالفعل؟ ماذا لو أنَّه لم يكن ميتًا وقتلته أنا بلمستي؟ لكنَّني سحبته إلى الخارج، والتقى جِلده الهواء، وبدأ ينوح، ونحتُ معه، فلم أسمع من قبل قطُّ صوتًا أعذب. وضعته على صدري شاعرةً بالحجارة من تحتنا ناعمةً كالرِّيش. كان يرتعد ويرتعد داسًّا وجهه الحيَّ المبتلَّ في جِلدي، وقطعتُ الحبلَ وأنا أحمله طوال الوقت.

قلتُ له: أترى؟ لسنا في حاجةٍ إلى أحد.

وردًّا عليَّ، أصدر صوتًا كنقيق الضّفادع، وأغلقَ عينيْه. ابني، تليجونوس.

***

لم أنغمس في الأمومة بسهولة، بل واجهتها كما يُواجِه الجنود أعداءهم، متأهّبين مشمّرين عن السّواعد شاهرين السّيوف استعدادًا للضَّربات المقبلة. على أنَّ تجهيزاتي كلَّها لم تكفِ. خلال الشُّهور التي أمضيتها مع أودسيوس ظننتُ أنّني تعلّمتُ بعض الحِيَل عن حياة الفانين. ثلاث وجبات في اليوم، قضاء الحاجة، الغسل والتّنظيف. قصصتُ عشرين حفاضةً من القُماش وحسبتُ نفسي حكيمةً، ولكنْ ماذا كنتُ أعرف عن الرُّضَّع الفانين؟ إيبتيس قضى أقلَّ من شهرٍ واحدٍ رضيعًا. العشرون حفاضةً لم تكفِ أكثر من اليوم الأوّل.

الشُّكر للآلهة أنّني لا أحتاجُ إلى النَّوم، ففي كلِّ دقيقةٍ عليَّ أن أغسل وأغلي وأنظِّف وأدعك وأنقع، ولكنْ أنّى لي أن أفعل ذلك وهو محتاجٌ في كلِّ دقيقةٍ إلى الطَّعام أو تبديل الحفاضة أو النَّوم؟ لطالما حسبتُ هذا الأخير أكثر شيءٍ طبيعي يفعله الفانون، أنَّه تلقائيٌّ كالتّنفُّس. وعلى الرَّغم من ذلك لم يبدُ أنّه ينام أبدًا. مهما لففته، مهما هدهدته وغنَّيتُ له، أخذ يصرُخ ويشهق ويهتزُّ إلى أن تفرَّ أُسودي، إلى أن أخاف أن يُؤذي نفسه. صنعتُ حمَّالة كتفٍ أضعه فيها كي ينام قُبالة قلبي، وأعطيته أعشابًا مهدّئةً، وأشعلتُ البخور، واستدعيتُ الطُّيور لتُغنّي عند نافذتنا، إلّا أنَّ الشَّيء الوحيد الذي ساعد هو المشي... في الحُجرات، فوق التّلال، على الشَّاطئ، وعندها يكون قد أنهكَ نفسه تمامًا، فيُغلِق عينيْه وينام. لكنْ إذا توقّفتُ أو حاولتُ أن أُنزله استيقظَ من فوره. حتى

عند مشيي بلا توقُّفٍ يستيقظ بعد قليلٍ ويستأنف الصَّريخ. في داخله، كان ما يُعادِل محيطًا بأكمله من الحرقة، يُمكن أن يُسَدَّ لحظةً فحسب ولا يَفرُغ أبدًا. كم مرَّةً في تلك الأيَّام فكَّرتُ في طفل أودسيوس الباسم! جرَّبتُ حِيلته علاوةً على جميع الحِيَل الأخرى، فرفعتُ جسد ابني الرَّخو في الهواء، وأكَّدتُ له أنَّه آمن، ليتعالى صُراخه لا أكثر. فكَّرتُ أنَّ أيًّا كان ما جعل الأمير تليماكوس سائغًا فمؤكَّدٌ أنَّ مصدره پنلوپي، أمَّا هذا فالطِّفل الذي أستحقُّه.

أحيانًا وجدنا بعض لحظات السَّلام عندما ينام أخيرًا، وعندما يرضع من ثديي، وعندما يبتسم لسربٍ من الطُّيور يتفرَّق من شجرة. حينئذٍ كنتُ أنظرُ إليه وأشعرُ بحُبٍّ ماضٍ يكاد يشقُّ لحمي. صنعتُ قائمةً بكلِّ الأشياء التي يُمكنني فعلها من أجله: أحرق جِلدي بالماء المغلي، أفقأ عينَيَّ، أمشي وأمشي إلى أن تنبري قدماي حتى العظم، فقط في سبيل أن يكون سعيدًا، بخير.

ولم يكن سعيدًا. لحظةً فقط، فكَّرتُ، لحظةً واحدةً من دون ثورته الرَّطبة بين ذراعَيَّ، لكنَّ اللَّحظة لم تأتِ قطُّ. كرهَ تليجونوس الشَّمس، كرهَ الرِّيح، كرهَ الاستحمام، كرهَ اللُّبس والعُري، والنَّوم على بطنه وعلى ظهره، كرهَ هذا العالم الرَّحب وكلَّ ما فيه، وكرهَني ـ كما بدا ـ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

فكَّرتُ في السَّاعات الطَّويلة التي قضيتها في العمل على تعاويذي والغناء والغزل، وشعرتُ بخسارتها كأنَّني فقدتُ أحد أطرافي. قلتُ لنفسي إنَّني أفتقدُ تحويل الرِّجال إلى خنازير، فعلى الأقل هذا شيء أجدته. أردتُ أن ألقيه بعيدًا عنِّي، ولكنْ بدلًا من ذلك واصلتُ

المشي في الظَّلام معه، ذهابًا وإيابًا أمام الأمواج، ومع كلِّ خُطوةٍ حننتُ إلى حياتي القديمة.

بينما يعوي، قلتُ لهواء اللَّيل بمرارة: «على الأقل لستُ أقلقُ من موته».

وأسرعتُ أطبقُ بيدي على فمي، فإله العالم السُّفلي يجيء لدعواتٍ أقل من هذه كثيرًا. ضممتُ إليَّ الوجه الصَّغير الضَّاري. كانت عيناه مغرورقتيْن بالدُّموع، وشعره منفوشًا، وعلى خدِّه خدشٌ صغير. كيف أصابَه؟ مَن الشرِّير الذي تجاسرَ على جرحه؟ تدفَّق إلى ذاكرتي كلُّ شيءٍ سمعته عن أطفال الفانين: أنَّهم يموتون بلا سبب، لأيِّ سبب، لأنَّهم بردوا أكثر من اللَّازم، أو جاعوا أكثر من اللَّازم، لأنَّهم ناموا في هذا الوضع أو ذاك. شعرتُ بكلِّ نَفَسٍ يتردَّد في صدره النَّحيل، كم هو مستبعَد، كم هو عسير أنَّ كائنًا بهذه الهشاشة، لا يستطيع أن يرفع رأسه حتى، يُمكن أن ينجو في هذا العالم القاسي! لكنَّه سينجو، سينجو ولو كان عليَّ أن أصارع ذلك الإله الخفيَّ بنفسي.

حدَّقتُ إلى الظُّلمة، وأصغيتُ كما الذِّئاب بأُذنيْن مرهفتيْن تحسُّبًا لأيِّ خطر، وأعدتُ نسج تلك الأوهام التي تجعل جزيرتي تبدو كالصُّخور الوعرة، لكنَّ خوفي لم يُبارِحني. أحيانًا يتصرَّف البشر بتهوُّرٍ من فرط اليأس. إذا رسوْا على الصُّخور رغم كلِّ شيءٍ فسيسمعون الصُّراخ ويأتون. ماذا لو أنَّني نسيتُ حِيَلي ولم أستطع أن أجعلهم يشربون؟ تذكَّرتُ القصص التي حكاها لي أودسيوس عمَّا يفعله الجنود بالأطفال. آستيانكس وجميع أطفال طروادة الذين هُشِّموا وخُوزِقوا ومُزِّقوا إلى أشلاء ودعستهم الخيول، قُتِّلوا وقُتِّلوا كي لا يعيشوا ويكبروا ويصيروا أقوياء ويأتوا يومًا ما سعيًا للانتقام.

طيلة حياتي انتظرتُ أن تجدني مأساة، ولم أشكّ ولو هنيهةً في أنّها ستجدني، لأنّني أتمتّعُ برغباتٍ وتحدٍّ وقُوى أكثر ممّا يحسبني الآخرون أستحقُّ، جميع الأشياء التي تجتذب الرّعد. مرارًا لفحَني الأسى، غير أن ناره لم تكوِ جِلدي قطُّ، وفي تلك الأيّام برزَ جنوني من يقينٍ جديد: أنّني أخيرًا التقيتُ الشّيءَ الذي تستطيع الآلهة استخدامه ضدّي.

***

واصلتُ المقاومة وكبرَ ابني. هذا هو كلُّ ما يُمكنني أن أقوله. هدأ، وهو ما هدّأني، أو ربّما العكس. لم أعد أطيلُ النّظر إليه وأفكّرُ كثيرًا في حرق نفسي بالماء المغلي، وابتسمَ هو لي للمرّة الأولى وبدأ ينام في مهده. ثمّ إنّه قضى صباحًا كاملًا بلا صُراخ، وتمكّنتُ من العمل في حديقتي. قلتُ له: طفلٌ ذكيٌّ، كنتَ تختبرني، أليس كذلك؟ فرفعَ عينيْه عن العُشب حين سمعَ صوتي، وابتسمَ ثانيةً.

لازمَتني فنائيّته لحظةً بلحظة، دائمةً كقلبٍ نابضٍ ثانٍ. الآن وقد أصبح يستطيع أن يجلس معتدلًا، ويمدُّ يده ويُمسِك هذا أو ذاك، أبرزَت كلُّ الأشياء التّقليديّة في منزلي أسنانَها الخفيّة. بدا كأنَّ القدور المغليّة على النّار تقفز قفزًا إلى أصابعه، والسّكاكين تقع من فوق المائدة على قيد شعرةٍ من رأسه، وإذا وضعته فسيأتي زُنبورٌ طنّان، أو تَخرُج عقربٌ من شقٍّ مستتر وترفع ذنَبها. بدا كأنَّ شرارات النّار تتطايَر دومًا في أقواسٍ صوب لحمه الطّري. استطعتُ أن أدرأ كلَّ خطرٍ في الوقت المناسب، لأنّني لم أبتعد عنه أكثر من خُطوة، لكنْ هذا فاقمَ خوفي من إغلاق عينَيَّ أو تركه وحده لحظةً. ستَسقُط عليه كومة الأخشاب، ستتوحّش ذئبةٌ كانت وديعةً طوال حياتها، سأصحو لأجد أفعى مرتفعةً فوق مهده بفكّيْن مفتوحيْن عن آخِرهما.

أظنُّها علامةً على التَّشويش البالغ الذي أصابَني من فرط الحُبِّ والخوف والافتقار إلى النَّوم، حتى إنَّني استغرقتُ وقتًا طويلًا جدًّا إلى أن أدركت أن الحشرات لا تأتي أفواجًا، وأنَّ سقوط عشر قدورٍ ذات صباحٍ يتجاوَز خرَقي النَّابع من الإرهاق، وإلى أن تذكَّرت أنَّ آليثيا مُنِعَت عنِّي طوال مخاضي المُمض، وإلى أن تساءلت إن كان الإله الذي فعلَ هذا وفشلَ سيُحاول ثانيةً.

***

وضعتُ تليجونوس في حمَّالته وضممته إليَّ، وسرتُ إلى البِركة الواقعة في منتصف الطَّريق إلى القمَّة، التي تعيش فيها ضفادع وأسماكُ منوة فضِّيَّةٌ وحشراتُ بُقِّ الماء، وتتشابَك حشائشها بكثافة. لا أدري لِمَ أردتُ ماءً تحديدًا في تلك اللَّحظة. قد يكون السَّببُ أثرًا ما لدم النِّيادات في عروقي.

لمستُ صفحة المياه بإصبعي، وسألتُ: «هل يسعى أحد الآلهة لإيذاء ابني؟».

ارتجفَت البِركة، وتكوَّنت صورةٌ لتليجونوس تمدَّد فيها ملفوفًا بكفنٍ من الصُّوف، رماديَّ اللَّون هامدًا. تراجعتُ شاهقةً، وتكسَّرت الرُّؤيا إلى شظايا. ولبُرهةٍ لم أستطع إلَّا التَّنفُّس ولصق وجنتي برأس تليجونوس، الذي تآكلَت الشُّعيرات الخفيفة على مؤخِّرته لتململه اللا نهائي في مهده.

وضعتُ يدي المرتعدة على الماء ثانيةً، وقلتُ: «مَن؟».

ولم يُظهِر الماء إلَّا السَّماء من فوقنا، فتوسَّلتُ: «أرجوك»، لكنْ لا جواب أتى، وشعرتُ بالهلع يتصاعَد في حلقي. كنتُ قد افترضتُ أنَّ مَن

يُهدِّدنا حوريَّةٌ ما أو أحدُ آلهة الأنهار، فحِيَل الحشرات والنَّار والحيوانات هي الحدود الطَّبيعيَّة للأرباب الأدنى، بل وتساءلتُ إن كانت أمِّي وراء الأمر وقد أصابَتها نوبةُ غيرةٍ من قُدرتي على حمل الأطفال في حين أنَّها لا تستطيع. أمَّا هذا الإله فيملك قوَّةَ الفرار من رؤياي. وفي العالم كلِّه مجموعةٌ صغيرة من هذا النَّوع من الآلهة. أبي، وربَّما جدِّي، وزوس وبعض الأوليمپ الأعظم.

ضممتُ تليجونوس إليَّ بشدَّة. من شأن المولي أن تردع تعويذةً، ولكنْ ليس رُمحًا ثلاثيًا، ليس صاعقةَ برق. تلك القُوى قادرةٌ على إسقاطي كأنَّني سُنبلةُ قمح.

أسبلتُ جفنَيَّ وقاومتُ الخوف الخانق. يجب أن أكون ذكيَّةً صافية العقل، يجب أن أتذكَّر جميعَ الحِيَل التي استخدمَها الآلهةُ الأدنى ضد الآلهةِ الأعلى منذ بداية الزَّمان. ألم يحكِ لي أودسيوس قصَّةً عن أمِّ أخيل، حوريَّة البحر، التي وجدَت وسيلةً لمفاوضة زوس؟ لكنَّه لم يَذكُر الوسيلة، وفي النِّهاية ماتَ ابنها.

شعرتُ بأنفاسي في صدري كالمنشار، وقلتُ لنفسي إنَّ عليَّ أن أعرف مَن. هذا أوَّلُ شيء، فلا يُمكنني أن أقينا من الظِّلال. أعطِني شيئًا أجابهه وأقاتله.

* * *

في المنزل، أشعلتُ نارًا صغيرةً في المدفأة، ولو أنَّنا لم نحتَج إليها. كانت اللَّيلة دافئةً والصَّيف يستحيل إلى خريف، لكنَّني أردتُ أن يعبق الهواء بالأَرز والرَّائحة النفَّاذة المنبعثة من أعشابي التي نثرتُها على اللَّهب. كنتُ واعيةً لوخزٍ في جِلدي. في أيِّ وقتٍ آخر لحسبت سببه

تبدَّل الجوّ، غير أنّه بدا لي الآن مشوبًا بالضَّغينة. انتصبَت الشُّعيراتُ على مؤخّرة عُنقي، وذرعتُ الأرض الحجريّة جيئةً وذهابًا ضامَّةً تليجونوس إليّ، إلى أن أعيَته الولولة أخيرًا وأخذَه السُّبات. وكان هذا ما انتظرته، فوضعته في مهده، ثمَّ جررتُ المهد على مقربةٍ من النَّار وأمرتُ أُسودي وذئابي بالتَّحلُّق حوله. لا يُمكنها أن تصدَّ إلهًا، لكن أكثر الآلهة جُبناء، وقد تكسب لي المخالب والأسنان بعض الوقت.

وقفتُ أمام المستوقد ممسكةً عصاي وشاعرةً في الهواء بحضورٍ قويٍّ لصمتٍ مصغٍ.

ـ «أنت يا مَن تُحاوِل قتل ابني، تقدَّم، تقدَّم وخاطِبني في وجهي، أم أنَّك ترتكب القتل من الظِّلّ فحسب؟».

ظلَّت الحُجرة ساكنةً تمامًا، ولم أسمع إلَّا أنفاس تليجونوس والدَّم في عروقي.

ثمَّ شقَّ الصَّوت الهواء: «لستُ في حاجةٍ إلى ظلال، وليس لأمثالكِ أن يُحقِّقوا في أغراضي».

صعقَت الحُجرة صعقًا، فارعةً منتصبة القامة بيضاءَ خاطفةً، مخلبًا من البرق في سماء منتصف اللَّيل. احتكَّت خوذتها المكلَّلة بشعر الجياد بالسَّقف، وتطايرَ من درعها المرآة الشَّرر، ولاحَت الحربةُ في يدها طويلةً رفيعةً، حافتها البتّارة محدَّدةٌ في ضوء النَّار. كانت يقينًا متَّقدًا، وأمامها لا مناص من أن ينكمش خوفًا كلُّ ما في العالم من تخبُّطٍ مضطربٍ ملوَّث. ابنة زوس الوضّاءة المفضَّلة، أثينا.

ـ «ما أرغبُ فيه سيتحقَّق. لا هوادة هنالك». هذا الصَّوت ثانيةً، مثل قصّ المعادن. لقد وقفتُ في حضور آلهةٍ عُظمى من قبل؛ أبي وجدِّي، وهرميز

وأبولو، إلَّا أن نظرتها ـ على خلافهم ـ اخترقَتني. في مرَّةٍ قال أودسيوس إنَّها كالنَّصل المشحوذ حتى رهافة الشَّعرة، رقيقةٌ لدرجة أنَّ المرء لا يُدرِكُ أنَّه جُرِحَ، وفي تلك الأثناء يَفرُغ دمه مع كلِّ نبضة قلبٍ على الأرض.

مدَّت يدًا لا غُبار عليها قائلةً: «أعطيني الطِّفل».

كلُّ ما في الحُجرة من دفءٍ فرَّ، وحتى النَّار المطقطقة إلى جواري بدَت كمجرَّد رسمٍ على الحائط.

ـ «لا».

ردَّت رامقةً إيَّاي بعينيْها المحبوكتيْن من الفضِّي والرَّمادي الحجري: «تُريدين معارضتي؟».

انكتمَ الهواء، وشعرتُ كأنَّني أناضلُ لالتقاط أنفاسي. على صدرها تألَّقت الأيجيس الشَّهيرة، الدِّرعُ الجِلديَّةُ المهدَّبةُ بخيوط الذَّهب، التي يُقال إنَّها مصنوعةٌ من جِلد جبَّارٍ سلخَته ودبغَته بنفسها. وخاطبَتْني عيناها البرَّاقتان متوعِّدةً: وسأرتديكِ أنتِ أيضًا إن لم ترضخي وتتوسَّلي الرَّحمة. ذبلَ لساني، وشعرتُ بنفسي أرتعشُ، لكنْ إن كان هناك شيءٌ واحد أعلمه يقينًا في هذا العالم، فهو أنَّ الآلهة لا تعرف الرَّحمة. لويتُ الجِلد بين أصابعي، فثبَّتني الألمُ الحادُّ.

قلتُ: «نعم، ولو أنَّه لا يبدو قتالًا عادلًا، أنتِ ضد حوريَّةٍ عزلاء».

ـ «أعطيني إيَّاه طواعيةً ولا داعي للقتال. سأحرصُ على انتهاء الأمر سريعًا. لن يُعاني».

لا تُصغي إلى أعدائكِ. هكذا أخبرني أودسيوس مرَّةً. انظُري إليهم، وسيُخبِركِ هذا بكلِّ شيء.

ونظرتُ. مسلَّحةً مدرَّعةً كانت، من رأسها إلى قدميْها، الخوذة والحربة والأيجيس وواقي السّاقين. منظرٌ مرعبٌ، إلهة الحرب المستعدَّة للمعركة. لكنْ لماذا كسَت نفسها بأبّهة درعها الكاملة ضدّي وأنا لا أعرفُ شيئًا عن القتال؟ ما لم يكن هنالك شيءٌ آخر تخشاه، شيءٌ يجعلها بشكلٍ ما تشعُر بأنّها عاريةٌ ضعيفة.

حملتني الغريزة ماضيةً بي قُدمًا، وآلاف السّاعات التي قضيتها في أبهاء أبي، ودهاء أودسيوس، الرّجل صاحب الحِيَل العديدة.

ـ «أيّتها الربّة العظيمة، طيلة حياتي سمعتُ قصصًا عن قوّتكِ، ولذا عليّ أن أتساءل. لقد أردتِ موت طفلي منذ فترة، ومع ذلك لا يزال حيًّا، فلِمَ؟».

بدأت تنتفخ كالثُّعبان، لكنّني تابعتُ.

ـ «ليس بوسعي إذن إلّا أن أحسب أن قتله محرَّج عليكِ، أنَّ شيئًا يمنعكِ. الأقدار، لبُغيةٍ ما عندها، لا تأذن لكِ في قتله مباشرةً».

عند كلمة «الأقدار» هذه ومضت عيناها. إنّها ربّة جدال، مولودةٌ من عقل زوس الألمعي العنيد، وإذا مُنِعَتْ من شيءٍ ولو بأمر الربّات الرّماديّات الثّلاث أنفسهنّ، فلن تستسلم ببساطة، وستعمل على تشريح العقبة وتفصيلها حتى أصغر ذرّاتها، وتُحاوِل النّفاذ منها.

أردفتُ: «لهذا عملتِ كما عملتِ، بالزّنابير والقدور السّاقطة»، ورمقتُها مضيفةً: «لا ريب أنَّ تلك الأساليب الدَّنيئة نكأت روحكِ المُحاربة».

توهَّجت يدها بالأبيض على قناة حربتها، وقالت: «لا شيء تغيَّر. يجب أن يموت الطِّفل».

ـ «وسيموت، في المئة من عُمره».

ـ «أخبِريني، كم تحسبين سحركِ سيَصمُد أمامي؟».

ـ «قدر ما تقتضي الحاجة».

قالت: «أنتِ سريعة البديهة للغاية»، وتقدَّمتْ منّي خُطوةً لتُهَسهِس ريشة الخوذة المصنوعة من شعر الخيل مع احتكاكها بالسَّقف. «لقد نسيتِ مقامكِ أيَّتها الحوريَّة. إنَّني ابنة زوس. قد لا أستطيعُ أن أوجِّه ضربتي لابنكِ مباشرةً، لكنَّ الأقدار لا تقول شيئًا عمَّا يُمكنني أن أفعله بكِ».

وضعَت الكلمات في الحُجرة بدقَّة الأحجار في لوحةٍ من الفُسيفساء. حتى بين الآلهة تُعرَف أثينا بغضبتها، ومَن ينبرون لها يُحوَّلون إلى حجارةٍ وعناكب، يُجَنُّ جنونهم، تقتلعهم الزَّوابع، يُطارَدون ملعونين إلى أطراف الأرض. وإذا جرى لي شيءٌ فإن تليجونوس...

بابتسامةٍ محايدة باردة، قالت: «نعم. ها قد بدأتِ تفهمين موقفكِ».

رفعَت عن الأرض حربتها التي لم تَعُد تلتمع، بل انسابت كظلامٍ سائلٍ في يدها. تراجعتُ ملتصقةً بجانب المهد المجدول وعقلي يتخبَّط.

قلتُ: «صحيحٌ أنَّكِ قادرةٌ على إيذائي، لكنَّ لي أبًا أيضًا، وعائلةً. إنَّهم لا يستخفُّون بعقاب دمنا طيشًا. سيغضبون، بل وقد يجدون أنفُسهم مرغمين على اتِّخاذ إجراء».

ظلَّت الحربة تتأرجح فوق الأرض، لكنَّها لم تُسدِّدها، وردَّت: «إذا قامَت الحرب أيَّتها الجبَّارة فسينتصر الأوليمب».

ـ «لو أرادَ زوس الحرب لضربَنا بصاعقة البرق منذ دهر، ومع ذلك يُحجِم. كيف ستكون ردَّةُ فعله إذا دمَّرتِ السَّلام الذي كافحَ لإقامته؟».

رأيتُ في عينيها طقطقة العدَّادات، الفِيَش تُحسَب على هذا الجانب وذاك. «تهديداتكِ فجّة. لقد أملتُ أن نتناقش بالعقل».

ـ «لا عقل ما دمتِ تسعين لقتل طفلي. إنَّكِ غاضبة على أودسيوس، لكنَّه يجهل أن للطِّفل وجودًا من الأصل. قتل تليجونوس لن يُعاقِبه».

ـ «تتجرَّئين أيَّتها السَّاحرة».

لو لم تكن حياةُ ابني على المحكّ فلربَّما ضحكتُ ممَّا رأيتُ في عينيْها. على الرَّغم من ذكائها، فإنَّها ليست موهوبةً على الإطلاق في إخفاء مشاعرها. ولِمَ تُخفيها؟ مَن يجسُر على إيذاء العظيمة أثينا بسبب أفكارها؟ أودسيوس قال إنَّها غاضبةٌ عليه، لكنَّه لم يستوعب طبيعة الألهة الحقيقيَّة. إنَّها ليست غاضبةً، وغيابها ليس إلَّا تلك الحيلة القديمة التي ذكرَها هرميز: أولي بشريَّكِ المفضَّل ظهركِ وسوقيه إلى اليأس، ثمَّ عودي ممجَّدةً، وارتعي في التَّذلُّل الذي ستنالينه.

ـ «إن لم يكن لإيلام أودسيوس، فلِمَ تسعين لموت ابني؟».

قالت: «تلك المعرفة ليست لكِ. لقد رأيتُ ما سيَحدث، وأقول لكِ إنَّ هذا الصَّبيَّ لا يُمكن أن يعيش. إذا عاشَ فستندمين ما حييتِ. إنَّكِ حنونٌ على الطِّفل ولستُ ألومكِ، لكنْ لا تدعي ولعَ الأمومةِ يغشي عقلكِ. فكِّري يا ابنة هيليوس. أليس الأكثر حكمةً أن تُعطيه لي الآن وهو يكاد لا يعرف شيئًا عن العالم، وجسدُه وعاطفتُكِ ما زالا لم يتكوَّنا بالكامل؟»، ولانَ صوتها إذ تابعَت: «تخيَّلي كم سيكون الأمر أصعب عليكِ خلال عامٍ أو اثنيْن أو عشرة، حينما يكتمل نموُّ حُبّكِ. الأفضل أن تُرسِليه بسهولةٍ إلى دار الأرواح الآن، الأفضل أن تحملي طفلًا آخر وتبدئي في النِّسيان بمسرَّاتٍ جديدة. لا يَجدُر بأمٍّ أن تشهد

موتَ طفلها، ولكنْ إن كان آتيًا لا ريب ولا سبيل آخر، فما زال التَّعويض ممكنًا».

- «التَّعويض».

سطعَ وجهها عليَّ كقلب مصهرٍ إذ قالت: «بالطَّبع. أتحسبينني أطلبُ التَّضحية من دون أن أعرض مكافأةً؟ ستنالين حظوة بالاس أثينا[1]، مودَّتي إلى أبد الآبدين. سأشيِّدُ له نُصبًا على هذه الجزيرة، وفي الوقت المناسب سأرسلُ إليكِ رجلًا صالحًا آخر لتُنجِبي منه ابنًا آخر. سأباركُ ميلاده وأحميه من كلِّ سوء. سيكون قائدًا بين الفانين، مهيبًا في المعركة، حكيمًا في المجالس، مكرَّمًا من الجميع. سيُخلِّف ورثةً ويُحقِّق لكِ كلَّ آمال الأمومة. سأحرصُ على هذا».

أثمنُ غنيمةٍ في الوجود، نادرةٌ كتُفَّاح الهسبِريدات الذَّهبي، صداقةُ أحد الأوليمبِ الصَّدوق. ستنالين كلَّ سُبل الرَّاحة، كلَّ المتاع، ولن تعرفي الخوف ثانيةً أبدًا.

حدَّقتُ إلى النَّظرة الرَّماديَّة البرَّاقة. عيناها كجوهرتيْن معلَّقتيْن تلتفَّان ليَسقُط عليهما الضَّوء. كانت مبتسمةً وقد مدَّت إليَّ يدها كأنَّها توطئةٌ لمصافحة يدي. حين تكلَّمتْ على الأطفال كادَ صوتها يَخرُج منغَّمًا كأنَّما تُهَدهِد طفلها هي، غير أنَّ أثينا بلا أطفال، ولن تحظى بهم أبدًا. حبُّها الوحيد العقل، وهو ما لم يكن والحكمةُ سواءً قطُّ.

الأطفال ليسوا أجولةً من الحبوب، يُستَبدل أحدُهم بالآخر.

---

(1) بالاس أثينا: لقب لأثينا ضاع أصله اللُّغوي اليوناني. يقول بعضهم إنه مشتق من كلمة تعني «تشهر سلاحها»، وبعضهم إنه من كلمة بمعنى «امرأة شابَّة»، في حين يزعم الفيلسوف فيلوديموس أنه كان اسم شخصيَّة مختلفة تمامًا قتلتها أثينا في معركة. (المترجم).

ـ «سأتجاهلُ حقيقة أنَّكِ تعدِّينني فرسًا تُلقَح بحسب هواكِ. اللُّغز الحقيقيُّ هو قيمةُ موت ابني الباهظة عندكِ. ما الذي سيفعله ويجعل القديرة أثينا تدفع ثمنًا فادحًا لتلافيه؟».

في لحظةٍ اختفَت نعومتُها كلُّها، وانسحبَت يدُها كبابٍ صفقَه أحدهم، وقالت: «تضعين نفسكِ في مواجهتي إذن، أنتِ بحشائشكِ وألوهيَّتكِ الزَّهيدة».

أثقلَت قوَّتها عليَّ، لكنَّ تليجونوس كان معي، ولن أتخلَّى عنه مقابل أيِّ شيء.

قلتُ: «أجل».

انسحبَت شفتاها كاشفتيْن عن أسنانها البيضاء مع قولها: «لا يُمكنكِ مراقبته طوال الوقت. في النِّهاية سآخذه».

ورحلتْ. لكنَّني قلتها على كلِّ حال، للرَّدهة الفسيحة الخالية وأُذنَي ابني الحالمتيْن: «لستِ تعرفين ما أقدرُ عليه».

الفصل التَّاسع عشر

قضيتُ ما تبقَّى من تلك اللَّيلة في المشي إقبالًا وإدبارًا مسترجعةً كلمات أثينا. ابني سيكبر ليفعل شيئًا تخشاه، شيئًا يمسُّها بشدَّة، ولكنْ ماذا؟ قالت أيضًا إنَّه شيءٌ سأندمُ عليه. مشيتُ على غير هدًى مقلِّبةً الكلام في ذهني مرَّةً تلو المرَّة، ولم أجد جوابًا. في النِّهاية أجبرتُ نفسي على تنحية الأمر جانبًا، فلا جدوى من مطاردة أحاجي الأقدار. الخلاصة أنَّها ستظلُّ تكرُّ علينا بلا هوادة.

متبجِّحةً قلتُ إنَّ أثينا لا تعرف ما أقدرُ عليه، لكنَّ الحقيقة أنَّني لم أعرف أيضًا. لا أستطيعُ أن أقتلها، ولا أستطيعُ أن أحوِّلها. ولا نستطيع أن نسبقها، ولا نستطيع أن نختبئ. ولا وهم أصنعه يُمكنه حجبَنا عن نظرتها الثَّاقبة. سرعان ما سيبدأ تليجونوس المشْيَ والجرْيَ، وكيف أحفظُ سلامتَه وقتها؟ ارتفعَ في مخِّي رُعبٌ أسود. إن لم أفكِّر في شيءٍ فستتحقَّق رؤيا البِركة، جسده الشَّاحب البارد المكفَّن.

لا أذكرُ من تلك الأيَّام إلَّا شذرات. بتركيزٍ عميق كززتُ على أسناني وأنا أجوبُ الجزيرة لأنقِّب عن الزُّهور وأطحنُ الأعشاب، وأستقصي كلَّ ريشةٍ وحجرٍ وجذرٍ على أمل أن يُساعِدني أحدها، فتمايلت أكوامها في أنحاء المنزل، وصار الهواء زاخرًا بذرَّات الغُبار. قطَّعتُ وغليتُ بعينيْن متَّسعتيْن محملقتيْن كحصانٍ أفرط صاحبه في امتطائه، وخلال عملي أبقيتُ ابني مضمومًا إليَّ من شدَّة خوفي من تركه. كرهَ تليجونوس هذا التَّقييد وصرخَ، وأخذَت قبضتاه السَّمينتان تدفعان صدري.

أينما سرتُ شممتُ صهد جِلد أثينا الحديدي. لم أدرِ إن كانت تستفزُّني أم أنَّ فزعي جعلني أتخيَّلُ ذلك، لكنَّه دفعني إلى الأمام كمهماز الفرس. من يأسي، حاولتُ تذكُّر كلّ قصَّةٍ حكاها أعمامي عن الإطاحة بأحد الأوليمپ، وفكَّرتُ في مناداة جدَّتي، وحوريَّات البحر، وأبي، وأن ألقي نفسي على أقدامهم. لكنْ، حتى إذا رغبوا في مساعدتي فلن يجسُروا على التَّصدِّي لأثينا في ثائرتها. لربَّما جرؤ إيتيس، إلَّا أنَّه يكرهني الآن. وياسيفاي؟ لا يستحقُّ الأمر مجرَّد السُّؤال.

لا أعرفُ في أيِّ فصلٍ كنَّا أو في أيِّ وقتٍ من اليوم. لم أرَ إلَّا يدَيَّ تعملان بلا انقطاعٍ أمامي، وسكاكيني المتَّسخة والأعشاب المهروسة والمطحونة على الطَّاولة، والمولي التي غليتها مرَّةً ومرَّتيْن. غابَ تليجونوس في النَّوم ومال رأسه إلى الوراء، وقد بقيَ احتقان الغضب على وجنتيْه. توقَّفتُ لالتقاط أنفاسي وتثبيت نفسي، ولمَّا رمشتُ شعرتُ بحكَّةٍ في جفنَيَّ. لم تعُد الجُدران تبدو من الحجر، بل من قُماشٍ ناعمٍ يرتخي إلى الدَّاخل. كنتُ قد اجتثثتُ فكرةً أخيرًا، وإن احتجتُ إلى شيءٍ معيَّن لتنفيذها، إلى تذكارٍ من دار هيدز. لقد مرَّ الموتى حيث لا

يستطيع أكثر الآلهة الذهاب، ومن ثمَّ يستطيعون صدَّ نوعنا على عكس الأحياء. على أن لا سبيل للحصول على تذكارٍ كهذا، فلا آلهة ـ باستثناء مَن يَحكُمون الأرواح ـ لهم أن يطأوا العالم السُّفلي. قضيتُ ساعاتٍ رائحةً غاديةً في تكهُّناتٍ بلا طائل، كأنْ أحاول حضَّ إلهٍ جحيميٍّ على اقتطاف باقةٍ من زهور العيصلان الرَّماديَّة أو اغتراف القليل من مياه ستيكس، أو أبني طوفًا وأُبحر به إلى حافة العالم السُّفلي، ثمَّ أستعين بحيلة أودسيوس لأجتذب الأشباح إلى الخارج وأعبِّئ شيئًا من دُخانها. ذكَّرتني الفكرة بالقارورة التي ملأها لي أودسيوس بالدَّم من حُفرته. الأطياف مسَّتها بشفاهها النَّهمة، ولعلَّها لا تزال تحوي رائحةَ أنفاسها. أخرجتها من صندوقها، ورفعتها في الضَّوء لأرى السَّائل القاتم يسبح وراء زُجاجها. قطرةً واحدةً صببتُ، وطيلة اليوم عملتُ عليها، أرشِّحها وأستخرجُ تلك الرَّائحة الخافتة. أضفتُ المولي لأقوِّيها وأشكِّلها، فيما يدقُّ قلبي بالتَّبادُل بين الأمل واليأس: ستنجح، لن تنجح.

انتظرتُ حتى نامَ تليجونوس ثانيةً، فلم أستطع حشد التَّركيز المطلوب وهو يتململ على صدري. صنعتُ تعويذتيْن ليلتها؛ إحداهما تحمل قطرة الدَّم والمولي، وفي الثَّانية شذورٌ من كلِّ جزءٍ من الجزيرة، من جروفها إلى سهولها الملحيَّة. عملتُ بهياجٍ عظيم، ولمَّا طلعَت الشَّمسُ كنتُ أحملُ أمامي قنِّينتيْن مسدودتيْن.

جاشَ صدري إنهاكًا، غير أنَّني أبيتُ الانتظارَ ولو لحظةً أخرى. أبقيتُ تليجونوس مربوطًا إليَّ، وصعدتُ إلى أعلى ذُرى الجزيرة: شريط من الصُّخور الجرداء تحت السَّماء المعلَّقة. ووضعتُ قدمَيَّ على الحجر صائحةً: «أثينا تبتغي قتل طفلي، وهكذا أدافعُ عنه. اشهدوا قوَّة سرسي ساحرة آيايا».

وصببتُ عقّار الدّم على الصّخر ليُهَسهِس كالبرونز المصهور في الماء، وفي الهواء ثار دخانٌ أبيض، وارتفعَ وانتشرَ متلاحمًا ومكوّنًا قوسًا عظيمًا فوق الجزيرة أغلقَها علينا، طبقةً من الموت الحي. إذا أتت أثينا فستُرغَم على الابتعاد كقرشٍ بلغ مياهًا عذبةً.

التّعويذة الثّانية ألقيتها تحت الأولى، سحرها مجدول بالجزيرة ذاتها، بكلّ طائرٍ وحيوانٍ وحبّة رمل، بكلّ ورقةٍ وصخرةٍ وقطرة ماء. علّمتها وجميع ما في بطونها من أجيالٍ باسم تليجونوس، فإذا استطاعَت أثينا اختراق الدُّخان يومًا فستنتفض الجزيرة ذاتها دفاعًا عنه، الحيوانات والطُّيور، والأغصان والصُّخور، والجذور في الأرض.. وحينئذٍ، سنتصدّى لها معًا.

وقفتُ تحت الشّمس في انتظارِ رد؛ صاعقة برقٍ حارقة، أو حربة أثينا الرّماديّة تُثبّت قلبي بصخرة. سمعتُ نفسي ألهثُ بعض الشّيء، فثقلُ هاتيْن التّعويذتيْن يُحني عُنقي كالنّير، لأنّهما أقوى من أن تَصمُدا بنفسيْهما، وعليّ ساعةً بعد ساعةٍ أن أحملهما معي وأدعمهما بإرادتي، وأجدّدهما بالكامل كلّ شهر. سيستغرق هذا منّي ثلاثة أيّام؛ واحدًا لجمع قطع الجزيرة كلّها، الشّواطئ والكهوف والمروج، الحراشف والرّيش والفراء؛ وواحدًا لخلطها؛ ويومًا ثالثًا من أقصى درجات التّركيز لاستخراج رائحة الموت النّتنة من قطرات الدّم التي أكتنزها. وطوال الوقت سيتلوّى تليجونوس ويعوي على صدري، وتتضاعَف وطأة التّعويذتين على كتفَيّ. ولا شيء من ذلك همّني. لقد قلتُ إنّني سأفعلُ أيَّ شيءٍ من أجله، والآن سأثبتُ هذا وأسدُّ السّماء.

بتوتُّرٍ انتظرتُ طيلة الصّباح، لكنْ لا ردَّ أتى. وفي النّهاية، أدركتُ أنَّ الأمر انتهى، أنّنا حُرّان، ليس من أثينا فحسب بل منهم جميعًا.

تمسّكت التّعويذتان بي، لكنّني شعرتُ بالخفّة. للمرّة الأولى آيايا لنا وحدنا. بانتشاءٍ ركعتُ وحللتُ ابني المغالب ووضعته على الأرض حُرًّا، وأخبرته: «أنت آمن. يُمكننا أن نعرف السّعادة أخيرًا».

كم كنتُ حمقاء. كلُّ تلك الأيّام من خوفي وتقييده كانت بمثابة دَيْنٍ لا بُدّ من أن يُسدّد. انطلقَ تليجونوس في أنحاء الجزيرة رافضًا الجلوس أو حتى التّوقّف لحظةً. صحيحٌ أنّ أثينا أعيقَت عنّا، لكنّ جميع أخطار الجزيرة التّقليديّة بقيَت، من صخورٍ وجروفٍ وكائناتٍ تلدغ انتزعتها من يديْه، ومتى حاولتُ الإمساك به ركضَ كالسّهم بتحدٍّ نحو هاويةٍ ما. بدا غاضبًا من العالم، من الحَجَر الذي لا يستطيع رميه بعيدًا بما فيه الكفاية، من ساقيْه اللّتيْن لا تجريان سريعًا بما فيه الكفاية. أرادَ صعود الأشجار على غرار الأُسود، بوثبةٍ واحدة كبيرة، ولمّا عجزَ عن ذلك راح يضرب الجذوع بقبضتيْه.

حاولتُ أن أحتويه بذراعَيّ وأقول له: صبرًا، ستأتيك قوّتك مع الوقت، لكنّه تملّص منّي صارخًا، وفشل كلُّ شيءٍ في مواساته. فهو لم يكن من الأطفال الذين تُلوّح لهم بشيءٍ لامع وينسونه. أعطيته أعشابًا مهدّئةً، وسقيته حليبًا مخلوطًا بالنّبيذ، وعقاقير نومٍ أيضًا، لكنّها لم تفعل شيئًا. الشّيء الوحيد الذي هدّأه هو البحر، الرّيح المضطربة مثله والموج المفعم بالحركة. اعتادَ الوقوفَ وسْط زبدِ الأمواج المتكسّرة ويده في يدي، يُشير إلى هذا وذاك، فأقول له.. الأفق، السّماء المفتوحة، الموجُ والمدُّ والجَزر والتيّارات. ويقضي ما تبقّى من اليوم في الهمس بالأسماء لنفسه. وإذا حاولتُ أن أسحبه وأريه شيئًا آخر كالفواكه أو الأزهار أو تعويذةٍ صغيرة، يقفز بعيدًا عنّي قالبًا سحنته. لا!

الأسوأ كان الأيَّام التي عليَّ فيها تشكيل التَّعويذتيْن مجدَّدًا. متى أردته فرَّ منِّي، ولكنْ بمجرَّد أن أبدأ عملي شرعَ يدقُّ الأرض بكعبيْه باكيًا يُريد انتباهي. أعده بأنِّي سآخذه إلى البحر غدًا، لكنَّ ذلك لا يعني له شيئًا، ويُمزِّق المنزل إربًا إربًا ليُلفت نظري. كان قد كبرَ قليلًا ونما عن الحمل على صدري، ومعه كبرَت المصائب التي يستطيع ارتكابها، فقلبَ طاولةً عليها كومةٌ من الأطباق، وتسلَّق الأرفُف وحطَّم قواريري. أمرتُ الذِّئاب بمراقبته، لكنَّها وجدَته أصعب من قُدرتها، وهربَت إلى الحديقة. شعرتُ بهلعي يتفاقَم. ستنفد التَّعويذة قبل أن أستطيع إلقاءها، وستصل أثينا الحانقة.

أعلمُ ما كنته في تلك الأيَّام: غير متَّزنة، غير ثابتة، قوسًا رديء الصُّنع. كلُّ عيبٍ فيَّ كشفَته تربيته، كلُّ أنانية، كلُّ نُقطة ضعف. في يومٍ حانَ فيه تجديد التَّعويذتين، أمسكَ وعاءً زُجاجيًّا كبيرًا وحطَّمه شظايا على قدميْه الحافيتيْن، وهرعتُ لأختطفه وأكنسُ وأمسحُ، لكنَّه هوى عليَّ بقبضتيْه كأنَّني سلبته أعزَّ أصدقائه. أخيرًا اضطررتُ لوضعه في حُجرة نومٍ وإغلاق الباب بيننا، فصرخَ وصرخَ وسمعتُ دقًّا كأنَّه رأسه على الحائط. فرغتُ من التَّنظيف وحاولتُ أن أعمل، لكنَّ رأسي نفسه كان قد بدأ يدقُّ أيضًا. ظللتُ أفكِّرُ أنَّني إذا تركتُ ثائرته تثور وقتًا كافيًا فمؤكَّدٌ أنَّه سيستنزف قُواه في النِّهاية ويروح في النَّوم، إلَّا أنَّه استمرَّ بضراوةٍ أشد وأشد حتى استطالَت الظِّلال. النَّهار يمرُّ والتَّعويذتان لم تنتهيا بعدُ. من السَّهل أن أقول إنَّ يدَيَّ تحرَّكتا من تلقائهما، لكنَّ الأمر لم يكن كذلك. كنتُ غاضبةً مشتعلةً.

لقد أقسمتُ لنفسي دومًا ألَّا أستخدم معه السِّحر، إذ بدا لي طُغيان إرادتي على إرادته شيئًا يليق بإيبتيس، لكنَّني في تلك اللَّحظة

قبضتُ على الخشخاش وعقاقير النَّوم والمكوِّنات الأخرى كلِّها، وغليتها حتى طشَّت، ثمَّ دخلتُ الحُجرة حيث وجدته يَركُل قطعَ المصراع الذي انتزعَه من النَّافذة، وقلتُ له تعال واشرب هذا.

شربَ وعادَ إلى التَّحطيم، لكنَّني لم أعد أمانع. كانت مشاهدة هذا شبه مبهجة. سيتعلَّم الدَّرس، سيفهم مَن هي أمُّه. نطقتُ الكلمة.

وسقط كحجرٍ منهار، وارتطم رأسه بالأرض بصوتٍ عالٍ لدرجة أنَّني شهقتُ، وهرعتُ إليه. لقد حسبتُ الأمر سيكون مثل النَّوم، أنَّه سيُغلِق عينيْه بهدوء، لكنَّ جسده كلَّه تيبَّس، تجمَّد في منتصف حركته، والتوَت أصابعه كالمخالب وانفتحَ فمه، وشعرتُ بجِلده باردًا تحت أصابعي. قالت ميديا إنَّها تجهل إن كان العبيد في أبهاء أبيها يُدرِكون ما يَحدث لهم، أمَّا أنا فعرفتُ، فوراء النَّظرة الخاوية في عينيْه استشعرتُ الارتباك والذُّعر.

صرختُ رُعبًا، وانكسرَت التَّعويذة. ارتخى جسده، ثمَّ اندفعَ يبتعد محملقًا إليَّ بشراسةِ كحيوانٍ محاصَر في رُكن. بكيتُ شاعرةً بخزْيٍ حار كالدِّماء، وقلتُ له إنَّني آسفة مرَّةً بعد مرَّة. تركَني أذهبُ إليه وأضمُّه بذراعَيَّ. وبرفقٍ لمستُ التَّورُّم الذي برزَ حيث أصابَ رأسه، ونطقتُ كلمةً أخفِّفه.

عندئذٍ كانت الغُرفة قد أظلمَت، وفي الخارج رحلَت الشَّمس. حملته في حجري أطول فترةٍ جرؤتُ عليها، أتمتمُ له وأغنِّي، ثمَّ حملته إلى المطبخ ووضعتُ له العشاء، فأكله متشبِّثًا بي وانتعشَ. ثمَّ إنَّه نزل وعادَ يجري صافقًا الأبواب، وساحبًا كلَّ ما يستطيع الوصول إليه من فوق الرُّفوف. شعرتُ في نفسي بتعبٍ جعلني أحسبُ أنَّني سأغوصُ في الأرض، وكلَّما مرَّت لحظةً ظلَّت التَّعويذة ضدَّ أثينا منقوصةً.

ظلَّ ينظر إليَّ من فوق كتفه، كأنَّه يتحدَّاني أن أهاجمه، أسحره، أضربه، لا أدري! بدلًا من ذلك، شببتُ إلى أعلى رفٍّ لألتقط جرَّة العسل الخزفيَّة التي لطالما اشتاق إليها، وقلتُ له هاك، خُذها.

وجرى إليها وأخذَ يُدوِّرها إلى أن انكسرَت، وبعدها تمرَّغ في البِرك اللَّزجة، وانطلقَ هنا وهناك تاركًا آثارًا من العسل تلعقها الذِّئاب. وهكذا فرغتُ من التَّعويذتيْن. استغرقَ تحميمه وحمله إلى السَّرير وقتًا طويلًا، لكنَّه تمدَّد أخيرًا تحت الألحفة، وأمسكَ يدي قابضًا عليها بأصابعه الصَّغيرة الدَّافئة. أعملَ الذَّنبُ والخزْيُ نفسيهما فيَّ كالمنشار، وفكَّرتُ أنَّه يَجدُر به أن يكرهني، أن يهرب، ولكنْ ليس لديْه إلَّاي. بدأت أنفاسه تنتظم وأطرافه تسترخي، فهمستُ: «لِمَ لا تكون أهدأ؟ لِمَ يجب أن تكون صعبًا هكذا!؟».

لحظتها، كأنَّه جواب، سبحت رؤيا لأبهاء أبي أمامي، الأرض التُّرابيَّة القاحلة، ولمعة السَّبج السَّوداء. سمعتُ صوتَ قطع اللُّعبة على رُقعتها، ورأيتُ ساقَيْ أبي الذَّهبيَّتيْن إلى جواري. استلقيتُ هادئةً ساكنةً، لكنَّني تذكَّرتُ ما كان في داخلي دائمًا من جوعٍ مفترس، جوعٍ للجلوس في حجر أبي، للنُّهوض والجرْيِ والصِّياح، لاختطاف الفيشات من فوق الرُّقعة وتهشيمها على الحوائط، للتَّحديق إلى الحطب حتى تندلع فيه النَّار، لهزِّ أبي سائلةً إيَّاه عن كلِّ سرٍّ كما تُهَزُّ الأشجار من أجل الفاكهة. لكن لو فعلتُ ولو واحدًا من تلك الأشياء لما قُوبِلتُ بالرَّحمة، بل لحرقَني وأحالَني إلى رماد.

ترقرقَ القمر على جبهة ابني، ورأيتُ البقعَ التي لم يُنظِّفها الماء والمنشفة تمامًا. لِمَ يكون مسالمًا؟ أنا لم أكن كذلك قطُّ. الفرق أنَّه لا يخشى الحريق.

* * *

خلال الأيّام الطّوال التّالية تمسّكتُ بالفكرة كأنّها قائمٌ سيُنقِذني من الغرق، وساعدَني هذا بعض الشّيء، فإذا حدجَني بنظرة السُّخط والتّحدي شاحذًا روحه كلّها ضدّي، أمكنَني استرجاع الفكرة والتقاط نَفَسٍ آخر.

ألفَ عامٍ عشتُ، لكنّها لم تمرّ عليّ بطول طفولة تليجونوس. دعوتُ أن يبدأ الكلام مبكّرًا، ثمّ ندمتُ على هذا، لأنّه أكسبَ أعاصيره صوتًا لا أكثر. يصيح لا، لا، لا، وينتزع نفسه منّي، وبعد لحظةٍ يتسلّق ساقَيّ إلى حُجري صائحًا أمّي، إلى أن تُوجِعني أذناي وأقول له هأنذي، أنا هنا! غير أنّه لا يعدُّني قريبةً بما فيه الكفاية. طوال اليوم أمشي معه وألعبُ ما يطلُبه من ألعاب، لكنْ إذا حاد انتباهي عنه لحظةً واحدةً هاج وماجَ وولولَ متعلّقًا بي. وفي تلك الأوقات حننتُ إلى حوريّاتي، إلى أيِّ أحدٍ أقبضُ على ذراعه، وأسأله: ما خطبه؟ ثمّ ينتابني الشّرور في اللّحظة التّالية، لأنّ أحدًا لا يرى ما فعلتُ به إذ تركتُ شهور خوفي الأولى تلك تنهال بمطارقها على أمّ رأسه. لا غرو أنّه ثائر.

ملاطفةً قلتُ له تعال، لنفعل شيئًا مسلّيًا، سأريك السّحر. هل أحوّل لك هذه التّوتة؟ لكنّه ألقاها وركض إلى البحر ثانيةً. كلَّ ليلةٍ بعد نومه أقف إلى جانب سريره، وأقول لنفسي غدًا سأبلي بلاءً أحسن. وفي بعض الأحيان حدث هذا فعلًا، في بعض الأحيان كنّا نجري ضاحكيْن إلى الشّاطئ، ويجلس مستريحًا في حجري ونحن نتفرّج على الموج. تظلُّ قدماه تَرفُسان وتظلُّ يداه تشدّان جِلد ذراعَي بلا توقُّف، لكنَّ رأسه يستقرُّ على صدري، وأشعرُ بالأنفاس تتردّد في صدره، فيفيض صبري وأقول في قرارة نفسي اصرُخ كما شئت، إنّني أستطيعُ الاحتمال.

إنَّها الإرادةُ، في كلِّ ساعة، الإرادةُ. هي في النِّهاية كالتَّعويذة، ولو أنَّها تعويذةٌ ألقيتها على نفسي. كان تليجونوس نهرًا عظيمًا في موسم الفَيَضان، وعليَّ أن أجهِّز كلَّ لحظةٍ قنواتٍ يتدفَّق إليها وابله بأمان. بدأتُ أحكي له قصصًا، أشياءَ بسيطةً عن أرنبٍ يبحث عن طعامٍ ويجده، وعن صغيرٍ ينتظر وتأتي أمُّه، فهلَّل طالبًا المزيد.. وهكذا استمررتُ. أملتُ أن تُهدِّئ تلك الحكايات اللَّطيفة روحه المقاتلة، وربَّما فعلَت حقًّا. ذات يومٍ أدركتُ أنَّ القمر طلعَ واحتجبَ منذ ألقى نفسه على الأرض، ثمَّ مرَّ قمرٌ آخر. وفي وقتٍ ما خلال تلك الشُّهور كانت آخرَ مرَّةٍ صرخَ. ليتني أذكرُ متى! لا، ليتني بالأحرى أخبرتُ نفسي متى ستأتي اللَّحظة، لأقضي كلَّ تلك الأيَّام اليائسة متطلِّعةً إلى أفقها.

من عقله نمَت أوراقُ شجر، أفكارٌ وكلماتٌ بدَت كأنَّما تنبثق من الهواء. كان في السَّادسة من عمره. صفَت ملامحه وبدأ يُشاهِدني أعملُ في الحديقة، أعملُ سكِّيني في جذرٍ ما. في مرَّةٍ وضعَ يده على كتفي قائلًا: «أمِّي، جرِّبي القطع هنا»، وأخرجَ سكِّينًا صغيرًا بدأ يحمله معه، وانقطعَ الجذر بسهولة، ليقول برصانة: «أرأيتِ؟ الأمر سهل».

ولم يزل يحبُّ البحر، ويعرف كلَّ قوقعةٍ وسمكة. صنعَ أطوافًا من جذوع الأشجار وطفا عليها في الخليج، ونفخَ الفقاقيع في البِرك المدِّيَّة، وشاهد السَّراطين تتحرَّك حركتها العرْضيَّة. شدَّني من يدي قائلًا: «انظُري إلى هذا. لم أرَ واحدًا أكبر، لم أرَ واحدًا أصغر، هذا ألمعها، هذا أشدُّها سوادًا، هذا السَّرطان فقدَ مخلبًا، والجديد ينمو أكبر حجمًا ليأخذ مكانه. أليس هذا ذكاءً؟».

مرَّةً أخرى تمنَّيتُ لو أنَّ هناك أحدًا آخر على الجزيرة، ليس ليُواسيني بل ليُشارِكني الاعتزاز به. عندها كنتُ لأقول انظُر، أتصدِّق

هذا؟ لقد عبرنا الصُّخور والرِّيح، خذلته لكنَّه واحدٌ من أعاجيب العالم العذبة.

التوَت قسماتُه إذ رأى عينَيَّ دامعتيْن، وقال: «أمِّي، سيكون السَّرطان بخير. لقد أخبرتكِ، المخلب ينمو من جديدٍ بالفعل. والآن تعالي وانظُري إلى هذا. إنَّ له بُقعًا كالأعيُن. أتحسبينه يستطيع الرُّؤية بها؟».

في اللَّيل، لم يَعُد يُريد قصصي، بل اختلقَ قصصه الخاصَّة. أظنُّ أنَّ القصص هي ما ذهبَت إليه ضراوتُه، لأنَّ كلَّ واحدةٍ عجَّت بالكائنات العجيبة، جَرافِنٍ ولَوِياثانات وكمِّيرات تأتي لتأكل من يديْه، ويقودها في مغامراتٍ أو يتغلَّب عليها بحِيَلٍ بارعة. قد يكون أيُّ طفلٍ لا يعرف صُحبةً غير أمِّه واسع الخيال، لا يُمكنني الجزم بذلك، لكنَّ النَّشوة لاحَت على وجهه متى صوَّر تلك الرُّؤى. بدا أنَّه يكبر كلَّما مرَّ يوم، من الثَّامنة إلى العاشرة إلى الثَّانية عشرة، وباتَت نظرته جادَّةً وأطرافه طويلةً قويَّةً، وصار من عادته النَّقر بإصبعٍ واحدة على الطَّاولة عندما يشرح المغزى الأخلاقيَّ كرجلٍ عجوز، لا سيَّما في قصص الشَّجاعة وجزاء الفضيلة. **ولذا لا يجب أبدًا أن، عليكِ دائمًا أن، لهذا ينبغي للمرء أن...**

أحببتُ يقينه، عالمه السَّهل حيث الفاصل بين الصَّواب والخطأ واضحٌ قاطع، حيث هناك أخطاءٌ عواقبُ ووحوشٌ تُهزَم. لم يكن عالمًا أعرفه، لكنَّني أردتُ الحياة فيه ما دام يسمح لي.

في واحدةٍ من تلك اللَّيالي الصَّيفيَّة، والخنازير ترعى بهدوءٍ تحت نافذتنا، عندما كان في الثَّالثة عشرة، ضحكتُ وقلتُ: «إنَّ عندك حكاياتٍ أكثر من أبيك».

رأيته يتردَّد كأنَّني طائرٌ نادرٌ يخشى أن يُفزِعه فيهرب. كان قد سأل عن أبيه من قبل، لكنَّني في كلِّ مرَّةٍ أجبته: ليس بعدُ.

ابتسمتُ وقلتُ له: «هلمَّ، سأجيبك. حانَ الوقت».

ـ «مَن هو؟».

ـ «أميرٌ زارَ هذه الجزيرة. كان يعرف ألفَ حيلةٍ وحيلة».

ـ «وماذا كان شكله؟».

حسبتُ قبلها أن مذاق ذكرياتي عن أودسيوس سيكون مالحًا، لكنَّني اكتشفتُ لذَّةً في تصويره. «داكن الشَّعر، داكن العينيْن، في لحيته احمرار. كانت يداه كبيرتيْن وساقاه قصيرتيْن قويَّتيْن. لطالما كان أسرع ممَّا تحسبه».

ـ «لماذا رحلَ؟».

سؤال كشتلة سنديان، برعم أخضر بسيط فوق الأرض، لكنْ تحتها يَنقُب الجذر الوتديُّ منتشرًا في الأعماق.

أخذتُ شهيقًا، ثمَّ أجبتُ: «حين رحل لم يكن يَعْلم أنَّني أحملك. كانت له زوجةٌ في الوطن، وابنٌ أيضًا. لكنَّ المسألة أكبر من هذا. الآلهة والفانون لا يبقون معًا بسعادة. كان محقًّا في الرَّحيل عندما فعلَ».

سألني ووجهه مقطَّب تفكيرًا: «كم كانت سِنُّه؟».

ـ «لم يتعدَّ الأربعين بكثير».

رأيته يعدُّ، ثم يقول: «إذن لم يَبلُغ الستِّين بعدُ. أما زال حيًّا؟».

وجدتُ التَّفكير في هذا غريبًا؛ أودسيوس يمشي على ساحل إثاكا ويتنسَّم هواءها. منذ وُلِدَ تليجونوس حظيتُ بوقتٍ قليل للغاية

للأحلام، لكنّني شعرتُ بالصُّورة واقعيَّةً سليمةً أمامي. «على ما أعتقدُ. لقد كان قويًّا للغاية، أعني روحًا».

الآن وقد انفتحَت البوَّابات، ابتغى معرفةَ كلّ ما أذكره عن أودسيوس؛ نسبه ومملكته وزوجته وابنه واهتمامات طفولته ومآثره في الحرب. كانت القصص لا تزال في داخلي حيَّةً كما حكاها أودسيوس أوَّل مرَّة، تلك المؤامرات الخبيثة والمحن العديدة. على أنَّ شيئًا غريبًا حدث عندما بدأتُ أسردها على تليجونوس، إذ وجدتُ نفسي أتردَّدُ، أحذفُ، أبدّلُ. في وجود وجه ابني أمامي تجلَّت وحشيَّتها البالغة كما لم يَحدث من قبل، وما اعتبرته مغامراتٍ بدا قبيحًا مغرقًا في الدَّمويَّة. حتى أودسيوس نفسه تغيَّر، غدا قاسي القلب بدلًا من صلابته. المرَّات القليلة التي تركتُ فيها قصَّةً كما هي، عبسَ ابني وقال: لم تحكِها بشكلٍ صحيح، لا يُمكن أن يفعل أبي شيئًا كهذا.

فأقول: إنَّك على حق، أبوكَ أطلقَ سراح الجاسوس الطروادي الذي يضع قبَّعةً من جِلد ابن عرس، وعاد إلى بيته وأسرته بأمان. أبوك كان يبرُّ بكلمته دائمًا.

وعندها تتهلَّل أساريره، ويقول: «كنتُ أعلمُ أنَّه رجلٌ شريف. احكي لي المزيد من أفعاله النَّبيلة». وهكذا أغزلُ كذبةً جديدةً. أكان أودسيوس ليُؤنِّبني؟ لم أدرِ، ولم أبالِ. كنتُ لأفعل ما هو أسوأ، أسوأ كثيرًا، للحفاظ على سعادة ابني.

بين الفينة والفينة في تلك الأيَّام تساءلتُ عمَّا سأقوله لتليجونوس إذا سألني عن قصصي أنا، وكيف ألمِّعُ حكايات إيبتيس وپاسيفاي وسكيلا والخنازير. وفي النِّهاية لم أضطرَّ إلى المحاولة، لأنَّه لم يسأل قطُّ.

بدأ يقضي ساعاتٍ طويلةً بعيدًا على الجزيرة، ولدى عودته أجده محتقنَ الوجه يسيل من فمه الكلام. كانت أطرافُه تتمدَّد، وبدأتُ أسمعُ النَّبرةَ الخشنة في صوته. أخبِرِيني بالمزيد عن أبي. أين تقع إثاكا؟ ما طبيعتها؟ كم تبعُد عن هنا؟ وما الأخطار التي في الطَّريق؟

***

في ذلك الخريف، كنتُ أسلقُ الفواكه في القطر من أجل الشِّتاء. كان بإمكاني جعل الأشجار تُنبِت فاكهةً طازجةً في أيِّ وقت، لكنَّني أصبحتُ أستمتع بهذا النَّشاط؛ بقبقة السُّكَّر وألوان الجواهر شبه الشفَّافة، وتخزين نتاج موسمٍ مثمرٍ في جراري.

دخل المنزل صائحًا: «أمِّي! هناك سفينة في حاجةٍ إلينا. إنَّهم قُرب ساحلنا، شبه غارقين... سيغرقون إذا لم يرسوا!».

لم تكن أوَّل مرَّةٍ يلمح بحَّارةً، فكثيرًا ما مرُّوا بجزيرتنا، لكنَّها أوَّل مرَّةٍ أراد مساعدتهم. تركته يسحبني إلى الجُرف، ووجدتُ ما قاله صحيحًا، السَّفينة مائلة إلى الجانب، وبدنها يمتلئ بالماء.

ـ «أرأيتِ؟ هلَّا تُسقِطين التَّعويذة هذه المرَّة فقط؟ أنا واثق بأنَّهم سيكونون في غاية الامتنان».

أردتُ أن أقول: وأنَّى لك بمعرفة هذا؟ غالبًا أكثر ما يكرهه مَن هُم في أشد حاجةٍ أن يكونوا ممتنِّين، وسيُهاجِمونك لمجرَّد أن يَشعُروا بالاكتمال مجدَّدًا.

قال: «أرجوكِ. ماذا لو أنَّه أحدٌ مثل أبي؟».

ـ «ليس هناك أحدٌ مثل أبيك».

- «سيغوصون في الماء يا أمّاه، سيغرقون! لا يُمكننا أن نكتفي بالوقوف والمشاهدة. يجب أن نفعل شيئًا!».

كان وجهه مرتاعًا، وفي مقلتيْه تترقرَق الدُّموع.

- «أرجوكِ يا أمّاه! لن أحتمل أن أشاهدهم يموتون».

قلتُ: «هذه المرّة. هذه المرّة فقط».

بلغ صياحهم مسامعنا محمولًا على الرِّيح. **شاطئ، شاطئ!** وداروا بمركبهم وتقدَّموا صوبنا متمايلين. جعلته يعدني بأن يبقى بعيدًا عن الأنظار فيما يصعدون الدَّرب إلى المنزل، وأن يمكُث في حُجرته إلى أن يشربوا النَّبيذ، ويُغادِر ثانيةً بأخف إشارةٍ منِّي. وافق على كلّ ما قلتُ، وكان ليُوافِق على أيِّ شيء. دخلتُ المطبخ وحضَّرتُ عقَّاري القديم شاعرةً كأنَّني أقفُ في حُجرتيْن في آنٍ واحد، هنا أمزجُ الأعشاب التي مزجتها مئة مرّة بأصابعَ تَعثُر على نمطها القديم، وهنا ابني يتواثب حماسةً. **أيُمكنكِ تخمين من أين أتوا؟ ما الصُّخور التي تحسبينها ثقبَت سفينتهم؟ هل تستطيعين مساعدتهم على إصلاح البدن؟**

لا أدري بِم أجبتُ وقد جمد دمي في عروقي وأنا أحاولُ تذكُّر حيلة التَّحكُّم التي تمتَّعتُ بها من قبل. **ادخُلوا، طبعًا سأساعدكم. مزيد من النَّبيذ؟**

مع أنَّني ترقَّبتها، فقد جفلتُ لمّا سمعتُ الطَّرقة. فتحتُ الباب، وها هُم أولاء، رثُّو الهيئة جائعون يائسون كالمعتاد. القائد، هل بدا كثُعبانٍ ملفوف؟ لم أستطع التَّبيُّن، وأصابني غَثَيانٌ خانقٌ مُفاجئ. أردتُ أن أصفق الباب في وجوههم، ولكنْ فات الأوان. لقد رأوني، وابني ملتصقٌ بالحائط منصتًا لكلِّ شيء. كنتُ قد نبَّهته لاحتمال استخدامي السِّحر

معهم، فأومأ برأسه. **بالطَّبع يا أمَّاه، مفهوم**. لكنَّه لم يكن يُدرِك إطلاقًا، فلم يسمع قطُّ طقطقة الضُّلوع إذ تُعيد تشكيل نفسها، وتمزُّق اللَّحم الرَّطب من شكله.

جلسوا على دِككي، وأكلوا، وسال النَّبيذ في أجوافهم، وما برحتُ أراقبُ القائد بعينيْه الحادَّتيْن اللتيْن أمعنَتا النَّظر إلى الحُجرة، وإليَّ. نهضَ قائلًا: «سيِّدتي، ما اسمكِ؟ مَن علينا أن نُكرِّم لقاء وجبتنا؟».

كنتُ لأفعلها لحظتها، أنتزعهم من أنفُسهم، إلَّا أنَّ تليجونوس خرجَ إلى القاعة بالفعل مرتديًا حرملةً وواضعًا سيفًا على خصره، ووقف طويلًا مشدودَ القامة كالرِّجال. وقتها كان في الخامسة عشرة من عُمره.

ـ «أنتم في منزل الربَّة سرسي بنت هيليوس، وابنها المدعو تليجونوس. لقد رأينا سفينتكم تغرق وسمحنا لكم بالمجيء إلى جزيرتنا، مع أنَّها مغلقةٌ عادةً للفانين. يسرُّنا أن نُساعِدكم بقدر ما نستطيع وأنتم هنا».

تكلَّم بصوتٍ واثق متين كألواح الخشب المجفَّفة. عيناه داكنتان كعينَي أبيه، لكن فيهما شذرات من الأصفر برقَت لحظتها، وحدَّق إليه الرِّجال، وحدَّقتُ. فكَّرتُ في أودسيوس الذي افترقَ عن تليماكوس سنينًا، وصدمة رؤيته كبرَ فجأةً.

ركع القائد قائلًا: «أيَّتها الربَّة، سيِّدي العظيم، مؤكَّد أنَّ الأقدار المباركة نفسها قادتنا إلى هنا».

أشار تليجونوس للرَّجل بالنُّهوض، ثمَّ جلس إلى رأس المائدة وقدَّم الطَّعام من الصِّحاف. قليلًا أكل الرِّجال إذ انجذبوا إليه كما تنجذب الكروم إلى الشَّمس. وجوههم مبهورة، ويتنافسون على قصّ

قصصهم عليه، وشاهدتُ متسائلةً عن المكان الذي ظلَّت هذه الموهبة مختبئةً فيه طوال الوقت. لكنْ من ناحيةٍ أخرى، أنا لم أمارس السِّحر حتى وجدتُ نباتاتٍ أعملُ عليها.

تركته ينزل إلى السَّاحل معهم ويُساعِدهم في إصلاحاتهم. لم أقلق... كثيرًا على الأقل، فستحميه تعويذتي الملقاة على كائنات الجزيرة، لكنَّ الأهمَّ من هذا أن تعويذته الخاصَّة ستحميه، فهؤلاء الرِّجال كانوا كمخلوقاتٍ مسحورة. رغم أنَّه أصغر منهم جميعًا، فقد قبلوا كلَّ كلمةٍ من فمه، وأراهم أين يقع أفضل البساتين، وأيُّ أشجار يستطيعون قطعها، والجداول وبقاع الظِّل. ثلاثة أيَّامٍ بقوا فيما عملوا على ترقيع الثُّقب في سفينتهم، وأطعموا أنفُسهم من مؤننا، وطيلة هذه المُدَّة لم يترُكهم إلَّا لينام. دعوه باللورد وهُم يُخاطِبونه أو يتكلَّمون عنه، والتمسوا رأيه بجدِّيَّةٍ كأنَّه أستاذ نجارة في التِّسعين، وليس صبيًّا يرى بدن سفينةٍ للمرَّة الأولى. **لورد تليجونوس، سيِّدي، ما رأيك؟ هل يَصلُح هذا؟**

فحصَ الرُّقعة، ثمَّ قال: «لا بأس بها على ما أظنُّ. مصنوعة بكفاءة».

انبسطت أساريرهم، وحين أبحَروا وقفوا عند الحاجز يهتفون بالشُّكر والدَّعوات، وظلَّت ملامحه مشرقةً ما دام يرى السَّفينة، ثم ما لبثَت فرحته أن تلاشت.

أعترفُ بأنَّني ظللتُ أعوامًا آملُ أن يكون ساحرًا، وحاولتُ أن أعلِّمه أعشابي وأسماءها وخواصَّها، واعتدتُ إلقاء تعاويذ صغيرةً في وجوده على أمل لفت انتباهه، لكنَّه لم يُبدِ قطُّ أضعف اهتمام. والآن رأيتُ السَّبب. السِّحر يُبدِّل العالم، وهو أرادَ الانخراط فيه فحسب.

حاولتُ أن أقول شيئًا ولا أدري ماذا، لكنَّه التفتَ عنِّي بالفعل، واتَّجه إلى الغابة.

* * *

بقي في الخارج طوال ذلك الشِّتاء، وطوال الرَّبيع والصَّيف أيضًا. من أوَّل خيوط الشَّمس في السَّماء وحتى غروبها لم أره. وفي المرَّات القليلة التي سألته فيها أين ذهب، لوَّح بيده بإبهامٍ نحو الشَّاطئ، فلم ألحَّ عليه. كان مشغولًا، على الدَّوام يجري إلى مكانٍ ما لاهثًا، أو يرجع إلى المنزل محتقن الوجه والنَّباتات الشَّائكة تُغطِّي قميصه. رأيتُ القوَّة تزداد في كتفيْه، وفكَّه يتَّسع.

قال: «ذلك الكهف على الشَّاطئ، الذي احتفظ فيه أبي بسفينته، أيُمكن أن يكون لي؟».

ـ «كلُّ شيءٍ هنا لك».

ـ «لكنْ أيُمكن أن يكون لي وحدي؟ أتعدينني بألَّا تدخُلي؟».

تذكَّرتُ كم عنَت لي خصوصيَّاتُ الصِّبا، وقلتُ: «أعدك».

منذ ذلك الحين تساءلتُ إن كان قد استعمل معي الفتنة نفسها التي أعملها في البحَّارة، ذلك أنَّني كنتُ في تلك الأيَّام بقرةً حسنة التَّغذية، حليمةً لا أناقشُ شيئًا. قلتُ لنفسي دعيه يذهب، إنَّه سعيد، إنَّه يكبر. ما الأذى الذي قد يُصيبه هنا؟

قال: «أمِّي». كنَّا بُعيد طلوع الفجر والضَّوء الشَّاحب يُدفِّئ ورق الأشجار، وأنا راكعةٌ في الحديقة أنتزعُ الحشائش. لم يعتَد الاستيقاظ مبكِّرًا هكذا، لكنَّه عيد ميلاده. يومها كان في السَّادسة عشرة.

قلتُ: «عملتُ لك كمثرى بالعسل».

مدَّ يده يُريني ثمرةً نصف مأكولة يلتمع عليها العصير، وقال: «وجدتها، شكرًا لكِ»، وصمتَ لحظةً، ثمَّ أردفَ: «عندي شيء أريكِ إيَّاه».

مسحتُ التُّراب وتبعته على طريق الغابة إلى الكهف. وفي الدَّاخل وجدتُ قاربًا صغيرًا يُقارِب قارب جلاوكوس في الحجم.

سألته: «قارب مَن هذا؟ أين هُم؟».

هزَّ رأسه. كان متورِّد الوجنتيْن متألِّق العينيْن. «لا يا أمِّي، إنَّه قاربي. الفكرة خطرَت لي قبل مجيء الرِّجال، لكنَّ رؤيتهم جعلت العمل أسرع كثيرًا. لقد أعطوني بعض أدواتهم، وأروني كيف أصنعُ البقيَّة. ما رأيكِ؟».

نظرتُ فرأيتُ أنَّ الشِّراع مخيطٌ من ملاءاتي، والألواح مسوَّاة بخشونة ولا تزال فيها شظايا. شعرتُ بالغضب، لكنَّ فخرًا متعجِّبًا توهَّج في داخلي أيضًا. ابني بنى هذا القارب بمفرده، بلا شيءٍ إلَّا أدوات بدائيَّة وإرادته.

قلتُ: «أنيق جدًّا».

قال بابتسامةٍ واسعة: «أليس كذلك؟ لقد قال إنَّ عليَّ ألَّا أقول شيئًا، لكنَّني لم أرد إخفاء الأمر عنكِ. فكَّرتُ...».

بتر عبارته لمرأى النَّظرة على وجهي.

- «مَن قال؟».

- «لا بأس يا أمَّاه، إنَّه لا يقصد أذًى. لقد ساعدني، وقال إنَّه اعتاد الزِّيارة كثيرًا، إنَّكما صديقان قديمان».

صديقان قديمان. كيف لم أرَ هذا الخطر؟ تذكَّرتُ نشوة تليجونوس لدى عودته ليلًا. حوريَّاتي كنَّ يَعُدن بهذا الوجه. أثينا لا تستطيع اجتياز تعويذتي، نعم، فليست لها سُلطة في العالم السُّفلي، لكنَّه يستطيع الحركة في أيِّ مكان، وعندما لا يُدَحرِج النَّرد يقود الأرواح إلى باب هيدز بنفسه. إله التَّطفُّل، إله التَّغيير.

ـ «هرميز ليس صديقي. أخبِرني بكلِّ ما قاله لك في الحال».

رقَّع الحَرَج وجهه، إذ قال: «قال إنَّه يستطيع مساعدتي، وقد كان. قال إنَّ الأمر يجب أن يكون مباغتًا. إذا كانت قشرة جرحٍ ستَسقُط فالسُّرعة أفضل وسيلة. سأستغرقُ أقلَّ من نصف شهر، وأرجعُ بحلول الرَّبيع. لقد جرَّبناه في الخليج، إنَّه سليم».

انهمرت منه الكلمات بسرعةٍ جعلتني أكافحُ لتفسيرها. «ماذا تعني؟ ما الذي ستستغرق فيه أقلَّ من نصف شهر؟».

ـ «الرِّحلة إلى إثاكا. هرميز يقول إنَّه يستطيع قيادتي حول الوحوش كي لا تخشي من ذلك. إذا أبحرتُ في تيَّار الظَّهيرة فسأبلغُ الجزيرة التَّالية قبل المساء».

شعرتُ كالخرساء، كأنَّه انتزعَ لساني من فمي.

وضعَ يده على ذراعي، قائلًا: «ليس عليكِ أن تقلقي. سأكونُ آمنًا. هرميز سلفي من ناحية أبي كما أخبرني، ولن يخونني. أمِّي، أتسمعين؟». كان يحدجني بنظرةٍ قلقة من تحت شعره.

جمَّدت رؤيتي سذاجته الدَّمَ في عروقي. أكنتُ غريرةً هكذا يومًا؟

قلتُ له: «إنَّه إله أكاذيب. وحدهم الحمقى يضعون ثقتهم فيه».

احتقنَ وجهه، لكنَّ نظرة تحدٍّ ارتسمت عليه، وردَّ: «أعرفُ ماذا يكون. لستُ أعتمدُ عليه وحده. لقد حزمتُ قوسي، كما أنّه علّمني القليل عن القتال بالحربة»، وأشار إلى عصا مسنودةٍ في الرُّكن، رُبِطَ بطرفها أحد سكاكين مطبخي القديمة. مؤكَّد أنّه رأى ذُعري، لأنّه أضاف: «لكنّني لن أضطرَّ إلى استخدامها. الرّحلة إلى إثاكا تستغرق أيّامًا قليلةً، وبعدها سأكونُ في أمانٍ مع أبي».

خاطبني مائلًا إلى الأمام بجدّيّة، يظنُّ أنّه ردَّ على جميع احتجاجاتي، ويشعُر بالفخر بنفسه ومبتهجٌ بخُططه حديثة الصّياغة. يا للسّهولة التي سقطت بها منه هذه الكلمات، في أمان، أبي. شعرتُ بنفسي أشتعلُ غضبًا خاطفًا بيّنًا.

ـ «ما الذي يجعلك تظنُّ أنّك ستلقى ترحيبًا في إثاكا. كلُّ ما تعرفه عن أبيك قصص، وهو له ابن بالفعل. كيف تحسب رأي تليماكوس في ظهور أخيه النّغل؟».

جفل بعض الشّيء من كلمة «نغل»، لكنّه ردَّ بشَجاعة: «لا أظنّه سيُمانِع. لستُ ذاهبًا من أجل مملكته أو إرثه، وهذا ما سأشرحه له. سأقيمُ هناك الشّتاء بطوله، وسنجد الوقت ليعرف كلانا الآخر».

ـ «هكذا إذن، المسألة محسومة. أنت وهرميز وضعتما الخطّة، والآن تحسب أنَّ كلَّ المطلوب منّي أن أتمنّى لك رياحًا مواتيةً».

رمقني حائرًا.

ـ «أخبِرني، ماذا يقول هرميز العليم بكلِّ شيءٍ عن أخته التي تُريد موتك؟ عن حقيقة أنّك ستُقتَل لحظة أن تَخرُج من هذه الجزيرة؟».

كاد يتنهَّد، وقال: «أمَّاه، كان ذلك منذ زمنٍ طويل. مؤكَّد أنَّها نسَت».

قلتُ بصوتٍ خمشَ جُدران الكهف: «نسَت؟ أأنت أحمق؟ أثينا لا تنسى. ستبتلعك دُفعةً واحدةً كما تلتهم البومةُ فأرًا سخيفًا».

شحب وجهه، لكنَّه واصل كديدن قلبه الشُّجاع: «سأخاطرُ».

- «كلَّا. إنَّني أمنعك».

حدَّق إليَّ، فلم يَحدث أن منعته من شيءٍ من قبل، وقال: «لكنْ يجب أن أذهب إلى إثاكا. لقد بنيتُ السَّفينة. إنَّني مستعدٌّ».

دنوتُ منه قائلةً: «دعني أشرحُ بمزيدٍ من الوضوح. إذا غادرت فستموت، ولذا لن تُبحِر. وإذا حاولتَ فسأحرقُ قاربك هذا عن بكرة أبيه».

من صدمته، خلا وجهه من التَّعبير، ودرتُ وابتعدتُ.

* * *

لم يُبحِر في ذلك اليوم. حمتُ في مطبخي، وظلَّ هو في الغابة ولم يَعُد إلَّا عند الغسق، ليُخبِّط في الصَّناديق، ويجمع فرشةً بصوتٍ عالٍ، أي إنَّه عاد فقط ليُريني أنَّه لن يبقى تحت سقفي.

عندما مرَّ قلتُ: «تُريدني أن أعاملك كرجل، لكنَّك تتصرَّف كطفل. لقد قضيتَ حياتك كلَّها محميًّا، ولستَ تفهم المخاطر التي تنتظرك في العالم. لا يُمكنك ببساطة أن تتظاهر بأنَّ أثينا ليس لها وجود».

كان مستعدًّا لي كالهشيم للشَّرارة. «أنتِ محقَّة. لستُ أعرفُ العالم. وكيف أعرفه؟ إنَّكِ لا تترُكينني أبتعدُ عن نظرِكِ».

ـ «أثينا وقفت في هذا البيت وطالبتني بتسليمك لكي تَقتُلك».

ـ «أعرفُ. لقد حكيتِ لي مئة مرّة. لكنّها لم تُحاوِل منذ ذلك الحين، أليس كذلك؟ ألستُ حيًّا؟».

صحتُ: «بسبب التّعويذتيْن اللتيْن ألقيْهما وأحملهما!» وقمتُ أواجهه متابعةً: «أتدري ما تحمّلته للحفاظ على قوّتهما؟ السّاعات التي قضيْتها في القلق عليهما واختبارهما لأضمن ألّا تنفذ منهما؟».

ـ «أنتِ تحبّين فعل هذا».

خرجَت الضّحكة منّي كاشطةً. «أحبّه؟ إنّني أحبُّ القيام بعملي، وهو ما لم أجد وقتًا له تقريبًا منذ وُلِدتَ!».

ـ «اذهبي واعملي على تعاويذكِ إذن! اعملي عليها ودعيني أغادرُ! كوني صادقةً، إنّكِ لا تعلمين إن كانت أثينا لا تزال غاضبةً. هل حاولتِ الكلام معها؟ لقد مرّ ستّة عشر عامًا!».

قالها كأنّها ستّة عشر قرنًا. لم يكن بإمكانه تخيُّل مبلغ الآلهة السّرمدي، انعدام الرّحمة الذي يأتي من رؤية الأجيال تنهض وتنهار من حولك. فانٍ وصغير هو، يشعُر كأنَّ الأصيل البطيء عام كامل.

شعرتُ بوجهي يتّقد، بلهيبه يتنامى. «إنّك تحسب كلَّ الآلهة مثلي، أنّك تستطيع تجاهُلهم متى تشاء، تُعامِلهم كأنّهم خدمك، أنَّ إرادتهم مجرّد ذُبابٍ تَطرُده. لكنّهم سيسحقونك سحقًا على سبيل التّسلية، على سبيل النّكاية».

ـ «الخوف والآلهة، الخوف والآلهة! هذا هو كلُّ ما تتكلّمين عنه، كلُّ ما تكلّمتِ عنه. ومع ذلك يُعمّر ألف ألف من الرّجال والنّساء هذا

العالم، ويعيشون حتى الشَّيخوخة، وبعضهم سعيدٌ أيضًا يا أمَّاه! إنَّهم يفعلون ما هو أكثر من التَّعلُّق بالمواني الآمنة بوجوهٍ يائسة. أريدُ أن أكون واحدًا منهم، وأنوي أن أكون. لِمَ لا تفهمين هذا؟».

بدأ الهواء من حولي يُطَقطِق. «أنت مَن لا يفهم. قلتُ إنَّك لن ترحل وانتهى الأمر».

ـ «هكذا إذن؟ سأبقى هنا طوال حياتي؟ إلى أن أموت؟ ولا أحاولُ المغادرة حتى؟».

ـ «إذا دعَت الحاجة».

هوى براحة يده على الطَّاولة بيننا صائحًا: «لا! لن أفعل ذلك! لا حياة لي هنا. حتى إذا أتت سفينة أخرى، وتوسَّلتُ إليكِ لتسمحي لها بالرَّسو، ثمَّ ماذا؟ مُهلة أيَّامٍ قليلة ثمَّ يرحلون وأبقى حبيسًا. إن كانت هذه هي الحياة فأوثرُ أن أموت، أوثرُ أن تَقتُلني أثينا، أتسمعين؟ على الأقل سأرى حينها شيئًا آخر في حياتي غير هذه الجزيرة!».

أعمى البياض بصري.

ـ «لستُ أبالي بما تُؤثِره! إن كنت أغبى من أن تُنقِذ حياتك، فسأفعلُ هذا بدلًا منك، تعاويذي ستفعله».

للمرَّة الأولى ارتبكَ. «ماذا تعنين؟».

ـ «أعني أنَّك لن تعرف ما فاتَك، لن تُفكِّر في الرَّحيل ثانيةً أبدًا».

تراجع خُطوةً قائلًا: «لا. لن أشرب نبيذكِ، لن ألمس شيئًا تُعطينه لي».

تذوَّقتُ الغِلَّ في فمي، وسرَّني أن أراه خائفًا أخيرًا. «أتحسب أنَّ ذلك سيمنعني؟ إنَّك لم تفهم قطُّ مدى قوَّتي».

ما حييتُ سأتذكَّرُ نظرته. رجلٌ رأى السّتار يُرفَع وينظُر إلى وجه العالم الحقيقي.

فتحَ الباب بعُنفٍ وفرَّ إلى الظَّلام.

* * *

وقفتُ في مكاني طويلًا كشجرةٍ ضربتها صاعقةُ برقٍ وحرقَتها حتى الجذور، ثمَّ نزلتُ إلى الشَّاطئ. كان الهواء فاترًا، لكنَّ الرّمال ظلَّت محتفظةً بحرارة النَّهار. فكَّرتُ في كلِّ السّاعات التي حملته فيها إلى هناك وجِلده على جِلدي. لقد أردته أن يمشي حُرًّا في العالم من دون أن يحترق أو يخاف، وها قد نلتُ رجائي، وها هو ذا لا يتصوَّر وجودَ إلهةٍ عنيدة تُسدّد حربتها إلى قلبه.

لم أحكِ له عن طفولته وكم كانت غاضبةً صعبةً، ولم أحكِ له قصصَ قساوة الآلهة وقساوةِ أبيه. كان حريًّا بي أن أفعل. طيلة ستّين عامًا رفعتُ السَّماء بيدَيَّ ولم يلحظ. كان عليَّ أن أرغمه على الذَّهاب معي لقطف النَّباتات التي أنقذَت حياته، كان عليَّ أن أجعله يقف عند الموقد فيما ألفظُ كلمات القوَّة. يجب أن يفهم كلَّ ما حملته على عاتقي بصمتٍ، وكلَّ ما فعلتُ لحفظ سلامته.

ثمَّ ماذا؟ كان في مكانٍ ما بين الأشجار، مختبئًا منّي. بمنتهى السُّهولة، تصاعدَت تلك التَّعاويذ في عقلي، تلك التي تُتيح لي أن أبتر منه رغباته كتقليم ثمرةٍ من العفن.

كبستُ فكّي. أردتُ أن أثور وأمزّق نفسي وأبكي، أردتُ أن ألعن هرميز لذِكره أنصافَ الحقائق وإغواءاته... لكنَّ هرميز لا شيء، فقد رأيتُ وجه تليجونوس حين تعوَّد أن يرمُق البحر، ويهمس: **الأفق**.

أغلقتُ عينَيَّ وسرتُ غير محتاجةٍ إلى الرُّؤية لمعرفتي القويَّة بالسَّاحل. في طفولته، وضعتُ قوائمَ بكلِّ الأشياء التي يُمكنني أن أفعلها للحفاظ على أمانه، ولم تكن لُعبةً لها وزن لأنَّ الإجابة لم تختلف قطُّ. أي شيء.

ذات مرَّةٍ، حكى لي أودسيوس قصَّةً عن ملكٍ أصيبَ بجرحٍ لا يندمل، لا على يد أيِّ طبيبٍ ولا بعد أيِّ مُدَّةٍ من الزَّمن، فذهب إلى عرَّافٍ وسمع جوابه: وحده الرَّجل الذي أصابَه بالجرح يستطيع أن يُعالِجه، وفقط بالحربة نفسها الذي استخدمها لجرحه. وهكذا، سعى الملك يعرج عبر العالم إلى أن وجد العدوَّ الذي عالجه.

تمنَّيتُ لو أنَّ أودسيوس موجودٌ لأسأله: ولكنْ كيف جعل الملك الرَّجلَ يُساعِده؟ الرَّجل الذي أصابه بالجرح البليغ؟

وأتتني الإجابة من حكايةٍ أخرى. قبل زمنٍ طويل، في فِراشي الواسع، سألتُ أودسيوس: «ماذا كنت تفعل حين لم تستطع جعل أخيل وأجاممنون يُصغِيان؟».

ابتسمَ في ضوء النَّار، وقال: «الحلُّ سهل. تضعين خطَّةً تتضمَّن ألَّا يُصغِيا».

الفصل العشرون

وجدته في بستان الزَّيتون نائمًا والأغطية متشابكة حوله، كأنَّه واصل شجاره معي في أحلامه.

قلتُ: «بُنيْ»، وخرجَتِ الكلمةُ عاليةً في الهواء السَّاكن. لم يكن الفجر قد انبلجَ بعدُ، لكنَّني شعرتُ به يقترب، بدوَرَان عجلات عربة أبي العظيمة. «تليجونوس».

انفتحَت عيناه، واندفعَت يداه إلى أعلى تصدَّانني، فكان الألم كرأس الخنجر.

ـ «أتيتُ لأقول إنَّك تستطيع الذَّهاب، وإنَّني سأساعدك، ولكنْ لا بُدَّ من شروط».

هل أدركَ كم كلَّفتْني تلك الكلمات؟ أشكُّ في قُدرته على إدراك ذلك آنذاك. إنَّ هديَّة الشَّباب ألَّا تشعُر بديونه. غمرَه الاغتباط بالفعل، وألقى نفسه عليَّ داسًّا وجهه في عُنقي، وأغلقتُ عينَيَّ مستنشقةً رائحته،

رائحة الأوراق الخضراء والنُّسغ السَّائل. طوال ستَّة عشر عامًا لم يتنفَّس أحدنا إلَّا الآخر.

قلتُ له: «تأخير يوميْن، وثلاثة أشياء خلالهما».

أومأ برأسه بحماسةٍ، قائلًا: «أيُّ شيء». الآن، وقد خسرتُ، صار مرنًا. على الأقل تصرَّف بكياسةٍ في نصره. قُدته إلى المنزل، وملأت ذراعيْه بالأعشاب والقوارير، ومعًا حملناها في صُحبة رنينها إلى مركبه، وهناك على السَّطح باشرتُ التَّقطيع والطَّحن وخلط المعاجين. فاجأني بالمشاهدة، فعادةً ينسلُّ مبتعدًا متى عملتُ على تعاويذي.

ـ «ما الذي ستفعله هذه؟».

ـ «إنَّها حماية».

ـ «ممَّ؟».

ـ «من أيِّ شيءٍ أستطيعُ التَّفكير فيه، أيًّا كان ما تستطيع أثينا اجتلابه... عواصف، لَوِياثانات، بدن مشقوق».

ـ «لَوِيثانات؟».

سرَّني أن أرى وجهه يمتقع بعض الشَّيء.

ـ «ستصدُّ التَّعويذةُ تلك الأشياء. إذا أرادت أثينا أن تُهاجِمك في البحر فعليْها أن تفعلها بنفسها مباشرةً، وأظنُّها لا تستطيع، لأنَّ الأقدار تُقيِّدها. عليك أن تبقى في القارب، وبمجرَّد أن ترسو في إثاكا اذهب إلى أبيك وسلْه أن يتشفَّع لك عند أثينا. إنَّها راعيته وقد تُصغي. أقسِم لي».

بوجهٍ رصين في الظِّلال، قال: «سأفعلُ».

صببتُ العقاقير على كلِّ لوحٍ خشبٍ وكلِّ بوصةٍ من الشِّراع مردِّدةً تعاويذي.

سألني: «ألي أن أجرّب؟».

أعطيته ما تبقّى من أحد العقاقير، فأغرقَ به جزءًا من السَّطح، وردَّد الكلمات التي سمعَني أقولها.

ثمَّ إنَّه نقر بإصبعه على الخشب، وقال: «هل نفعَتْ؟».

ـ «لا».

ـ «كيف تعرفين أيَّ كلماتٍ تستخدمين؟».

ـ «إنَّني أنطقُ ما له معنى عندي».

لاح الجهد على وجهه، كأنَّه يدفع جُلمودًا إلى قمَّة جبل، وأمعن النَّظر إلى الألواح ونطقَ كلماتٍ أخرى، ثمَّ كلماتٍ مختلفة، ولم يتبدَّل شيءٌ في السَّطح. رمقَني باتِّهامٍ قائلًا: «عملٌ صعب».

على الرَّغم من كلِّ شيءٍ ضحكتُ، وقلتُ: «ألم تحسبه كذلك؟ اسمع. عندما بدأت تبني هذا المركب، فإنَّك لم ترفع البلطة مرَّةً وتتوقَّع أن يكتمل، بل كان عملًا، يومًا بعد يومٍ من العمل. هكذا السِّحر. لقد كدحتُ قرونًا وما زلتُ لم أتقنه تمام الإتقان».

قال: «لكنَّ المسألة لا تقتصر على هذا. هناك أيضًا حقيقةُ أنَّني لستُ ساحرًا مثلكِ».

أبي هو مَن فكَّرت فيه لحظتها، قبل كلِّ تلك الأعوام، حين أحال الجذعَ في مستوقدنا إلى رماد، وقال: **وهذه أقل قُوايْ**.

قلتُ: «الأرجح أنك لستَ ساحرًا، لكنَّك شيءٌ آخر، شيء لم تَعثُر عليه بعدُ، وإنَّك راحل لهذا السَّبب».

ذكَّرتني ابتسامته الدَّافئة كالعُشب في الصَّيف بأريادني، إذ قال: «أجل».

قُدته إلى بُقعةٍ ظليلة من الشَّاطئ، وبينما يأكل ما تبقَّى من الكمثرى، علَّمتُ طريقه بالحجارة، متتبِّعةً المحطَّات والمخاطر. لن يمرَّ بسكيلا، فثمَّة طرقٌ أخرى إلى إثاكا؛ أمَّا عجْز أودسيوس عن سلوكها فكان جزءًا من انتقام پوسايدون.

ـ «إن ساعدَك هرميز فلا بأس، لكن إيَّاك والاعتماد عليه. أيُّ شيءٍ يقوله مكتوبٌ على الرِّيح. وعليك أن تحذر أثينا دائمًا. باستطاعتها أن تأتيك في أيِّ هيئة، كفتاةٍ جميلةٍ على سبيل المثال. يجب ألَّا تنخدع بأيِّ إغراءاتٍ تعرضها عليك».

احمرَّ وجهه، وقال: «أمِّي، إنَّني أبحثُ عن أبي. هذا هو كلُّ ما أفكِّرُ فيه».

لم أقل المزيد. خلال هذيْن اليوميْن، تعامَلنا بلُطفٍ أكثر من السَّابق، حتى قبل شجارنا. في المساء، جلسنا معًا عند المستوقد، وعلِقتْ قدمُه تحت جسم أحد الأُسود. كنَّا في الخريف، لكن اللَّيالي حلَّت باردةً بالفعل. قدَّمتُ له وجبته المفضَّلة، السَّمك المحشو بالأعشاب المحمَّصة والأجبان، وأكل وتركني أحاضره. «پنلوپي، أبدِ لها كلَّ تكريم. اركع أمامها، قدِّم لها الثَّناء والهدايا... سأعطيك هدايا مناسبةً. إنَّها عقلانيَّة، لكنْ لا امرأة تسعد بوجود ابن زوجها غير الشَّرعي عند قدميْها. وتليماكوس، هو فوق الجميع، احترِس منه. إنَّه يملك أكثر ما يُمكن خسارته بسببك. نغولٌ كُثر صاروا ملوكًا في عصرهم، ومؤكَّد أنَّه يعرف هذا. لا تثق به، لا تُوليه ظهرك. سيكون ذكيًّا سريعًا، لأنَّ مَن درَّبه أبوك نفسه».

ـ «إنّني أجيدُ رمي السّهام».

ـ «على جذوع السّنديان وطيور التّدرج. أنت لست محاربًا».

أخذ شهيقًا، ثمّ قال: «على كلّ حال، أيًا كان ما يُحاوله فستَحرُسني قُواكِ».

حملقتُ إليه مذعورةً، وقلتُ: «لا تكن أحمق. لستُ أتمتّعُ بقوًى تنفعك بعيدًا عن هذا المكان. الاعتماد على ذلك موت».

مسّ ذراعي قائلًا: «أمّاه، قصدتُ فقط أنّه فانٍ، في حين أنّ نصف دمي منكِ، وأتمتّعُ بالحِيَل التي تُصاحِب هذا».

أيّة حِيَل؟ أردتُ أن أرجّه رجًا. شيءٌ من الجاذبيّة؟ القُدرة على فتنة الفانين؟ أشعرَني وجهه المفعم بالآمال الجريئة كأنّني شختُ. لقد تعاظمَ شبابه في داخله ونضجَ، وتدلّت الخُصلات الدّاكنة على عينيْه وأمسى صوته أعمق. ستتأوّه الصّبايا والصّبْية لمرآه، غير أنّ كلّ ما رأيتُ هو المواضع اللّيّنة في جسده حيث يمكن إنهاء حياته.

أسند رأسه إلى رأسي، وقال: «سأكون بخير، أعدكِ».

أردتُ أن أصيح: لا يُمكنك أن تقطع وعدًا كهذا، لستَ تعلم شيئًا. لكن غلطة مَن هذه؟ لقد حجبتُ عنه وجه العالم، ورسمتُ تاريخه بألوانٍ ثخينةٍ زاهية، فوقع في هوًى فنّي. والآن، فات أوان العودة والتّغيير. إن كنتُ عجوزًا، فالمفترض أن أكون حكيمةً، المفترض أن أعي عدم جدوى النُّواح بعدما حلّق الطّائر بالفعل.

***

ثلاثة أشياء قلتُ له إنّ علينا أن نفعلها، لكنّ الأخير لي وحدي. لم يسألني عنه، إذ فكّر: إنّها تعويذةٌ ما، بعض الأعشاب التي تُريد

التَّنقيب عنها. انتظرتُ حتى خلدَ إلى النَّوم، ثمَّ سرتُ في ضوء النُّجوم إلى حافة المحيط.

انزلقَت الأمواج على قدمَيَّ، وتمازجَت عند حاشية ثوبي. كنتُ قُرب الكهف الذي ينتظر فيه قارب تليجونوس. بعد ساعاتٍ قلائل، سيركبه ويرفع المرساة الحجريَّة المربَّعة، ويبسط الشِّراع بغُرَزه الملتوية. ولأنَّه فتًى عذب، فسوف يُلوِّح لي بيده ما دام يعلم أنِّي أراه، ثمَّ يلتفت مدقِّقًا النَّظر بحثًا عن الجزيرة الصَّخريَّة الصَّغيرة الواقعة عند نهاية آماله.

كنتُ أتذكَّرُ أبهاء جدِّي وتيَّارات أوقيانوس السَّوداء، ذلك النَّهر العظيم الذي يُطوِّق الأرضَ كلَّها. إن كان في أحد الآلهة دم النِّيادات فبإمكانه أن يغوص في مياهه، ويُحمَل إلى الأمام عبر أنفاق الصَّخر وعبر ألفِ رافد، إلى أن يَبلُغ المكان الذي يتدفَّق فيه مجراه تحت قاع البحر ذاته.

اعتدنا الذَّهاب إلى هناك، إيبتيس وأنا. حيث يلتقي الماءان لا يمتزجان، وإنَّما يصنعان نوعًا من الغشاء الغليظ كقنديل البحر. ومن خلاله يُمكنك مشاهدة وهج الفسفور في ظُلمة المحيط، وإذا ضغطت عليه بيدك فستَشعُر بالمياه العميقة على الجانب الآخر ببرودتها الصَّادمة. كانت أصابعنا تعود إلينا نمِلةً، مذاقُها ملح.

قال إيبتيس: «انظُري».

وأشار إلى شيءٍ ما يتحرَّك في ذلك الظَّلام السَّرمدي، ظلٌّ رماديٌّ شاحب ينزلق نحونا ضخمًا كالسُّفن. ارتفع فوقنا، جناحاه الشَّبحيَّان صامتان في السَّواد، ولم نسمع صوتًا إلَّا احتكاكَ عظمِ ذيله المجرور على الأرضيَّة الرَّمل.

قال أخي إنَّ اسمه ترايجون، أعظم بني نوعه، وهو نفسه إله. يُقال إنَّ الأب أورانوس صانع العالم هو من وضعَه هناك على سبيل الأمان، لأنَّ السُّمَّ في ذنَب هذا المخلوق هو الأقوى في الكون بأسره. لمسةٌ واحدةٌ تقتل فانيًا في التوّ واللَّحظة، وتَحكُم على إلهٍ عظيمٍ بأبديَّةٍ من العذاب. والآلهة الأدنى؟ ما الذي قد تفعله بنا؟

حدَّقنا إلى وجهه الغريب العجيب وفمه المسطَّح المشقوق، وشاهَدنا بطنه ذا الخياشيم البيضاء يمرُّ من فوقنا. يومها، اتَّسعت عينا إيبتيس وبرقَتا، وهو يقول: «فكِّري في السِّلاح الذي يُمكن أن يكونه».

* * *

كنتُ أعرفُ أنَّني على وشك انتهاك منفاي. ولهذا، انتظرتُ اللَّيلَ والسَّحابَ السَّابح أمام وجه عمَّتي. إذا نجحتُ فسأرجعُ بحلول الصَّباح قبل أن يلحظ أحدٌ غيابي، وإذا لم أنجح فسيكون أوانُ العقاب قد ولَّى.

خضتُ الموج، وارتفعَ فوق ساقَيَّ وبطني، ارتفع فوق رأسي. لم أحتَج إلى إثقال نفسي بالصُّخور على غرار الفانين، مقاوِمةً قابليَّتي للطَّفو، بل نزلتُ رفوف المحيط الصَّخريَّة بثبات، ومن فوقي واظبَتِ التيَّارات على حركتها العنيدة، غير أنَّني تعمَّقتُ بحيث لم أعد أشعرُ بها، وقد أضاءت عيناي الطَّريق. تحرَّكتِ الرِّمال من حولي، واندفعت سمكةٌ مفلطحةٌ مبتعدةً عن قدمَيَّ، إلَّا أنَّ مخلوقاتٍ أخرى لم تقترب، إذ شمَّت دم النَّيادات في عروقي، أو ربَّما السُّموم الملتصقة بأصابعي بعد أعوامٍ عديدة من ممارسة السِّحر. تساءلتُ إن كان يجدُر بي أن أحاول الكلام مع حوريَّات البحر وطلب عونهنَّ، لكنَّني لم أحسب أنَّ ما جئتُ لأفعله سيُعجِبهنَّ.

توغَّلتُ أكثر فأكثر في غياهب السَّواد. تلك المياه ليست عُنصري، وكنتُ أعلمُ هذا. نخرَت البرودةُ عظمي، ولسعَت الملوحةُ وجهي، وشعرتُ بوزن المحيط مكدَّسًا كالجبال على كاهلَيّ. على أنَّ الجَلَد كان فضيلتي دومًا، وهكذا واصلتُ الغوص. من بعيدٍ، لمحتُ الحيتان العملاقة والحبابرة الضَّخمة سابحةً، فقبضتُ على سكِّيني المشحوذة لأقصى درجةٍ مُمكنة للبرونز، لكنَّها ظلَّت بعيدةً عنّي بدورها.

أخيرًا، حططتُ على أسفل قيعان البحر، حيث الرَّمل بارد إلى حدٍّ حرقَ قدمَيّ. كلُّ شيءٍ صامتٌ هناك، والماءُ ساكنٌ تمامًا، والإضاءةُ الوحيدة مصدرها جدائلُ الطَّحالب المنيرة الطَّافية. حكمةٌ من هذا الإله أن يجعل زائريه يُسافِرون إلى مكانٍ معادٍ كهذا، حيث لا يحيا شيءٌ إلَّاه.

صحتُ: «أيا سيِّد الأعماق العظيم، لقد جئتُ من العالم لأتحدَّاك».

لم أسمعَ صوتًا، ومن حولي امتدَّ نطاقُ الملح الأعمى. ثمَّ انشقَّ الظَّلام، وأتى. ضخمًا كان، وأبيضَ ورماديًّا، موسومًا على الأعماق كصورةٍ تِلويَّة للشَّمس. تموَّج جناحاه الصَّامتان، ومن طرفيْهما تدفَّقت غُدرانٌ من التيَّار. عيناه رفيعتان مشقوقتان كالقِطط، وفمه جرحٌ بلا دم. حدَّقتُ إليه. عندما بدأتُ خوض الماء، قلتُ لنفسي إنَّه سيكون مجرَّد مينوتور آخرَ أصارعه، مجرَّد أوليمبي باستطاعتي أن أتحايلَ عليه، لكن الآن وقد رأيتُ أمامي هذه الجسامة الشَّنيعة، جبنتُ. هذا الكائن أقدم من أراضي العالم أجمع، قديمٌ كذرَّة الملح الأولى، وحتى أبي نفسه سيبدو أمامه كطفل. لا يُمكنكَ أن تُباري شيئًا كهذا مثلما لا يُمكنك أن تسدَّ البحر. اجتاحَني خوفٌ بارد. طيلة حياتي، خشيتُ أن يسعى إليَّ رُعبٌ عظيم، ولم أعد مضطرَّةً إلى الانتظار، فها هو ذا هنا.

ـ لأيِّ غايةٍ تتحدَّينني؟

لكلِّ الآلهة العُظمى القدرةُ على الكلام بالأفكار، لكنَّ سماع هذا الكائن في عقلي أحال معدتي إلى ماء.

ـ «جئتُ لأظفر بذنَبك السَّام».

ـ ولِمَ ترغبين في تلك القوَّة؟

ـ «أثينا بنت زوس تسعى لقتل ابني. قوَّتي لا تستطيع حمايته، لكنَّ قوَّتك تستطيع».

استقرَّت عليَّ عيناه اللَّتان لا تطرفان.

ـ أعرفُ مَن أنتِ يا ابنة الشَّمس. كلُّ ما يلمسه البحر يأتيني في النِّهاية في الأعماق. لقد تذوَّقتكِ، تذوَّقتُ عائلتكِ كلَّها. أخوكِ أيضًا جاء مرَّةً ابتغاءً لقوَّتي، ورحل خالي الوفاض كالآخرين جميعًا. لستُ أحدًا يُمكنكِ قتاله.

ماج فيَّ اليأس إذ عرفتُ أنَّه يقول الحقيقة. جميع وحوش البحر مغطَّاةٌ بالنُّدوب من معاركها مع إخوتها اللِّويثانات، أمَّا هو فلا. كان أملسَ بالكامل، لأنْ لا أحدَ جرؤَ على تحدِّي قوَّته العتيقة. حتى إيبتيس أدركَ حدوده.

قلتُ: «ولو. عليَّ أن أحاول من أجل ابني».

ـ مستحيل.

خرجَ كلامه باردًا كبقيَّته. ولحظةً بعد لحظةٍ شعرتُ بإرادتي تخور، تستنزفها برودةُ المياه القارسة ونظرته الرَّاسخة.

لكنَّني أجبرتُ نفسي على الكلام. «لا يُمكنني أن أقبل هذا. ابني يجب أن يعيش».

ـ في حياة الفانين لا وجوب إلَّا للموت.

ـ «إن كنتُ لا أستطيعُ تحدِّيك، فقد يُمكنني أن أعطيك شيئًا في المقابل، هديَّةً ما، أو أؤدِّي مهمَّةً».

انفتحَ شقُّ فمه في ضحكةٍ صامتة.

ـ وما الذي لديكِ وقد أريده؟

لا شيء، وكنتُ أعلمُ هذا. رمقني بعينَي القطِّ الشَّاحبتيْن.

ـ قانوني كما كان دومًا. إذا أردتِ ذنَبي فعليكِ أن تخضعي أوَّلًا لسُمِّه. هذا هو الثَّمن. الألم الأبديّ لقاء بضع سنواتٍ إضافيَّة لابنكِ الفانيّ. أيستحقُّ أن يُكلِّفكِ هذا؟

فكَّرتُ في المخاض الذي كاد يقضي عليَّ، وفكَّرتُ فيه يستمرُّ ويستمرُّ بلا علاج، بلا مسكِّن، بلا راحة.

ـ «هل عرضت المثل على أخي؟».

ـ العرضُ قائمٌ للجميع. لقد رفض. كلُّهم يرفُض.

منحتني هذه المعرفة نوعًا من القوَّة. «وما الشُّروط الأخرى؟».

ـ حينما لا تعودين محتاجةً إلى قوَّته ألقيه في البحر ليعود إليَّ.

ـ «أهذا كلُّ شيء؟ أتُقسِم؟».

ـ أتُريدين إلزامي أيَّتها الطِّفلة؟

ـ «أريدُ أن أعرف أنَّك ستفي بالصَّفقة».

ـ سأفي بها.

تحرَّكت التيَّارات من حولنا. إذا فعلتُها فسيعيش تليجونوس، وهذا هو كلُّ ما يهمُّ. قلتُ: «أنا مستعدَّة. اضرب ضربتك».

ـ لا. يجب أن تضعي يدكِ على الزُّعاف بنفسكِ.

مصَّني الماء، وأذبل الظَّلام شجاعتي. لم تكن الرِّمال ناعمةً بل مختلطةً بقطعٍ من العظم. كلُّ ما يموت في البحر مثواه هنا في النِّهاية. تهيَّج جِلدي، يخزني ويخزني، كأنَّه يُريد انتزاع نفسه عنِّي وتركي. لا رحمة بين الآلهة، وقد عرفتُ هذا طيلة حياتي. جعلتُ نفسي أتقدَّمُ، وعلِقَ شيءٌ ما بقدمي، فقصَّ صدريَ. تخلَّصتُ منه وتقدَّمتُ، فلو توقَّفتُ لما قويتُ على الحركة ثانيةً أبدًا.

وصلتُ إلى التَّجعيدة التي يلتحم عندها ذيله بالجِلد الرَّماديّ. بدا اللَّحم فوقه طريًّا على نحوٍ كريه، كشيءٍ متعفِّن، واحتكَّ العمود الفقريّ بخفوتٍ بقاع المحيط. من قريبٍ، رأيتُ حافة الذَّيل المسنَّنة، وشممتُ قوَّته الغليظةَ الحُلوةَ حدَّ الغثيان. هل سأستطيعُ الصُّعود من الأعماق بعدما يصير الزُّعاف في داخلي أم سأرتمي هناك قابضةً على الذَّنَب فيما يموت ابني في العالم بالأعلى؟

قلتُ لنفسي لا تُطيلي الأمر، لكنَّني عجزتُ عن الحركة قيد أُنملة، وقد نكصَ جسدي بحُسْنِ حسِّهِ البسيط من فكرة تدمير الذَّات. انشدَّت ساقاي توطئةً للفرار، للعودة حثيثًا إلى أمان العالم الجاف، تمامًا مثل إيبتيس من قبلي، وكلِّ الآخرين الذين أتوا راغبين في قوَّة ترايجون.

من حولي، كانت الظُّلمة والتيَّارات المعتمة. وضعتُ وجه تيلجونوس المشرق أمامي، ومددتُ يديَّ.

ومرقَتْ يداي من ماءٍ خالٍ لا تلمسان شيئًا، ووجدتُ الكائن طافيًا أمامي من جديدٍ، ونظرته المحايدة على نظرتي.

ـ انتهى الأمر.

اسودَّ عقلي كتلك المياه، كأنّني قفزتُ في الزَّمن، وقلتُ: «لا أفهمُ».

ـ كنتِ ستلمسين السُّم، وهذا يكفي.

شعرتُ كأنّني جُننتُ. «كيف؟».

ـ أنا قديمٌ كالعالم، وأضعُ الشُّروط التي تُرضيني. أنتِ أوَّل من انطبقَت عليه.

ونهض من فوق الرَّمل، ومسَّت خفقات جناحيْه شعري. ولمّا توقَّفَ رأيتُ التَّجعيدة التي يلتحم عندها ذيله بجسده أمامي مرّةً أخرى.

ـ اقطعي. ابدئي باللَّحم من أعلى، وإلّا تسرَّب الزُّعاف.

كان صوته هادئًا كأنّما قال لي أن أقطّع ثمرةً. شعرتُ بالدُّوار من الصَّدمة التي لم تُفارِقني بعدُ، ورمقتُ ذلك الجِلد النَّظيف الرَّقيق كالرُّسغ، عاجزةً عن تصوُّر شقِّه كأنَّه حلقُ رضيع.

قلتُ: «لا يُمكنك أن تسمح بهذا. مؤكَّدٌ أنّها خدعة. بإمكاني أن أبتلي العالم بقوّةٍ كهذه، بإمكاني أن أهدّد زوس».

ـ العالمُ الذي تتكلَّمين عليه لا يعني لي شيئًا. لقد ظفرتِ، والآن خُذي الغنيمة. اقطعي.

لم تكن نبرته خشنةً أو ناعمةً، ومع ذلك أحسستُ بها كالسَّوْط. ضغطتِ المياه عليَّ، وامتدَّت الأعماقُ الهائلة إلى ليلها اللّا نهائيّ. انتظرَ لحمه الطَّري أمامي أملسَ رماديًّا، ولم أزل لا أستطيعُ الحركة.

ـ كنتِ مستعدَّةً لقتالي لتأخذيه، ولكنْ ليس وأنا راضٍ؟

قلتُ شاعرةً بهياج معدتي: «أرجوك، لا تجعلني أفعلُ هذا».

ـ أجعلكِ؟ أيَّتها الطِّفلة، أنتِ التي أتيتِني!

لم أشعر بمقبض السكِّين في يدي، لم أشعر بشيء. وبدا ابني بعيدًا بُعد السَّماء. رفعتُ النَّصل، وبطرفه لمستُ جِلدَ الكائن، فتمزَّق مثل الزُّهور، بغير انتظامٍ وبسهولة، وانبثق المُهل الذَّهبي وطفا فوق يدَيَّ. أذكرُ ما فكَّرتُ فيه لحظتها: لا ريب أنَّني سأجرَّمُ لقاء هذا. يُمكنني أن أصنع كلَّ ما أريدُ من تعاويذ، كلَّ الحِراب السّحريَّة، إلَّا أنَّني سأقضي ما تبقَّى من أيَّامي في مشاهدة هذا الكائن ينزف.

انقطعت الرُّقعة الأخيرة من الجِلد، وانخلعَ الذَّنب في يديَّ. كان بلا وزنٍ تقريبًا، ومن قُربٍ رأيتُ له سمتًا شبيهًا بالتَّقزُّح.

قلتُ: «أشكرك»، لكنَّ صوتي كان من هواء.

شعرتُ بالتيَّارات تتحرَّك، وتهامسَت ذرَّات الرِّمال. ارتفعَ جناحاه، وتلألأ الظَّلامُ المحيط بنا بسحاباتٍ من دمه المذهَّب. تحت قدمَيَّ، كانت عظامُ ألف عام؛ وفكَّرتُ أنَّني لا أستطيع احتمال هذا العالم لحظةً إضافيَّةً.

ـ اصنعي عالمًا آخر إذن أيَّتها الطِّفلة.

وانزلقَ يغيب في الظُّلمات تاركًا خلفه أثرًا من الذَّهب.

***

كان الطَّريق إلى أعلى طويلًا بهذا الموت في يديَّ، ولم أرَ أيَّ مخلوقاتٍ ولو حتى من بعيد. من قبل نَفَرت منِّي، أمَّا الآن فلاذت بالفرار.

حين خرجتُ على الشَّاطئ، كان الفجر يُوشِك على البزوغ ولا وقت للرَّاحة. ذهبتُ إلى الكهف، ووجدتُ العصا القديمة التي استخدمها تليجونوس كالحربة. وبيديْن ما زالَتا ترتجفان بعض الشَّيء حللتُ الحبل الذي يربط السكِّينَ بطرفها، ثمَّ وقفتُ لحظةً أنظرُ إلى طولها المعوجِّ متسائلةً إن كان عليَّ العثورُ على قناةٍ جديدة. لكنَّ هذه هي التي تمرَّن بها، وخطر لي أنَّ الأسلم أن أبقيها كما اعتادها باعوجاجها وكلِّ شيء.

برفقٍ أمسكتُ الذَّنَب من قاعدته، وقد تكوَّنت عليه طبقة من سائلٍ صافٍ، وربطته بِطرف العصا بالخيط والسِّحر، ثمَّ وضعتُ فوقه غمدًا جِلديًّا مسحورًا بالمولي لدرء السُّم.

كان نائمًا بوجهه الأملس ووجنتيْه المتورِّدتيْن قليلًا، ووقفتُ أرقبه حتى استيقظ. هبَّ، ثم زرَّ عينيْه متسائلًا: «ما هذا؟».

ـ «حماية. لا تلمس شيئًا إلَّا القناة. الخدشُ الواحد موتٌ للبشر وعذابٌ للآلهة. أبقِ النَّصل مغمدًا دومًا. إنَّه لأثينا وحدها، أو الخطر البالغ. يجب أن يعود إليَّ بعدها».

كما كان دومًا لم يُصِبه خوف، وبلا تردُّدٍ مدَّ يده ووضعَ راحتها على القناة، ثمَّ قال: «إنَّه أخف من البرونز. ما هذا؟».

ـ «ذنَب ترايجون».

لطالما فضَّل قصص الوحوش. حدجَني بنظرةٍ ملؤها العجب قائلًا: «ترايجون؟ أخذتِ منه ذنَبه؟».

أجبتُ: «لا، بل أعطاه لي لقاء ثمن»، وفكَّرتُ في ذلك الدَّم الذَّهبي يُلطِّخ أعماق المحيط، وأردفتُ: «احمله الآن وعِش».

ركع أمامي خافضًا عينيْه أرضًا، وبدأ يقول: «أمَّاه، أيَّتها الربَّة...».

قاطعته واضعةً إصبعي على شفتيْه: «لا»، وسحبته ليقف مناهزًا إيَّاي في طول القامة، وأضفتُ: «لا تبدأ الآن. هذا لا يليق بك، ولا بي».

ابتسم لي، وبعدها جلسنا إلى المائدة نأكل الفطورَ الذي حضَّرته، ثمَّ جهَّزنا المركب وحمَّلناه بالمؤن وهدايا الضِّيافة، وجررناه إلى حافة الماء. ازدادت ملامحه إشراقًا كلَّ دقيقة، وخطَت قدماه على الأرض بمنتهى الشُّرعة.

تركني أعانقه مرَّةً أخيرةً، وقال: «سأبلِّغُ أودسيوس تحيَّاتكِ. سأعودُ إليك بقصصٍ عديدة يا أمَّاه لن تصدِّقيها جميعًا. سأجلبُ لكِ هدايا وافرةً لن تري من تحتها سطح القارب».

أومأتُ برأسي، وتحسَّستُ وجهه بأصابعي، وأبحرَ ملوِّحًا بالفعل إلى أن غابَ عن نظري.

الفصل الحادي والعشرون

هبَّت عواصف الشِّتاء مبكِّرًا في ذلك العام. أمطرَت السَّماء قطراتٍ لاسعةً، بدَت كأنها تُبلِّل الأرض بالكاد، وتبعَت المطرَ ريحٌ عاتية، انتزعَت أوراقَ الشَّجر عن الغصون خلال يومٍ واحد.

لم أكن قد انفردتُ بنفسي على جزيرتي منذ... لا أدري متى. قرن؟ قرنيْن؟ قلتُ لنفسي إنَّني سأفعلُ بعد ذهابه كلَّ الأشياء التي نحَّيتها جانبًا طوال ستَّة عشر عامًا، إنَّني سأعملُ على تعاويذي من الفجر إلى الغسق، وأنقِّبُ عن الجذور، وأنسى أن آكل، وأجني سوق الأُملود وأجدلُ منها سلالًا تتكوَّم حتى السَّقف. سيكون مرور الأيَّام البطيء وقتًا لهدوء البال، وقتًا للرَّاحة.

وبدلًا من ذلك، ذرعتُ السَّاحل متطلِّعةً إلى البحر، كأنَّني أستطيعُ أن أثقب المسافات ببصري حتى إثاكا، وعددتُ اللَّحظاتِ قائسةً كلًّا منها على رحلته. الآن يتوقَّف لتعبئة الماء العذب، الآن يلمح الجزيرة،

ها قد شقَّ طريقه إلى القصر وركعَ. وأوديسوس... ماذا سيفعل؟ إنَّني لم أخبره بحمْلي قبل رحيله. أشياءَ قليلةً جدًّا أخبرته بها. كيف سيكون رأيه في ولدٍ أتى منَّا؟

طمأنتُ نفسي قائلةً إن كلَّ شيءٍ سيكون بخير. إنَّه فتًى يبعث على الفخر. سيرى أودسيوس سماتِه بوضوحٍ مثلما انتقى منوال دايدالوس، ويضمُّه إلى دائرة ثقته، ويُعلِّمه جميعَ فنون الرِّجال الفانين، من المبارزة والرِّماية إلى الصَّيد والتَّحدُّث في المجالس. سيجلس تليجونوس في المآدب ويسحر الإثاكيِّين، فيما يَنظُر أبوه إلى المشهد بافتخار. حتى پنلوپي سيكسبها، وكذا تليماكوس؛ وقد يجد مكانًا في بلاطهم، ويُسافِر ذهابًا وإيابًا بيننا فيحيا حياةً طيِّبةً.

وماذا أيضًا يا سرسي؟ هل سيركبون الجَرافِن، ويُصبِحون جميعًا خالدين؟

حمل الهواء رائحةَ الصَّقيع، ومن السَّماء سقطت نُدفةٌ أو نُدفتان. ألف ألف مرَّةٍ قطعتُ جروف آيايا، حيث تعقد أشجار الحوْر السَّوداء والبيضاء أذرُعَها العارية، وتذبُل ثمارُ شجر القرانيا والتُّفَّاح السَّاقطة على الأرض، وترتفع سوق الشُّمرة حتى خصري، ويكسو بياض الملح الجافّ صخورَ البحر؛ وبالأعلى، تصيح طيورُ الغاق المحلِّقة مناديةً الأمواج. يحلو للفانين وصفُ تلك البدائع الطَّبيعيَّة بالثَّبات والدَّوام، لكنَّ الجزيرةَ كانت تتغيَّر بلا كلل، وهذه هي الحقيقة، تمضي بلا نهايةٍ عبر أجيالها المتعاقبة. ثلاثمئة عامٍ وأكثر مرَّت منذ جئتُ. السِّنديانة التي تصرُّ فوق رأسي عرفتها وهي شتلة، وبدَّل المدُّ والجَزْر الشَّاطئ، وتغيَّرت منحنياته مع كلِّ شتاء، وحتى الجروف اختلفَت وقد نحتَتها

الأمطار والرِّياح ومخالبُ ألف سحليَّةٍ، ناهيك بالبذور التي علقت بها وتبرعمَت في صدوعها. كلُّ شيءٍ يُوحّده صعود أنفاس الطَّبيعة وهبوطها الثَّابت، كلُّ شيءٍ إلَّاي.

طيلة ستَّة عشر عامًا دفعتُ الخاطر جانبًا، وسهَّل تليجونوس الأمر بطفولته الجامحة الملأى بتهديدات أثينا، ثمَّ نوبات الهياج، وبعدها شبابه المتفتِّح، وجميع تفاصيل الحياة الفوضويَّة التي جرَّها في إثره كلَّ يوم، من القمصان التي يجب غسلها، إلى الوجبات التي تُقدَّم له، إلى تبديل الملاءات. أمَّا الآن وقد ذهبَ، فقد شعرتُ بالحقيقة ترفع رأسها. حتى إذا نجا تليجونوس من أثينا، حتى إذا قطعَ الطَّريق كلَّه إلى إثاكا وعاد، فما زلتُ سأخسره، سواء أكان هذا بسبب سفينةٍ غارقة أم المرض أم الغارات أم الحرب. أفضل ما يُمكنني أن آمله أن أشهد الوهنَ يستشري في جسده عُضوًا عُضوًا، أن أرى كتفيْه تتهدَّلان وساقيْه ترتعدان وبطنه يَضمُر، وفي النِّهاية أقف أمام جثمانه مبيَض الشَّعر، وأشاهد اللَّهبَ يتغذَّى عليه. الأشجار والتِّلال أمامي، والدِّيدان والأُسود، والأحجار والبراعم الرَّقيقة ومنوال دايدالوس، كلُّها ارتعش كأنَّها حُلم متآكل، وتحتها يقع المكان الذي أقطنُ فيه حقًّا، أبديَّةٌ باردة من حسرةٍ لا تنتهي.

* * *

بدأت واحدة من ذئابي تعوي، فقلتُ لها: «صمتًا»، إلَّا أنَّها لم تكفَّ عن العُواء، يتردَّد صوتها على الجُدران مستبدًّا بأُذنَيَّ. كنتُ قد غبتُ في النَّوم أمام النَّار واضعةً رأسي على أحجار المستوقد، واعتدلتُ ببصرٍ غائم وقد انطبعَت على بشرتي نقشةُ دِثاري. من النَّافذة، ترقرقَ الضَّوء الشَّتوي قاسيًا شاحبًا، ينقضُّ على عينَيَّ، ويترُك على الأرض ظلالًا مرتفعةً حتى

الرُّكبة. أردتُ العودة إلى النَّوم، لكنَّ الذِّئبة أنَّت وعوت، وأخيرًا جعلتُ نفسي أنهضُ، وذهبتُ إلى الباب، وفتحته بحركةٍ عنيفة. هناك!

اندفعَت الذِّئبة تتجاوَزني، وانطلقَت عبر الفُسحة، وشاهدتها تذهب. اَركتروس هو الاسم الذي أطلقته عليها؛ ومع أنَّ أكثر الحيوانات بلا أسماء، فإنَّها كانت المفضَّلة عند تليجونوس. توجَّهتْ إلى أعلى صوب الجُرف المطلّ على السَّاحل، فتركتُ الباب مفتوحًا وتبعتها. لم أضع معطفًا، ولطمَتني الرِّيح العاصفة فيما تسلَّقتُ القمَّة إلى حيث تقف اَركتروس. كان البحر في أسوأ حالاته الشَّتويَّة، يجيشُ ويمورُ ويُكلِّل البياضُ أمواجَه بشراسة. فقط في أشد حالات الضَّرورة من شأن بحَّارٍ أن يخرُج الآن. نظرتُ واثقةً بأنَّني مخطئة، ولكنْ ها هو ذا المركب، مركب تليجونوس.

هرعتُ إلى أسفلَ بين الأشجار وأدغال الشَّوك الجرداء، يتلاطم في حلقي الذُّعر والسُّرور. ابني عاد، عاد مبكِّرًا جدًّا. مؤكَّدٌ أنَّ كارثةً ما وقعَت. لقد ماتَ، لقد تحوَّل.

اصطدمَ بي بين أكاليل الغار، وقبضتُ عليه، وشددته بين ذراعَيَّ ضاغطةً بوجهي على كتفه، وقد فاحَت منه رائحةُ الملح، وأحسستُ بمنكبيْه أعرضَ من قبل. تمسَّكتُ به متخاذلةَ الأعصاب من فرط الارتياح.

ـ «رجعتَ سريعًا».

لم يردَّ. رفعتُ رأسي واحتويتُ ببصري وجهه، لأجده مهزولًا مرضوضًا، يعوزه النَّوم ويُفعِمه البؤس. شعرتُ بالجَزَع يُومِض فيَّ، وسألته: «ما الأمر؟ ماذا حدثَ؟».

ـ «أمِّي، يجب أن أخبركِ».

قالها كأنّه يختنق. التصقَت آركتروس برُكبته، إلَّا أنّه لم يلمسها. جسده كلُّه كان باردًا متخشّبًا، ومعه اعترى البردُ جسدي.

قلتُ: «أخبِرني».

لكنَّه كان في حيْرة. على مدى حياته نسجَ قصصًا عديدةً، أمّا هذه فاحتبسَت في داخله كالخام في الصَّخر. أمسكتُ يده قائلةً: «أيًّا كان الأمر، فسأساعدك».

صاح منتزعًا إيّاها منّي: «لا! لا تقولي هذا! يجب أن تدعيني أتكلَّمُ».

جعله وجهه المربدُّ يبدو كأنّه تجرَّع سُمًّا. ظلَّت الرّيحُ تهبُّ ماضغةً ثيابنا، وإن لم أشعر إلَّا بتلك البوصات المعدودة بيننا.

قال: «لم يكن موجودًا حين وصلتُ، أبي»، وابتلعَ ريقه، ثم تابعَ: «ذهبتُ إلى القصر، وقالوا إنَّه في رحلة صيد. لم أبقَ هناك، بل على القارب كما أخبرتِني».

أومأتُ برأسي بِصمتٍ خاشيةً أن ينهار إذا نطقتُ كلمةً.

ـ «كلَّ مساءٍ، تمشّيتُ على الشّاطئ قليلًا. دائمًا أخذتُ معي الحربة، فلم أحبَّ تركها في القارب، لم أرد أن...».

لاح على وجهه انقباض.

ـ «كنّا وقت الغروب عندما وصل القارب. كان صغيرًا مثل قاربي، لكنَّ عليه أكوامًا من الكنوز التي التمعَت فيما يتمايَل وسط الأمواج. دروع على ما أظنُّ، وبعض الأسلحة، وآنية. ألقى الرُّبّان المرساة، وقفزَ من فوق المقدّمة».

ارتفعَت عيناه تلتقيان عينَيّ.

ـ «لحظتها عرفتُ، حتى من تلك المسافة. كان أقصرَ قامةً مما حسبتُ، وكتفاه عريضتَيْن كالدِّببة، وشعره شائبًا تمامًا. بدا كأيِّ بحَّارٍ آخر. لا أدري كيف عرفتُ! كأنَّني... كأنَّ عينَيّ كانتا تنتظران هذا الشَّكل طوال الوقت».

عرفتُ هذا الإحساس، فهكذا أحسستُ حين نظرتُ إليه للمرَّة الأولى بين ذراعَيّ.

ـ «ناديته، لكنَّه كان متَّجهًا نحوي بالفعل. ركعتُ، وحسبتُ...».

ضمَّ قبضته على صدره بشدَّةٍ، كأنَّه يُريد أن يخترق بها جِلده، غير أنَّه سيطرَ على نفسه.

ـ «حسبتُ أنَّه عرفَني أيضًا، لكنَّه كان يزعق. قال إنَّني لا أستطيعُ السَّرقة منه والإغارة على أراضيه، إنَّه سيُلقِّنني درسًا».

تخيَّلتُ صدمةَ تليجونوس الذي لم يُتَّهم بأيِّ شيءٍ في حياته.

ـ «كان يجري نحوي. قلتُ إنَّه أساءَ الفهم، إنَّني حصلتُ على إذن ابنه الأمير، لكنَّ قولي زادَه غضبًا، وقال: أنا الحاكم هنا».

فركَتنا الرِّيح في مهبِّها، وشعرتُ ببشرته خشنةً من القشعريرة. حاولتُ أن أضمَّه بذراعَيّ، فوجدتُ كأنَّني أعانقُ سنديانةً.

ـ «وقف فوقي. كانت في وجهه تجاعيد وعليه بُقع الملح، ورأيتُ على ذراعه ضمادةً غارقةً بالدَّم، وكان يضع سكِّينًا في حزامه».

تكلَّم ببصرٍ شارد، كأنَّما عادَ يركع على ذلك الشَّاطئ. تذكَّرتُ ذراعَي أودسيوس النَّديبتَيْن، اللَّتيْن علَّمتْهما مئةٌ من تلك الجروح السَّطحيَّة. لقد

أحبَّ القتال من مقربة، وقال إنَّ تلقِّي الضَّربات على الذِّراع أفضل من تلقِّيها في الأحشاء. ابتسامته في ظُلمة حُجرتي. أولئك الأبطال، حريٌّ بكِ أن تري النَّظرة على وجوههم عندما أنقضُّ عليهم مباشرةً.

ـ «قال لي أن أضع حربتي، فقلتُ إنَّني لا أستطيعُ، لكنَّه ظلَّ يصيح أنَّ عليَّ أن أضعها، أضعها. ثمَّ إنَّه حاول الإمساك بي».

ارتسمَ المشهد واضحًا في مخيِّلتي: أودسيوس بكتفَي الدِّببة والسَّاقين البارزتَي الأوتار ينقضُّ على ابني الذي لم تنبت له لحيةٌ بعدُ. وثبَتْ جميع القصص التي خبَّأتها عنه إلى عقلي، عن ضرب أودسيوس المتمرِّد ثرسايتيس حتى فقدَ الوعي، عن كلِّ المرَّات التي رأيتُ فيها يوريلوكوس بعينيْن مسودَّتيْن وأنفٍ متورِّم. تحلَّى أودسيوس بصبرٍ لا ينفد على تقلُّبات أجاممنون، لكنْ مع مَن هُم أدنى منه شأنًا كان بإمكانه أن يتعامل بقسوةٍ كعواصف الشِّتاء. أرهقه هذا. كلُّ ما في العالم من جهل، الإرادات العنيدة العديدة التي لا بُدَّ من تسخيرها مرَّةً بعد مرَّةٍ لخدمة أغراضه، ذوو القلوب الحمقاء الذين لا مناص من قيادتهم كلَّ يومٍ بعيدًا عن آمالهم ونحو آماله هو. لا فمٌ من شأنه التَّمتُّع بتلك القُدرة على الإقناع، ولا مفرَّ من إيجاد طُرقٍ مختصرة، وقد وجدَها. وربما وجدَ في هذا نوعًا من المتعة أيضًا، أن يسحق نفسًا دنيئةً شاكيةً تجرَّأت على اعتراض سبيل أفضل الإغريق.

وما الذي رآه أفضلُ الإغريق إذ نظرَ إلى ابني؟ فتًى حُلو الشَّمائل بلا خوف، شابًّا لم ينحنِ لإرادة غيره طيلة حياته.

شعرتُ مثل الحبل المسحوب عن آخِره، المشدود لدرجةٍ لا تُطاق. «ماذا حدثَ؟».

- «جريتُ إلى القصر ليُخبِروه بأنّني لا أقصدُ أذًى، لكنّه كان في غاية السُّرعة يا أمّاه».

أودسيوس وقِصر ساقَيْه الخدَّاع، سرعته التي لم يبزّه فيها إلّا أخيل. في طروادة، فازَ بكلّ سباقات العدْو، وفي المصارعة أسقطَ آياكس نفسه مرَّةً.

- «أمسكَ الحربة وشدَّني منها، فطار الغمدُ الجِلديّ. خشيتُ أن أتركها، خشيتُ أن...».

أمامي، وقف تليجونوس على قيد الحياة، لكنّني شعرتُ بغمرة الفزع المتأخّرة. كم كان الموت وشيكًا. لو التوَت الحربة في قبضته، لو خدشَته...

وعرفتُ لحظتها، لحظتها عرفتُ. وجهه كحقلٍ احترقَ، وصوته متصدّع حُزنًا.

- «صحتُ بأن يأخذ حَذَره. قلتُ له يا أمّي، قلتُ له لا تدعها تلمسك، لكنّه انتزعها منّي. كان مجرّد خدشٍ طفيف، الرّأس على وجنته».

ذنَب ترايجون، الموت الذي وضعتُه في يده.

- «وجهه... توقّف، وسقط. حاولتُ أن أمسح السُّم، لكنني لم أجد جرحًا حتى. قلتُ له سآخذك إلى أمّي، وستُساعِدك. ابيضّت شفتاه، وضممته. أنا ابنك تليجونوس، أنجبَتني الربّةُ سرسي. سمعَني. أظنُّ أنّه سمعني، ونظر إليّ قبل أن... يرحل».

كان فمي خاليًا وقد بدأ كلُّ شيءٍ يتّضح أخيرًا. يأس أثينا المدرَّع ووجهها الجامد إذ قالت إنّنا سنندم إذا عاشَ تليجونوس. لقد خشيتْ أن يُؤذي أحدًا تحبُّه، ومَن أحبّت أثينا أكثر من الجميع؟

وضعتُ يدي على فمي قائلةً: «أودسيوس».

جفل من الكلمة كأنَّها لعنة، وقال: «حاولتُ تحذيره، حاولتُ...»، واختنقَ في حلقه الكلام.

الرَّجل الذي نمتُ معه لياليَ كثيرةً جدًّا، ماتَ بالسّلاح الذي أرسلته، ماتَ بين ذراعَي ابني. الأقدار تضحك منّي، من أثينا، منّا جميعًا. هذه دُعابتها المريرة المفضَّلة: مَن يُقاوِمون النُّبوءة يُضيِّقون خناقها حول رقابهم لا أكثر. أطبقَ الفخُّ اللّامع فكَّيْه، وسقط فيه ابني المسكين الذي لم يُؤذِ بشريًّا قطُّ، ثمَّ أبحرَ إلى الدِّيار طوال تلك السّاعات الخاوية، والذَّنْب يسحق قلبه سحقًا.

كانت يداي خدرتيْن، لكنَّني أجبرتهما على الحركة، وأمسكته من كتفيْه قائلةً: «اسمع، اسمعني، لا يُمكنك أن تلوم نفسك. ما حدث مقدَّر منذ زمنٍ طويل، مقدَّر بمئة طريقةٍ مختلفة. في مرَّةٍ، قال لي أودسيوس إنَّ مصيره أن يَقتُله البحر. ظننته يعني سفينةً غارقةً، ولم أفكّر في أيِّ احتمالٍ آخر. كنتُ عمياء».

بكتفيْن مرتخيتيْن وصوتٍ فاتر، قال: «كان ينبغي أن تدعي أثينا تَقتُلني».

هززته كأنَّ بإمكاني أن أنفض منه تلك الفكرة الشرّيرة، وقلتُ: «لا! ما كنتُ لأفعل ذلك أبدًا، أبدًا، حتى لو علمتُ آنذاك. هل تسمعني؟». وحكَّ اليأس صوتي إذ تابعتُ: «أنت تعرف القصص. أوديب وپاريس حاول آباؤهما قتلهما، لكنَّهما عاشا ليُكابِدا قدريْهما. هذا هو السَّبيل الذي سلكته دومًا، وعليك أن تستمدَّ الرَّاحة من هذه الفكرة».

رفعَ ناظريْه إليَّ قائلًا: «الرَّاحة؟ لقد ماتَ يا أمَّاه، أبي ماتَ».

غلطتي القديمة، الهروع بمنتهى السُّرعة لمساعدته من دون أن أتوقَّف لأفكِّر. قلتُ: «آهٍ يا بُنيْ. إنَّها لوعةٌ أشعرُ بها أيضًا».

بكى حتى ابتلَّت كتفي تحت وجهه. تحت الفروع الجرداء، ندبنا معًا الرَّجل الذي عرفتُه والرَّجل الذي لم يعرفه. يدا أودسيوس العريضتان كيدَيْ حارث، صوته الجافّ يرسم بدقَّةٍ حماقاتِ الآلهة والفانين، عيناه اللتان رأتا كلَّ شيءٍ ولم تشيا إلَّا بأقل القليل، كلُّ هذا فنى. لم تكن علاقتنا سهلةً، لكنَّ كليْنا عاملَ الآخر معاملةً حسنةً، ووثقَ بي ووثقتُ به حين لم يكن هناك غيره. كان أودسيوس نصف ابني.

بعد قليلٍ من الوقت، سحبَ نفسه وقد تباطأَتْ دموعه بعضَ الشَّيء، ولو أنَّني علمتُ أنَّه سيذرفها من جديد.

قال: «لقد أملتُ أن...»، ثمَّ بترَ عبارته، لكنَّ البقيَّة لم تحتَج إلى توضيح. ما الذي يأمله الأطفال دومًا؟ أن يجعلوا آباءهم وأمَّهاتهم يتيهون بهم فخرًا، وأنا أعرفُ مبلغَ الألم الذي يُفضي إليه موتُ ذلك الأمل.

وضعتُ يدي على خدِّه، وقلتُ: «الأطياف في العالم السُّفلي تُدرِكُ أفعالَ الأحياء. لن يكنَّ لك ضغينةً. سيسمع بك ويَشعُر بالفخر».

من حولنا، اهتزَّ الشَّجرُ وقد تغيَّر اتِّجاه الرِّيح. عمِّي بورياس ينفث برده في العالم.

ـ «العالم السُّفليّ. لم أفكِّر في ذلك. سيكون هناك، وحينما أموتُ سأراه، وأتمكَّنُ من توسُّل غُفرانه. سنحظى بما تبقَّى من الزَّمان معًا، أليس كذلك؟».

تألّق الأمل في صوته. وفي عينيه، رأيتُ صورة القائد العظيم يتّجه إليه عبر حقول العيصلان. سيركع على رُكبتيْن من دُخان، ويُشير أودسيوس له بالوقوف، ويُقيمان جنبًا إلى جنبٍ في دار الموتى، جنبًا إلى جنبٍ حيث لا أستطيعُ الذّهاب أبدًا.

تصاعدَ ما تحمله الصُّورة من أسى في حلقي مهدّدًا بابتلاعي. لكنّني كنتُ لألمس سُمًّا يشلُّ من أجله، أفلا يُمكنني إذن أن أقول تلك الكلمة البسيطة لأعطيه كِسرةً من الرّاحة؟

ـ «ستفعل».

جاش صدره، لكنّه بدأ يهدأ، وحكَّ البُقع عن وجنتيْه، قائلًا: «تفهمين لِمَ اضطررتُ إلى جلبهما. لم أستطع تركهما بعد ما فعلتُ، وبعد أن طلبا المجيء. إنّهما متعَبان للغاية، وحزينان أيضًا».

كنتُ متعبةً عن نفسي، منهكةً من طول الاستيقاظ، ملطومةً بموجةٍ تلو الموجة. «مَن؟».

ـ «الملكة وتليماكوس. إنّهما منتظران في القارب».

مالت الفروع من حولي، وقلتُ: «جئت بهما إلى هنا؟».

حدّق على إثر الحدّة في نبرتي، وأجاب: «بالطّبع. لقد طلبا منّي هذا. لم يتبقَّ لهما شيءٌ في إثاكا».

ـ «لم يتبقَّ لهما شيء؟ تليماكوس الملك الآن، وبنلوبي الملكة الأُم. لماذا يُغادِران؟».

قال مقطّبًا وجهه: «هذا ما قالاه. قالا إنّهما محتاجان إلى المساعدة، فكيف أراجعهما؟».

ـ «كيف لا؟!». شعرتُ بنبضي في حلقي سامعةً أودسيوس كأنَّه واقفٌ إلى جانبي. سيُطارِد ابني من أطاحوا بي، ويقول: «لقد جرؤتم على إراقة دم أودسيوس، والآن تُراق دماؤكم في المقابل».

ـ «تليماكوس مقسمٌ على قتلك!».

حملقَ إليَّ. كلُّ تلك القصص التي سمعَها عن الأبناء المنتقمين، ومع ذلك فوجئَ. ببُطءٍ قال: «لا. لو أراد قتلي لفعلَها في الطَّريق».

رددتُ بصوتٍ خشن: «ليس هذا دليلًا على شيء. أبوه كان يعرف ألفَ حيلة، وأُولاها التَّظاهُر بالصَّداقة. ربَّما ينوي أن يحاول إيذاء كلَيْنا، ربَّما يُريدني أن أشاهدك تَسقُط».

قبل لحظةٍ كنَّا متعانقيْن، لكنَّه تراجعَ الآن. «إنَّكِ تتكلَّمين عن أخي».

تلك الكلمة، «أخي»، على شفتيْه. فكَّرتُ في أريادني تمدُّ يدها إلى المينوتور، والنَّدبة على عُنقها.

ـ «إنَّ لي أخويْن أيضًا. أتدري ماذا سيفعلان إذا وقعتُ تحت رحمتهما؟».

على قبر أبيه نقف، لكنَّنا ما زلنا نخوض الشِّجار القديم عينه. الآلهة والخوف، الآلهة والخوف.

ردَّ وأنفاسه تَخرُج قاسيةً في الهواء: «إنَّه الدَّمُ الوحيد الذي تركَه أبي في العالم، ولن أصرفه. لا يُمكنني التَّراجُع عمَّا فعلتُ، ولكنْ بإمكاني أن أفعل هذا على الأقل. إن لم تقبلينا فسأرحلُ، سآخذهما إلى مكانٍ آخر».

لم أشكَّ في أنَّه سيفعلها، يأخذهما بعيدًا. شعرتُ بذلك الغضب القديم يتصاعَد في داخلي، الغضب الذي أقسمتُ أن يحرق العالم قَبل أن أسمحَ لضررٍ بمساسه. به واجهتُ أثينا وصددتُ عنَّا السَّماء، وبه مشيتُ في الأعماق المظلمة. في تلك الاندفاعة الحارَّة الغامرة كانت مُتعة، ووثبَت في عقلي صُور الدَّمار؛ الأرض تتلوَّب في الظَّلام، الجُزر تغرق في البحر، أعدائي يتبدَّلون ويزحفون عند قدمَيَّ. لكن الآن وقد ابتغيتُ تلك الخيالات، حال وجهُ ابني دون تجذُّرها. إذا أحرقتُ العالم فسوف يحترق معه.

تنفَّستُ تاركةً الهواء المالح يملأني. لستُ في حاجةٍ إلى تلك القُوى، ليس بعدُ. قد تكون پنلوپي وتليماكوس ذكيَّيْن، لكنَّهما ليسا أثينا، وهذه درأتُها ستَّة عشر عامًا. إنَّهما يُغالِيان في تقدير الأمور إذا ظنَّا نفسيْهما قادريْن على إيذائه هنا. ما زالَت التَّعويذتان اللتان تحميان الجزيرة كما هما، وذئبته لا تترُكه أبدًا، وأُسودي تُشاهِد من فوق صخورها. وهأنذي، أمُّه السَّاحرة.

قلتُ: «تعال إذن. فلنُرِهما آيايا».



* * *

انتظرا على سطح القارب، ومن ورائهما توهَّجت دائرةُ الشَّمس الشَّاحبة في السَّماء الباردة مغلِّفةً وجهيهما بالظِّل. تساءلتُ إن كانا قد تعمَّدا هذا. في مرَّةٍ، أخبرني أودسيوس بأنَّ نصف النِّزال مناورةٌ حول الشَّمس ومحاولةُ جعل الضَّوء يطعن عينَي الخصم. على أنَّني من دم هيليوس، ولا ضوءٌ من شأنه أن يُعميني. وهكذا رأيتهما بوضوح، پنلوپي وتليماكوس. تساءلتُ بشبه انتشاءٍ عمَّا سيفعلانه. يركعان؟ ما التَّحيَّة

اللَّائقة بالربَّة التي أنجبَت من زوجكِ طفلًا؟ وإذا تسبَّب هذا الطِّفل في موته؟

حنَت بنلوبي رأسها قائلةً: «إنَّكِ تُشرِّفيننا أيَّتها الربَّة. نَشكُركِ على المأوى». تكلَّمت بصوتٍ ناعمٍ كالقشدة، ووجهٍ هادئٍ كالمياه السَّاكنة.

فكَّرتُ أن لا بأس، هكذا سنفعلها. أعرفُ هذا اللَّحن.

قلتُ: «أنتِ ضيفتي المكرَّمة. أهلًا بكِ هنا».

رأيتُ تليماكوس واضعًا على خصره سكِّينًا من النَّوع المستخدَم في طعن الحيوانات، وشعرتُ بنبضي يتسارَع. ذكيّ. السَّيف والحربة، هذان من أدوات الحرب؛ أمَّا سكِّين صيدٍ قديمة يكاد مقبضها ينخلع، فتمرُّ من دون شكوك.

أضفتُ: «وأنت أيضًا يا تليماكوس».

اختلجَ رأسه بعض الشَّيء مع ذِكر اسمه. حسبته سيبدو مثل ابني، ينضح شبابًا ويُومِض بهاءً، لكنَّني ألفيته ناحلًا جادَّ الملامح، في الثَّلاثين من العُمر، وإن بدا أكبر.

سألني: «هل أبلغَكِ ابنكِ بموت أبي؟».

أبي. علقَت الكلمةُ في الهواء كأنَّها تحدٍّ، وفاجأتني جرأته التي لم أتوقَّعها من مظهره.

- «نعم. إنَّني حزينةٌ لسماع الخبر. أبوك كان رجلًا تُؤلَّف عنه الأغاني».

تيبَّسَ على وجه تليماكوس، غضبٌ كما هُيِّئَ لي من تجرُّؤي على التَّلفُّظ بمرثيَّةٍ لأبيه. عظيم. أردته أن يغضب، فهكذا سيرتكب الأخطاء.

قلتُ: «تفضَّلا».

* * *

اندفعَت الذِّئاب الشَّهباء الصَّامتة من حولنا، وتقدَّمتُ سابقةً الجميع رغبةً في مساحةٍ للتَّنفُّس قبل أن تحتلَّ پنلوپي وتليماكوس بيتي، في لحظةٍ للتَّخطيط. أصرَّ تليجونوس على حمل الحقائب التي لم يجلبا الكثير منها، بالكاد ملابس عائلةٍ ملكيَّة. على أنَّ إثاكا ليست كنوسوس. سمعتُ تليجونوس من ورائي يُحذِّد البقاعَ الخدَّاعةَ من جذورٍ وصخورٍ زلقة. كان شعوره بالذَّنب كثيفًا في الهواء كالغيوم الشَّتويَّة، وإن بدا على الأقل أنَّ وجودهما يُلهيه ويسحبه من يأسه. على الشَّاطئ، لمسَ ذراعي هامسًا: **إنَّها ضعيفة جدًّا. لا أظنُّها تأكل. أترين كم هي مهزولة؟ عليكِ أن تُبعِدي الحيوانات عنها. وطعام بسيط. أيُمكنكِ طهو المرق؟**

شعرتُ كأنَّني محلولةٌ عن الأرض. أودسيوس رحلَ، وپنلوپي هنا، وعليَّ أن أطهو لها مرقًا. بعد كلِّ المرَّات التي نطقتُ فيها اسمها، ها قد حضرَت أخيرًا. الانتقام، مؤكَّد أنَّه كذلك، فلأيِّ غايةٍ أخرى جاء؟

بلغا بابي، ولم تزل كلماتنا بنعومة القشدة: **تفضَّلا، شكرًا لكِ، هل تأكلان، أنتِ لطيفة للغاية.** قدَّمتُ الوجبةَ، مرقًا بالفعل، وصحافًا من الجُبنة، وخُبزًا ونبيذًا. كوَّم تليجونوس الطَّعامَ على طبقيْهما، وراقبَ كوبيْهما بعناية وقد ظلَّ وجهه مشدودًا بذلك الحضور المذنب. ولدي، الذي أشرف بمنتهى المهارة على ملء سفينةٍ من البحَّارة، يحوم الآن ويترقَّب كالكلب آملًا لُقيْمةً من المغفرة. كان الظَّلام قد حلَّ، واشتعلَت الشُّموع ليرتعش لهبها من أنفاسنا. قال تليجونوس: «ليدي پنلوپي، أترين المنوال الذي ذكرته لكِ؟ يُؤسِفني أنَّكِ اضطررتِ إلى ترك منوالكِ

هناك، ولكنْ يُمكنكِ استعمال هذا في أيِّ وقتٍ تشائين، إذا سمحَت أمّي».

في أيِّ ظروفٍ أخرى، كنتُ لأضحك. إنَّها مقولةٌ قديمة: النَّسج على منوال امرأةٍ أخرى كالنَّوم مع زوجها. راقبتُ پنلوپي لأرى إن كانت ستجفل.

ـ «يسرُّني أن أرى هذه الأعجوبة. كثيرًا ما حدَّثني أودسيوس عنه».

أودسيوس: الاسم عاريًا في الحُجرة. لن أحجم ما دامَت لن تُحجِم.

ـ «هل أخبركِ أودسيوس أيضًا بأنَّ دايدالوس هو من صنعَه بنفسه؟ لم أكن قطُّ نسَّاجةً تستأهِل هديَّةً كهذه، لكنَّكِ مشهورة ببراعتكِ. آملُ أن تُجرِّبيه».

ـ «أنتِ لطيفةٌ للغاية. أخشى أن ما سمعتِ مبالغٌ فيه جدًّا».

وهكذا مضى الأمر. لم تكن هناك دموعٌ أو اتِّهاماتٌ متبادلة، ولم ينقضَّ تليماكوس عبر المائدة. راقبتُ سكِّينه، لكنَّه وضعَها كأنَّما يجهل وجودها ولم يتكلَّم، في حين تكلَّمت أمُّه بنُدرة. كافحَ ابني لمَلء الصَّمت، لكنْ مع كلِّ لحظةٍ رأيتُ أساه يتفاقَم، وبهتَتْ عيناه، وبدأت خلجةٌ متشنِّجة تنتابه.

قلتُ: «أنتم مجهَدون. سآخذكم إلى أسرَّتكم».

لم يكن طلبًا. نهضوا وترنَّح تليجونوس قليلًا، وأريتُ پنلوپي وتليماكوس حُجرتيْهما. وجلبتُ لهما ماءً ليغتسلا، ثمَّ شاهدتُ بابيْهما ينغلقان.

تبعتُ ابني إلى حُجرته، وجلستُ إلى جواره على الفِراش قائلةً: «يُمكنني أن أعطيك عقَّارًا للنَّوم».

ردَّ هازًّا رأسه: «سأنامُ».

في خضم يأسه وإنهاكه، كان مطواعًا. تركني أمسكُ يده وأسندُ رأسه إلى كتفي، ولم يسعني إلَّا إيجاد القليل من السُّرور في الأمر، فقلَّما سمحَ لي بهذا القُرب. ملَّستُ على شعره الأخفّ درجةً من لون شعر أبيه، وشعرتُ بالرَّجفة تجتاحه ثانيةً، فغمغمتُ: «نَم»، لكنَّه كان قد غابَ في النَّوم بالفعل. أنزلته برفقٍ على الوسادة، وسحبتُ عليه الغطاء غازلةً حول الحُجرةِ تعويذةً تُخفّف الضَّوضاء وتُضعِف الضَّوء، فيما قبعَت آركتروس تنهج عند طرف الفِراش.

قلتُ لها: «أين باقي رفاقكِ؟ أريدهم هنا أيضًا».

رمقَتني بعينيْها الشَّاحبتيْن. أنا أكفي.

أغلقتُ الباب خلفي، ومشيتُ في ظلال منزلي اللَّيليَّة. لم أصرف أُسودي رغم كلّ شيء، فمن المنوِّر دومًا أن أرى ردَّة فعل الآخرين نحوها. پنلوپي وتليماكوس لم يرتبكا، فربما نبَّههما ابني إذن، أم لعلَّه شيءٌ ذكرَه أودسيوس؟ بثَّت فيَّ الفكرة برودةً عجيبةً، وأنصتُّ كأنَّني قد أسمعُ من حُجرتيْهما جوابًا، لكنَّني وجدتُ المنزل هادئًا تمامًا. إنهما نائمان، أو يحفَّان نفسيهما بالصَّمت.

عندما خطوتُ إلى قاعة الطَّعام وجدتُ تليماكوس هناك، يقف في منتصف المكان متَّزنًا كسهمٍ مثبَّت إلى قوسه، وعلى خصره تلتمع السكِّين.

هكذا إذن، حانَ الوقت. ليكنْ، لنفعلها بشروطي. تجاوزته إلى المستوقد، وصببتُ كوبًا من النَّبيذ واتَّخذتُ مقعدي، وطوال الوقت تابعَتني عيناه. عظيم! شعرتُ بجِلدي مشحونًا بالقوَّة مثل سماءٍ قبل عاصفة.

ـ «أعرفُ أنَّك تُخطِّط لقتل ابني».

لم يتحرَّك شيءٌ إلَّا ألسنة اللَّهب في المدفأة. سألني: «وكيف تعرفين ذلك؟».

ـ «لأنَّك أمير وابن أودسيوس، لأنَّك تحترم قوانين الآلهة والبشر، لأنَّ أباك ماتَ وابني السَّبب. وربَّما تُفكِّر في محاولة قتلي أيضًا، أم أنَّك أردتني أن أشاهد فحسب؟».

برقَت عيناي صانعتيْن ظلالهما الخاصَّة.

قال تليماكوس: «سيِّدتي، إنَّني لا أضمرُ لك أو لابنكِ سوء نيَّة».

ـ «يا للُّطف! الآن اطمأننتُ بالكامل».

لم تكن عضلاته بارزةً صُلبةً كالمُحاربين، ولا ندوبٌ أو تكلُّسات رأيتها عليه، إلَّا أنَّه أميرٌ موكيانيٌّ مهذَّبٌ رشيق، مدرَّبٌ على القتال منذ نعومة أظفاره، ولا شكَّ أنَّ پنلوپي عملَت على تنشئته بكلِّ تدقيق.

بنبرةٍ رزينة، سألني: «كيف يُمكنني أن أثبت لكِ نفسي؟». وفكَّرتُ أنَّه يسخر منِّي.

ـ «لا يُمكنك. إنَّني أعلمُ أنَّ الابن ملزَمٌ بالثَّأر من قاتل أبيه».

لم تهتزَّ نظرته، إذ قال: «لستُ أنكرُ هذا، لكنْ لا لزوم له إلَّا إذا قُتِلَ حقًّا».

رفعتُ حاجبًا قائلةً: «أتقول إنَّه لم يُقتَل؟ ومع ذلك تَدخُل منزلي حاملًا سكِّينًا».

نظرَ إليها كأنَّه مندهشٌ لرؤيتها، ثمَّ ردَّ: «إنَّها للتَّقطيع».

ـ «أجل، هذا ما أتصوَّره».

سحبَ السكِّين من حزامه ودفعَها عبر الطَّاولة، لتُصدِر صوتًا مهتزًّا خشنًا.

ـ «كنتُ على الشَّاطئ حين مات أبي. سمعتُ الصِّياح وخشيتُ وقوعَ مواجهة. أودسيوس لم يكن... مرحِّبًا في السَّنوات الأخيرة. وصلتُ متأخِّرًا، لكنَّني رأيتُ النِّهاية. لقد انتزعَ الحربة، ولم يَمُت بيد تليجونوس».

ـ «أكثر الرِّجال لا يبحثون عن أسبابٍ للتَّغاضي عن موت آبائهم».

ـ «لا يُمكنني الكلام نيابةً عن أولئك الرِّجال. الإصرار على إثم ابنكِ ظُلم».

ألفيتُ سماعَ تلك الكلمة من شفتيْه غريبًا، فقد كانت واحدةً من كلمات أبيه المفضَّلة. تلك الابتسامة العابسة، ويداه المرفوعتان. **ماذا أقول؟ العالم مكانُ ظُلم**. تأمَّلتُ الرَّجل الواقف أمامي. وعلى الرَّغم من غضبي، وجدتُ فيه شيئًا ما جذَّابًا. لم يُبدِ كياسةً متزلِّفةً، واستخدمَ إشاراتٍ بسيطةً، بل خرقاء أيضًا، وتمتَّع بإصرار السُّفن الجهيم في مواجهة عاصفة.

قلتُ: «جديرٌ بك أن تفهم أنَّ أيَّ محاولةٍ لإيذاء ابني ستفشل».

رمق أكوام الأُسود قائلًا: «أظنُّني أفهمُ هذا».

لم أتوقَّع منه تلك السُّخرية الجافَّة، لكنَّني لم أضحك. «قلت لابني إنَّ شيئًا لم يتبقَّ لك في إثاكا، لكنَّ كليْنا يعلم أنَّ عرشًا ينتظرك هناك، فلِمَ لا تجلس عليه؟».

ـ «لستُ محلَّ ترحابٍ في إثاكا الآن».

ـ «لماذا؟».

أجاب بلا تردُّد: «لأنَّني اكتفيتُ بالمشاهدة حين سقط أبي، لأنَّني لم أقتل ابنكِ حيث يقف، وبعدها وقت اشتعال المحرقة لم أبكِ».

خرج الكلام هادئًا، غير أنَّه حمل شيئًا من الحرارة مثل الفحم الطَّازج. تذكَّرتُ النَّظرةَ التي مرَّت على وجهه عندما تكلَّمتُ عن تكريم أودسيوس.

ـ «ألست حزينًا على أبيك؟».

ـ «بلى. إنَّني حزينٌ لأنَّني لم ألتقِ الأب الذي حكى لي عنه الجميع».

ضيَّقتُ عينَيَّ قائلةً: «اشرح».

ـ «أنا لستُ حكَّاءً».

ـ «وأنا لا أطلبُ قصَّةً. أنت جئت إلى جزيرتي، ومدينٌ لي بالحقيقة».

مرَّت لحظةٌ، ثمَّ أومأَ برأسه قائلًا: «ستنالينها».

* * *

كنتُ قد أخذتُ المقعدَ الخشبيَّ، فأخذَ الفضّيَّ، موضعَ أبيه القديم. من أوائل الأشياء التي لفتَت انتباهي إلى أودسيوس استرخاؤه على هذا المقعد كأنَّه فِراش. أمَّا تليماكوس، فجلس معتدلًا كتلميذٍ مستدعى للتَّسميع. عرضتُ عليه نبيذًا، لكنَّه امتنعَ.

قال إنَّه عندما لم يرجع أودسيوس إلى الوطن بعد الحرب، بدأ الخُطَّاب يتوافَدون طالبين يد پنلوپي. أنجالُ أثرى عائلات إثاكا وأبناءُ

طموحون من الجُزر المجاورة، يبحثون عن زوجة، وعن عرشٍ إذا استطاعوا إليه سبيلًا. «رفضتُهم، إلَّا أنَّهم لبثوا في القصر عامًا بعد عام، يلتهمون مؤننا ويُطالِبون أمّي باختيار أحدهم. مرارًا وتكرارًا، طلبَت منهم أن يرحلوا، لكنَّهم رفضوا». تكلَّم والغضبُ القديمُ لا يزال مضطرمًا في صوته. «رأوا أنَّنا لا نقدر على أن نفعل بهم شيئًا ونحن مجرَّد شابٍّ وامرأةٍ وحيدَيْن، ولمَّا وبَّختُهم ضحكوا».

عرفتُ رجالًا كهؤلاء عن نفسي، وأرسلتهم إلى زريبتي.

ثمَّ إنَّ أودسيوس عادَ، بعد عشرة أعوامٍ من إبحاره من طراودة، وسبعةٍ من مغادرته آيايا.

ـ «أتى متنكِّرًا في هيئة شحَّاذ، وأفصح عن هُويَّته لقلَّةٍ منَّا. دبَّرنا فُرصةً، امتحانًا لهمَّة الخُطَّاب. مَن يستطيع تثبيتَ وتر قوس أودسيوس العظيم سيظفر بيد أمِّي. واحدًا تلو الآخر حاول الخُطَّاب وأخفقوا، وأخيرًا تقدَّم أبي. وبحركةٍ واحدةٍ ثبَّت الوتر وغرسَ سهمًا في حلق أسوأهم. لقد قضيتُ وقتًا طويلًا جدًّا في خوفٍ من أولئك الرِّجال، لكنَّهم تساقَطوا أمامه كالعُشب تحت المنجل. قتلَهم جميعًا».

رجلُ الحرب الذي شحذَتْه عشرون سنةً من الكفاح، أفضل الإغريق بعد أخيل، يحمل قوسَه من جديد. بالطَّبع كانت فُرصتهم معدومةً، هؤلاء الصِّبية الخُضر المدلَّلون المتخَمون بالطَّعام. حكايةٌ جيِّدة تلك، أن يُحاصِر الخُطَّابُ القساةُ الكسالى الزَّوجةَ الوفيَّةَ، ويُهدِّدوا الوريثَ المخلص. لقد استحقُّوا عقابهم بحسب جميع قوانين الآلهة والبشر، وأتى أودسيوس كالموت ذاته ليُنزِله بهم. البطل المُعتدى عليه يعدلُ نصابَ العالم. حتى تليجونوس كان ليستحسنُ مغزًى أخلاقيًّا

كهذا. وعلى الرَّغم من ذلك، هُيِّئَت لي الصُّورة مغثيةً، صورة أودسيوس يخوض بأعماق قلبه الأبهاءَ التي حلمَ بها طويلًا.

ـ «في اليوم التَّالي، أتى آباء الخُطَّاب، جميعُهم من رجال الجزيرة. نيكانور الذي يحتكِم على أكبر قطعان الماعز، وأجاثون بعصاه المنحوتة من خشب الصَّنوبر، ويوپايثيس الذي اعتاد تركي أقطفُ الكمثرى من بستانه. هو مَن تكلَّم، فقال: **أبناؤنا كانوا ضيوفًا في بيتك، وقتلتهم. نريد تعويضًا.** وردَّ أبي: أبناؤكم كانوا لصوصًا آثمين، وأشار لِيُلقي جدِّي حربته فتُفجِّر وجه يوپايثيس وتَنثُر خلايا مخِّه على التُّراب. أمرَنا أبي بقتل الآخرين، لكنَّ أثينا نزلَت».

إذن، فقد عادَت إليه أثينا أخيرًا.

ـ «أعلنَت انتهاء النِّزاع. الخُطَّاب دفعوا ثمنًا عادلًا، ولا مزيد من سفك الدِّماء. لكنْ في اليوم التَّالي أتى آباءُ جُنده، وتساءَلوا: أين أبناؤنا؟ لقد انتظرنا عشرين عامًا لنُرحِّب بعودتهم من طروادة».

عرفتُ القصص التي اضطرَّ أودسيوس لحكايتها لهم. ابنكِ أكلَه سَيكلوپس، ابنكِ أكلَته سكيلا، ابنكِ مزَّقه أكَلةُ البشر إربًا إربًا، ابنكِ سكرَ وسقطَ من فوق سقف، ابنكِ أغرقَ العمالقةُ سفينتَه فيما هربتُ.

ـ «كانَ لا يزال مع أبيكِ طاقمٌ عندما أبحرَ من جزيرتي. ألم ينجُ أحد؟».

تردَّد قبل أن يسأل: «ألا تعرفين؟».

ـ «أعرفُ ماذا؟» لكنْ إذ تكلَّمتُ جفَّ فمي تمامًا كرمالِ آيايا الصَّفراء. خلال طفولتي المحتدمة، لم أجد وقتًا للقلق على ما هو ليس

بيدي، لكنّني تذكّرتُ الآن نبوءة تيريسياس كما لو أنَّ أودسيوس ذكرَها لتوّه. «الأبقار، أكلوا الأبقار».

أومأَ برأسه قائلًا: «أجل».

سنةٌ بكاملها عاشها هؤلاء الرّجال المتحمّسون المتهوّرون معي. أطعمتهم واعتنيتُ بهم في مرضهم، وداويتُ ندوبهم واستمتعتُ برؤيتهم يتعافون. والآن، انمحوا عن وجه الأرض كأنّهم لم يكونوا قطُّ.

ـ «أخبِرني كيف حدثَ هذا».

ـ «في أثناء مرور سفينتهم بثريناكيا، دفعَتها عاصفةٌ، وأجبرَتهم على الرّسو. ظلَّ أبي ساهرًا أيّامًا، لكنَّ العاصفةَ استمرّت طويلًا مانعةً إيّاهم من الإبحار، وأخيرًا نامَ أبي مرغمًا».

القصّة القديمة نفسها.

ـ «وبينما نام، قتل الرّجال بعض الأبقار، وشهدَت الحوريّتان اللتان تحرُسان الجزيرة الواقعةَ وذهبَتا إلى...». تردّد ثانيةً، ورأيته يُفكّر في هذه الكلمة: أبيكِ. «اللورد هيليوس. وعندما أبحرَ أبي ثانيةً نُسِفَت السّفينةُ نسفًا، وغرقَ الرّجالُ جميعًا».

تخيّلتُ أختَيَّ غير الشّقيقتيْن بشعرهما الذّهبيِّ الطّويل وأعيُنهما الملوّنة راكعتيْن على رُكبٍ جميلة. أوه يا أبتِ، لم تكن غلطتنا! عاقِبهم. كأنّه احتاجَ يومًا إلى مَن يستحثُّه! هيليوس وغضبه اللّا نهائي.

شعرتُ بنظرة تليماكوس عليّ، فجعلتُ نفسي أرفعُ كوبي وأشربُ، ثمَّ قلتُ: «أكمِل. أتى آباؤهم».

ـ «أتى آباؤهم، ولمَّا علموا بموتهم بدأوا يُطالِبون بحصص أبنائهم من الكنوز التي ظفروا بها من القتال في طروادة. قال أودسيوس إنَّها في قاع البحر، لكنَّ الرِّجال لم يستسلموا. أتوا ثانيةً وثانيةً، ومع كلِّ مرَّةٍ تنامى غضب أبي. ضربَ نيكانور بعصا على كتفيْه، وطرحَ كلايتوس أرضًا... تُريد قصَّة ابنك الحقيقيَّة؟ لقد كان لصًّا بجحًا، كان جَشِعًا غبيًّا وعصى الآلهة».

صدمَني سماع تلك الكلمات الفجَّة موضوعةً في فم أودسيوس، وأرادَ جزءٌ منِّي أن يعترض، أن يقول إنَّ كلامًا كهذا لا يليق به، ولكنْ كم مرَّةً سمعته يثني على مثل هذه الأساليب؟ الفرقُ الوحيد هو الصَّراحة التي روى بها تليماكوس. تخيَّلتُ أودسيوس يتنهَّد ويرفع يديْه الخاليتيْن. **ذلك هو نصيب القائد، ذلك هو غِيُّ البشريَّة. أوَليست مأساتنا الإنسانيَّة حتميَّة أن يُضرَب بعضُ الرِّجال كالحمير قبل أن يُبصِروا العقل؟**

ـ «بقوا بعيدين بعدها، لكنَّ أبي ظلَّ واجمًا. كان واثقًا بأنَّهم يتآمَرون عليه، وأرادَ حَرسًا حول القصر ليلَ نهار. تكلَّم عن تدريب الكلاب وحفر الخنادق لاصطياد الأشرار في اللَّيل، ورسمَ تخطيطًا لمتراسٍ عظيم أرادَ بناءه، كأنَّنا في معسكرٍ حربيّ. كان عليَّ أن أقول شيئًا حينها، لكنَّني... أملتُ أن يمرَّ الأمر».

ـ «وأمُّك؟ فيمَ كانت تُفكِّر؟».

ـ «لستُ أزعمُ معرفتي بما تُفكِّر فيه أمِّي». جمدَ صوته إذ قالها، وتذكَّرتُ أنَّهما لم يتبادَلا كلمةً واحدةً طيلةَ اللَّيلة.

ـ «لقد ربَّتك بنفسها. مؤكَّد أنَّ عندك فكرةً ما».

ـ «لا أحد يستطيع تخمين ما تفعله أمّي إلى أن يُفعَل». لم يَعُد في صوته جمودٌ فقط، بل مرارةٌ أيضًا. انتظرتُ وقد بدأتُ أرى أنَّ صمتي يُحفِّزه على الكلام أكثرَ من كلامي.

قال: «في وقتٍ ما كنَّا نتشارَك الأسرارَ كلَّها. رسمنا خطَّة كلّ ليلةٍ ضد الخُطَّاب معًا؛ إن كان عليها النُّزول أم لا، التَّحدُّث بغطرسةٍ أم استرضاءً، إن كان عليّ إخراجُ النَّبيذ الممتاز، إن كان علينا أن نُمثِّل مواجهةً بيننا أمامهم. في طفولتي، قضينا كلَّ يومٍ معًا، تأخذني للسّباحة، وبعدها نجلس تحت شجرةٍ ونُشاهِد أهل إثاكا يمضون في حال سبيلهم. كلُّ مَن مرَّ من رجالٍ ونساء عرفَتْ تاريخه وحكتْه لي، إذ قالت إنَّ على المرء أن يفهم النَّاسَ إذا أرادَ أن يَحكُمهم».

ثبتَتْ نظرة تليماكوس على الهواء، وأبرزَ ضوءُ النَّار التواءةً في أنفه لم ألحظها من قبل. كسرٌ قديم.

ـ «متى أعربتُ عن قلقي على أبي هزَّت رأسها قائلةً: لا تخشَ عليه أبدًا. إنَّه أذكى من أن يُقتَل، لأنَّه يعرف حِيَل قلوبِ البشر جميعًا، وكيف يُحوّلها لصالحه. سينجو من الحرب ويرجع إلى الدّيار... وأراحني هذا، لأنَّ كلَّ ما قالته أمّي تحقَّق دائمًا».

قوسٌ محكم الصُّنع، هكذا وصفها أودسيوس. نجمةٌ ثابتة، امرأةٌ تعرف نفسها.

ـ «ذات مرَّةٍ، سألتها كيف تفعل ذلك، كيف تفهم العالمَ بمنتهى الوضوح، فقالت إنَّها مسألةُ ثباتٍ تام والامتناع عن إبداء أيِّ مشاعر، تركُ مساحةٍ للآخرين للكشف عن أنفُسهم. حاولَتْ تدريبي على هذا، لكنَّني أضحكتُها، وقالت: أنت كتومٌ كثورٍ يختبئ على شاطئ!».

صحيحٌ أنَّ تليماكوس لم يكن كتومًا، ذلك أنَّ الألم ارتسمَ جليًا محدَّدًا على قسماته. أشفقتُ عليه، لكنْ إذا صدقتك القولَ فقد حسدته أيضًا. فتليجونوس وأنا لم نعرف قطُّ قُربًا كهذا لنخسره.

ـ «ثمَّ عادَ أبي إلى الوطن، وانمسحَ كلُّ هذا. كان كعاصفةٍ صيفيَّة، برقُها وضَّاءٌ في السَّماء الشَّاحبة. في وجوده خبا كلُّ شيءٍ آخر».

كنتُ أعرفُ سمةَ أودسيوس هذه، فقد رأيتها يوميًا طوال عامٍ كامل.

ـ «ذهبتُ إليها يوم ضربَ نيكانور، وقلتُ: أخشى أنَّه يتمادى كثيرًا. غير أنَّها لم ترفع وجهها عن منوالها حتى، ولم تردَّ إلَّا بأنَّ علينا أن نُمهِله وقتًا».

ـ «وهل ساعدَ الوقت؟».

ـ «لا. عندما مات جدِّي لامَ أبي نيكانور، والآلهة وحدها تعلم السَّبب. قتلَه بقوسه العظيم، وألقى الجثَّةَ على الشَّاطئ لتأكلها الطُّيور. حينها، لم يَعُد يتكلَّم على شيءٍ إلَّا المؤامرات: أنَّ رجال الجزيرة يجمعون السِّلاح ضده، أنَّ الخدم متواطئون في الخيانة. في اللَّيل، قطعَ أرجاء القصر لا ينطق بشيءٍ إلَّا عن الحُرَّاس والجواسيس، التَّدابير والتَّدابير المضادَّة».

ـ «أكانت هناك خيانةٌ بالفعل؟».

هزَّ رأسه قائلًا: «ثورة في إثاكا؟ ليس عندنا وقتٌ لهذا. التَّمرُّد للجُزر المزدهرة، أو للمطحونين الذين لا يملكون خيارًا آخر. عندها صرتُ غاضبًا، وقلتُ له إنَّ لا مؤامرة هنالك، ولم تكن قطُّ؛ والأجدر به أن يقول ثلاث كلماتٍ لطيفةً لرجالنا بدلًا من التَّخطيط لقتلهم، فابتسمَ

لي قائلًا: أتدري أنَّ أخيل ذهب إلى الحرب في سنّ السَّابعة عشرة؟ ولم يكن أصغر رجلٍ في حصار طروادة. صِبيةٌ في الثَّالثة عشرة والرَّابعة عشرة فعلوا ما يفخرون به في ميدان المعركة. لقد وجدتُ أنَّ الشَّجاعة ليست مسألة سنٍّ، بل مسألةُ أرواحٍ قويَّةٍ متينة».

لم يُحاكِ أباه، ليس بالضَّبط، لكنَّ إيقاعَ الحديث التقط دماثةَ أودسيوس الواثقة المغوية.

ـ «كان يقصد أنَّني مصدرُ عارٍ بالطَّبع، أنَّني جبان. كان عليَّ أن أقاتل الخُطَّاب بمفردي. ألم أكن في الخامسة عشرة حين أتوا؟ كان المفترَض أن أتمكَّن من الرِّماية بقوسه العظيم، وليس مجرَّد تثبيت وتره. في طروادة، لم أكن لأعيش يومًا واحدًا».

رأيتُ الصُّورة: النَّارُ الدَّاخنة، ولمعةُ البرونز القديم، وعُصارةُ الزَّيتون... وأودسيوس يكسو ابنه بالخزْي بكلِّ خبرة.

ـ «قلتُ له إنَّنا في إثاكا الآن. الحرب انتهَت، والجميع إلَّا هو يعلمون هذا. أغضبَه قولي، واختفَت ابتسامته، وقال: أنت خائن. إنَّك ترجو موتي لتأخذ عرشي. وربَّما تُفكِّر أيضًا في التَّعجيل بالأمر!».

كان صوت تليماكوس ثابتًا، بلا تعبيرٍ تقريبًا، لكنَّ البياض لاح على مفاصلِ أصابعِهِ الممسكة بذراع المقعد.

ـ «قلتُ له إنَّه هو الذي يُخزي عائلتنا. يُمكنه أن يتفاخر كما يشاء بالحرب، لكنْ كلّ ما جلبَه إلى الوطن هو الموت. لن تَنظُف يداه أبدًا، ولا يداي كذلك، لأنَّني تبعته إلى بحيرة الدِّماء، وسيُلازِمني النَّدمُ ما حييتُ. انتهى الأمر بعدها. مُنِعتُ من حضور مجالسه، وحُرِّجَ عليَّ دخول قاعته، وسمعْتُه يزعقُ في أمِّي أنَّها ربَّت أفعوانًا».

ران الصّمت على الحُجرة، وشعرتُ بالبُقعة التي خبا فيها دفء النّار، وماتَ في هواء الشّتاء.

ـ «الحقيقة، أنّني أظنّه كان ليُفضّلُ أن أكونَ خائنًا، فهذا على الأقل ابنٌ يستطيع أن يفهمه».

طيلة كلامه، راقبته بحثًا عن خصال أبيه، تلك الصّفات التي هي جزءٌ لا يتجزّأ من أودسيوس مثل تيّارات المحيط، السّكنات والابتسامات، والنّبرة الجافّة وإشارات الاستنكار.. كلُّها مستخدَمٌ ضدّ المستمع، لإقناعه، لمداعبته، والأهم لتهدئته. على أنّني لم أرَ شيئًا منها. تليماكوس يتلقّى الضّربات مباشرةً.

ـ «ذهبتُ إلى أمّي بعدها، لكنّه كان قد عيّن حَرسًا لمنعي من الدُّخول. وحين رفعتُ عقيرتي أناديها، قالت إنّ عليّ التّحلّي بالصّبر وألّا أستفزّه. الشّخص الوحيد الذي تكلّم معي هو مُرضعتي العجوز يوريكليا، التي كانت مُرضعته أيضًا. جلسنا عند النّار نلوك السّمك، وظلّت تقول لي إنّه لم يكن هكذا دومًا. كأنّ ذلك يُغيّر شيئًا. هذا الرّجل الغاضب هو الأبُ الوحيد الذي حظيتُ به. ماتَت يوريكليا بعدها بفترةٍ قصيرة، لكنّ أبي لم يبقَ ليُشاهِد محرقتها تشتعل، وقال إنّه سئمَ من الحياة في الرّماد. أبحرَ بزورقٍ، وبعد شهرٍ، عادَ بأحزمةٍ وكؤوسٍ ذهبيّةٍ وواقي صدرٍ جديد، وقطراتٍ من الدّم الجاف على ملابسه. كانت أكثرَ مرّةٍ رأيته سعيدًا، لكنّ سعادته لم تستمرّ. وبحلول الصّباح التّالي، راح يسبُّ ويلعن الدُّخان الكثيف في القاعة ورعونة الخدم».

رأيته في مثل هذه الأمزجة. كلُّ عيبٍ تافهٍ في العالم أحنقَه، كلُّ إهمال البشر وغبائهم وتوانيهم، وكلُّ مضايقات الطّبيعة أيضًا: لدغات

الذُّباب، والتواء الأخشاب، وأشواك الورد البرّيّ التي مزَّقت معطفه. في أثناء إقامته معي، لطَّفتُ تلك الأشياء جميعًا، وغلَّفته بسحري وربَّانيَّتي، وربَّما لهذا السَّبب كان سعيدًا. لقد وصفتُ وقتنا معًا بالمعزوفة، ولكنْ لربَّما كانت «وهم» كلمةً أفضل.

ـ «بعد ذلك، ذهبَ في غارةٍ كلَّ شهر، ووصلتْ إلينا أخبارٌ تكاد لا تُصدَّق. قيل إنَّه اتَّخذ زوجةً جديدةً، ملكةَ جزيرةٍ ما في داخل البلاد، وإنَّه يَحكُم هناك سعيدًا وسط الأبقار والشَّعير، ويعتمر تاجًا ذهبيًّا، ويُقيم الولائم حتى الفجر ويأكل خنازيرَ برِّيَّةً كاملةً، ويُدوِّي ضحكه، كما أنَّه أنجب ابنًا آخر».

عيناهُ عينا أودسيوس، شكلهما ولونهما، وحتى حدَّتهما، لكنَّ التَّعبير... نظرة أودسيوس كانت دومًا ممدودةً إليك، تُلاطِفك. أمَّا نظرة تليماكوس فمعتصمةٌ بنفسها.

ـ «أكان أيٌّ من هذا صحيحًا؟».

رفع كتفيْه وتركهما تَسقُطان، ثمَّ قال: «مَن يدري؟ ربما أطلقَ الشَّائعاتِ بنفسه ليجرحنا. بعثتُ إلى أمِّي برسالةٍ تقول إنَّ الماعز محتاجةٌ إلى مزيدٍ من الرِّعاية، وذهبتُ لأسكن كوخًا شاغرًا على جانب التَّل. فليُخطِّط أبي ويثور، ولكنْ ليس عليَّ أن أرى ذلك. فلتأكل أمِّي قطعةً واحدةً من الجُبنة طوال اليوم، وتَترُك عينيْها تشيخان أمام منوالها، ولكنْ ليس عليَّ أن أرى ذلك أيضًا».

في المدفأة، خمدَت نارُ الحطب، وتوهَّجت البقايا بالأبيض المجزَّع بالرَّماد.

ـ «في خضمّ تلك التّعاسات، أتى ابنكِ متألّقًا كالشُّروق، عذبًا كالفاكهة النّاضجة. حمل معه تلك الحربة سخيفةَ المنظر، وهدايا لنا جميعًا، أوانيَ فضّيّةً ومعاطف وذهبًا. كان وجهه وسيمًا، وآماله تُطَقطِق كالنّار. أردتُ أن أهزّه، وفكّرتُ أنّ لدى عودة أبي سيتعلّم هذا الصّبي أنّ الحياةَ ليست أغنية شاعر. وقد كان».

كان القمر قد غابَ عن النّافذة، واكتسَت الحُجرةُ بالظّلال عندما استراحت يدا تليماكوس على رُكبتيْه.

قلتُ: «كنت تحاول مساعدته. لهذا نزلت إلى الشّاطئ».

استقرّت عيناه على رماد النّار، وقال: «ولم يحتَج إليّ كما اتّضح».

كثيرًا ما تعوّدتُ تخيُّل تليماكوس طفلًا هادئًا يترقّب عودةَ أودسيوس، وشابًا ملتهبًا يحمل انتقامه في أنحاء اليابسة والبحر، لكنّه رجلٌ الآن، صوتُه جامدٌ كلِيل. ذكّرني بالرُّسل الذين يقطعون مسافاتٍ شاسعةً عدوًا حاملين الأنباء للملوك، يلفظون كلماتهم بأنفاسٍ متقطّعة، ثمّ يسقُطون ولا يقومون ثانيةً.

من دون تفكيرٍ، مددتُ يدي ووضعتها على ذراعه قائلةً: «أنت لستَ دمك. لا تدعه يأخذك معه».

رمقَ أصابعي بُرهةً، ثمّ رفع عينيْه إلى وجهي، وقال: «إنّكِ تُشفِقين عليّ. لا تُشفِقي. أبي كذبَ في أشياءَ كثيرة، لكنّه كان مصيبًا عندما نعتَني بالجُبن. لقد تركته يكون ما كانه عامًا بعد عام، يثورُ ويضربُ الخدمَ ويزعقُ في أمّي، ويُحيلُ بيتنا إلى رماد. قال لي أن أساعده على قتل الخُطّاب، وفعلتُ. قال لي أن أقتل جميع الرّجال الذين ساندوهم، وفعلتُ هذا أيضًا. ثمّ إنّه أمرني بجمع الإماء اللاتي نمنَ مع أيٍّ منهم

وجعلهنَّ يُنظِّفنَ الأرض الغارقة بالدِّماء، وبعد فروغهنَّ عليَّ أن أقتلهنَّ أيضًا».

خضَّتني كلماته، وقلتُ: «الفتيات لم يملكنَ خيارًا. مؤكَّدٌ أنَّ أودسيوس أدرك هذا».

ردَّ: «أودسيوس قال لي أن أقطِّع جُثثهنَّ كالحيوانات»، ونظرَ في عينَيَّ مضيفًا: «ألا تُصدِّقين؟».

لم تكن قصَّةً واحدةً التي فكَّرتُ فيها، بل عشرٌ وأكثر. لطالما أحبَّ الانتقام، لطالما كرهَ من حسبَهم خانوه.

ـ «وهل فعلت كما قال؟».

ـ «لا، شنقتهنَّ بدلًا من ذلك. وجدتُ اثنيْ عشر حبلًا، وعقدتُ اثنتيْ عشرة أنشوطةً». كلُّ كلمةٍ كانت بمثابة نصلٍ يُغمِده في نفسه. «لم أشهد شنقًا قبلها قطُّ، لكنَّني تذكَّرتُ أنَّ في جميع قصص طفولتي كانت النِّساء يشنقن أنفُسهنَّ دومًا. تبادرَ إلى ذهني أنَّ هذا أصلح بالتَّأكيد. كان عليَّ استخدام السَّيف، فلم أعرف إطلاقًا ميتةً قبيحةً مطوَّلةً كهذه. سأرى أقدامهنَّ تتلوَّى ما حييتُ. تُصبِحين على خير أيَّتها الليدي سرسي».

والتقطَ سكِّينه من فوق طاولتي، وذهبَ.

***

انقضَت العاصفة، وعادَت سماءُ اللَّيل تصفو. مشيتُ راغبةً في الإحساس بالنَّسيم المغسول على جِلدي، والتُّربة تتفتَّت بنعومةٍ تحت قدمَيَّ، في نفض تلك الصُّورة القبيحة للأجساد المتشنِّجة. بالأعلى أبحرَت عمَّتي، غير أنِّي لم أعد أزعجُ نفسي بها. إنَّها تحبُّ الفُرجة على العُشَّاق، وأنا لستُ منهم منذ زمنٍ طويل، وربَّما لم أكن قطُّ.

تخيَّلتُ وجه أودسيوس وهو يفتك بأولئك الخُطَّاب رجلًا رجلًا. لقد رأيته يقطع الخشبَ بضربةٍ واحدةٍ سريعة، وبدقَّة. لا ريب أنَّهم ماتوا عند قدميْه، ولطَّخته دماؤهم حتى الرُّكبتيْن، وأنَّه لحظَ هذا بفتورٍ وانفصالٍ كأنَّه تكتكةُ عدَّاد، بمعنى: انتهى الأمر.

أمَّا الحرارةُ فتلَت ذلك، عندما وقف فوق ساحة المجزرة الخالية من الحراك، وشعرَ بثورته لا تزال فائضةً لم تُستنفَد. وهكذا، غذَّاها بالمزيد كالحطب لإذكاء النَّار. الرِّجال الذين عاوَنوا الخُطَّاب، الإماء اللائي نمنَ معهم، الآباء الذين جرؤوا على الكلام ضده، ولولا تدخُّل أثينا لاستمرَّ واستمرَّ.

وماذا عنّي؟ كم كنتُ لأواصل مَلء زريبتي لو لم يأتِ أودسيوس؟ تذكَّرتُ اللَّيلةَ التي سألني فيها عن الخنازير، وقال: «أخبِريني، كيف تُقرِّرين أيَّ رجلٍ يستحقُّ العقاب وأيُّهم لا يستحقُّه؟ كيف تَحكُمين يقينًا بأنَّ هذا القلبَ عفِنٌ وهذا سليم؟ ماذا لو أخطأتِ؟».

ليلتها، دفَّأتني النَّارُ والخمر، وأغوَتني سكرةُ اهتمامه. أجبتُ: «هَب أنَّ هنالك قاربًا مليئًا بالبحَّارة، وبينهم بعضُ مَن هُم أسوأ من غيرهم دون شك. بعضهم ينتشي بالاغتصاب والقرصنة، لكنَّ الآخرين حديثو العهد، وبالكاد بدأت لحاهم تنبت. بعضُهم لا يتخيَّل السَّرقة أبدًا، غير أنَّ أسرته تتضوَّر جوعًا. بعضُهم يَشعُر بالخزْي بعدها، وبعضُهم لا يرتكبها إلَّا لأنَّ رُبَّانه أمرَه، ولأنَّه محاطٌ بالرِّجال الآخرين، ويُمكنه الاختباء بينهم».

قال: «إذن مَن تُحوِّلين ومَن تُطلِقين سراحه؟».

ـ «أحوِّلهم جميعًا. لقد أتوا إلى منزلي. لِمَ أبالي بما في قلوبهم؟».

ابتسمَ ورفعَ كأسه لي، قائلًا: «سيِّدتي، أنا وأنتِ على وفاق».

مرَّت بومةٌ بجناحيْها من فوقي، وسمعتُ صوتَ اشتباكٍ والمنقار يكسر الرَّقبة. مات فأرٌ لاستهتاره. سرَّني أنَّ تليجونوس لن يعلم بذلك الحوار بيني وبين أبيه. في ذلك الحين، كنتُ أتفاخرُ، أستعرضُ شراستي وقد شعرتُ بنفسي معصومةً لا أُمَسُّ، مفعمةً بالأسنان والقوَّة. والآن، أكادُ لا أذكرُ ذلك الشُّعور.

كان وضع أودسيوس المفضَّل أن يتظاهر بأنَّه رجلٌ كسائر الرِّجال، لكنْ لا رجل كان مثله، وبعد موته ما عاد هناك رجالٌ على الإطلاق. أحبَّ أن يقول: كلُّ الأبطال حمقى. وما قصده بهذا: كلُّ الأبطال إلَّاي. مَن يُقوِّمه إذن إن أخطأ؟ لقد وقفَ على الشَّاطئ ناظرًا إلى تليجونوس واعتقدَه قُرصانًا، ووقفَ في قاعته واتَّهم تليماكوس بالتَّآمُر. ولديْن أنجبَ، ولم يرَ أيَّهما بوضوح. ولكنْ، ربَّما لا يستطيع أيُّ أبٍ أو أمٍّ رؤيةَ أولادهم حقَّ الرُّؤية. إنَّنا حين نَنظُر لا نرى إلَّا مرآةً لعيوبنا.

بلغتُ بستانَ أشجار السَّرو التي بدَت أغصانها سوداءَ في الظَّلام، وإذ مررتُ مسَّت الإبرُ وجهي، وشعرتُ فيها برعشة النُّسغ الخافتة اللَّزجة. أحبَّ أودسيوس هذا المكان. تذكَّرته يتحسَّس جذعَ شجرةٍ، وهو أحد أشيائي المفضَّلة فيه، كيف أُعجبَ بالعالم كأنَّه جوهرةٌ يُدوِّر وجوهها ليَسقُط عليها الضَّوء. قاربٌ محكمُ الصُّنع، شجرةٌ حسنةُ الزَّرع، قصَّةٌ بارعةُ الحكي، كلُّ هذا كان من مسرَّاته.

لم يكن هناك رجلٌ مثله، لكنْ هناك مَن تُضاهيه. والآن، تنام في داري. تليماكوس ليس خطرًا، ولكنْ ماذا عنها؟ أتُخطِّط لذبح ابني؟ لتنفيذ انتقامها؟ أيًّا كان ما تُجرِّبه فستردعها تعاويذي. ما كان أودسيوس نفسه ليستطيع غَلَبة السِّحر بكلامه، وبدلًا من ذلك تُكلِّم غالبًا السَّاحرة.

بدأ النَّدى يتجمَّع على الكلأ جاعلًا قدمَيَّ باردتيْن فضّيّتيْن. سيكون تليماكوس في فِراشه يُشاهِد الظُّلمة نفسها، ويرى التَّهتُّك الخفيف عند حافتها الشَّرقيَّة. فكَّرتُ في وجهه لمَّا تكلَّم على شنق الإماء، وكيف ضغطَ الذِّكرى على جِلده كوسْمٍ متَّقد. كان عليَّ أن أقول له المزيد، كان بإمكاني أن أذكر أنَّه ليس أوَّلَ رجلٍ يُقاد للقتل في سبيل أودسيوس، أنَّ جيشًا بأكمله سبقه إلى هذا التَّكليف بحِرابٍ مسدَّدة. كنتُ أعرفُ تليماكوس بالكاد، لكنَّني بشكلٍ ما لم أحسب أنَّ هذا الكلام قد يُريحه. رأيتُ المقت على وجهه. سامِحيني إن لم أهلِّل لكوني حلقةً في سلسلةٍ طويلة من الأوغاد.

من بين كلِّ الأبناء في العالم، لم يكن هذا الابن الذي تصوَّرته لأودسيوس، متيبّسًا كالحاجب في بلاط، مباشرًا لدرجة الوقاحة، يحمل جراحه علانيةً في يديْه. عندما مددتُ يدي إليه رأيتُ على وجهه انفعالًا لم أستطع تحديده، دهشةً مشوبةً بشيءٍ أشبه بالنُّفور. حسنٌ، ليس عليه أن يقلق، فلن أفعلها ثانيةً.

وكانت تلك هي الفكرة التي حملَتني إلى المنزل.

* * *

شاهدتُ الشَّمس تُشرِق وأنا جالسةٌ إلى منوالي، ثمَّ وضعتُ على المائدة خُبزًا وجُبنةً وفواكه، وعندما سمعتُ ابني يتحرَّك ذهبتُ إلى بابه. أراحتني رؤية وجهه وقد فقدَ شيئًا من شحوبه، لكنَّ الأسى لم يزل هناك، المعرفة الثَّقيلة: أبي ماتَ.

وعلمتُ أنَّه سيستيقظ على هذه الفكرة كلَّ صباحٍ زمنًا طويلًا.

قلتُ: «لقد تكلَّمتُ مع تليماكوس. أنت محقٌّ بشأنه».

رفعَ حاجبيْه. أحسبَني عاجزةً عن رؤيةِ ما أمام عينَيَّ؟ أم عن الإقرار بذلك فقط؟

قال: «يسرُّني أنَّ هذا رأيكِ».

ـ «هيًا. لقد وضعتُ الإفطار، وأظنُّ أنَّ تليماكوس يستيقظ. هل ستتركه وحده مع الأسود؟».

ـ «ألن تأتي؟».

ـ «عندي تعاويذ أُلقيها».

لم يكن ذلك صحيحًا. عدتُ إلى حُجرتي، وسمعتهما يتكلَّمان على القاربِ والطَّعام والعاصفة الأخيرة، محورَ الأشياء التَّقليديَّة. اقترح تليجونوس أن يَخرُجا ويسحبا القارب إلى الكهف، فوافقَ تليماكوس. أربعة أزواجٍ من الأقدام على الحجر، والباب ينغلق. البارحةَ، كنتُ لأعدَّ نفسي مخبولةً لتركهما يذهبان معًا، والآن بدا الأمر كهديَّةٍ لابني. شعرتُ بألمٍ لاذعٍ مباغتٍ من الحَرَج... تليماكوس وتليجونوس. عرفتُ كيف يبدو إطلاقي هذا الاسم على ابني، كالكلب يخدش الباب من الخارج حينما لا يُسمَح له بالدُّخول. أردتُ أن أشرح أنَّني لم أتوقَّعْ قطُّ أن يعرف أحدُهما الآخر، أنَّ اسمه كان لي وحدي. تليجونوس، أي «المولود بعيدًا». عن أبيه، نعم، ولكنْ أيضًا عن أبي، عن أمّي وأوقيانوس، عن المينوتور وباسيفاي وإيتيس، مولودًا لي على جزيرتي آيايا.

لن أختلق أعذارًا.

كنتُ قد استعدتُ الحربةَ في اليوم السَّابق، والآن تستند إلى حائط حُجرتي. رفعتُ الغمد الجِلدي، فبدا ذنَبُ الرَّابضِ أغربَ على اليابسة،

طيفيًا محزَّزًا. دوَّرْته مسقطةَ الضَّوء على خرزات الزُّعاف متناهية الصِّغر، التي تُكلِّل كلَّ سنٍّ مدبَّبة. قلتُ لنفسي إنَّ عليَّ أن أعيده. ليس بعدُ.

سمعتُ من الرُّواق حركةً أخرى. فكَّرتُ في كلِّ الرِّجال والنِّساء الذين سكبوا أسرارهم على مرِّ السِّنين، فيما جمعَتها پنلوپي بعنايةٍ. عدتُ أضعُ الغمدَ على الحربة، وفتحتُ نوافذي. في الخارج كان الصَّباح جميلًا. ومحمولةً على الرِّيح أتت النَّفحاتُ الأولى ممَّا سيستحيل قريبًا إلى ربيع.

كما خمَّنتُ، سمعتُ الطَّرْقة على بابي.

قلتُ: «مفتوح».

وقفَت مرسومةً في مدخل حُجرتي، ترتدي معطفًا باهتًا فوق فُستانٍ رماديّ، كأنَّها ملفوفةٌ بحرير العناكب.

ـ «أتيتُ لأقول إنَّني خجلانة. لم أعبِّر أمس عن عرفاني كما ينبغي. لستُ أعني بكرم ضيافتكِ الآن فحسب، بل أعني أيضًا كرم ضيافتكِ مع زوجي».

كان مستحيلًا مع صوتها الدَّمث هذا أن أحدِّد إن كان التَّعليق متعمَّدًا، وإذا كان كذلك فأظنُّه من حقِّها.

قال: «لقد حكى لي كيف ساعدتِه في طريقه. لم يكن لينجو أبدًا من دون نصائحكِ».

ـ «إنَّكِ تُشيدين بي أكثر من اللَّازم. لقد كان حكيمًا».

ردَّت: «أحيانًا». عيناها هاتان بلون الدُّردار الجبليّ. «أتعلمين أنَّه بعدما تركَكِ رسا على شاطئ حوريَّةٍ أُخرى؟ كاليپسو. وقعَتْ في غرامه

وأمِلتْ أن تجعله زوجها الخالد. أبقَته سبعةَ أعوامٍ على جزيرتها، تكسوه بالأنسجة الربَّانيَّة، وتُطعِمه ما لذَّ وطابَ».

ـ «ولم يَشكُرها على هذا».

ـ «نعم. رفضها، ودعا الآلهة أن تُحرِّره. وأخيرًا، أجبرَتها على إطلاق سراحه».

لم أحسب أنّي تخيَّلتُ نغمةَ الرِّضا في نبرتها.

ـ «عندما أتى ابنكِ حسبته ابنها ربَّما، لكنَّني رأيتُ حبكة معطفه، وتذكَّرتُ منوال دايدالوس».

استغربتُ من قدر ما تعرفه عنّي، ولو أنّني عرفتُ أشياءَ عنها أيضًا.

ـ «كاليپسو تودَّدت إليه أيَّما تودُّد، وأنتِ حوَّلتِ رجاله إلى خنازير، لكنَّه فضَّلكِ أنتِ. أتظنّين هذا غريبًا؟».

ـ «لا».

بشبه ابتسامةٍ قالت: «بالضَّبط».

ـ «إنَّه لم يعرف بوجود الولد».

قالت: «أعرفُ. ما كان ليُخفي ذلك عنّي أبدًا». أمَّا هذا فكان متعمَّدًا.

ـ «لقد تكلَّمتُ مع ابنكِ ليلةَ أمس».

ـ «حقًّا؟». خُيِّلَ إليَّ أنّني سمعتُ لمحةً من شيءٍ ما في نبرتها.

ـ «شرحَ لي لماذا اضطررتما إلى ترك إثاكا، وأسفتُ لسماع هذا».

ردَّت: «كان لُطفًا من ابنكِ أن يأخذنا معه»، ثمَّ وقعَت عيناها على ذنَب ترايجون، فسألتني: «أهو كزُعاف النَّحلة التي تلدغ مرَّةً فقط أم كالثُّعبان؟».

ـ «إنَّ فيه سُمًّا لألف مرَّةٍ وأكثر، بلا نهاية. الغرضُ منه صدُّ إلهة».

ـ «تليجونوس أخبرنا بأنَّكِ واجهتِ سيِّد الرَّوابض العظيم نفسه».

ـ «أجل».

أومأَت برأسها في إشارةٍ ذاتيَّة، كأنَّما تُؤمِّن على ردِّي، وقالت: «وأخبرنا بأنَّكِ اتَّخذتِ المزيد من التَّدابير له أيضًا، بأنَّكِ ألقيتِ تعويذةً على الجزيرة لا يستطيع أن يجتازها إله ولو كان من الأوليمب».

ـ «آلهة الموتى يستطيعون الاجتياز، هُم وحدهم».

قالت: «أنتِ محظوظةٌ لتمكُّنكِ من استحضار حمايةٍ كهذه».

من الشَّاطئ أتى صياحٌ خافت، ابنانا يُحرِّكان القارب.

ـ «إنَّني مُحرجةٌ من طلبي هذا، لكنَّني لم آخذ معي معطفًا أسود عندما غادرتُ. أعندكِ واحد يُمكنني أن أرتديه؟ أريدُ أن ألبس عليه ثياب الحِداد».

نظرتُ إليها، إذ وقفَتْ في مدخلي منيرةً كالقمر في سماء الخريف، وقد أبقَت عينيْها الرَّماديَّتيْن الثَّابتتيْن على عينَيَّ. المقولة الشَّائعة إنَّ النِّساء مخلوقاتٌ هشَّةٌ، زهورٌ، قشرُ بيض، أيُّ شيءٍ يُمكن أن يُسحَق في لحظة غفلة. إن كنتُ قد اعتقدتُ ذلك من قبل، فلم أعد أعتقده.

قلتُ: «لا، لكنَّ عندي خيطًا ومنوالًا. تعالي».

الفصل الثَّاني والعشرون

انسابَت أصابعها بخفَّةٍ على بكرتَي المنوال، ومسَّدتا خيوطَ اللُّحمة كقيِّم اسطبلٍ يستقبل جوادًا مطهَّمًا. لم تستفسِر عن شيء، وبدا أنَّها تستوعب وظائفه باللَّمس وحده. توهَّج الضَّوء من النَّافذة على يديْها، كأنَّه يبتغي أن يُنير عملها. وبحرصٍ، خلعَت بساطي نصف المكتمل، وثبَّتت الخيط الأسود بحركاتٍ مضبوطةٍ لا تُبدِّد منها شيئًا. أخبرني أودسيوس بأنَّها سبَّاحة، تشقُّ أطرافها الطَّويلة طريقها بسلاسةٍ نحو وجهتها.

في الخارج، تلبَّدت السَّماء بالغيوم، وانخفضَ السَّحاب حتى بدا كأنَّما يمسُّ النَّوافذ، وسمعتُ باكورةَ قطراتِ المطر الكثيفةِ تتساقط. اندفع تليماكوس وتليجونوس من الباب مبتلَّيْن من سَحب القارب، ولمَّا رأى تليجونوس پنلوپي جالسةً إلى المنوال أقبلَ عليها مُسرعًا، يهتف بفخامة عملها. على أنَّني راقبتُ تليماكوس، ورأيتُ الجمود يحتلُّ وجهه، إذ التفتَ إلى النَّافذة بحركةٍ حادَّة.

وضعتُ الغداء، وأكلنا في شبه صمتٍ، فيما خفَّ المطر تدريجيًا. لم أحتمل فكرة أن أبقى حبيسةً طوال الأصيل، فأخذتُ ابني في تمشيةٍ على الشَّاطئ، حيث وجدنا الرِّمال بَلِيلةً متصلِّبةً، وبدَت آثارُ أقدامنا كأنَّها منقوشةٌ بسكِّين. أحببتُ الإحساسَ بذراعي مدسوسةً في ذراعه، وأدهشَني أنَّه تركَها كما هي. راح التَّشنُّج الذي أصابه البارحة، لكنَّني علمتُ أنَّه راجع.

وقتٌ قصيرٌ مضى على انتصاف النَّهار، إلَّا أنَّني شعرتُ بشيءٍ قاتمٍ غامض في الهواء، شيءٍ كغشاوةٍ على عينَيَّ. كانت محادثتي مع پنلوپي تلحُّ عليَّ. في حينها، عددتُ نفسي أريبةً سريعة البديهة، لكن الآن، وقد استعرضتها في ذهني، أدركتُ أنَّها قالت القليلَ جدًّا. نويتُ أن أستجوبها، وبدلًا من ذلك ألفيتُ نفسي أُريها منوالي.

بدلًا من ذلك تكلَّم غالبًا السَّاحرة.

سألتُه: «مَن صاحب فكرة المجيء إلى هنا؟».

عقدَ حاجبيْه لسؤالي المُفاجئ، وقال: «أَيهمُّ هذا؟».

ـ «عندي فضول».

قال: «لا أذكرُ»، لكنَّه لم يَنظُر في عينَيَّ.

ـ «لم تكن فكرتك».

تردَّد لحظةً قبل أن يُجيب: «نعم. لقد اقترحتُ أسبرطة».

تفكير طبيعي، فأبو پنلوپي يعيش في أسبرطة، وابنة عمومتها الملكة. من شأن أرملةٍ أن تجد هناك ترحابًا.

ـ «لم تقل أنت شيئًا عن آيايا إذن».

ردَّ: «نعم. خطر لي أنَّ ذلك سيكون...»، وبترَ عبارته. يعني أنَّ اقتراحًا كهذا يخلو من اللّباقة بالطَّبع.

ـ «إذن مَن أوَّل مَن ذكرَها؟».

ـ «الملكة ربَّما. أذكرُ أنَّها قالت إنَّها لا تُفضّل الذَّهاب إلى أسبرطة، إنَّها تُريد قليلًا من الوقت».

انتقى كلماته بعناية، وتحت جِلدي شعرتُ بطنين.

ـ «وقت لماذا؟».

ـ «لم تقل».

بنلوبي النسّاجة، التي تستطيع أن تقودك في هذا الاتّجاه وذاك داخل تصميمها. كنّا ماشيَيْن في أدغال، نتّجه إلى أعلى تحت الفروع الدّاكنة المبتلّة.

ـ «غريب. أحسبَتْ أنَّ عائلتها لن تُريدها؟ أكان هناك شقاقٌ ما مع هلن؟ هل ذكرَتْ أيَّ أعداء؟».

ـ «لا أدري. لا، لم تَذكُر أعداءً بالطَّبع».

ـ «ماذا قال تليماكوس؟».

ـ «لم يكن حاضرًا».

ـ «لكنْ، هل فُوجئَ عندما علمَ أنَّكم ستأتون إلى هنا؟».

ـ «أمّي».

ـ «أخبِرني بكلامها فحسب. قُله كما تَذكُره بالضَّبط».

توقَّف على الدَّرب قائلًا: «حسبتكِ لم تعودي تشتبهين فيهما».

- «ليس في نيّتهما الانتقام، لكنَّ هنالك أسئلةً أخرى».

التقط نَفَسًا عميقًا، وقال: «لا يُمكنني التَّذكُّر بالضَّبط، لا كلماتها ولا أيِّ شيءٍ على الإطلاق. الذِّكرى مبهمةٌ كالضَّباب، ولا تزال مبهمةً».

كان الألم قد تزايدَ على وجهه، فلم أقل المزيد، ولكنْ بينما مشينا ظلَّ عقلي يُداعِب الفكرة كالأصابع مع عُقدة. تحت حريرِ العناكبِ هذا سرٌّ ما. إنَّها لم تذهب إلى أسبرطة، وبدلًا منها لجأت إلى جزيرة عشيقة زوجها، وتُريد وقتًا. لأيِّ غاية؟

عندئذٍ، كنَّا قد بلغنا المنزل، حيث جلسَت تعمل على المنوال في حين وقفَ تليماكوس عند النَّافذة وقد كوَّر قبضتيه بشدَّةٍ على جانبيْه، وفاحت رائحة الاضطراب في الهواء. هل تشاجرا؟ تطلَّعتُ إلى وجهها، لكنَّه لم يَبُح بشيءٍ إذ انصبَّ تركيزُه على الخيوط. لم يصِح أحدٌ أو يبكِ، لكنَّني قلتُ لنفسي إنَّني أفضِّل ذلك على التَّوتُّر الصَّامت.

تنحنحَ تليجونوس، وقال: «أنا عطشان. مَن يُريد شرابًا؟».

شاهدته يفتح البرميل ويصبُّ. ابني وقلبه الباسل. حتى في همِّه يسعى للنُّهوض بنا جميعًا، لِحمْلنا من لحظةٍ إلى التَّالية. غير أنَّه لا يقوى على الكثير. وهكذا، مرَّ الأصيل في صمت، وكذا العشاء. ولحظة أن رُفعَ الطَّعام، قامت بنلوبي قائلةً: «أنا متعَبة». مكث تليجونوس فترةً قصيرةً بعدها، ولكنْ مع طلوع القمر بدأ يتثاءَب مخبِّئًا فمه بكفَّيْه، فأرسلته إلى فِراشه مع آركتروس. توقَّعتُ أن يحذو تليماكوس حذوَه، لكنَّني وجدته في مكانه حين التفتُّ.

قال لي: «أظنُّ أنَّ لديْكِ قصصًا عن أبي. أودُّ أن أسمعها».

استمرَّت جرأته في مفاجأتي. طوال النَّهار، أمسكَ عنِّي وتحاشى نظرتي بخجلٍ وتردُّدٍ، فكادَ يكون خفيًّا. وبغتةً، زرعَ نفسه أمامي كأنَّه مغروسٌ هناكَ منذ خمسين عامًا. حيلةٌ كان أودسيوس نفسه ليُعجَب بها.

رددتُ: «إنَّك تعرف كلَّ ما لديَّ على الأرجح».

ـ «لا». رنَّت الكلمة قليلًا في المكان. «لقد حكى قصصه لأمِّي، ولكنْ متى سألته قال إنَّ عليَّ أن أجد شاعرًا أكلِّمه».

إجابة قاسية. تساءلتُ عن حُجَّة أودسيوس. أهي النَّكاية فحسب؟ وإن اختلفَ مقصدُهُ فلن نعرف أبدًا. لا مفرَّ الآن من أن يبقى كلُّ ما فعلَه في حياته قائمًا كما هو.

حملتُ كأسي إلى المستوقد. في الخارج، كانت العاصفة قد عادَت تهبُّ، وزأرَت كاتمةً المنزل بالرِّيح والبلل. پنلوپي وتليجونوس في آخِر الرُّواق، لكنَّ الظِّلالَ الكثيفةَ حولنا جعلَتهما كأنَّما يَبعُدان عالمًا كاملًا. هذه المرَّة أخذتُ المقعد الفضِّي، وشعرتُ بزخارفه باردةً تحت رُسغَيَّ، وقد انزلقَت كسوةُ جِلد الأبقار أسفلي بعضَ الشَّيء.

ـ «ما الذي تُريد سماعه؟».

ـ «كلَّ شيء، أيًّا كان ما تعرفين».

لم أفكِّر مجرَّد تفكيرٍ في أن أسردَ عليه الرِّواياتِ التي سردتها على تليجونوس، بنهاياتها السَّعيدة وجروحها غير المميتة. إنَّه ليس طفلي، ليس طفلًا على الإطلاق، بل رجلٌ كاملُ النُّضج يُريد ميراثه.

وأعطيته له. پالاميدس القتيل، وفيلوكتيتيس المهجور، تحايُلُ أودسيوس على أخيل ليُخرِجه من مخبأه ويأخذه إلى الحرب، تسلُّله في

غياب القمر إلى معسكر الملك ريسوس حليفِ طروادة وذبْحُه الرِّجالِ وهُم نيام، كيف تفتَّق ذهنه عن خطَّة الحصان فأخذَ طروادة، وشهدَ البطش بأستيانكس. ثمَّ رحلته الضَّارية إلى الوطن، بما فيها من أكَلة بشرٍ وقراصنةٍ ووحوش. وجدتُ القصصَ أشدَّ دمويَّةً ممَّا أذكرُ، وبضع مرَّاتٍ تردَّدتُ، لكنَّ تليماكوس يتلقَّى الضَّرباتِ مباشرةً، فجلسَ صامتًا من دون أن يُزيح عينيْه عن عينَيَّ لحظةً.

احتفظتُ بقصَّة السَّيكلوپس للنِّهاية، ولا أدري لِمَ. ربَّما لأنَّني تذكُّرت أودسيوس يحكيها بوضوحٍ تام، وإذ رويتُ بدا كأنَّ كلماته تهمس تحت كلماتي. كانوا قد رسوا منهَكين على جزيرةٍ، ولمحوا كهفًا عظيمًا فيه أكوامٌ وافرة من النَّفائس، فخطر لأودسيوس أنَّه يصلُح للنَّهب، أو أنَّ بإمكانهم التماسَ ضيافةِ ساكنيه. وهكذا، بدأوا يلتهمون الطَّعام الذي وجدوه في داخله. ثمَّ عاد العملاق الذي ينتمي إليه المكان بقطيعه، الرَّاعي پوليفيمس ذو العين الواحدة، وضَبَطَهم في فعلتهم، فدحرج حجرًا ضخمًا سدَّ به المدخل ليحبسهم، وقبضَ على أحد الرِّجال، وقضمَه نصفيْن. رجلًا بعد رجلٍ ازدردَ، حتى أتخمَ نفسه لدرجة أنَّه تجشَّأ قطعًا من أطرافهم. على الرَّغم من هذا الهول، غالبَ أودسيوس الوحش بالنَّبيذ والكلام الودود، وأخبره بأنَّ اسمه أوتيس، أيْ «لا أحد». ولمَّا راح المخلوق في السُّبات أخيرًا، برى أودسيوس عصا كبيرةً، وأحماها فوق النَّار وغرسها في عينه. هاجَ السَّيكلوپس وماجَ، لكنَّه عجز عن الرُّؤية للإمساك بأودسيوس وبقيَّة الطَّاقم، وتمكَّنوا من الهرب عندما أخرج خِرافه لترعى، وقد تعلَّق كلٌّ منهم بصوف حيوانٍ من أسفل. هدر الوحشُ الثَّائر طالبًا عون رفاقه وحيدي الأعيُن، لكنَّهم لم يأتوا، لأنَّه صاح: «لا أحد أعماني! لا أحد يهرب!». بلغَ أودسيوس وطاقمه السُّفن،

وحين ابتعدوا مسافةً آمنةً دارَ أودسيوس ليزعق عبر الماء: «إذا أردتَ أن تعرف مَن الرَّجل الذي خدعَك فإنَّه أودسيوس بن لايرتيس، أمير إثاكا».

بدا كأنَّ أصداء الكلام تتردَّد في الهواء، ولاذ تليماكوس بالصَّمت، كأنَّما ينتظر خبوَّ الصَّوت، قبل أن يقول أخيرًا: «كانت حياةً سيِّئةً».

ـ «آخرون كثيرون أتعس».

قال بحميَّةٍ أجفلَتني: «لا. لستُ أعني أنَّها حياةٌ سيِّئة له. ما أعنيه أنَّه جعل حياةَ الآخرين بؤسًا. لماذا ذهب رجاله إلى ذلك الكهف في المقام الأوَّل؟ لأنَّه أراد المزيد من الكنوز. وغضبة بوسايدون التي أشفقَ عليه الجميع بسببها؟ لقد جلبَها على نفسه، لأنَّه لم يحتمل أن يترُك السَّيكلوبس من دون نسب الخدعة إلى نفسه».

كطوفانٍ بلا سدٍّ انهمرَت كلماتُه.

ـ «كلُّ تلك السِّنين من الألم والهيام على وجهه، لماذا؟ بسبب لحظة غرور. لقد آثرَ أن تلعنه الآلهة على أن يكون لا أحد. لو عادَ إلى الدِّيار بعد الحرب لما أتى الخُطَّاب، ولما صارَت حياة أمِّي كربًا، وحياتي. تكلَّم كثيرًا جدًّا عن شوقه إلينا وإلى الوطن، لكنَّها أكاذيب. عندما رجعَ إلى إثاكا لم يعرف الرِّضا قطُّ، وما انفكَّ يتطلَّع إلى الأفق. ما إن أصبحنا له ثانيةً حتى أراد شيئًا آخَر. ما هذا إن لم يكن حياةً سيِّئةً؟ تُغوي الآخَرين ليفعلوا ما تُريد ثمَّ تنصرف عنهم؟».

فتحتُ فمي لأقول إنَّ ذلك ليس صحيحًا، لكنْ كم مرَّةً تمدَّدتُ إلى جواره أتألَّمُ، لأنَّني أعلمُ أنَّه يُفكِّر في بنلوبي؟ كان هذا اختياري، أمَّا تليماكوس فلم يتمتَّع برفاهيةٍ كهذه.

قلتُ: «ثمّة قصّةٌ أخرى عليّ أن أخبرك بها. قبل عودة أبيك إليكم، فرضت الآلهة عليه أن يرتحل إلى العالم السُّفلي ليتكلَّم مع النَّبيِّ تيريسياس، وهناك رأى كثيرًا من الأرواح التي عرف أصحابَها في الحياة، آياكس وأجاممنون وأخيل الذي كان أفضل الإغريق قبله، واختار الموت المبكِّر مقابل الصيت الأبديّ. كلَّم أبوك البطل بدفءٍ، وأطرى عليه، وأكَّد له حُسن سُمعته بين البشر، لكنَّ أخيل أنَّبه، وقال إنَّه نادمٌ على حياة الكبرياء، ويتمنَّى لو أنَّه عاش حياةً أهدأ وأسعد».

ـ «أهذا ما عليَّ أن آمله إذن؟ أن أرى أبي يومًا ما في العالم السُّفلي وأجده نادمًا؟».

هذا أفضل ممَّا يناله بعضُنا. على أنّني لم أبُح بالخاطر. إنَّه محقٌّ في غضبه، وليس لي أن أحاول أخذه منه. من الخارج، حيث صفَت السَّماء، أتى حفيفُ الحديقة الخافت، إذ جالت الأُسودُ بين الأوراق. بعد الوقت الطَّويل الذي قضَته بين السُّحب، بدَت النُّجوم ساطعةً للغاية ومعلَّقةً في الظَّلام كالقناديل، ولو أصغينا لسمعنا رنينَ سلاسلها الهامسَ في النَّسيم.

ـ «أتحسبين ما قاله أبي صحيحًا؟ إنَّ خيرة النَّاس لم يحبُّوه قطُّ؟».

ـ «أظنُّه شيئًا طابَ لأبيك أن يقوله، ولا علاقة له بالحقيقة. لقد أحبَّته أمُّك رغم كلِّ شيء».

حطَّت نظرته على نظرتي، إذ قال: «وأنتِ أيضًا».

ـ «لستُ أدَّعي الخير».

ـ «لكنَّكِ أحببتِه بغضِّ النَّظر عن كلِّ شيء».

حملَ صوته نبرة تحدٍّ، فوجدتُ نفسي أختار كلامي بحرص. «لم أرَ أسوأ ما فيه. حتى في أفضل حالاته لم يكن رجلًا سهلًا، لكنَّه كان صديقي في وقتٍ احتجتُ فيه إلى صديق».

ـ «غريبٌ التَّفكير في إلهةٍ تحتاج إلى أصدقاء».

ـ «كلُّ مخلوقٍ ليس مجنونًا يحتاج إليهم».

ـ «أظنُّه انتفعَ أكثر من هذه الصَّفقة».

ـ «لقد حوَّلتُ رجالَه إلى خنازير».

لم يبتسم. تليماكوس كالسَّهم المطلوق حتى نهاية قوسه. «كلُّ هؤلاء الآلهة، وكلُّ الفانين الذين أعانوه، يتكلَّمون على دهائه، لكنَّ موهبته الحقَّة كانت مبلغ ما يستطيع أخذه من الآخَرين».

ـ «كثيرون يُسعِدهم التَّمتُّع بموهبةٍ كهذه».

ردَّ: «لستُ منهم»، ووضع كأسه مستطردًا: «لن أثقل عليكِ أكثر أيَّتها الليدي سرسي. إنَّني ممتنٌّ لسماع هذه القصص على حقيقتها. قليلون تجشَّموا مثل هذا العناء معي».

لم أردَّ، إذ بدأ شيءٌ ما يستثيرني، يرفع الشُّعيرات على عُنقي.

سألته: «ماذا تفعلان هنا؟».

حدَّق إليَّ قائلًا: «لقد أخبرتكِ، اضطررنا إلى ترك إثاكا».

ـ «نعم، ولكنْ لماذا جئتما إلى هنا؟».

ببُطءٍ، كرجلٍ يفيق من حُلمٍ، قال: «أظنُّها فكرة أمّي».

ـ «لماذا؟».

أجاب محتقن الوجه: «كما قلتُ، إنَّها لا تُفصِح لي عن أسرارها».

لا أحد يستطيع تخمين ما تفعله أمِّي إلى أن يُفعَل.

دار وغابَ في ظُلمة الرُّواق. وبعد لحظةٍ، سمعتُ بابه يُغلَق بصوتٍ خفيض.

شعرتُ كأنَّ الهواء البارد يندفع عبر شقوق الجُدران ليُثبِّتني في جلستي. كنتُ حمقاء. كان حريًّا بي أن أُعلِّقها فوق الهوَّة منذ اليوم الأول، وأنفضها نفضًا، حتى تُخبِرني بالحقيقة. تذكَّرتُ الحرص الذي سألتني به عن تعويذتي التي تصدُّ إلهًا. ولو كان من الأوليمب.

لم أذهب إلى حُجرتها وأنتزع الباب من مفصَّلاته، بل وقفتُ أتميَّزُ غيظًا عند نافذتي لتصرَّ عتبتها تحت أصابعي. لم تزل تفصلنا عن الفجر ساعات، لكنَّ السَّاعات لا شيء عندي. شاهدتُ النُّجوم تنطفئ، والجزيرة تنجلي في الضَّوء عود عُشبٍ بعود عُشب، وقد تبدَّل الهواءُ ثانيةً، وحجبَت السَّماءُ نفسها. عاصفةٌ أخرى. هسهسَت غصونُ السَّرو في الهواء.

سمعتهم يستيقظون، ابني أوَّلًا ثم بنلوبي، وأخيرًا تليماكوس الذي خلد إلى النَّوم متأخِّرًا. واحدًا تلو الآخر خرجوا إلى القاعة، وشعرتُ بهم يتوقَّفون إذ رأوني عند النَّافذة، كأرانبَ تكبح حركتها لمرأى ظلِّ الصَّقر. كانت الطَّاولة عاريةً لا إفطار عليها، فهُرِعَ ابني إلى المطبخ ليأتي بالأطباق. أعجبَني الإحساسُ بنظراتهما الصَّامتة على ظهري. حثَّهما ابني على الأكل مسرفًا في الاعتذار، وتخيَّلتُ النَّظرات المعبِّرة التي حدجَهم بها: آسفٌ بشأن أمِّي. هكذا هي أحيانًا.

قلتُ: «تليجونوس، الزَّريبة في حاجةٍ إلى إصلاح، وثمَّةَ عاصفةٌ مقبلة. ستتولَّى هذا».

تنحنحَ قائلًا: «نعم يا أمّاه».

ـ «يُمكن لأخيك أن يُساعِدك».

قال تليماكوس بكياسة: «لا مانع».

مزيدٌ من أصوات الدّكك والأطباق، وأخيرًا انغلقَ البابُ وراءهما.

التفتُّ قائلةً: «تحسبينني حمقاء، ساذجةً تجعلينها طوْع أمركِ. بكلّ عذوبةٍ سألتِني عن تعويذتي. أخبريني أيُّ إلهٍ يُلاحِقكما. غضبة مَن اجتلبتِ على رأسي؟».

كانت جالسةً إلى منوالي. حِجرها مليءٌ بالصُّوف الأسود الخام، وعلى الأرض إلى جوارها وشيعةٌ وفَلكةُ غزْلٍ من العاج لها رأسٌ فضّيّ.

ـ «ابني لا يعرف. لا لوم عليه».

ـ «واضح. يُمكنني أن أرى العنكبوت في شبكتها».

أومأتْ برأسها، وقالت: «أعترفُ بأنّني فعلتُ ما تقولين، فعلته عمدًا. بإمكاني ادّعاء أنّني فكّرتُ أنَّ كونكِ ربّةً وساحرةً لن يجعل الأمر يُزعِجكِ كثيرًا، لكنَّ ذلك كذبٌ. إنَّ معرفتي بالآلهة أفضل من هذا».

قلتُ وقد أحنقَني ما أبدَته من هدوء: «أهذا كلُّ شيء؟ أعرفُ ما فعلتُ، وسأكابرُ فيه؟ اللّيلةَ الماضيةَ تكلَّم ابنُكِ عن أبيه باعتباره شخصًا يأخذ من الآخرين ولا يُسبّب إلّا البؤس. تُرى ماذا قد يقول عنكِ؟».

أصابت الضّربةُ الهدف، ورأيتُ التّعبيرَ الخاوي الذي استخدمَتْه لتغطيتها.

ـ «تحسبينني ساحرةً خانعةً، لكنّكِ لم تُنصِتي حقًّا لقصص زوجكِ عنّي. يومان قضيتِهما على جزيرتي. كم وجبةً أكلتِ يا پنلوپي؟ كم كوبًا من نبيذي شربتِ؟».

امتقعَ لونها، ورأيتُ وخطًا رماديًا بطول منبت شعرها كحافة الفجر الزَّاحفة على السَّماء.

ـ «تكلَّمي وإلَّا استخدمتُ قوَّتي».

ـ «أعتقدُ أنَّكِ استخدمتِها بالفعل». قالتها بصلابةِ الحجر وبرودته. «لقد جلبتُ الخطرَ إلى جزيرتكِ، لكنَّكِ جلبتِه إلى جزيرتي أوَّلًا».

ـ «ابني ذهبَ بمحض إرادته».

ـ «لستُ أتحدَّثُ عن ابنكِ، وأظنُّكِ تعرفين هذا. أتحدَّثُ عن الحربة التي أرسلتِها، وزُعافها الذي قتلَ زوجي».

وها هو ذا الفيصل بيننا.

ـ «إنَّني حزينةٌ لموته».

ـ «هكذا قلتِ».

ـ «إذا كنتِ تنتظرين اعتذاري فلن تحصُلي عليه. حتى لو تمتَّعتُ بالقُدرة على إعادة الزَّمن لما أعدته. لو لم يَمُت أودسيوس على الشَّاطئ لماتَ ابني، وما من شيءٍ أتورَّعُ عن مبادلته بحياته».

مرَّت على وجهها نظرةٌ كنتُ لأصفها بالغيْظ لو لم تكن موجَّهةً إلى الدَّاخل. «حسنٌ، لقد أجريتِ مبادلتكِ، وهذا ما لدينا: ابنكِ حيٌّ، ونحن هنا».

ـ «ترينه نوعًا من الانتقام إذن، أن تُنزِلي إلهًا على رأسي».

ـ «أراه جزاءً من جنس العمل».

فكَّرتُ أنَّها كانت لتَصلُح راميةً بارعةً بدقَّتها باردة العينيْن هذه.

ـ «لستِ في حِلٍّ من المساومة أيَّتها الليدي بنلوبي. هذه آيايا».

ـ «دعيني لا أساومُ إذن. ماذا تُفضّلين؟ التَّوسُّل؟ بالطَّبع، إنَّكِ ربَّة».

ركعَتْ عند قدم منوالي، ورفعَتْ يديْها خافضةً ناظريْها أرضًا، وقالت: «أيا ابنة هيليوس، سرسي منيرة العينيْن، أيا سيِّدة الوحوش وساحرة آيايا، امنحيني المأوى على جزيرتكِ المهيبة، فإنَّني بلا زوجٍ أو وطن، ولا مكانَ آخَر في العالم لي ولابني أمانٌ فيه. سأمنحكِ دمًا كلَّ عامٍ إذا سمعتِني».

ـ «انهضي».

لكنَّها لم تتحرَّك من الوضع الذي بدا بغيضًا عليها، وتابعَت: «زوجي تكلَّم عنكِ بدفء، بدفءٍ شديد لم يُعجِبني، أعترفُ، وقال إنَّ من بين الآلهة والوحوش التي قابلَها جميعًا أنتِ الوحيدة التي يتمنَّى رؤيتها ثانيةً».

ـ «قلتُ انهضي».

فنهضَت.

ـ «ستُخبرِينني بكلِّ شيءٍ، وبعدها سأقرِّرُ».

تواجَهنا عبر الحُجرة الظَّليلة، وأحسستُ في الهواء بمذاق البرق.

قالت: «لقد تكلَّمتِ مع ابني. مؤكَّدٌ أنَّه لمَّح إلى أنَّ أباه ضاع في الحرب، أنَّه عاد إلى الوطن متغيِّرًا، أشد استغراقًا في الموت والأسى من أن يعيش كرجلٍ تقليدي. لعنة الجنود، أليس كذلك؟».

ـ «شيءٌ من هذا القبيل».

ـ «ابني أفضل منِّي، وأفضل من أبيه أيضًا، لكنَّه لا يرى كلَّ شيء».

ـ «وأنتِ ترين؟».

ـ «أنا من أسبرطة. إنَّ لنا باعًا مع الجنود المسنّين هناك. الأيدي الرّاجفة. الاستيقاظ مفزوعين. الرَّجل الذي يَسكُب نبيذه كلَّما نفخَ أحدهم في بوق. يدا زوجي كانتا ثابتتيْن كيدَيْ حدَّاد، وإذا دوَّى بوقٌ كان أوَّل مَن يُسرع إلى الميناء ماسحًا الأفق ببصره. الحرب لم تكسره، بل جعلَته على طبيعته أكثر. في طروادة، وجدَ أخيرًا ميدانًا يُضاهِي قُدراته. خطَّةٌ جديدةٌ دائمًا، مكيدةٌ جديدةٌ، كارثةٌ جديدةٌ يتلافاها».

ـ «لقد حاول الإفلات من الحرب».

ـ «آه، تلك القصَّة القديمة. الجنون والمحراث! هذه أيضًا كانت مكيدةً. أودسيوس أقسمَ قسمًا للآلهة، وعلمَ أنَّه لا يستطيع التَّنصُّل منه. لقد توقَّع أن يُكتشَف أمره، وعندها كان الإغريق ليضحكوا من فشله، ويحسبوا افتضاح حِيَله مسألةً في غاية السُّهولة».

قلتُ مقطِّبةً وجهي: «لم يُبدِ أمارةً على ذلك عندما حكى لي».

ـ «أنا واثقة. زوجي كان يكذب كما يتنفَّس، وهذا يتضمَّن كذبه عليكِ وعلى نفسه. إنَّه لم يفعل شيئًا لأجل غرضٍ واحدٍ قطُّ».

ـ «في مرَّةٍ، قال المثل عنكِ».

قصدتُ أن أجرحها، غير أنَّها اكتفَت بالإيماء، وقالت: «عددنا نفسينا من أعظم العقول في العالم. في بداية زواجنا، وضعنا معًا ألفَ خطَّةٍ لاستثمار كلِّ ما نلمسه في صالحنا. ثمَّ قامت الحرب. قال إنَّ أجاممنون أسوأ قائدٍ رآه على الإطلاق، لكنَّه يُفكِّر في استغلاله ليصنع لنفسه اسمًا، وهو ما حدثَ بالفعل. هزمت مخطَّطاتُه طروادة، وأعادت تشكيل نصف العالم. أنا أيضًا خطَّطتُ. أيَّ الماعز أزاوجها بأيِّها، كيف أنمِّي الحصاد، أين يجد الصيَّادون أفضل البقاع لرمي شباكهم. تلك

شؤوننا الملحّة في إثاكا. كان يجب أن تري وجهه حين عاد. الخُطّاب قتلَهم، فماذا تبقّى؟ الأسماك والماعز، وزوجةٌ تشيب وليست ربّةً، وابنٌ لم يفهمه».

ملأ صوتها الهواء، حادًّا كالسّرو المسحوق.

ـ «لم تعُد هناك مجالسُ حربٍ، أو جيوشٌ تُقهَر أو تُقاد. مَن كان موجودًا من رجالٍ ماتَ؛ فنصفهم كان طاقمه، والنّصف الثّاني خُطّابي. وكلَّ يومٍ وصل نبأٌ جديد عن مجدٍ بعيد. منيليوس شيَّد قصرًا ذهبيًّا جديدًا. ديوميدس غزا مملكةً في إيطاليا. حتى إينياس اللّاجئ الطرواديّ أنشأ مدينةً. أرسل زوجي إلى أورستيس ولد أجاممنون عارضًا أن يكون مستشاره، فردَّ أورستيس بأنَّ عنده كلَّ ما يحتاج إليه من مستشارين، وعلى كلِّ حالٍ لن يرغب أبدًا في إقلاق راحة بطلٍ مثله. بعدها، أرسل إلى المزيد من الأبناء، ابن نستور وابن آيدومنيوس وغيرهما، لكنَّ جوابهم لم يختلف، لم يُريدوه. أَوَتدرين ماذا قلتُ لنفسي؟ إنَّه محتاجٌ إلى وقتٍ فقط، إنّه في أيِّ لحظةٍ سيتذكّر مُتعَ البيتِ والأهلِ البسيطة، مُتعَ حضوري. سنُخطّط معًا من جديد». لحظتها التوى فمها في سخريةٍ من النَّفس. «لكنّه لم يُرِد تلك الحياة. اعتاد النُّزول إلى الشّاطئ وذَرْعَه جيئةً وذهابًا، وشاهدته من نافذتي، وتذكَّرتُ قصّةً حكاها لي مرّةً عن أفعى عظيمةٍ يُؤمِن بها أهل الشّمال وتشتهي التهام العالم بأكمله».

تذكَّرتُ القصّة بدوري. في النّهاية، تأكل الأفعى نفسها.

ـ «وبينما ذرع الشّاطئ، راح يُكلِّم الهواءَ الذي تكثّف حوله متوهِّجًا بألمع درجات الفضّة على جِلده».

الفضّة. «أثينا».

ببسمةٍ مريرةٍ باردة، قالت: «ومَن غيرها؟ كلَّما هدأ جاءت ثانيةً، تهمس في أُذنه، تنزل بسرعة السَّهم من بين السُّحب لتُفعِمه بالأحلام عن كلِّ ما يفوته من مغامرات».

أثينا، الإلهة العنيدة التي تنسج المؤامرات بلا انقطاع. لقد قاتلت ليرجع بطلُها إلى الوطن، لتراه ساميًا وسط قومه تشريفًا لها وله، لتسمعه يحكي حكاياتِ انتصاراته والموت الذي أحاقه بالطرواديِّين معًا. لكنَّني تذكَّرتُ الطَّمعَ في عينيْها لمَّا تكلَّمت عنه، نظرةَ بومةٍ تقبض ببراثنها على ضحيَّة. لا يُمكن السَّماحُ أبدًا لبشريِّها المفضَّل بأن يخمُل ويصير أليفًا، بل يجب أن يعيش في عين النَّشاط متألِّقًا برَّاقًا، يكدح دومًا ويسعى، يُبهِجها دومًا بحيلةٍ ذكيَّةٍ جديدة، بفكرةٍ عبقريَّةٍ ما أتى بها من الهواء.

في الخارج، جاهدتِ الأشجار تحت السَّماء المظلمة، وفي هذا الضَّوء الغريب بدا لعظم وجه پنلوپي طابع ممتازٍ كأحدِ تماثيل دايدالوس. لقد تساءلتُ لِمَ لا تَشعُر بغيرةٍ أشد منِّي، والآن فهمتُ. إنَّني لستُ الإلهة التي أخذت زوجها.

قلتُ: «الآلهة يتظاهَرون بأنَّهم آباء، لكنَّهم أطفالٌ يُصفِّقون بأيديهم، ويصيحون مطالبين بالمزيد».

ـ «والآن، وقد ماتَ رجلها أودسيوس، فأين ستجد المزيد؟».

وُضِعَت البلاطات الأخيرة في مكانها، وأخيرًا اتَّضحت الصُّورة كاملةً. الآلهة لا تتخلَّى عن كنزٍ أبدًا. سوف تسعى أثينا لأفضل شيءٍ بعد أودسيوس، لدمه.

ـ «تليماكوس».

- «أجل».

سألتها وقد أدهشتني الغصّة في حلقي: «هل يعرف؟».

- «لا أظنُّ. صعبٌ القولُ بذلك».

ظلَّت ممسكةً بالصُّوف المتلبِّد كريهِ الرَّائحة. كنتُ غاضبةً وأشعرُ بغضبي يلفح معدتي. لقد وضعَتْ ابني في خطر. مرجَّحٌ أن أثينا تُخطِّط للثَّأر من تليجونوس بالفعل، وفعلة پنلوپي تصبُّ الزَّيت على النَّار. لكنْ، إن صدقتُ القولَ فغضبتي لم تَعُد حارَّةً كما كانت من قبل. من بين كلِّ الآلهة الذين كانت لتقودهم إلى بابي، فهذه الإلهة أستطيعُ احتمالها أكثر من غيرها، فكم يُمكن لكراهية أثينا لنا أن تزداد؟!

- «أتظنِّين حقًّا أنَّكِ تستطيعين إخفاءه عنها؟».

- «أعلمُ أنَّني لا أستطيعُ».

- «ماذا تبتغين إذن؟».

كانت قد سحبَت معطفها على نفسها كطائرٍ يلتفُّ بجناحيْه. «في صِغري، سمعتُ جرَّاح قصرنا يتكلَّم. قال إنَّ الأدوية التي يبيعها مجرَّد منظر، فمعظم الجروح يلتئم من تلقاء نفسه إذا تُرِكَ وقتًا كافيًا. كان هذا من نوع الأسرار التي أحبُّ اكتشافها، وجعلني أعدُّ نفسي شكَّاكةً حكيمةً، وهكذا اتَّخذتها فلسفةً. لقد برعتُ في الانتظار دومًا، صمدتُ أمام الحرب والخُطَّاب، وصمدتُ خلال أسفار أودسيوس. قلتُ لنفسي إنَّني إذا صبرتُ كفايةً فسأصمدُ أمام قلقه وأمام أثينا أيضًا. فكَّرتُ أنَّ في العالم بالتَّأكيد فانيًا آخر يُمكنها أن تحبَّه، ولكنْ يبدو أن لا أحد هنالك. وبينما جلستُ لا أحرِّكُ ساكنًا - احتمل تليماكوس ثورةَ أبيه عامًا بعد عام، وقد عانى، فيما غضضتُ بصري».

تذكَّرتُ ما قاله أودسيوس عنها مرَّةً، إنَّها لا تحيد عن الطَّريق أبدًا، لا تُخطئ أبدًا. آنذاك، شعرتُ بالغيرة؛ أمَّا الآن ففكَّرتُ: يا له من عبء، يا له من حملٍ ثقيل على ظهركِ.

ـ «على أنَّ في هذا العالم أدويةً حقيقيَّةً. أنتِ دليلٌ على هذا. لقد نزلتِ إلى الأعماق من أجل ابنكِ، تحدَّيتِ الآلهة. إنَّني أفكِّرُ في كلِّ سِنِي حياتي التي أضعتها في مديح ذلك الرَّجل الضَّئيل. ثمَّ دفعتُ الثَّمن، وهذه عين العدل، لكنَّني جعلتُ تليماكوس يدفعه أيضًا. إنَّه ابنُ بار، لطالما كان كذلك. ما أبتغيه هو القليل من الوقت قبل أن أخسره، قبل أن نُلقى في مهبِّ الرِّيح ثانيةً، فهلَّا تمنحيننا إيَّاه يا ساحرة آيايا؟».

لم تستخدم عينيْها الرَّماديَّتيْن هاتيْن معي، فلو فعلتْ لرفضتُ، بل اكتفَت بالانتظار. صحيحٌ أنَّه يُناسبها، إذ بدت جزءًا لا يتجزَّأ من الهواء، كما الجوهرة على التَّاج.

قلتُ: «إنَّه الشِّتاء. لا سُفنٌ تُبحِر الآن. ستتحمَّلكما آيايا فترةً أطول قليلًا».

الفصل الثّالث والعشرون

رجعَ ابنانا من عملهما بهيئةٍ رثّة من الرّيح، ولو أنّهما لم يبتلّا، إذ اقتصرَ الرّعد والمطر على البحر. فيما تناول الآخرون وجبتهم، صعدتُ إلى أعلى قمم الجزيرة، وشعرتُ بالتّعويذة من فوقي، تمتدُّ من الخليج إلى الخليج، ومن الرّمل الأصفر إلى الحجارة المتآكلة، وشعرتُ بها في دمي أيضًا، بتلك الوطأة الحديديّة التي حملْتُها طويلًا طويلًا. مؤكّدٌ أنَّ أثينا تختبرها، تحوم عند الحواف بحثًا عن ثَغرة. لكنَّ التّعويذة ستصمُد.

عندما عدتُ وجدتُ پنلوپي تعمل على المنوال مرّةً أخرى. نظرَتْ من فوق كتفها قائلةً: «يبدو أنَّ هناك انفراجةً في الطّقس. المفترض أن يكون البحر هادئًا الآن. تليجونوس، هل ترغب في تعلُّم العوم؟».

من بين كلِّ الأشياء التي توقّعتها بعد حديثنا، لم يكن هذا واحدًا، لكنّني لم أجد وقتًا للتّفكير في الاعتراض، إذ كاد تليجونوس يُسقِط كوبَه من فرط الحماسة. بينما غادرا من الحديقة، سمعته يشرح

لها نباتاتي. منذ متى يعرف ماهية النّيريّة أو الشّوكران؟ بَيْدَ أنّه أشار إليهما ووصف خصائصهما.

كان تليماكوس قد جاء يقف إلى جواري صامتًا، ثمّ إنّه قال: «يبدوان كأمٍّ وابنها».

وهو ما خطرَ لي بالضّبط. لكنّني شعرتُ بدفقةٍ من الغضب حين تفوّه بالخاطر. خرجتُ إلى الحديقة من دون ردٍّ، وركعتُ في أحواضي مجتثّةً الحشائش.

فاجأني باللّحاق بي قائلًا: «لا مانع عندي في مساعدة ابنكِ، ولكنْ لنكن صُرحاء، تلك الزّريبة التي قلتِ لنا أن نُصلِحها لم تُستَعمل منذ سنوات. هلّا تُكلّفينني بشيءٍ له فائدة فعليّة؟».

اعتدلتُ على كعبَيّ رامقةً إيّاه، وقلتُ: « عادةً لا يلتمس أصحاب الدّماء الملكيّة القيام بالأعمال الرّتيبة».

ـ «يبدو لي أنَّ رعاياي تركوا لي وقتَ فراغ. جزيرتكِ جميلةٌ للغاية، لكنّني سأُجنُّ إن ظللتُ عاطلًا عليها يومًا بعد يوم».

ـ «ماذا يُمكنك أن تفعل إذن؟».

ـ «المعتاد. الصّيد والقنص، رعاية الماعز التي لا تملكينها، النّحت والبناء. بإمكاني إصلاح قارب ابنكِ».

ـ «أفيه عيب؟».

ـ «الدفّة بطيئة ولا يُعتمَد عليها، والشّراع أقصر من اللّازم والصّاري أطول من اللّازم. إنّه يتمايَل كالبقرة في أيّ مدٍّ».

ـ «لم يبدُ لي سيّئًا».

ـ «لا أعني أنَّه لا يُثير الإعجاب بالنِّسبة إلى محاولةٍ أولى، بل فقط أنَّني مصدومٌ من أنَّنا لم نغرق في الطَّريق».

ـ «إنَّه مسحورٌ ضد الغرق. كيف أصبحتَ سفَّانًا خبيرًا؟».

أجاب ببساطة: «أنا من إثاكا».

ـ «و...؟ أهناك شيء آخر يجدُر بي أن أعرفه؟».

قال بوجهٍ جادّ كأنَّه يُعطي تشخيصًا: «صوفُ الغنم متلبّدٌ بما فيه الكفاية لإتلاف جُزازته في الرَّبيع. في ردهتكِ ثلاث طاولاتٍ غير متوازنة، وبلاطاتُ ممرِّ الحديقة مخلخلة، وهناك عُشَّا طيرٍ على الأقل في إفريز سقفكِ».

قلتُ شاعرةً بأنّي نصفُ مستمتعةٍ ونصفُ مُهانة: «أهذا كلُّ شيء؟».

ـ «لم أُجرِ فحصًا كاملًا».

ـ «في الصَّباح، يُمكنك إصلاح القارب مع تليجونوس، أمَّا الآن فلنبدأ بالغنم».

كان محقًّا، الصُّوف متلبّد بالفعل بعد ذلك الشّتاء البليل، والوحل على الخراف يتجاوز أكتافها. جلبتُ فرشاةً ووعاءً كبيرًا مليئًا بأحد عقاقيري.

نظرَ إليه بإمعانٍ متسائلًا: «ماذا يفعل؟».

ـ «يُنظِّف الوحل من دون إزالة الصُّوف».

عرف تليماكوس عمله ومارسَه بكفاءة. أغنامي مروَّضة، لكنَّه يملك حِيَل ملاطفةٍ وتهدئةٍ خاصَّة، وقادَتها يدُه الموضوعةُ على ظهورها ببساطةٍ إلى هنا وهناك.

علَّقتُ: «فعلتَ هذا من قبل».

ـ «بالطَّبع. هذا الغُسول ممتاز. ماذا فيه؟».

ـ «شوك، حبق، كرفس، كبريت. سِحر».

ـ «آه».

كنتُ قد أخرجتُ سكّين التَّشذيب وبدأتُ أقطعُ الأشواك. سألني عن سُلالات الحيوانات وأساليبي في الاستيلاد، وأراد أن يعرف إن كان ما يُبقيها وديعةً تعويذة أم سيطرتي. حين انشغلَتْ يداه فقدَ جموده غير المريح، وسرعان ما شَرَع يحكي لي قصصًا أضحكتني عن حماقاته في رعاية الماعز. لم ألحظ الشَّمسَ تسقُط في البحر، وفزعتُ لمَّا ظهرَت پنلوپي وتليجونوس إلى جانبنا. شعرتُ بنظرة پنلوپي علينا، إذ نهضنا ومسحنا أيدينا من الوحل.

قلتُ: «تعالوا. مؤكَّد أنَّكم جائعون».

* * *

ليلتها، تركَتْ پنلوپي العشاء مبكِّرًا مرَّةً أخرى. تساءلتُ إن كانت تتعمَّد هذا، غير أنَّ تعبها بدا حقيقيًّا، وذكَّرتُ نفسي بأنَّها لا تزال في حِداد، جميعنا كذلك. لكنَّ السِّباحة أفادت ابني، أو ربَّما اهتمام پنلوپي. خضَّبتِ الرِّيح وجهه بالحُمرة، وأراد أن يتكلَّم، ليس عن أبيه، فهذا الجرح ما زال حديثًا جدًّا، بل عن حُبِّه الأوَّل القديم: قصص البطولة. على ما يبدو، كان في إثاكا شاعرٌ برع في تلك الحكايات، فأراد ابني أن يسمع من تليماكوس كيف رواها. وهكذا، بدأ تليماكوس يحكي... بليروفون وپرسيوس، تنتالوس، آتلانتا. هذه المرَّة أيضًا، أخذَ المقعد

الخشبيَّ وأخذتُ الفضّيّ، في حين استندَ تليجونوس إلى ذئبٍ على الأرض. ناقلةً نظري بينهما، شعرتُ بالغرابة، بشيءٍ أقرب إلى حسٍّ ثمِل بالوهم. هل مضى يومان فقط حقًّا منذ أتوا؟ خُيِّلَ إليَّ أنَّ وقتًا أطول مرَّ. إنَّني لم أعتَد هذه الصُّحبة المستمرَّة والكلام المتواصل. التمس ابني قصَّةً أخرى، وأخرى، واستجاب تليماكوس الذي نفشَت الرِّيحُ شعره من عملنا في الخارج، وانعكس ضوءُ النَّار بنعومةٍ على وجنته. قدرٌ كبيرٌ جدًّا منه بدا أكبر ممَّا هو حقًّا، لكنَّ فيه أيضًا جزءًا عذبًا يميل إلى ما قد يُوصَف بشيءٍ يُشبِه الصِّبيانيَّة. قال إنَّه ليس حكَّاءً، لكنَّ هذا جعلَ الأمرَ بشكلٍ ما أكثر إمتاعًا، إذ شاهدتُ ملامحه الجادَّة وهو يصف الخيول الطَّائرة والتُّفَّاح الذَّهبي. كانت الحُجرة دافئةً والخمر طيِّبةً، وبدأتُ أشعرُ بجِلدي طريًّا كالشَّمع.

ملتُ إلى الأمام، وسألته: «أخبِرني، هل ذكرَ ذلك الشَّاعر باسيفاي ملكة كريت؟».

قال تليماكوس: «أمُّ المينوتور. بالطَّبع. إنَّها في حكاية ثيسيوس دائمًا».

ـ «هل قال أحدٌ ماذا جرى لها عند موت مينوس؟ إنَّها خالدة. أما زالت تحكُم هناك؟».

قطَّب تليماكوس وجهه، ليس استياءً بل بالتَّعبير نفسه الذي حملَه عندما فحصَ غسولَ الخراف. رأيته يتتبَّع خيوط الأنساب في شِباكها المعقَّدة. قيل إنَّ باسيفاي ابنة الشَّمس. رأيتُ اللَّحظةَ التي فهمَ فيها.

قال: «لا، ذُرِّيَّتها من مينوس لم تَعُد تَحكُم. رجلٌ اسمه ليكوس الملك الآن، اغتصبَ العرش من آيدومنيوس الذي كان حفيدها. في

القصّة التي سمعتها، عادت إلى أبهاء الآلهة بعد موت مينوس، وتعيش مكرَّمةً هناك».

ـ «أبهاء مَن؟».

ـ «الشّاعر لم يَذكُر».

قلتُ وقد استحوذَ عليَّ تهوُّر منتشٍ: «أوقيانوس على الأرجح، جدُّنا. مؤكّدٌ أنّها تُروِّع الحوريّات كما تعوَّدتْ. كنتُ حاضرةً عندما وُلِدَ المينوتور، وساعدتُ على حبسه».

حملقَ تليجونوس قائلًا: «أنتِ قريبة الملكة پاسيفاي؟ ورأيتِ المينوتور؟ لِمَ لم تَذكُري هذا؟».

ـ «لأنّك لم تسألني».

ـ «أمّي! يجب أن تُخبِريني بكلّ شيء. هل قابلتِ مينوس؟ ودايدالوس؟».

ـ «كيف تحسبني حصلتُ على هذا المنوال؟».

قال: «لا أدري! ظننته...»، ولوّح بيده في الهواء.

كان تليماكوس يُراقِبني.

رددتُ: «لا. لقد عرفتُ الرَّجل».

سألني تليجونوس: «وماذا أخفيتِ عنّي أيضًا؟ المينوتور وترايجون، وكم غيرهما؟ الكمّيرة[1]؟ أسد نيميا؟ سربيروس وسكيلا؟».

كنتُ مبتسمةً لانفعاله المذهول، ولم أتوقَّع الضَّربة. كيف سمعَ ابني اسمها؟ هرميز؟ إثاكا؟ لا يهمّ. في أحشائي التوى رأسُ حربةٍ بارد. ماذا

---

(1) الكمّيرة: مخلوقة أسطوريّة لها رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى. (المترجم).

ظننتُ؟ ماضيَّ ليس لُعبةً، ليس حكاية مغامرات، بل الحُطام القبيح الذي تترُكه العواصف يتعفَّن على شاطئ، لا يقلُّ سوءًا عن ماضي أودسيوس.

أعلنتُ: «لقد قلتُ كلَّ ما سأقوله. لا تسألني ثانيةً»، ونهضتُ مبتعدةً عن وجهيْهما المبهوتيْن. تمدَّدتُ على سريري في حُجرتي من دون الذِّئاب والأُسود التي بقيَت مع ابني. فوقنا في مكانٍ ما أثينا، تُشاهِد بعينيْها الوامضتيْن، تتحيَّن الفُرصةَ لإغماد حربتها في نقطة ضعفي. فتحتُ فمي محدِّثةً الظِّلال: «واصِلي الانتظار».

ومع أنِّي كنتُ واثقةً بأنِّي لن أنام، نمتُ.

* * *

استيقظتُ صافيةَ العقل عازمةً. في اللَّيلة السَّابقة، كنتُ متعَبةً وشربتُ أكثر من المعتاد، لكنَّني استعدتُ صلابتي. وضعتُ الإفطار. وحين أتى تليجونوس رأيته يرمُقني مترقِّبًا فورةً أخرى، إلَّا أنَّني تعاملتُ ببشاشة، وفكَّرتُ أنَّ المفترضَ ألَّا يندهش لهذه الدَّرجة، فأنا قادرةً على البشاشة.

أبقى تليماكوس نفسه بمعزل، لكنْ بعد الفروغ من الوجبة أخذَ أخاه وخرج، ليبدأ إصلاح المركب.

ـ «أيُمكنني استخدام منوالكِ ثانيةً؟».

ارتدت بنلوبي فُستانًا مختلفًا، أفضل من السَّابق، مبيَّضًا حتى لون القشدة الباهتة، وقد أحسن إبراز درجة بشرتها الدَّاكنة.

ـ «يُمكنكِ». فكَّرتُ في الذَّهاب إلى المطبخ، لكنَّني كثيرًا ما أقطِّعُ أعشابي على الطَّاولة الطَّويلة قُرب المستوقد، ولم أرَ داعيًا لنفي

نفسي. وهكذا، جلبتُ السّكاكين والأوعية والبقيّة. لن تحتاج تعويذتا حماية تليجونوس إلى تجديدٍ قبل نصف شهر، ففعلتُ ما فعلتُه لمُتعتي الخاصّة فقط، وجفّفتُ وطحنتُ وقطّرتُ الصّبغات لاستخدامٍ لاحق.

حسبتنا لن نتكلّم. في مكاننا، كان أودسيوس ليستمرَّ في الإبطان والتّحايُل على سبيل الاستمتاع لا أكثر. أمّا نحن، فأظنُّ أنَّ بعد الزّمن الطّويل الذي أمضيناه في وحدةٍ صرنا نُقدّر قيمةَ الحوار الصّريح.

دخل الضّوءُ من النّافذة مائلًا ليُغرِق أقدامَنا الحافية في بِركةٍ منيرة. سألتها عن هلن، وحكَت لي قصصًا من طفولتهما معًا، عن السّباحة في أنهار أسبرطة، واللّعب في بَلاط عمّها تينداريوس. تكلّمنا عن الغزْل وأفضل سُلالات الغنم، وشكرتُها على عَرْضها تعليم تليجونوس السّباحة، فقالت إنّه من دواعي سرورها. ذكّرها ابني بكاستور ابن عمومتها بحماسته، وطيب خُلقه، وطريقته في إراحة مَن حوله. «أودسيوس جذبَ العالم إليه، وتليجونوس يُلاحِقه مشكّلًا إيّاه في طريقه، كنهرٍ يشقُّ مجرًى».

سرّني ثناؤها عليه أكثر من قُدرتي على التّعبير، وقلتُ: «كان عليكِ أن تعرفيه في طفولته. لم يعرف العالمُ مخلوقًا ضاريًا مثله، مع إنّني إذا صدقتكِ القول كنتُ أضرانا. الأمومة بدت لي سهلةً قبل أن أنجب ولدًا!».

قالت: «هكذا كانت طفلة هلن، هرمايني. طوال نصف عقدٍ صرخَتْ، لكنّها كَبُرَت لتُصبح في منتهى العذوبة. أنا قلقتُ من أنَّ تليماكوس لا يَصرُخ بما يكفي، من أنّه تعلّم الأدب مبكّرًا جدًّا. لطالما أثارت فضولي فكرةُ أنَّ طفلًا ثانيًا سيختلف، ولكنْ لدى رجوع أودسيوس

بدا أنَّ تلك المسألة انتهَت». تكلَّمتُ بنبرةٍ تقريريَّة. بالإخلاص دعَتها الأغاني، بالوفاء والاستقامة والحصافة، ويا لها من كلماتٍ بليدةٍ شاحبة مقارنةً بها. كان بإمكانها أن تتَّخذ زوجًا آخر، وتحمل طفلًا ثانيًا في غياب أودسيوس، ولصارت حياتها أسهل.. إلَّا أنَّها أحبَّته حُبًّا جمًّا، ولم تقبل إلَّاه.

أنزلتُ حفنةً من نبتة الأخليَّة المعلَّقة من إحدى عوارض السَّقف، فسألتني: «فيمَ تُستخدَم هذه؟».

- «المراهم العلاجيَّة. الأخليَّة تُوقِف النَّزيف».

- «أيُمكنني أن أشاهد؟ لم أرَ سحرًا من قبلُ قطُّ».

سرَّني هذا بقدر ثنائها على تليجونوس، فأفسحتُ لها مكانًا على الطَّاولة. كانت متفرِّجةً مجامِلةً، ألقت عليَّ أسئلةً دقيقةً فيما ذكرتُ اسم كلِّ مكوِّنٍ، وشرحتُ الغرض منه. أرادت رؤية الأعشاب التي استخدمتها لتحويل الرِّجال إلى خنازير، فأسقطتُ الأوراق المجفَّفة بين يديْها.

- «لن أتحوَّل إلى خنزيرةٍ بدوري، أليس كذلك؟».

- «يجب أن تبتلعيها وتنطقي كلماتِ القوَّة. وحدها النَّباتات النَّامية من الدِّماء الإلهيَّة لا تحتاج إلى تعاويذَ لاستدعاء سحرها. وأظنُّ أنَّ من الضَّروري أن تكوني ساحرةً».

- «ربَّةً».

- «لا. ابنة أخي كانت فانيةً، وألقت تعاويذَ قويَّةً كتعاويذي».

- «ابنة أخيكِ. ألا تعنين ميديا؟».

وجدتُ سماعَ الاسم بعد هذا الزَّمن الطَّويل غريبًا. «أتعرفينها؟».

ـ «أعرفُ ما يُغنّيه الشُّعراء، ويُمثّله الممثّلون، في بَلاطات الملوك».

ـ «أودُّ أن أسمعه».

في الخارج، حفّت الأشجار في الرّيح ونحن نتكلّم. نجحت ميديا في الهرب من إيبتيس بالفعل، وذهبَت إلى إيولكوس مع جيسون، وأنجبت له ابنيْن، لكنّه نفرَ من شعوذتها وبغضَها شعبه. بعد وقتٍ، سعى للزّواج ثانيةً بأميرةٍ جميلةٍ محبوبةٍ من وطنه، فمدحت ميديا حكمته، وأرسلت إلى العروس هديّةً، تاجًا ومعطفًا صنعَتهما بنفسها؛ ولمّا وضعَتهما الفتاةُ احترقَت حيّةً. ثمّ إنّ ميديا جرّت طفليْها إلى مذبحٍ مقسمةً أنّ جيسون لن يحظى بهما أبدًا، ونحرَتهما. آخِر مرّةٍ شُوهِدَت، كانت تستدعي عربةً تجرُّها التّنانين لتعود إلى كولخيس.

لا شكّ أن الشّاعر حرّف في القصّة، لكنّني لم أزل أرى وجهَ ميديا المشرق الثّاقب. كان اعتقادي أنّها تُؤثِر إشعالَ النّار في العالم على الخسارة.

ـ «لقد أنذرتها مرّةً من الحُزن الذي سيحلُّ بزواجها. ليست هناك مسرّةٌ في سماع أنني كنتُ محقّةً».

ـ «نادرًا ما ينطوي هذا على مسرّة»، قالتها پنلوپي بصوتٍ خفيض. ربّما كانت تُفكّر في هذيْن الطّفليْن المذبوحيْن. أنا أيضًا فكّرتُ فيهما، وفي عربة التّنانين التي كانت مُلكَ أخي طبعًا. بدَت لي عودتها إليه مذهلةً بعد كلّ ما جرى بينهما، وإن استطعتُ أن أعقلها نوعًا أيضًا. إيبتيس أراد وريثًا، ولا أحد آخَر يُشبِهه أكثر من ميديا التي ترعرعت متمرّسةً على قسوته. وفي النّهاية بدا أنّها لم تتعلّم كيف تكون شخصًا آخر.

صببتُ على الأخليّة عسلًا، وأضفتُ شمع النَّحل ليتماسَك المرهم، وقد فاحَت في الهواء رائحةُ الأعشاب العطريّة النفّاذة.

سألت پنلوپي: «ما الذي يجعل المرء ساحرًا إذن إن لم يكن الألوهيّة؟».

ـ «لا أعلمُ يقينًا. في السّابق، حسبته شيئًا يُورَّث، لكنَّ تليجونوس خالٍ تمامًا من التّعاويذ. صرتُ أعتقدُ أنّها مسألةُ إرادةٍ في الغالب».

أومأتْ برأسها، ولم أضطرَّ إلى التّفسير. فكلتانا تعرف معنى الإرادة.

***

خلال ذلك الأصيل، ذهبَت پنلوپي وتليجونوس إلى الخليج ثانيةً. افترضتُ أنَّ بعد فظاظتي المفاجئة في اللّيلة السّابقة سيبقى تليماكوس على مسافةٍ منّي، إلّا أنّه أتاني في أثناء عملي على أعشابي، وقال: «خطرَ لي أن أعمل على الطاولات».

شاهدته فيما طحنتُ ورق الخربق، وقد جلب معه خيطَ قياسٍ، وكوبًا علّمه وملأه حتى العلامة بالماء.

ـ «ماذا تفعل؟».

ـ «أختبرُ الأرضيّةَ لأرى إن كانت مستويةً. مشكلتكِ الفعليّة في القوائم... مقاساتها مختلفة قليلًا. سيكون ضبطها سهلًا».

تفرّجتُ إذ استخدم مبرد الخشب، وفحصَ القوائمَ وأعاد فحصها بخيط القياس. وعندما سألته كيف كسرَ أنفه، أجابني: «من السّباحة مغلقًا عينَيّ. تعلّمتُ الدّرس يومها». بعدما فرغ من الطاولات خرج للعمل على البلاط، وتبعته منتزعةً الحشائش، على الرّغم من أنَّ الحديقةَ

بالكاد احتاجت إلى ذلك. تناقشنا حول النَّحل، وذكرتُ أنَّني رجوتُ دومًا أن يزداد عددُه على الجزيرة، فسألني إن كنتُ أستطيعُ ترويضه كالمخلوقات الأخرى، وأجبته: «لا، أستخدمُ الدُّخان كالجميع».

ـ «رأيتُ خليَّةً تبدو مكتظَّةً. يُمكنني أن أقسمها في الرَّبيع إذا أردتِ».

أجبتُ بالإيجاب، وشاهدته يجرف التُّربة غير المستوية قائلةً: «السَّقف يُصرِّف الماء هنا. ستتخلخل هذه البلاطات ثانيةً بعد المطر التَّالي».

ـ «هكذا ديدن الأشياء. تُصلِحينها ثمَّ تتلف، ثمَّ تُصلِحينها مجدَّدًا».

ـ «أنت صبور».

ـ «نعت أبي هذا بالبلادة. جزُّ الصُّوف، تنظيفُ المدافئ، نزعُ نُوى الزَّيتون. أرادَ أن يعرف كيف يفعل هذه الأشياء من باب الفضول، لكنَّه لم يُرِد أن يفعلها حقًّا».

صحيح. عملُ أودسيوس الأثيرُ كان من النَّوع الذي يُمارَس مرَّةً فقط، كالإغارة على بلدة، أو هزيمةِ وحش، أو العثورِ على سبيلٍ لدخول مدينةٍ منيعة.

ـ «ربما ورثتَ الصَّبر من أمِّك».

لم يرفع عينيْه، وإن بدا لي أنَّه توتَّر إذ قال: «كيف حالها؟ أعرفُ أنَّكِ تتكلَّمين معها».

ـ «تفتقدك».

ـ «إنَّها تعرف مكاني».

اعتملَ الغضب بكلِّ وضوحٍ على وجهه. فكَّرتُ أنَّ له طابعًا من البراءة. لا أعنيها كما يعنيها الشُّعراء، باعتبارها فضيلةً تُنبَذ مع نهاية القصَّة، أو ترسُخ لقاء ثمنٍ باهظ. ولا أعني أنَّه أحمقُ أو ساذج. ما أعنيه أنَّه مصنوعٌ من نفسه فقط، من دون العكارة التي تُعَرقِل سائرنا، أنَّه يُفكِّر ويحسُّ ويتصرَّف في خطٍّ مستقيم. لا عجب أنَّه حيَّر أباه الذي ما انفكَّ يبحث عن المعنى الخفيّ، عن الخنجر في الظَّلام. لكنَّ تليماكوس حملَ سكِّينه جهارًا.

***

كانت أيَّامًا غريبةً. ظلَّت أثينا مصلتةً على رؤوسنا كالفأس، ولو أنَّها كذلك منذ ستَّة عشر عامًا بالفعل، ولن يفتَّ ذلك في عضدي الآن. كلَّ صباحٍ خرجَ تليجونوس بأخيه على الجزيرة، وغزلَت پنلوپي أو حاكت فيما شكَّلتُ أعشابي. في ذلك الحين، كنتُ قد انتحيتُ بابني جانبًا، وحكيتُ له بعض ما عرفته عن مزاج أودسيوس الذي ازداد اعتلالًا في إثاكا، وشكوكه وثوراته؛ ويومًا بيومٍ، رأيتُ المعرفةَ تنجح معه. لم ينزح عنه الحُزن، لكنَّ الذَّنب بدأ يخفُّ، وعادَ الإشراقُ إلى وجهه. وساعده وجود پنلوپي وتليماكوس أكثر، فتنعَّم باهتمامهما كما تتنعَّم أُسودي برُقعةٍ من ضوء الشَّمس. آلمَني أن أدرك كم أراد عائلةً طيلة هذه السِّنين.

بقيَت پنلوپي وتليماكوس لا يتبادلان كلامًا، وساعةً بعد ساعةٍ، ووجبةً بعد وجبةٍ ظلَّ الجوُّ بينهما متوتِّرًا. بدا لي أنَّ من السُّخف ألَّا يقرَّا بأخطائهما وأشجانهما ويفرُغا من الأمر، لكنَّهما كانا كالبيْض، يخشى كلٌّ منهما أن يكسر الآخَر.

خلال الأصيل، وجد تليماكوس دومًا عملًا ما يُقرِّبه منِّي، لنمشي معًا إلى أن تلمس الشَّمسُ البحر. ولدى دخولي لأضع أطباق العشاءِ تبعني. إن كان هناك عملٌ يكفي اثنيْن، ساعدَني؛ وإن لم يكنْ، جلسَ عند المستوقد ينحت قطعًا صغيرةً من الخشب، ثورًا أو طائرًا أو حوتًا يشقُّ الموج، تعمل يداه باقتصادٍ دقيقٍ حَذِر أثار إعجابي. ليس ساحرًا، لكنَّه يتمتَّع بخصال السَّحرة. قلتُ له إنَّ الأرضيَّة ستُنظِّف نفسها، لكنَّه تعوَّد كنسَ نُشارة الخشب وحُليقاته متى فرغَ.

كان غريبًا وجودي في هذه الصُّحبة المستمرَّة. في الغالب، لم أعترض طريق تليجونوس ولا هو اعترض طريقي، وحوريَّاتي كنَّ أقرب إلى ظلالٍ تنسلُّ عند طرف عيني. عادةً، أتعبَني هذا القَدْر من الحضور، واستبدَّ بانتباهي إلى أن أضطرَّ إلى الخروج وأتمشَّى في أنحاء الجزيرة وحدي. أمَّا تليماكوس، فله طابعٌ هادئ، لُطفٌ مطمئِنٌ جعلَه أنيس المعشر من دون أن يتطفَّل. أدركتُ أنَّ أكثر مخلوقٍ يُذكِّرني به هو لبؤتي، إذ تمتَّع كلاهما بالاعتداد النَّزيه نفسه، والنَّظرة الثَّابتة ذات الكياسة المتأصِّلة نفسها، وحتى الرَّشاقةَ الرَّاسخة التي يتحرَّيان بها أهدافهما فيما أتحرَّى أهدافي.

سألني: «ما المضحك؟».

فهززتُ رأسي.

كان اليوم السَّادس تقريبًا منذ وصولهما، وتليماكوس ينحت شجرةَ زيتون، يُشكِّل الجذع الملتوي، ويصنع كلَّ عُقدةٍ وفُتحةٍ برأس سكِّينه.

سألته: «هل تفتقد إثاكا؟».

فكَّر لحظةً، ثمَّ قال: «أفتقدُ مَن عرفتهم، ويُؤسِفني ألَّا أرى ماعزي تتزاوَج»، وصمتَ قبل أن يُضيف: «لا أظنُّ أنَّني كنتُ لأصبح ملكًا سيِّئًا».

ـ «تليماكوس العادل».

ابتسم قائلًا: «هذا ما يُطلِقونه على المرء إذا كان مملًّا لدرجة أنَّهم يعجزون عن التَّفكير في لقبٍ أفضل».

ـ «أنا أيضًا أظنُّ أنَّك كنتَ لتُصبح ملكًا صالحًا. ربَّما ما زالَ هذا بإمكانك. ذاكرة البشر قصيرة. يُمكنك أن تعود مكسوًّا بالمجد، بصفتك الوريث الذي طال انتظاره، وتجلب الرَّخاء بشرعيَّة دمك».

قال: «تبدو قصَّةً جيِّدةً. لكنْ ماذا أفعلُ في الحُجرات التي ملأها أبي والخُطَّاب؟ كلُّ خُطوةٍ ستكون بمثابة ذكرى أتمنَّى زوالها».

ـ «لا ريب أنَّ وجودك على مقربةٍ من تليجونوس صعبٌ عليك».

قطَّب جبينه متسائلًا: «ولِمَ؟».

ـ «لأنَّه يُشبِه أباك جدًّا».

ضاحكًا قال: «عمَّ تتكلَّمين؟ إنَّكِ مطبوعةٌ على تليجونوس. لا أعني وجهكِ فقط، بل إشاراتكِ ومِشيتكِ، وطريقتكِ في الكلام، وحتى صوتُكِ».

ـ «تقولها كأنَّها لعنة».

ـ «ليست لعنةً».

التقَت أعيُننا في الهواء. بعيدًا، كانت يداي تُقشِّران الرُّمَّان للعَشاء، وبحركةٍ منهجيَّة قطعتُ القشر، وكشفتُ عن الألياف البيضاء،

وفي الدَّاخل التمعَت حُبيبات العصير الحمراء في خلاياها الشَّمعيَّة. لسعَني فمي بعضَ الشَّيء من العطش. لقد راقبتُ نفسي معه، وعددتها بدعةً أن ألحظ التَّعبيرات تُكوِّن نفسها على وجهي، وحركات الكلام على لساني. ردحٌ كبيرٌ جدًّا من حياتي قضيته منهمكةً، أميلُ في هذا الاتِّجاه ثمَّ ذاك باستغراقٍ وعفويَّة. أمَّا هذا الإحساس الجديد، فتسلَّل إليَّ كنُعاسٍ حلَّ من بعيد، شيءٍ أقرب إلى الاسترخاء. لم تكن هذه أوَّلَ نظرةٍ معبِّرة يحدجني بها، ولكنْ فيمَ يهمُّ هذا؟ ابني أخوه، وأبوه دخلَ فِراشي، وهو مرهونٌ لأثينا. كنتُ أعلمُ هذا حتى إن لم يعلمه هو.

* * *

تغيَّرت الفصول في الخارج. فتحَت السَّماء يديْها، وارتفعت الأرضُ لتلتقطهما، وانصبَّ الضَّوء علينا بغزارةٍ مغلِّفًا إيَّانا بالذَّهب. أمَّا البحر فتخلَّف قليلًا. على الإفطار، ربَّت تليجونوس على ظهر أخيه قائلًا: «في غضون أيَّامٍ قليلة يُمكننا الخروج بالقارب إلى الخليج».

شعرتُ بنظرة پنلوپي. **إلى أيِّ نقطةٍ تمتدُّ التَّعويذة؟**

لم أعرف. إلى مكانٍ ما بعد الأمواج المتكسِّرة، لكنَّني أجهلُ أي موجةٍ بالضَّبط. قلتُ: «لا تنسَ يا تليجونوس أن هناك عاصفةً سيِّئةً أخيرةً دومًا. انتظِر حتى تمرَّ».

وكأنَّه ردٌّ، سمعنا طَرْقةً على الباب.

في الصَّمت الذي تلا هذا، قال تليجونوس: «الذِّئاب لم تعوِ».

ـ «نعم». لم أنظر إلى پنلوپي محذِّرةً. إن لم تُخمِّن فهي حمقاء. غلَّفتُ نفسي بربَّانيَّتي الباردة الموطَّدة، وذهبتُ لأفتح الباب.

العينان السّوداوان أنفُسهما، والوجه المثاليُ الوسيم نفسه. سمعتُ ابني يشهق، واستشعرتُ السُّكونَ المتجمّدَ من ورائي.

ـ «ابنة هيليوس، أتسمحين لي بالدُّخول؟».

ـ «لا».

رفعَ حاجبه قائلًا: «إنَّ معي رسالةً تخصُّ أحد ضيفيكِ».

شعرتُ بخوفٍ يبري ضلوعي، لكنني حافظتُ على حياد صوتي، إذ قلتُ: «يُمكنهما سماعُك حيث تقف».

ـ «ليكنْ». توهَّجتْ بشَرَته، واختفى أسلوبه المتشدِّق وابتسامته المتكلِّفة. هذا رسول الآلهة، كُفءٌ ولا مهرب منه.

ـ «تليماكوس يا أمير إثاكا، لقد جئتُ نيابةً عن الإلهة العظيمة آثينا التي ترغب في الكلام معك. إنَّها تَطلُب أن تُنزِل السّاحرة سرسي التَّعويذةَ التي تمنعها عن الجزيرة».

قلتُ: «تَطلُب! كلمةٌ مثيرةٌ للاهتمام ممَّن حاولَتْ قتل ابني. مَن يجزم بأنَّها لا تنوي المحاولة ثانيةً؟».

تخلَّى عن هالته وعادَ صوته عاديًا، إذ قال: «إنَّها ليست مهتمَّةً بابنكِ على الإطلاق. إذا كنتِ ستتحامَقين ـ وهذا كلامها هي بالطَّبع ـ فإنَّها تعرضُ قَسمَ حمايةٍ له. تليماكوس وحده مَن تُريد. حان الوقت لأن يأخذ ميراثه»، وتجاوزني بنظرته إلى الطَّاولة سائلًا: «أتسمع أيُّها الأمير؟».

أجاب تليماكوس خافضًا بصره: «أسمعُ، من دواعي تواضُعي الرَّسولُ والرّسالةُ، لكنَّني ضيفٌ على هذه الجزيرة، ويجب أن أنتظر قرار مضيفتي».

حنى هرميز رأسه جانبًا بعض الشَّيء، وبنظرة تصميمٍ قال: «إذن أيَّتها المضيفة؟».

شعرتُ بپنلوپي وراء ظهري مرتفعةً كقمرٍ خريفيّ. لقد طلبت وقتًا لإصلاح الأمور مع تليماكوس، ولم تفعل ذلك بعدُ. تخيَّلتُ خواطرها المريرة.

قلتُ: «سأفعلها، لكنَّ حلَّ التَّعويذة سيتطلَّب جُهدًا. لها أن تترقَّب المجيء بعد ثلاثة أيَّام».

ـ «تُريدينني أن أخبر ابنة زوس بأنَّ عليها الانتظار ثلاثة أيَّام؟».

ـ «إنَّهما هنا منذ نصف شهر. لو أنَّها متعجِّلة لكان عليها إرسالك قبل الآن. ولك أن تُخبِرها بأنَّ هذا كلامي».

ومضَ الاستمتاع في عينيْه. على هذه النَّظرة تغذَّيتُ يومًا حين تضوَّرتُ جوعًا، وحسبتُ فُتاته وليمةً. قال: «ثِقي بأنَّني سأفعلُ».

تنفَّسنا في الفراغ الذي تركه، ونظرَت پنلوپي في عينَيَّ قائلةً: «أشكركِ»، ثمَّ التفتتْ إلى تليماكوس تقول: «بُنيْ». كانت أوَّل مرَّةٍ أسمعها تُخاطِبه مباشرةً. «لقد جعلتك تنتظر طويلًا جدًّا. هلَّا تتمشَّى معي؟».

الفصل الرَّابع والعشرون

شاهدناهما ينزلان على الدَّرب إلى السَّاحل. بدا تليماكوس شبهَ مصعوق، وإن كان هذا طبيعيًّا جدًّا، فقد علمَ لتوِّه أنَّه مختارُ أثينا، وفي اللَّحظة نفسها عليه أن يتصالح مع أمِّه. أردتُ أن أقول له شيئًا قبل أن يُغادِر، لكنْ لا كلمات أتَت.

دقَّ تليجونوس على مرفقي متسائلًا: «ما الذي قصده هرميز بميراث تليماكوس؟».

هززتُ رأسي. في ذلك الصَّباح رأيتُ براعمَ الرَّبيع الأولى. أحسنَتْ أثينا التَّوقيت، وأتَت بمجرَّد استطاعتها جعلَ تليماكوس يُبحِر.

ـ «يُدهِشني أنَّ حلَّ التَّعويذة يستغرق ثلاثة أيَّام. ألا يُمكنكِ استخدام تلك الـ... ما اسمها؟ المولي؟».

التفتُّ إليه قائلةً: «تعلم أنَّ تعاويذي محكومةٌ بإرادتي. إذا تركتها فستسقُط في ثانية. لا، حلُّها لا يستغرق ثلاثة أيَّام».

عقد حاجبيْه، وقال: «كذبتِ على هرميز؟ ألن تغضب أثينا حينما تعرف؟».

لم تزل براءته قادرةً على إخافتي. «لستُ أنوي إخبارها. تليجونوس، هؤلاء آلهة. عليك إبقاء حِيَلك طيَّ الكتمان، وإلَّا خسرتَ كلَّ شيء».

قال: «فعلتِ هذا كي يجدا وقتًا للكلام، پنلوپي وتليماكوس».

صغيرٌ، لكنَّه ليس أحمق. «شيءٌ من هذا القبيل».

نقر بأصابعه على مصراعَي النَّافذة، فلم تتحرَّك الأُسود التي خبرَت ضجيج قلقه جيِّدًا، وسألني: «هل سنراهما ثانيةً إذا رحلا؟».

أجبتُ: «أظنُّك ستفعل». إن كان قد سمع التَّغيير الذي أجريته، فإنه لم يُعلِّق. شعرتُ بصدري يجيش بعضَ الشَّيء. وقتٌ طويلٌ جدًّا مضى منذ تكلَّمتُ مع هرميز، ونسيتُ المجهود الذي تتطلَّبه مواجهة تلك النَّظرة النَّبيهة التي ترى كلَّ شيء.

ـ «أتحسبين أنَّ أثينا ستُحاوِل قتلي؟».

ـ «عليها أن تحلف يمينًا قبل أن تأتي، وستتقيَّد به. لكنني سأحملُ الحربةَ تحسُّبًا».

جعلتُ يدَيَّ تُمارِسان أعمالهما من غسل الأطباق والملابس واقتلاع الحشائش؛ ولمَّا بدأت السَّماء تُظلِم، جهَّزتُ سلَّةً من الطَّعام، وأرسلتُ بها تليجونوس ليجد پنلوپي وتليماكوس.

قلتُ له: «لا تمكُث. ينبغي أن يكونا وحدهما».

احمرَّ وجهه، وردَّ: «لستُ طفلًا أبله».

أخذتُ نَفَسًا قائلةً: «أعرفُ هذا».

مشيتُ جيئةً وذهابًا بعد خروجه، ولم أستطع تعليلَ التَّوتُّر اللَّاذع الذي انتابَني. لقد عرفتُ أنَّه راحلٌ، طيلة الوقت عرفتُ.

عادت پنلوپي مع طلوع القمر، وقالت: «إنَّني ممتنَّةٌ لكِ. الحياة ليست بسيطةً كالعمل على منوال، ما تنسجينه لا تستطيعين حلَّه بجرَّة خيط. لكنْ أظنُّني أخذتُ خُطوةَ بداية. أهو خطأٌ منِّي أن أعترف بأنَّني استمتعتُ بمشاهدتكِ تردِّين هرميز؟».

- «أنا أيضًا لديَّ اعتراف. لستُ آسفةً لجعل أثينا تتميَّز غيظًا ثلاثة أيَّام».

قالت مبتسمةً: «أشكركِ مرَّةً أخرى».

جلس تليجونوس عند المستوقد يُركِّب للسِّهام ريشًا، لكنَّه لم يتعدَّ حفنةً منها. كان قلقًا مثلي، يجرُّ قدميْه على حجارة الأرض، وينظُر من النَّافذة إلى ممرِّ الحديقة الخالي كأنَّ هرميز قد يظهر ثانيةً. نظَّفتُ الطَّاولات التي لم تحتج إلى تنظيف، ووضعتُ قدورَ الأعشاب تارةً هنا وتارةً هناك. رأيتُ معطف حِداد پنلوپي معلَّقًا من المنوال وقد شارف على الانتهاء، وكان بإمكاني أن أجلس وأعمل عليه بعض الوقت، لكنَّ تغيير الأيدي كان ليظهر في القُماش. أخبرتُ تليجونوس: «سأخرجُ»، وقبل أن يتكلَّم ذهبتُ.

حملتني قدماي إلى فجوةٍ صغيرةٍ أعرفها بين أشجار السِّنديان والزَّيتون، حيث تصنع الفروع ظلًّا مناسبًا، وينمو الكلأ ناعمًا، ويُمكنك أن تسمع صياحَ طيور اللَّيل بالأعلى.

وجدته جالسًا على شجرةٍ ساقطة، محدِّدًا في الظَّلام.

ـ «هل أزعجك؟».

ـ «لا».

جلستُ إلى جواره، وشعرتُ بالعُشب تحت قدمَيَّ باردًا، وبه شيءٌ من الرُّطوبة. من بعيدٍ، نعقَ البومُ الذي لا يزال جائعًا من شُحِّ الشِّتاء.

ـ «أمِّي أخبرتْني بما فعلتِ من أجلنا، الآن ومن قبل. شكرًا لكِ».

ـ «يسرُّني أنَّه ساعدَ».

أومأ برأسه بحركةٍ ضعيفة، وقال: «كانت تسبقني بثلاثة فراسخ كاملة كالمعتاد».

من فوقنا، تحرَّكت الغصونُ محيلةً القمر إلى شرائح.

ـ «أأنت مستعدٌّ لمواجهة الإلهة رماديَّة العينين؟».

ـ «هل من أحدٍ مستعدٌّ؟».

ـ «على الأقل سبق لك رؤيتها، حين أوقفَت الحرب بين أبيك وأهل الخُطَّاب».

قال: «لقد رأيتها مرارًا. في طفولتي اعتادت أن تأتيني، ولكنْ ليس بصورتها الحقيقيَّة إطلاقًا. أحيانًا، لحظتُ طابعًا مميَّزًا لأناسٍ معيَّنين حولي. كما تعرفين، الغريبُ صاحبُ النَّصيحة المبالغ في تفاصيلها، صديقُ العائلة القديم الذي تلمع عيناه في الظَّلام. عندها كانت رائحة الزَّيتون المزبَّد والحديد تفوح في الهواء، وأتفوَّهُ باسمها فتتألَّق السَّماء كالفضَّة المصقولة، ويخفُّ ما في حياتي من أشياءَ ثقيلةٍ، كالسَّأف في

ظُفر إبهامي، أو تهكُّم الخُطَّاب. جعلَتني أشعرُ كأنَّني أحدُ الأبطال الذين تحكي عنهم الأغاني، مستعدٌّ لترويض الثِّيران نافثة اللَّهب، وقطعِ أسنان التِّنانين بالمنشار».

دارت بومةٌ فوقنا بجناحيْن صامتيْن، وفي ذلك الهدوء رنَّ الحنين في صوته كالنَّاقوس.

ـ «بعد عودة أبي، لم أرَها ثانيةً. انتظرتُ وقتًا طويلًا، وقتلتُ نعاجًا باسمها، وتفحَّصتُ كلَّ شخصٍ يمرُّ. هل تلكَّأ راعي الماعز هذا بطريقةٍ غريبة؟ ألم يكن هذا البحَّار مهتمًّا أكثر من اللَّازم بأفكاري؟».

أصدر في الظَّلام صوتًا كنصف ضحكة، وتابع: «للكِ أن تتخيَّلي أنَّ النَّاس لم يحبُّوني نتيجةً لهذا، تحديقي الدَّائم إليهم، ثمَّ التفاتي عنهم بأملٍ خائب».

ـ «أتعرف ما تنتويه لك؟».

ـ «مَن يدري مع الآلهة؟».

شعرتُ كأنَّه استنكار. تلك الهاوية القديمة التي لا سبيل لعبورها بين الفانين والأرباب.

ـ «مؤكَّدٌ أنَّك ستحظى بالقوَّة والثَّروة. على الأرجح ستنال فُرصةَ أن تُصبح تليماكوس العادل».

استقرَّت عيناه على ظلال الغابة. منذ انضممتُ إليه لم ينظُر في عينَيَّ إلَّا قليلًا. أيًّا كان ما بيننا، فقد تشتَّت كالدُّخان في الرِّيح، فوجدانه الآن مع أثينا، موجَّهٌ صوب مستقبله. لقد عرفتُ أنَّ هذا ما سيَحدث، وإن أدهشني قَدْر الألم الذي ألمَّ بي لرؤيته يَحدث بهذه السُّرعة!

قلتُ بحماسة: «عليك أن تأخذ القارب بالطَّبع. إنَّه مسحورٌ ضدّ كوارث البحر كما تَعْلم. بمساعدتها، لا يُفترَض أن تحتاج إلى ذلك، لكنَّه سيسمح لك بالرَّحيل ما إن تستعدَّ. تليجونوس لن يعترض».

صمت طويلًا جدًّا حتى إنَّني ظننته لم يسمع، لكنَّه قال أخيرًا: «عرضٌ كريم، أشكركِ. وعندئذٍ ستستعيدين جزيرتكِ».

سمعتُ الطَّقطقة في الدَّغل، وسمعتُ البحرَ بعيدًا على السَّاحل، وصوتَ أنفاسنا المتلاشية في الأمواج المتلاطمة بلا نهاية.

وقلتُ: «أجل، سأستعيدها».

* * *

في الأيَّام التَّالية، مررتُ به كأنَّه طاولةٌ في ردهتي؛ ورمقتني پنلوپي، لكنَّني لم أخاطبها كذلك. بات الاثنان يقضيان أوقاتًا طويلةً معًا مصلحيْن ما انكسرَ، ولم أكترث لرؤية هذا. أخذتُ تليجونوس إلى البحر ليُريني سباحته، وشاهدتُ كتفيْه بعضلاتهما الصُّلبة تشقَّان المياه بمنتهى الدقَّة، وقد بدا أكبر من السَّادسة عشرة، رجلًا ناضجًا، فدائمًا ما يَبلُغ أولاد الآلهة قوَّتهم أسرع من الفانين. عرفتُ أنَّه سيفتقدهما بعد رحيلهما، غير أنَّني سأجدُ له شيئًا آخر، وأعينه على النِّسيان. سأقول إنَّ بعض النَّاس مثل كوكبات النُّجوم التي لا تمسُّ الأرضَ إلَّا لسببٍ وجيه.

وضعتُ وجباتهم المسائيَّة، ثمَّ ارتديتُ معطفي، وخرجتُ إلى الظُّلمة ساعيةً إلى أعلى الذُّرى والأحراش التي لا يستطيع فانٍ أن يتبعني إليها. لكنَّني ضحكتُ من نفسي إذ فعلتُ هذا. مَن منهم تحسبينه سيُلاحِقكِ؟ قلَّب عقلي كلَّ ما كتمتُ عن أودسيوس من

قصص؛ إيبيتيس وسكيلا والبقيَّة، فلم أرد أن يكونَ تاريخي مجرَّد تسليةٍ أو مادَّةٍ يُعمِل فيها ذكاؤه العنيد. ولكنْ مَن غيره كان ليستسيغ هذا بكلِّ ما فيه من قُبحٍ وأخطاء؟ لقد ضيَّعتُ فُرصةَ الكلام، وفاتَ الأوان.

خلدتُ إلى النَّوم، وحتى الفجر حلمتُ بالحربةِ المكلَّلةِ بذيل ترايجون.

***

في صباح اليوم الثَّالث، مسَّت بنلوبي كُمِّي. كانت قد فرغت من المعطف الأسود، وقد جعل وجهها يبدو أنحف وبشرتها أبهت. قالت: «أعلمُ أنَّني أطلبُ الكثير، لكنْ هلَّا تحضرين عندما نتكلَّم معها؟».

ـ «سأفعلُ، وتليجونوس أيضًا. أريدُ أن ينتهي الأمرُ نهايةً واضحةً. لقد سئمتُ الألعاب».

شعرتُ بكلامي كلِّه هكذا، صُلبًا بين أسناني. بخُطواتٍ واسعة صعدتُ إلى القمَّة، حيث الصُّخور داكنةٌ من جرَّاء ستَّة عشر عامًا من عقاقيري. مددتُ يدي، وفركتُ البُقع المحفَّرة بأصابعي. مرَّاتٍ كثيرةً جدًّا أتيتُ إلى هنا، ساعاتٍ كثيرةً جدًّا قضيتها. أغلقتُ عينَيَّ شاعرةً بالتَّعويذة من فوقي هشَّةً كالزُّجاج، وتركتها تسقُط.

تردَّد رنينٌ خفيضٌ للغاية كفرقعة وتر قوسٍ مشدودٍ عن آخِره. انتظرتُ أن يسقُط العبءُ القديمُ عن كتفَيَّ، وبدلًا من ذلك تملَّكني إعياءٌ ثقيل. مددتُ يدي طلبًا للتَّوازُن فقبضَت على الهواء، وترنَّحتُ على رُكبتَيْن راجفتَيْن. ولكنْ لا وقت لهذا الوهن. إنَّنا مكشوفون. أثينا قادمة، منطلقة انطلاقة السَّهم من السَّماء نحو جزيرتي، كالعُقاب حين ينقضُّ. جعلتُ نفسي أبدأُ نزول الجبل. وفي الطَّريق، تعثَّرت قدماي

في كلِّ جذرٍ، ولوت الصُّخور كاحلَيّ، وتردَّدت أنفاسي ضعيفةً ضحلةً. فتحتُ الباب لتَنظُر إلى وجهي ثلاثة وجوهٍ مفزوعة، وهبَّ تليجونوس قائلًا: «أمّي!».

تجاوزته. سمائي مفتوحةٌ وكلُّ لحظةٍ خطر. الحربة، هذا ما احتجتُ إليه. قبضتُ على قناتها المعوجَّة واختطفتها من رُكنها، وتنشَّقتُ رائحةَ السُّم العطرة، فبدا أنَّ عقلي صفا بعضَ الشَّيء. حتى أثينا لن تُجازِف بمواجهتها.

حملتها إلى الرَّدهة، ووضعتُ نفسي عند المستوقد، وبِحيرةٍ تبعوني. لم يكن هناك وقتٌ للتَّحذير. صعقَتْ أطرافُها البرقيَّة المكان، واستحال الهواء إلى فضَّة، وتوهَّج واقي صدرها كأنَّه لا يزال شبهَ مصهور، وانتفشت ريشةُ خوذتها من فوقنا.

سلَّطتْ نظرتها عليّ، وبنبرةٍ قاتمة كالمعدن الخام خاطبَتْني: «قلتُ لكِ إنَّكِ ستندمين إذا عاش».

- «كنتِ مخطئةً».

ردَّت: «لطالما كنتِ وقحةً أيَّتها الجبّارة»، وبحدَّةٍ، كأنَّما تُريد جرحي بدقَّتها، حوَّلت نظرتها إلى تليماكوس الرّاكع وإلى جواره بِنلوبي، وقالت وقد تبدَّل صوتُها مموّهًا نفسه بالذَّهب: «يا ابن أودسيوس، زوس تنبَّأ بإمبراطوريَّةٍ جديدة ستنهض في الغرب. إينياس فرَّ إلى هناك مع فلول الطروادِيِّين، وأريدُ أن يعدلَ الإغريق كفَّةَ الميزان ويمنعوهم من التَّقدُّم. الأرضُ خصبةٌ غنيَّة، ملأى بحيوانات الحقول والغابات، وزاخرةٌ بفواكهَ من كلِّ صنف. ستُؤسِّس مدينةً عامرةً هناك، وتبني أسوارًا متينةً، وتسنُّ قوانينَ تسدُّ سيلَ الهمجيَّة، وستزرع بذورَ شعبٍ عظيمٍ يحكُم على

مدار عصور. لقد جمعتُ رجالًا صالحين من أراضينا، ووضعتهم على سفينة، وسيصلون اليوم ليحملوك إلى مستقبلك».

اتَّقدت الحُجرة بشراراتِ بصرها البرَّاقة، واتَّقد تليماكوس أيضًا. بدَت كتفاه أعرض، وأطرافه منتفخةً قوَّةً، وحتى صوته صار أعمق. «أيَّتها الربَّةُ صاحبةُ العينيْن الرَّماديَّتيْن والحكمة. لقد شرَّفتِني من بين الفانين. لا يُمكن أن يستحقَّ رجلٌ مثلَ هذه النِّعمة».

ابتسمتْ كأفعى معبدٍ ترى وعاءً من القشدة، وقالت: «ستأتي السَّفينةُ لتأخذك عند الغسق. كن مستعدًّا».

كانت هذه إشارته ليقف، ليستعرض المجدَ الذي أسبغت به عليه، ليرفعه كرايةٍ تتلألأ، إلَّا أنَّه ظلَّ راكعًا بلا حراك، وقال: «أخشى أنَّني لستُ جديرًا بعطاياكِ».

قطَّبتُ وجهي. لماذا يتذلَّل إلى هذا الحدِّ؟ تصرُّفٌ غير حكيم. عليه أن يشكُرها ويفرُغ من الأمر قبل أن تجد سببًا يُشعِرها بالإهانة.

قالت بصوتٍ حَمَل مسحةً من قلَّة الصَّبر: «أعرفُ نقاطَ ضعفك، ولن تهمَّ وأنا إلى جوارك لأثبِّت ذراع حربتك. لقد قدتك من قبلُ إلى النَّصر على الخُطَّاب، وسأقودك مرَّةً أخرى».

قال: «صحيحٌ أنَّكِ حرستِني، وأشكركِ على هذا، لكنَّني لا أستطيعُ القبول».

وسكن الهواء في الحُجرة كلِّيًا.

سألته بنبرةٍ تلفح: «ماذا تعني؟».

ـ «لقد فكَّرتُ. طوال ثلاثة أيَّامٍ فكَّرتُ، ولم أجدْ في نفسي رغبةً في قتال الطرواديِّين أو بناء إمبراطوريَّات. إنَّني أبغي معيشةً مختلفةً».

جفَّ حلقي. ما الذي يفعله هذا الأحمق؟ آخِرُ رجلٍ رفض أثينا كان باريس أمير طروادة، الذي فضَّل الربَّة أفروديت، فمات وغدَت مدينته رمادًا.

صارت عيناها مثقابيْن يُجوِّفان الهواء، إذ قالت: «لا رغبة! ما هذا؟ هل عرض عليك إله آخر شيئًا أفضل؟».

ـ «لا».

ـ «ماذا إذن؟».

لم يجفل من نظرتها، وأجاب: «لستُ أشتهي تلك الحياة».

ـ «بنلوبي». كانت الكلمة سوطًا. «كلِّمي ابنكِ».

ردَّت بنلوبي خافضةً وجهها أرضًا: «كلَّمته أيَّتها الربَّة. إنَّه عازم على المضيّ في طريقه. تعلمين أنَّ دم أبيه تميَّز دومًا بالعناد».

ردَّت أثينا لافظةً كلَّ كلمةٍ بحدَّةٍ، كأنَّما تكسر عُنق حمامة: «العناد في الإنجازات، في الإبداع. ما هذا الانحطاط؟». وعادت تلتفت إلى تليماكوس قائلةً: «لن أقدِّم هذا العرض ثانيةً. إذا أصررت على هذه الحماقة، إذا رفضتني، فسيُغادِرك مجدي كلُّه. حتى إذا توسَّلت فلن آتي».

قال: «مفهوم».

قالت وقد بدا أنَّ هدوءه أغضبَها: «لن تُؤلَّف عنك أغانٍ أو قصص. هل تفهم؟ ستقضي حياتك مغمورًا. لن يذكُر التَّاريخ اسمك. ستكون لا أحد».

خرجَت كلُّ كلمةٍ بمثابة ضربة مطرقةٍ في ورشة. فكَّرتُ أنَّه سيرضخ، بالتَّأكيد سيرضخ. الصِّيت الذي وصفته هو كلُّ ما يرنو إليه الفانون. إنَّه أملُهم الوحيد في الخلود.

ـ «أختارُ هذا المصير».

توهَّج الإنكار عاريًا على وجهها البارد الجميل. كم مرَّةً في أزليَّتها قيل لها لا؟ لم تستطع الاستيعاب، وبدت كعُقابٍ انقضَّ على أرنبٍ، وفي اللَّحظة التَّالية ألفى نفسَه في الوحل.

أعلنَتْ بغيظ: «أنت أحمق. إنَّك محظوظٌ لأنَّني لم أقتلك حيث تقف. سأعفو عنك حُبًّا لأبيك، لكنَّني لم أعد نصيرتك».

اختفى البهاء الذي سلَّطته عليه، ومن دونه بدا ذابلًا واهنًا متغضّنًا كسندياناةٍ عجوز. كنتُ مصدومةً مثل أثينا. ماذا فعل؟ ومن شدَّة استغراقي في هذه الخواطر، لم أرَ الطَّريق الذي سلكناه إلَّا بعد فوات الأوان.

قالت أثينا: «تليجونوس». اندفعَت نظرتُها الفضّيَّةُ نحوه، وتبدَّل صوتها ثانيةً، وازدان حديده بالزَّخرفة. «لقد سمعتَ ما عرضتُه على أخيك. الآن أعرضه عليك. هلَّا تُبحِر وتُصبح حامي حماي في إيطاليا؟».

شعرتُ كأنَّني انزلقتُ من فوق جُرف. كنتُ في الهواء، أسقطُ، وما من شيءٍ يُمسِكني.

صحتُ: «بُنيْ، لا تقل شيئًا».

بسرعة السَّهم، التفتَت إليَّ قائلةً: «أتجرئين على اعتراض سبيلي ثانيةً؟ ماذا تُريدين أكثر من هذا منِّي أيَّتها السَّاحرة؟ لقد حلفتُ يمينًا بألَّا أوذيه، وأعرضُ عليه هديَّةً يبيع أيُّ إنسانٍ روحه لقاءها. هل ستُبقينه مقيَّدًا طيلة حياته كحصانٍ مكسور الإرادة؟».

ـ «لستِ تُريدينه. لقد قتلَ أودسيوس».

ـ «أودسيوس قتلَ نفسه». هسهستِ العبارةُ في الحُجرة كنصل المنجل. «لقد ضلَّ طريقه».

ـ «أنتِ التي جعلتِه يضلُّه».

تموَّجَ دُخان الغضب في عينيْها، ورأيتُ فيهما الفكرة، كيف سيبدو رأسُ حربتها وهو يُفجِّر دمي من حلقي.

قالت: «كنتُ لأجعله إلهًا، نظيرًا، لكن اتَّضح في النِّهاية مبلغُ ضعفه».

أكبر اعتذارٍ قد يناله المرء من إله. كشَّرتُ عن أنيابي، وشققتُ الهواء برأس الحربة، وقلتُ لها: «لن تنالي ابني. سأقاتلكِ قبل أن أدعكِ تأخذينه».

قال الصَّوت الخافت إلى جواري: «أمَّاه، أتسمحين لي بالكلام؟».

كنتُ أتحطَّمُ، وعرفتُ ما سأراه عندما أنظرُ إليه، أمله المتلهِّف المتضرِّع. يُريد الرَّحيل. لطالما أرادَ الرَّحيل منذ لحظة مولده بين ذراعَيَّ. تركتُ پنلوپي تبقى على جزيرتي كي لا تخسر ابنها، وبدلًا من ذلك سأخسرُ أنا ابني.

قال: «لقد حلمتُ بهذا، بحقولٍ ذهبيَّةٍ تمتدُّ بلا انقطاعٍ حتى الأفق، ببساتينَ وأنهارٍ متلألئةٍ وقطعانٍ وفيرة. حسبتُ من قبلُ أنَّني أرى إثاكا».

حاولَ أن يتكلَّم برفقٍ، ويكبح الإثارة التي تدفَّقت في داخله كالطُّوفان. فكَّرتُ في إيكاروس الذي ماتَ بعد أن نالَ حرِّيَّته. تليجونوس سيموت إن لم ينلها، ليس جسدًا عندما يشيخ، لكنَّ كلَّ عذوبةٍ فيه ستَذبُل وتضمحلُّ.

أمسكَ يدي، لفتة من أغنية شاعر. ولكنْ ألسنا في ما يُشبِه الأغنية بالفعل؟ هذه هي اللَّازمة التي تمرَّنَّا عليها طويلًا.

ـ «هناكَ مخاطرة، أعرفُ هذا. لكنَّكِ علَّمتِني الحذر. يُمكنني أن أفعل هذا يا أمّي، أريدُ أن أفعله».

فضاءٌ رماديٌّ لا يحتلُّه شيء. ماذا عساي أقول؟ على أحدنا أن يحزن، ولن أسمح بأن يكون هو.

قلتُ: «بُنيْ، القرار لك».

تفجَّرت فرحته كالموجة. أشحتُ بوجهي كي لا أرى، وفكَّرتُ أنَّ أثينا مسرورةٌ، فها هو ذا انتقامها أخيرًا.

قالت: «استعدَّ للسَّفينة. ستصل اليوم وقتَ الأصيل، ولن أرسل أخرى».

* * *

خبا الضَّوء عائدًا إلى بساطة الشَّمس، وانسحبَت پنلوپي وتليماكوس بهدوء. احتضنني تليجونوس كما لم يفعل منذ كان طفلًا، أو ربَّما كما لم يفعل قطُّ، فقلتُ لنفسي تذكَّري هذا: الكتفيْن العريضتيْن، وانحناءة العظم على ظهره، ودفء أنفاسه. لكنَّني شعرتُ بعقلي جافًّا أجرد.

ـ «أمّي! ألا يُمكنكِ أن تسعدي من أجلي؟».

أردتُ أن أزعقَ فيه أن لا، لا يُمكنني. لماذا تجب عليَّ السَّعادة؟ ألا يكفي أنَّني تركتك ترحل؟ غير أنَّني لم أرد أن يكون ذلك آخِر ما يراه منّي، أمُّه تَصرُخ وتندُب كأنَّه ماتَ، مع أنَّه لا يزال مفعمًا بسنينٍ من الأمل.

جعلتُ نفسي أقول: «أنا سعيدةٌ من أجلك»، ثمَّ قدته إلى حُجرته، وساعدته على حزم أغراضه مالئةً أجولةً بأدويةٍ من كلّ نوع، للجروح والصُّداع، والجُدري والأرق، وحتى الولادة، وهو ما تضرّج له وجهه خجلًا.

ـ «سوف تُنشئ سُلالةً. عادةً ما يكون الورثة ضروريّين».

أعطيته أثقل ثيابٍ عندي، مع أنّنا في الرَّبيع، وقريبًا سيحلُّ الصَّيف. وقلتُ له أن يأخذ آركتروس التي أحبَّته منذ كانت جروةً، وأرغمتُه على حمل التَّمائم وغلَّفتُه بالتَّعاويذ، وحمَّلته كنزًا بعد كنز، ذهبًا وفضَّةً وأفخر المطرَّزات، لأنَّ الملوك الجُدد يُبلون أحسن البلاء عندما يملكون بدائعَ يمنحونها.

عندئذٍ، كانت سكرته قد راحت، فسألني: «ماذا لو فشلتُ؟».

فكّرتُ في الأرض التي وصفَتها أثينا؛ التّلال المتموّجة المكتظّة بالفواكه السَّمينة وحقول الغلال، والقلعة الشَّامخة التي سيبنيها. سيُصدِر أحكامه من فوق مقعدٍ وثير في أشمس قاعاتها، وسيأتي الرّجال والنِّساء من كلّ حدبٍ وصوْبٍ ليركعوا له. سيكون حاكمًا صالحًا، عادل العقل ودودًا، ولن يستحوذ عليه الهَوَس كأبيه. إنَّه لم يشتَق إلى المجد قطُّ، بل إلى الحياة.

ردَدتُ: «لن تفشل».

ـ «ألا تحسبينها تُضمِر لي أذًى ما؟».

الآن يقلق، الآن بعد فوات الأوان. كان في السَّادسة عشرة فقط، حديثَ العهد في العالم.

ـ «نعم، لا أحسبُ ذلك. إنَّها تُقدِّرك لدمك، ومع الوقت ستُقدِّرك لنفسك أيضًا. أثينا يُعتمَد عليها أكثر من هرميز، ولو أنَّ لا إله يُمكن أن يُوصَف بالانتظام. عليك أن تتذكَّر أن تكون سيِّد قرارك».

قال: «سأفعلُ»، ونظر في عينَيَّ يسألني: «لستِ غاضبةً؟».

ـ «نعم». لم يكن غضبًا حقًّا قطُّ، وإنَّما خوفٌ وحُرقة. إنَّه ما تستطيع الآلهة استخدامه ضدِّي.

طرْقةٌ على الباب، وتليماكوس يحمل لفافةً طويلةً من الصُّوف. قال من دون أن ينظُر ناحيتي: «آسفٌ لتطفُّلي»، ورفعَ الحزمة لابني مردفًا: «هذا لك».

حلَّ تليجونوس القُماش. قطعةٌ طوليَّةٌ من الخشب الأملس، طرفاها مستدقَّان محزَّزان، وقد لُفَّت الأوتارُ بعنايةٍ حولها. تحسَّس تليجونوس المقبض الجِلدي قائلًا: «إنَّه جميل».

قال تليماكوس: «كان قوس أبينا».

رفع تليجونوس عينيْه مبهوتًا، ورأيتُ ظلَّ الحُزن القديم يمرُّ على وجهه. «لا أستطيعُ يا أخي. لقد أخذتُ مدينتك بالفعل».

ـ «تلك المدينة لم تكن لي قطُّ، ولا هذا. أظنُّ أنَّك ستُبلي بلاءً أحسن بهما».

شعرتُ كأنَّني واقفةٌ بعيدًا جدًّا. لم أرَ فرق السِّنِّ بينهما بهذا الوضوح من قبلُ. ابني النَّجيب وهذا الرَّجل الذي اختار أن يكون لا أحد.

حملنا أمتعة تليجونوس إلى السَّاحل، وودَّعه تليماكوس وپنلوپي ثمَّ تراجَعا. انتظرتُ إلى جوار ابني، لكنَّه أحسَّ بي بالكاد، إذ وقعَت عيناه على الأفق، تلك الوصلةِ بين الموج والسَّماء.

دخلَتِ السَّفينة المرفأ. كانت كبيرةً، والصَّمغ والطِّلاء على جانبيْها طازجيْن، وشراعها الجديد يلتمع. عملَ رجالها بنظافةٍ وكفاءة، لحاهم مشذَّبةٌ وأجسادهم مشحوذةٌ بالقوَّة. وعندما نزلَ لوح العبور اجتمعوا عند الحاجز متحمِّسين.

تقدَّم تليجونوس ليلقاهم، ووقف عريضًا نيِّرًا في الشَّمس، وجاءت أركتروس في أعقابه، ووقفَت تلهث إلى جانبه. كان قد ثبَّت وترًا في قوس أبيه وعلَّقه من كتفه.

صاح: «أنا تليجونوس ابن آيايا، ابن بطلٍ عظيمٍ وربَّةٍ أعظم. مرحبًا بكم، فمَن قادَتكم إلى هنا هي أثينا ذات العينيْن الرَّماديَّتيْن بنفسها».

وخرَّ البحَّارة على رُكبهم. فكَّرتُ أنَّني لن أقوى على الاحتمال، أنَّني سأقبضُ عليه وأحتويه فلا أتركه، إلَّا أنَّني احتضنته مرَّةً أخيرةً فحسب، وضممته إليَّ بشدَّةٍ كأنَّني أريدُ أن أغرسه في جِلدي، ثمَّ إنَّني شاهدته يأخذ مكانه بينهم، ويقف عند المقدِّمة وقد حدَّدته السَّماء. اندفع الضَّوءُ الفضِّيُّ من وسط الأمواج، ورفعتُ يدَيَّ مبارِكةً، وسلَّمتُ ابني إلى العالم.

* * *

في الأيَّام التَّالية، عاملتني بنلوبي وتليماكوس كأنَّني مصنوعةٌ من الزُّجاج المصريّ. تكلَّما بخفوتٍ ومشيا بخُطًى ثقيلةٍ إذا مرَّا بمقعدي، وعرضَت بنلوبي عليَّ الجلوس مكانها إلى المنوال، وحافظ تليماكوس على امتلاء كأسي، وظلَّت نارُ المدفأة متأجِّجةً. كلُّ هذا مرَّ مرور الكرام. إنَّهما لطيفان، لكنَّهما لا يعنيان لي شيئًا. العصائر في مخزن مؤني سبقَتْهما إلى رفقتي بزمن. ذهبتُ للعمل على أعشابي، فبدا كأنَّها تذبُل

بين أصابعي، وشعرتُ بالهواء عاريًا من دون تعويذتي. الآن، يستطيع الآلهة المجيء والذَّهاب متى شاؤوا، يستطيعون فعل أيِّ شيء، ولا قوَّة عندي لمنعهم.

ازدادت الأيَّام دفئًا، ورقَّت السَّماء منفتحةً من فوقنا كلُبِّ الفاكهة النَّاضج. لم تزل الحربةُ مسنودةً في حُجرتي، فذهبتُ إليها وخلعتُ الغمدَ لأستنشق ثناياها الشَّاحبة المسمومة، وإن لم أدرِ ماذا أردتُ منها. دلَّكتُ صدري كأنَّني أعجنُ خُبزًا.

قال تليماكوس: «أأنتِ بخير؟».

ـ «بالطَّبع بخير. ما الذي قد يُصيبني؟ الخالدون لا يمرضون».

ذهبتُ إلى الشَّاطئ، وسرتُ بحَذَرٍ كأنَّ بين ذراعَيَّ رضيعًا. كانت الشَّمس تلفح الأفق، تلفح كلَّ شيء، ظهري وذراعَيَّ ووجهي. لم أضع شالًا، فلم أحترق، ولن أحترق قطُّ.

امتدَّت جزيرتي من حولي، أعشابي ومنزلي وحيواناتي. فكَّرتُ أنَّ هكذا ستستمرُّ الحياة وتستمرُّ إلى الأبد على الوتيرة نفسها. لا يهمُّ أنَّ بنلوبي وتليماكوس لطيفان، ولا يهمُّ إن بقيا هنا ما تبقَّى من حياتيهما، وإن كانت هي الصَّديقة التي لطالما اشتقتُ إليها وهو شيئًا آخَر. كلُّ هذا غمضة عيْن. سيذويان وأحرقُ جُثمانيهما، وأشاهدُ ذكرياتي عنهما تصفرُّ وتخبو كما يخبو كلُّ شيءٍ في مجرى القرون اللَّا نهائي، حتى دايدالوس، حتى دم المينوتور الذي بلَّلني، حتى شهيَّة سكيلا، حتى تليجونوس. ستُّون أو سبعون عامًا قد يحظى بها الفاني، ثمَّ يرحل إلى العالم السُّفلي، حيث لا أستطيعُ الذَّهابَ أبدًا، ذلك أنَّ الآلهة نقيض الموت. حاولتُ تخيُّل تلك التِّلال المكفهرَّة والمروج الرَّماديَّة، والأطياف تتحرَّك بيضاءَ

بطيئةً بينها، بعضُهم يمشي معانقًا يدَ من أحبَّ في حياته، وبعضُهم منتظرٌ واثقٌ بأنَّ يومًا ما سيلحق به أحبَّاؤه. أمَّا مَن لم يحبُّوا، مَن امتلأت حياتهم ألمًا ورُعبًا، فلهم النَّهرُ الأسود ليثي، حيث يستطيعون أن يشربوا وينسوا. شيءٌ من العزاء.

ولي أنا لا شيء. سأمضي في الحياة ألفيَّاتٍ بلا عددٍ، فيما ينساب جميعُ من ألتقيهم من بين أصابعي، وأُترَكُ مع مَن هُم مثلي فقط: الأوليمپ والجبابرة، أختي وأخويَّ، أبي.

لحظتها، شعرتُ بشيءٍ في داخلي، مثل أيَّام تعاويذي الأولى الخوالي، حين كان الطَّريق ينفتح واضحًا أمام قدميَّ فجأةً. كلُّ هذه السِّنين قضيْته في صراعٍ وقتال، لكنَّ جزءًا منِّي ظلَّ لم يتغيَّر، تمامًا كما قالت أختي، وبدا أنَّني أستطيعُ سماعَ ذلك المخلوق الشَّاحب في أغواره السَّوداء.

اصنعي عالمًا آخر إذن أيتها الطِّفلة.

لم أفعل شيئًا للتَّحضير. إن لم أكنْ مستعدَّةً الآن فمتى؟ لم أصعد إلى القمَّة. يُمكنه أن يأتي إلى هنا، على رمالي الصَّفراء، ويُواجِهني حيث أقفُ.

قلتُ للهواء: «أبي، أريدُ أن أتكلَّم معك».



الفصل الخامس والعشرون

ليس هيليوس بالإله الذي يُستدعى، لكنّني الابنةُ الضالّة التي ظفرَت بذيل ترايجون. كما قلتُ، الآلهة تحبُّ البِدع، وفضوليّةٌ كالقِطط.

خطا من الهواء معتمرًا تاجه الذي أحالَت أشعّته شاطئي إلى ذهب، ومرتديًا ثيابًا أرجوانيُّها غنيٌّ كبِركةٍ عميقة من الدِّماء. مئات السّنين ولم يتغيَّر خيطٌ واحد. ما زالت له الصُّورةُ التي كُويتُ بها منذ ميلادي.

بصوتٍ هدر في الهواء حارًّا كالحريق، قال: «لقد جئتُ».

قلتُ: «أبتغي لمنفاي نهايةً».

ـ «ما من نهاية. إنَّكِ معاقَبةٌ إلى الأبد».

ـ «أطلبُ منك أن تذهب إلى زوس، وتُكلّمه بالنّيابة عنّي. قُل له إنَّك ستعدُّ إطلاق سراحي معروفًا».

لاح على وجهه عدم التَّصديق أكثر من الغضب، وقال: «ولِمَ أفعلُ شيئًا كهذا؟».

كان بإمكاني أن أعطيه أجوبةً عديدةً: لأنّني كنتُ الورقةَ التي ساومتَ بها من البداية. لأنّك رأيتَ أولئك الرّجال وعرفتَ كنههم، ومع ذلك تركتهم يرسون على جزيرتي. لأنّك لم تأتِ بعدها حين انكسرتُ.

ـ «لأنّني ابنتك وأريدُ حرّيّتي».

لم يتأنَّ ولو لحظةً. «عاقّة كالمعتاد، وتتمادين في الجرأة. تطلُبين حضوري هنا من أجل الحماقات والتّفاهات».

نظرتُ إلى وجهه المضطرم بقوّته الواثقة. حارسُ السّماء العظيم، المُنقذُ كما يُطلِقون عليه، الذي يُبصِر كلَّ شيء، جالب الضّياء، بهجة البشر. لقد أعطيته الفُرصة، وهذا أكثر ممّا أعطاني يومًا.

سألته: «أتذكُر عندما جُلِدَ بروميثيوس في قاعتك؟».

ضيّق عينيْه مجيبًا: «بالطّبع».

ـ «يومها، تخلّفتُ عند مغادرتكم جميعًا. جلبتُ له ما يُخفّف عنه، وتبادَلنا الحديث».

اتّقدت نظرته المسلّطة على عينَيّ، وقال: «ما كنتِ لتجرئي».

ـ «إن كنت تشكّ فيّ، فلك أن تسأل بروميثيوس نفسه. أو إيبتيس، ولو أنّها ستكون معجزةً إذا حصلت منه على أيّ حقيقة».

بدأ جِلدي يُؤلمني من حرارته، ودمعَت عيناي.

ـ «إذا فعلتِ شيئًا كهذا، فإنّها لأعظم خيانة. هكذا تستحقّين النّفي أكثر من قبل. وما زلتِ تستحقّين عقابًا أفدح، كلّ ما يُمكنني أن أنزله بكِ. لقد عرّضتِنا إلى حفيظة زوس في سبيل نزوةٍ حمقاء».

ـ «أجل. وإذا لم تحرص على إنهاء منفاي، فسأعرّضك إليها ثانيةً، سأخبرُ زوس بالذي فعلته».

انقبضَ وجهه. للمرّة الأولى في حياتي، صدمته حقًّا. «لن تجرئي. زوس سيُدمّرك».

ـ «ربّما، لكنّني أظنّه سيسمعني أوّلًا. وأنتَ مَن سيُلقي عليه اللّوم حقًّا، إذ كان عليك أن تُحسِن إحكام قبضتك على ابنتك. سأخبره بأشياءَ أخرى طبعًا، بكلّ تلك الخياناتِ المستبطَنة التي سمعتك تتهامس بها مع أعمامي. أظنُّ أنَّ زوس سيُسَرُّ لمعرفة مبلغ عصيان الجبابرة، ألا تُوافِقني؟».

ـ «أتجرئين على تهديدي؟».

يا لهؤلاء الآلهة. دائمًا يقولون الشَّيء نفسه!

ـ «نعم».

التهبَت بشرة أبي لدرجةٍ تُعمي، وسفعَ صوته عظمي وهو يقول: «تُريدين بدء حرب».

ـ «هذا ما آمله، لأنّني سأحرصُ على تقويضك يا أبتِ قبل أن أبقى سجينةً لأجل مصلحتك».

كان غيظه حاميًا، حتى إن الهواء التوى وارتعش حوله. «أستطيعُ القضاء عليكِ بمجرّد التّفكير».

أقدم مخاوفي ذلك الهلاك الأبيض. شعرتُ به يرتجف في داخلي، ولكن كفى. أخيرًا كفى.

ـ «تستطيع، لكنّك كنتَ حذرًا دومًا يا أبي. إنّك تَعْلم أنّني واجهتُ أثينا، أنّني مشيتُ في أحلك الأعماق. لا يُمكنك أن تُخمّن أيّة تعاويذَ

ألقيتُ وأيّة سمومٍ جمعتُ لأحمي نفسي منك، أو كيف قد ترتدُّ قوَّتك على رأسك. مَن يدري بما أقدرُ عليه؟ هل تُريد أن تكتشف؟».

علقَتْ كلماتي في الهواء. كانت عيناه كقُرصيْن من الذّهب المشتعل، لكنّني لم أشح ببصري.

قال: «إذا فعلتُ هذا، فهو آخِر ما سأفعله من أجلكِ أبدًا. لا تأتي متوسّلةً ثانيةً».

ـ «لن أفعل أبدًا يا أبي. سأغادرُ هذا المكان غدًا».

أبى أن يسألني إلى أين، أبى أن يتساءل في نفسه حتى. سنواتٍ كثيرةً جدًّا قضيتها طفلةً أغربلُ ملامحه الوضّاءة بحثًا عن أفكاره، أحاولُ أن ألمح بينها واحدةً تحمل اسمي، لكنّه قيثارةٌ بوترٍ واحدٍ فقط، يعزف نغمةً وحيدةً هي نفسه.

قال: «لطالما كنتِ أسوأ أطفالي. اعملي على ألّا تُلوِّثي شرفي».

ـ «لديّ فكرة أفضل. سأفعلُ ما أشاءُ، وعندما تُحصي أطفالك لا تعدَّني».

تقلّص جسده من الحَنَق، وبدا كأنما ابتلعَ حجرًا والحجر يَخنُقه.

قلتُ: «بلِّغ أمّي تحيّاتي».

انكبسَ فكُّه، واختفى.

* * *

خبا لون الرّمال الصّفراء عائدًا إلى درجتها المعتادة، ورجعَت الظّلال. للحظةٍ، وقفتُ ألتقطُ أنفاسي بلا حراك وقد امتلأ صدري بدقٍّ مدوٍّ. ثمّ إنَّ الدّقّ راح، وانطلقَت خواطري إلى الأمام ناهبةً الأرض،

ومحلّقةً إلى حُجرتي أعلى التَّل، حيث تنتظر الحربةُ بشمِّها الشَّاحب. كان ينبغي أن تُعاد إلى ترايجون منذ زمن، لكنَّني احتفظتُ بها في سبيل الحماية وشيءٍ آخر لم أستطع تحديده. وأخيرًا عرفتُ ما هو.

صعدتُ إلى المنزل، ووجدتُ بنلوبي جالسةً إلى منوالي.

ـ «حان وقت القرار. ثمّة أشياءُ عليَّ أن أفعلها. أنا راحلة غدًا، ولا أدري كم من الوقت. سآخذكِ إلى أسبرطة أوَّلًا إذا أردتِ الذَّهاب إلى هناك».

رفعت عينيْها عن البساط الذي تصنعه، بحرٍ ثائرٍ يشقُّ ماءه سبَّاحٌ نحو الظَّلام. «وإن لم أرد؟».

ـ «يُمكنكِ البقاء هنا إذن».

أمسكت الوشيعة بخفَّةٍ كأنَّها طائر أجوف العظام، وقالت: «ألن يكون ذلك... تطفُّلًا؟ إنَّني أعرفُ ما كلَّفتكِ إيَّاه».

تعني تليجونوس. الحُزن موجودٌ، وسيظلُّ موجودًا على الدَّوام، إلَّا أنَّ الضَّباب الكالح انجابَ، وشعرتُ بنفسي بعيدةً صافيةَ العقل كصقرٍ محمولٍ في أعالي الأثير. قلتُ: «ما كان ليعرف السَّعادة هنا أبدًا».

ـ «لكنَّه ذهبَ مع أثينا بسببنا».

آلَمَني هذا من قبل، لكنَّ الكبرياء كانت السَّبب. «إنَّها أبعد ما يكون عن أسوئهم».

سمعتُ نفسي أقولها، هُم.

ـ «إنَّني أعطيكِ الخيار يا بنلوبي. ماذا تُريدين أن تفعلي؟».

تمطَّت إحدى الذِّئاب، وصرَّ فمها بعض الشَّيء مع تثاؤبها.

قالت پنلوپي: «أجدُ أنّني لا أتعجّلُ الذّهابَ إلى أسبرطة».

قلتُ: «تعالي إذن. هناك أشياء يجب أن تعرفيها»، وقدتها إلى المطبخ بصفوفه من الجِرار والقوارير. «على الجزيرة وهمٌ يجعلها تبدو للسُّفن غير صالحةٍ للسُّكنى. سيبقى هذا في غيابي، لكنَّ البحّارة يتهوَّرون أحيانًا، وأشدُّهم تهوُّرًا أشدُّهم يأسًا. هذه هي عقاقيري التي لا تحتاج إلى سحر. بينها سمومٌ، ومراهم للعلاج. هذا يُسبِّب النَّوم». ناولتها قارورةً متابعةً: «إنَّه لا يعمل في الحال، فلا يُمكنكِ إذن أن تترُكيه للَّحظة الأخيرة. عليكِ أن تضعيه في نبيذهم. عشرُ قطراتٍ تكفي. أتظنِّين أنكِ قادرة على هذا؟».

قلبَتِ المحتويات مستشعرةً وزنها، ومسَّت ابتسامةٌ خافتة شفتيها إذ أجابت: «لعلَّكِ تَذكُرين أنَّ لديَّ شيئًا من الخبرة في التَّعامُل مع الضُّيوف غير المرغوب فيهم».

***

أينما كان تليماكوس فإنَّه لم يرجع على العشاء. قلتُ لنفسي لا يهمُّ. الوقت الذي نعمتُ فيه مثل الشَّمع قد ولَّى، وطريقي مفتوحٌ أمامي. حزمتُ أغراضي، القليل من الغيارات ومعطفًا، لكنَّ البقيَّة كانت أعشابًا وقوارير، ثمَّ التقطتُ الحربةَ وحملتها إلى هواء اللَّيل الدَّافئ في الخارج. ثمَّة أعمالٌ سحريَّة عليَّ القيام بها، لكنَّني أردتُ الذَّهاب إلى القارب أوَّلًا، فلم أرَه منذ بدأ تليماكوس إصلاحاته، ولا بُدَّ من أن أتأكَّد من كونه صالحًا للإبحار. ومضَت خطوط البرق فوق البحر، وهبَّ النَّسيم حاملًا رائحةَ حريقٍ بعيد. العاصفة الأخيرة التي قلتُ لتليجونوس أن ينتظرها، لكنَّني لم أخَفْها. بحلول الصَّباح ستكون قد همدت.

دخلتُ الكهف ونظرتُ. استعصى عليَّ تصديق أنّني أتطلّعُ إلى القارب نفسه. ألفيته أطول، ومقدّمته أعيدَ بناؤها وضُيّقَت، والصّاري أفضل تجهيزًا بالحبال، والدفّة أكثر انضباطًا. مشيتُ حوله. عند المقدّمة، أضيفَ تمثالٌ صغير، لبؤة رابضة فاغرةٌ فكّيْها، فروها على الطّراز الشّرقيّ، وكلُّ خُصلةٍ منه منفصلةٌ مفتولةٌ كقوقعة الحلزون. مددتُ يدي ألمسُ واحدةً.

قال: «الشّمع لم يَجمُد بعدُ»، وخطا من الظّلام مضيفًا: «لطالما فكّرتُ أنَّ كلَّ مركبٍ يحتاج إلى روحٍ لمقدّمته».

قلتُ: «إنّه جميل».

ـ «كنتُ أصطادُ السّمك في الخليج عندما أتى هيليوس. الظّلال كلُّها اختفَت. سمعتكِ تتكلّمين معه».

شعرتُ بالحرج يندلع فيّ. كم بدوْنا مؤذيَيْن عجيبَيْن قاسيَيْن. مؤكّدٌ أنّه رأى هذا. أرحتُ عينَيَّ على القارب كي لا أضطرَّ إلى النَّظر إليه، وقلتُ: «تعلم إذن أنَّ منفاي انتهى، وأنّني سأبحرُ غدًا. سألتُ أمّك إن كانت تُفضّل الذّهاب إلى أسبرطة أم البقاء، فقالت إنّها راغبة في البقاء. الاختيار نفسه أقدّمه لك».

في الخارج، أصدر البحر صوتًا كالوشيعة في أثناء الغزْل، ولاحت النُّجوم صفراء كالكمثرى، قطوفها ناضجةٌ دانيةٌ على الفروع.

قال: «كنتُ غاضبًا منكِ».

فاجأني قوله. ارتفعَ الدَّم واخزًا إلى وجنتَيَّ، وردَّدتُ: «غاضبًا!».

ـ «نعم. لقد حسبتِني سأذهبُ مع أثينا، حتى بعد كلِّ ما حكيته لكِ. أنا لستُ ابنكِ ولستُ أبي. كان يجدُر بكِ أن تعرفي أنّني لا أريدُ من أثينا شيئًا».

تكلَّم بصوتٍ متَّزن، لكنَّني سمعتُ نبرةَ تقريعه الحادَّة.

قلتُ: «أنا آسفة. لم أعتقد أنَّ أحدًا في هذا العالم قد يَرفُض ربَّانيَّتها».

ـ «طريف أن تقولي أنتِ هذا».

ـ «إنَّني لستُ أميرًا شابًّا يُنتظَر منه القيام بأعمالٍ عظيمة».

ـ «كلُّ هذا مُغالى في تقديره».

تحسَّستُ قدمَ اللَّبؤة ذات المخالب، وأحسستُ بلزوجة الشَّمع اللَّامع.

ـ «أتصنع دومًا أشياء جميلةً لمن تغضب منهم؟».

ـ «لا. أنتِ فقط».

تألَّق البرق في الخارج، وقلتُ: «كنتُ غاضبةً أيضًا. ظننتك لا تطيق الانتظار حتى ترحل».

ـ «لا أدري كيف ظننتِ ذلك. تعلمين أنَّني لا أستطيعُ إخفاء وجهي».

أفعمَت أنفي رائحةُ شمع العسل العطِرة الفوَّاحة.

ـ «الطَّريقة التي تكلَّمت بها عن مجيء أثينا إليك، حسبتها اشتياقًا، شيئًا تحتفظ به في صدرك مثل سرٍّ مكنون».

ـ «احتفظتُ به من خجلي. لم أردكِ أن تسمعي أنَّها فضَّلت أبي طيلة الوقت».

إنَّها حمقاء. لكنَّني لم أقلْ هذا.

قال: «لا أريدُ الذَّهاب إلى أسبرطة، ولا أريدُ البقاء هنا. أظنُّكِ تعرفين أين أودُّ أن أكون».

- «لا يُمكنك أن تأتي. ليس ذلك مكانًا آمنًا للفانين».

- «أظنُّه غير آمنٍ على الإطلاق. حريٌّ بكِ أن تري وجهكِ. أنتِ أيضًا لا تستطيعين إخفاءه».

أردتُ أن أسأله كيف يبدو وجهي. وبدلًا من ذلك قلتُ: «ستتَرُكُ أمَّك؟».

- «ستكون بخير هنا، وراضيةً أيضًا في ظنّي».

طفا غُبار الخشب الشَّذيُّ في الهواء، الرَّائحة نفسها التي تنبعث من جِلده عندما ينحت. فجأةً، راودني التَّهوُّر، وشعرتُ بالسَّأم من قلقي ومحاولاتي الإقناع وتخطيطي الحذر. بعضهم بطبيعته متهوِّر، أمَّا أنا فلا.

قلتُ: «إذا أردت الانضمام إليَّ فلن أمنعك. سنرحل فجرًا».

* * *

أخذتُ تدابيري وأخذَ تدابيره. عملنا حتى بدأت السَّماء تَشحُب، وامتلأ المركب بكلِّ ما يُمكنه حمله من مؤن؛ جُبنة، وشعير محمَّص، وفواكهُ مجفَّفة وطازجة؛ وأضاف تليماكوس شِباكَ صيدٍ ومجذافيْن وحبالًا إضافيَّةً وسكاكين، ورصَّها كلَّها بعنايةٍ وربطها في أماكنها. دفعنا القارب إلى البحر على دحاريج، وانزلق بدنُه بيُسرٍ بين الأمواج، فيما وقفَتْ پنلوپي على الشَّاطئ تُلوّح لنا مودِّعةً. قبلها، ذهبَ تليماكوس إليها بمفرده ليُخبِرها بأنّه راحل، وأيًّا كان رأيها في هذا فإنَّها لم تُظهِره على وجهها.

رفعَ تليماكوس الشِّراع. كانت العاصفة قد مرَّت، والرِّياح طازجةً وتأتي مواتيةً، فأخذَتنا في مهبِّها، ودفعَتنا عبر الخليج. نظرتُ من فوق كتفي إلى آيايا. مرَّتيْن في حياتي كلِّها، رأيتها تتضاءَل من خلفي. اتَّسعت المياه

بيننا وتقلّصت الجروف، وتذوّقتُ الرّذاذَ المالحَ على شفتيّ. من كلِّ اتّجاهٍ، أحاطَ بنا الموج الحلزونيّ الفضّيّ، ولم تهوِ صاعقةُ برق. لقد تحرّرتُ.

لا، فكّرتُ. ليس بعدُ.

سألني تليماكوس ويده منتظرة على الدفّة: «أين نذهب؟».

آخِرَ مرّةٍ نطقتُ فيها اسمها كانت لأبيه. «إلى المضيق، إلى سكيلا».

شاهدته يستوعب الكلمة، ثمّ إنّه وجّه الدفّة بيديْن لا تعوزهما الكفاءة.

- «ألست خائفًا؟».

- «لقد حذّرتِني من أنّ الأمر لن يكون آمنًا. لا أظنّ أنّ الخوف سيُساعِد».

تدفّق البحر، ومررنا بالجزيرة التي توقّفتُ عليها مع دايدالوس في الطّريق إلى كريت. لم يزل الشّاطئُ موجودًا، ولمحتُ بستانًا من أشجار اللّوز، أمّا شجرة الحور التي ضربها البرق، فمؤكّدٌ أنّها زالت منذ زمنٍ طويل، وصارت فُتاتًا امتزج بالتُّربة.

ظهرت لطخةٌ باهتة في الأفق، ومع كلِّ ساعةٍ كانت تتعاظم مرتفعةً كالدُّخان. عرفتُ ماهيّتها، فقلتُ لتليماكوس: «أنزِل الشّراع. عندنا عمل هنا أوّلًا».

من فوق الحاجز، اصطدنا أكبر اثنتي عشرة سمكةً وجدناها، وتلوّت الأسماكُ ناثرةً القطراتِ المالحة الباردة على السّطح. رششتُ أعشابي داخل أفواهها المفغورة، ولفظتُ الكلمة. صوت الفرقعة القديم، وتمزّق اللّحم، ولم تَعُد أسماكًا، بل اثنا عشر كبشًا سمينًا مرتبكًا.

تخبَّطت الكباش بأعيُنٍ مذعورة، والتصقَ بعضها ببعضٍ في المساحة الضيِّقة؛ وهو ما عددته نعمةً، إذ لم تكن لتستطيع الوقوف في وضعٍ آخر، لأنَّها لم تتعوَّد أن تكون لها أقدام.

عبرَ تليماكوس من فوقها مضطرًّا ليصل إلى المجذافيْن، وقال: «قد يكون التَّجذيف صعبًا قليلًا».

ـ «الكباش لن تبقى هنا طويلًا».

قطَّب وجهه رامقًا أحدها، وتساءل: «أمذاقها ضأن؟».

ـ «لا أدري».

من حقيبة أعشابي أخرجتُ الجرَّةَ الفخَّار الصَّغيرة التي ملأتها في اللَّيلة السَّابقة. كانت مسدودةً بالشَّمع ولها مقبضٌ دائريّ، وبشريطٍ جِلديٍّ ربطتها حول عُنق أكبر الكباش.

بسطنا الشِّراع. في الطَّريق، حذَّرتُ تليماكوس من الضَّباب والرَّذاذ، فجهَّز زوجيْن من المجاذيف في محبسيْن، ورغم كونهما غير ملائميْن لأنَّ القاربَ يُفترَض أن يُبحِر بالشِّراع، فسيُساعِدانا على العبور إذا سكنَت الرِّياحُ تمامًا. قلتُ له: «علينا أن نُواصِل الحركة مهما حدثَ».

أومأ برأسه، كأنَّ الأمرَ سيكون بهذه السُّهولة. على أنَّني أعرفُ أكثر منه. قبضَت يدي على الحربة المكلَّلة بالذَّنَبِ السَّام، لكنَّني رأيتُ السُّرعة التي تتحرَّك بها. في مرَّةٍ، قلتُ لأودسيوس إنَّ لا سبيل للتَّصدِّي لها، ومع ذلك هأنذي هنا مرَّةً أخرى.

بخفَّةٍ لمستُ ذراع تليماكوس، وهمستُ بتعويذةٍ، لأشعر بالوهم يتشكَّل حوله. اختفى، وأضحى السَّطح عاريًا والهواءُ خاليًا. لن يصمُد

هذا في حال التَّمعُّن، لكنَّه سيُخفيه عن نظرتها العابرة. شاهد من دون أن يُلقي أسئلةً، علامةً على ثقته بي، ثمَّ إنَّني التفتُّ بحدَّةٍ لأواجه المقدِّمة.

انساق الضَّباب من فوقنا. صارَ شعري رطبًا، وبلغ صوتُ الابتلاع من الدوَّامة مسامعَنا عبر الأمواج. أطلق البشر اسم كاريبديس على ذلك الدُّردور، وقد نال نصيبه من البحَّارة الذين حاولوا اجتنابَ شهيَّةِ سكيلا. التصقَت بي الكباش متمايلةً من دون أن تُصدِر صوتًا كالأغنام الحقيقيَّة، إذ لم تعرف كيف تستعمل حلوقها، وأشفقتُ عليها في هيئتها الوحشيَّة الرَّاجفة.

لاح المضيق أمامنا ودخلنا من ثغره، ونظرتُ إلى تليماكوس لأراه ممسكًا المجذافَيْن على أُهبة الاستعداد، وفي عينيْه اليقظةُ بيِّنة. انتصبَت الشُّعيراتُ على مؤخِّرة عُنقي. ماذا فعلتُ؟ ما كان يجب أن أحضره أبدًا.

داهمتني الرَّائحةُ مألوفةً حتى بعد ما مرَّ من زمن، رائحةُ العفن والكراهية. ثمَّ أتَت هي منزلقةً من قلب الضَّباب الرَّماديّ، وزحفَت رؤوسها المتكتِّلة الهرمة بطول الجُرف صانعةً صوت احتكاكٍ خشن، وقد سلَّطت نظرتَها المحتقِنةَ بالدَّم على الكباش الفائحةِ منها رائحةُ الدُّهن والخوف الزَّنخة.

صحتُ: «تعالي!».

وضربَت ضربتها، واختُطِفَت ستَّة كباشٍ بستَّة فكوكٍ مفتوحة عن آخِرها، ثمَّ اندفعَت سكيلا بها غائبةً في الضَّباب. سمعتُ عظامًا تُسحَق وصوت الازدراد من حلوقها، وتناثر رذاذٌ من الدِّماء على وجه الجُرف.

وجدتُ وقتًا لإلقاء نظرةٍ واحدة على تليماكوس. كادت الرِّياح تهمد تمامًا، وراح هو يُجذِّف بعزمٍ لتلتمع قطراتُ العَرق على ذراعيْه.

عادَت سكيلا برؤوسٍ تتمايَل عداوةً، وبرزَت عناقيدُ من الصُّوف بين أسنانها.

قلتُ: «والآن البقيّة».

أخذَت السِّتَّة الأخرى بسرعةٍ لم تَترُك فُرصةً لحساب الوقت بين قولي واختفاء الكباش. كان الذي ربطتُ الجرَّة بعُنقه بينها، فحاولتُ أن أسمع صوت تحطُّم الفخَّار بين أسنانها، لكنَّني لم أميّز شيئًا أعلى من تهشُّم العظم وتمزُّق اللَّحم.

في اللَّيلة السَّابقة تحت القمر البارد، قطَّرتُ سُمَّ الحربة، وجرت القطراتُ الصَّافية الشفَّافة في إنائي البرونزيّ المصقول، ثمَّ أضفتُ زهرةَ غُبيرة الأيَّل التي قطفتها من كريت قبل زمنٍ طويل، وجذر السَّرو، وكِسَرًا من جُروفي وتُربةً من حديقتي، وأخيرًا دمي الأحمر. رغا السَّائل وتحوَّل لونه إلى الأصفر، وأخذتُ كلَّ هذا، ووضعته في الجرَّة وسددتها بالشَّمع. والآن ينزلق العقَّار داخل حلقها، ويتجمَّع في أحشائها.

ظننتُ أنَّ اثني عشر كبشًا كفيلةٌ بتخفيف جوعها، ولكنْ عندما عادَت بدَت أعيُنها كما هي، جشعةً مفترسةً، كأنَّ ما تُطعِمه ليس بطنها بل ثائرةٌ لا تهمد.

رفعتُ الحربة صائحةً: «سكيلا! هذه أنا، سرسي بنت هيليوس، ساحرة آيايا».

أطلقَت صرختها المعهودة، ذلك النُّباح النَّشاز الذي نهشَ أُذنَيَّ، إلَّا أنَّه لم يشِ بأنها تعرَّفتني.

ـ «قديمًا، حوَّلتكِ إلى هذه الصُّورة من الحوريَّة التي كنتِها، والآن أتيتُ بقوَّة ترايجون لأضع نهايةً لما بدأته».

وفي الهواء المشبَّع بالضَّباب، تفوَّهتُ بكلمة إرادتي.

فحَّت سكيلا، ولم تُبدِ نظرتها أدنى دلالةٍ على الفضول. تمايلَت رؤوسها باحثةً على السَّطح، كأنَّ هنالك كباشًا لم تنتبه إليها. ومن خلفي، سمعتُ تليماكوس يكدح مجذِّفًا، وقد ارتخى شراعنا جاعلًا إيَّاه الشَّيءَ الوحيد الذي يدفعنا إلى الأمام.

رأيتُ اللَّحظةَ التي ثقبَت فيها أعيُنها وهمي ولمحَته، وأنَّت سكيلا بصوتٍ خفيضٍ ملهوف.

صحتُ ملوِّحةً بالحربة: «لا! هذا الفاني في حمايتي. ستُقاسين عذابًا أبديًّا إذا حاولتِ أخذه. إنَّكِ ترين أن معي ذنَب ترايجون».

صرخَتْ ثانيةً، وغمرتني أنفاسها النَّتنة الملهبة. في ثورتها، تسارعَ تمايُلُ الرُّؤوس وراحت تعضُّ الهواء، فيما تتدلَّى من فكوكها خيوطٌ طويلةٌ من اللُّعاب. أخافَتها الحربة، لكنَّها لن تعيقها طويلًا. لقد طابَ لها مذاقُ لحم الفانين، وصارت تشتهيه. تموَّج في داخلي ذُعرٌ أسودُ عنيف. كنتُ لأقسمُ أنَّني شعرتُ بالتَّعويذة تستحكِم، فهل أخطأتُ؟ أغرقَ الهلعُ كتفيَّ. عليَّ أن أقاتل رؤوسها المفترسة السِّتَّة في آنٍ واحد، وما أنا بمُحاربةٍ مدرَّبة. سيتجاوزني أحدها، وعندئذٍ سيكون مصير تليماكوس... لم أسمح لنفسي بإكمال الخاطر. تواثبَ عقلي بين أفكارٍ جميعُها عديمُ الجدوى؛ تعاويذ لا يُمكن أن تمسَّها، وسموم ليست معي، وآلهة لن يأتوا لنجدتي. يُمكنني أن أقول لتليماكوس أن يقفز ويسبح، لكنْ لا مكانٌ يذهب إليه، والطَّريقُ الوحيدُ الآمن من متناولها سيأخذه إلى دوَّامة كاريبديس النَّهمة.

وضعتُ نفسي بينها وبين تليماكوس بحربةٍ مسدَّدةٍ وأعصابٍ مشدودة. قلتُ في قرارتي إنَّ عليَّ أن أجرحها قبل أن تتجاوزني، عليَّ على الأقل أن أوصل سُمَّ ترايجون إلى دمها. ثمَّ إنَّني هيَّأتُ نفسي للضَّربة.

ولم تأتِ. كان أحد أفواهها يتحرَّك حركةً غريبةً، يلتقي فكّاه ويفترقان، ومن أعماق صدرها خرجَت ضوضاءُ مخنوقةٌ، وانقبضَ حلقها وسالَت رغوةٌ صفراءُ من بين أسنانها.

سمعتُ تليماكوس يقول: «ما الأمر؟ ماذا يَحدث؟».

لم يسمح الوقتُ بإجابة. ارتخى جسمها بارزًا من الضَّباب. لم أره من قبل، وكان هُلاميًّا ضخمًا. وبينما شاهدنا انزلقَ بخشونةٍ على جانب الجُرف من فوقنا. صرَّت رؤوسها وقاومَت، كأنَّها تُحاوِل أن تسحبه إلى أعلى ثانيةً، لكنَّه انخفضَ أكثر كأنَّه مثقلٌ بالحجارة. بدأتُ أرى بداية سيقانها، تلك المجسَّاتِ الوحشيَّة الاثنتي عشرة الممتدَّةِ من جسمها إلى الضَّباب. أخبرني هرميز بأنَّها تُخفيها دومًا، وتُبقيها ملتفَّةً داخل الكهف وسط العظام وقِطَع اللَّحم القديم، ترتكز بها على أحجار الكهف لتستطيع بقيَّتها الانقضاض على وجباتها والعودة.

أنَّت رؤوس سكيلا ونهشَت الهواء، وتراجعَت لتعضَّ رقابها، وقد لطَّخت جِلدها الرَّماديَّ الرَّغوةُ الصَّفراء وحُمرةُ دمها. صدرَت ضجَّةٌ كجُلمودٍ يتدحرج من جانب العالم الآخر. وفجأةً، هوَت غشاوةٌ رماديَّة مارَّةً بنا لترتطم بالموج إلى جوار القارب. مال السَّطح بعُنفٍ وكدتُ أفقدُ توازني، ولمَّا عدتُ إلى ثباتي وجدتُ نفسي أنظرُ إلى إحدى سيقانها الهائلة، تتدلَّى مرتخيةً من جسمها، وغليظةً كأقدم شجرة سنديان في آيايا، فيما اختفى طرفُها في الماء.

أفلتَت السَّاق دعامتها.

قلتُ: «يجب أن نرحل حالًا. المزيد في الطَّريق»، وقبل أن تَخرُج الكلماتُ عاد صوت الجرّ يتردَّد.

صاح تليماكوس محذِّرًا، واصطدمَت السَّاق بالماء على مقربةٍ بالغة من مؤخّرتنا، حتى إن نصف الحاجز غاب تحت الموج، وسقطتُ على رُكبتَيَّ وارتمى تليماكوس إلى الأسفل. استطاع التَّشبُّث بالمجذافيْن، وبجهدٍ أعادهما إلى وضعهما. فارت المياه من حولنا بالغرين، وانقذفَ القارب إلى أعلى وأسفل. وفي الهواء فوق رأسيْنا، صرخَت سكيلا وتلوَّت. سحبَها وزن السَّاقيْن السَّاقطتيْن إلى أسفل على جانب الجُرف، وأصبحت الرُّؤوس على مرمى حجرٍ منّا، لكنَّها لم تُعِرنا انتباهًا، إذ أخذَت تعضُّ لحم ساقيْها المترهِّل، وتفترسه افتراسًا. تردَّدتُ لحظةً، ثم دسستُ قناة الحربة بين مؤننا كي لا تنجرف في غمرة الاضطراب، وأطبقتُ على أحد مجذافَيْ تليماكوس قائلةً: «تحرَّك».

انحنينا على المجذافيْن، وسمعنا صوتَ الجرّ ثانيةً، وسقطَت ساقٌ أخرى لتُغرِق موجتها العارمة السَّطحَ مديرةً المقدّمة صوب كاريبديس. رأيتُ لمحةً من فوضاها الدوَّارة التي تلتهم سُفنًا بأكملها، وجاهدَ تليماكوس على الدفَّة محاولًا الانعطاف بنا.

صاح: «حبل».

نبشتُ عن واحدٍ وسط مؤننا، وطوَّق به تليماكوس الدفَّة جاذبًا إيَّاها ومقاتلًا لتوجيهنا للخروج من المضيق. تأرجح جسمُ سكيلا على ارتفاع صاريَيْن من فوقنا، وظلَّت السِّيقان تتساقَط لتسحب كلُّ صدمةٍ الجذعَ إلى أسفلَ فأسفل.

أحصيتُ عشرًا، ثمَّ إحدى عشرة.

ـ «يجب أن نذهب!».



كان تليماكوس قد صحَّح اتِّجاه المقدِّمة، فربط الدفَّة وعُدنا ننكفئ على المجذافيْن. أسفل الجُرف، تقاذفَت المياهُ المعتلجةُ القاربَ كورقة شجر، وتلطَّخت الأمواجُ من حولنا بالصُّفرة.

امتدَّت ساقها الباقية على وجه الجُرف، لا شيء إلَّاها يُثبِّتها وقد صارت مشدودةً على نحوٍ بشع.

وانزلقَت السَّاق، وارتطمَ جسمُها العملاق بالماء. انتزعَتِ الموجةُ المجذافيْن من أيدينا، ولطمَ رأسي الملحُ البارد. لمحتُ البحرَ يجرف مؤننا، وتختفي معها في البياض حربةُ ترايجون، لأشعر بالخسارة كضربةٍ على صدري، وإن لم يكن هناك وقتٌ للتَّفكير في هذا. قبضتُ على ذراع تليماكوس متوقِّعةً أن ينفلق السَّطحُ من تحتنا في أيِّ لحظة، غير أنَّ الألواح المتينة صمدَت، وحبل الدفَّة أيضًا. تلك الموجة الهائلة الأخيرة دفعَتنا إلى الأمام خارج المضيق.

خبا صوت كاريبديس، وامتدَّ البحر مفتوحًا من حولنا. نهضتُ ونظرتُ ورائي، وعند سفح الجُرف حيث كانت سكيلا رأيتُ مرتفعًا جسيمًا، لا تزال حدودُ ستَّة رؤوسٍ ثعبانيَّة ظاهرةً عليه، لكنَّها لا تتحرَّك، ولن تتحرَّك ثانيةً أبدًا. لقد تحوَّلت إلى حجر.

***

قطعنا طريقًا طويلًا إلى اليابسة، وآلَمَتني ذراعايَ وظهري كأنَّما جُلِدتُ بالسِّياط. ومؤكَّدٌ أنَّ تليماكوس كان أسوأ حالًا، لكنَّ شراعنا ظلَّ بمعجزةٍ ما سليمًا ودفعَنا إلى الأمام. بدا كأنَّ الشَّمس غاصَت في البحر كطبقٍ ساقط، وهبط اللَّيلُ على المياه، وفي السَّواد المرصَّع بالنُّجوم لمحتُ اليابسة، وجررنا القاربَ إلى الشَّاطئ. فقدنا مخزوننا من الماء

العذب، ورأيتُ تليماكوس خاملَ العينيْن وشبه معقود اللّسان، فذهبتُ لأجد نهرًا، وعدتُ حاملةً وعاءً مليئًا حوّلْتُه من صخرة. أفرغَ تليماكوس الماء في جوفه. وبعدها، تمدّد بثباتٍ تامٍّ حتى إنّني بدأتُ أخافُ، قبل أن يتنحنح أخيرًا ويسأل عن الطّعام المتاح. عندئذٍ، كنتُ قد قطفتُ بعض حبّات التُّوت، واصطدتُ سمكةً شويناها على سيخ. قلتُ: «آسفةٌ لأنّني وضعتك في هذا الخطر. لو لم تكن هناك لحُطّمنا تحطيمًا».

أومأ برأسه بإرهاقٍ وهو يَمضُغ، وقد ظلّ وجهه مشدودًا شاحبًا، وقال: «أعترفُ بأنّني مسرورٌ لأنّنا لن نضطرَّ إلى فعل ذلك ثانيةً»، وعاد يتمدّد على الرّمل، وانسدلَ جفناه على عينيه.

كان آمنًا، فظهر مخيّمنا إلى رُكن جُرف. وهكذا، تركته لأمشي على الشّاطئ. قدّرتُ أنّنا على جزيرة، وإن لم أستطع الجزم. لم أرَ دُخانًا يتصاعد فوق الشّجر؛ ولمّا أصغيتُ لم أسمع إلّا طيور اللّيل وحفيف الأوراق وهسهسة الموج. إلى الدّاخل تنمو زهورٌ وغاباتٌ بكثافة، لكنّني لم أذهب لأنظر. مرّةً أخرى، رأيتُ أمامي الكُتلةَ الصّخريّة التي صارَتها سكيلا. لقد رحلَت، حقًّا رحلت. للمرّة الأولى منذ قرونٍ، لستُ مقيّدةً بطوفان البؤس والحُزن، لا أرواحَ أخرى ستذهب إلى العالم السُّفليّ مكتوبًا عليها اسمي.

وقفتُ قُبالة البحرِ شاعرةً بالغرابة لخلوّ يدَيّ من شيءٍ أمسكه، من قناةِ حربةٍ أحملها. أحسستُ بالهواء يتحرّك على راحتيْهما، والملح يمتزج برائحة الرّبيع الخضراء، وتخيّلتُ الذّنب الرّماديّ يغوص في الظُّلمات ليجد سيّده. ترايجون، ذنَبك عائد إليك. لقد احتفظتُ به طويلًا جدًّا، لكنّني أحسنتُ استغلاله أخيرًا.

غمرت الأمواج الهادئة الرِّمال.

شعرتُ بالظَّلام نظيفًا على بشرتي، ومشيتُ في الهواء الفاتر كأنَّه بِركةٌ أتحمَّمُ فيها. فقدنا كلَّ شيءٍ باستثناء جراب الأدوات المعلَّق من خصره، وحقيبة تعاويذي المربوطة بي. فكَّرتُ أنَّ علينا أن نصنع مجذافيْن ونجمع مخزونًا جديدًا من الطَّعام، لكنْ تلك الأفكار للغد.

مررتُ بشجرة إجَّاص مزدانةٍ بالأزهار البيضاء، ونثرَتْ سمكةُ الماءَ في النَّهر المضاء بالقمر. مع كلِّ خُطوةٍ ازدادَ شعوري بالخفَّة، وبدأت عاطفةٌ جديدةٌ تتضخَّم في حلقي، واستغرقتُ لحظةً حتى أدركتُ كنهها. لقد قضيتُ زمنًا طويلًا جدًّا عجوزًا صارمةً، نحتَني النَّدمُ والسنون مثل العمود الحجري، لكنَّ هذا مجرَّد قالبٍ صُبِبتُ فيه، وليس هناك ما يدعوني للاحتفاظ به.

واصل تليماكوس النَّوم وقد شبك يديْه كالطِّفل تحت ذقنه. أدماهما التَّجذيف، فدهنتهما بمرهمٍ ملطِّفٍ، وأحسستُ بوزنهما الدَّافئ مستقرًّا في حجري، ووجدتُ أصابعه أكثر تكلُّسًا مما تخيَّلتُ، لكنَّ كفَّيْه ناعمتان. كثيرًا جدًّا في آيايا، تساءلتُ عن الإحساس بملمسه.

انفتحت عيناه كأنَّني تكلَّمتُ بصوتٍ مسموع، ورأيتهما صافيتيْن كعادتهما.

قلتُ: «سكيلا لم تُولَد وحشًا. أنا جعلتها كذلك».

سألني ووجهه في ظلال النَّار: «كيف حدث هذا؟».

هتف جزء منِّي منذرًا: **إذا تكلَّمتِ فسيربدُّ وجهه ويكرهكِ**، إلَّا أنَّني تجاوزته. فليربدَّ وجهه إذا اربدَّ. لن أستمرَّ في غزْل خيوطي نهارًا وحلِّها ليلًا، فلا أصنعُ شيئًا. حكيتُ له الحكاية كلَّها، ذكرتُ كلَّ غيرةٍ وحماقةٍ وجميعَ الأنفُس التي أُزهِقَت بسببي.

قال تليماكوس: «اسمها، سكيلا يعني «الممزِّقة». ربَّما كان مصيرها دومًا أن تتحوَّل إلى وحش، وكنتِ أنتِ الأداة لا أكثر».

ـ «أتستخدم العُذرَ نفسه مع الفتيات اللاتي شنقتهنَّ؟».

كأنَّني صفعته، قال: «لستُ أختلقُ لهذا أعذارًا. سأحملُ هذا العار طيلة حياتي. لا أستطيعُ التَّراجعَ عنه، لكنَّني سأقضي ما تبقَّى من أيَّامي متمنِّيًا لو أنَّني أستطيع».

ـ «هكذا تعرف أنَّك مختلفٌ عن أبيك».

ـ «أجل»، قالها بحدَّة.

ـ «الأمر لا يختلف معي. لا تُحاوِلْ أن تأخذ منِّي ندمي».

طال صمته قبل أن يقول: «أنتِ حكيمة».

ـ «إن صحَّ هذا فلأنَّني قضيتُ مئة عُمرٍ حمقاء».

ـ «لكنَّكِ قاتلتِ في سبيل ما تحبِّين على الأقل».

ـ «ليست هذه نعمةً دومًا. يجب أن أُعلمك بأنَّ ماضيَّ كلَّه مثل اليوم، وحوشٌ وأهوالٌ لا يُريد أحدٌ أن يسمع عنها».

نظر في عينَيَّ، وعلى نحوٍ غريب ذكَّرني شيءٌ ما فيه بترايجون، ذلك الصَّبر الرُّوحانيّ الهادئ.

قال: «أريدُ أن أسمع».

لأسبابٍ عدَّةٍ أعرضتُ عنه. أمُّه وابني، أبوه وأثينا، لأنَّني ربَّةٌ وهو فانٍ. لكنْ تبادرَ إلى ذهني لحظتها أنَّ في أصل كلِّ هذه الأسباب نوعًا من الخوف، وأنا لم أكن جبانةً قطُّ.

مددتُ يدي في الهواء الحي بيننا، ووجدته.

الفصل السَّادس والعشرون

ثلاثة أيَّامٍ أمضيناها على ذلك السَّاحل. لم نصنع مجاذيفَ أو نرتق أشرعةً، بل اصطدنا سمكًا وقطفنا فاكهةً، ولم نبحث عن شيءٍ إلَّا ما وجدناه في متناولنا. وضعتُ راحةَ يدي على بطنه شاعرةً بصعوده وهبوطه مع أنفاسه، وقد بدَت كتفاه مفتولتَي العضلات، وخشنَت مؤخَّرةُ عُنقه من سفعة الشَّمس.

حكيتُ له تلك القصص في ضوء النَّار وفي ضوء الصَّباح، بعد فروغنا من المتاع. بعضها كان أسهل ممَّا حسبتُ، إذ وجدتُ نوعًا من البهجة في رسم پروميثيوس له، وفي جعل آريادني ودايدالوس يحيَيان من جديد. على أنَّ أجزاءً أخرى لم تكن بتلك السُّهولة، وأحيانًا في أثناء حكْيي انتابَني الغضبُ وغلُظَ الكلامُ في فمي. مَن هو ليكون بهذا الصَّبر فيما أريقُ أنا دمي؟ إنَّني امرأةٌ ناضجة، إنَّني إلهة، وأكبرُه بألف جيل، ولا أحتاجُ إلى شفقته أو انتباهه، أو أيِّ شيء آخر.

أسأله: «إذن؟ لِمَ لا تقول شيئًا؟».

ويُجيب: «أنا منصت».

عندما فرغتُ من الحكاية، قلتُ: «أترى؟ الآلهة كائناتٌ قبيحة».

ردَّ: «نحن لسنا دماءنا. ذات مرّةٍ أخبرتْني ساحرةٌ بهذا».

* * *

في اليوم الثّالث، قطعنا مجذافيْن جديديْن، وحوّلتُ قِرَبًا وملأتها بالماء، ثمّ قطفتُ بعض الفواكه. شاهدته يُجهّز الشّراع بالحبال بكفاءةٍ بسيطة، ويتفقّد البدنَ بحثًا عن ثقوب، وقلت له: «لا أدري فيما كنتُ أفكّرُ. لا يُمكنني الإبحار بقارب. ماذا كنتُ لأفعل لو لم تأتِ؟».

ضحك قائلًا: «كنتِ لتَبلُغي وجهتكِ في النّهاية، فقط بعد أن تُكلّفكِ الرّحلةُ قليلًا من أبديّتكِ. أين نذهب الآن؟».

ـ «إلى ساحلِ شرق كريت، ثمّة خليجٌ صغير، نصفه رمل ونصفه صخر، وعلى مرأى منه غابةُ أشجارٍ قصيرةٍ وتلال. في هذا الوقت من العام، يُفترَض أن يدلّنا التنّين على الطّريق من أعلى».

اكتفى برفع حاجبيْه.

قلتُ: «إذا اقتربتَ بي بما فيه الكفاية، فأظنُّ أنّني سأستطيع العثور عليه»، وراقبته متسائلةً: «هل ستسألني عمّا هناك؟».

ـ «لا أظنّكِ تريدينني أن أسأل».

أقلَّ من شهرٍ قضينا معًا. ومع ذلك، بدا أنّه يعرفني أكثر من أيّ أحدٍ خبرَه هذا العالم.

قطعنا رحلةً سهلةً في الرِّياح الطَّازجة والشَّمس التي لم تبدأ بعدُ في بثِّ لظاها الصَّيفي، وفي اللَّيل خيَّمنا على أيِّ سواحل وجدناها. اعتاد تليماكوس الحياة راعيًا للماعز، وأدركتُ أنا أنَّني لا أفتقدُ آنيتَي الذَّهبِ والفضَّة ومعلَّقاتي. شوينا أسماكنا على أطراف عِصِيٍّ، وحملتُ الفواكه في فستاني؛ وإذا كان هناك منزلٌ عرضنا خدماتنا لقاء القليل من الخبز والجُبنة والنَّبيذ. نحتَ هو للأطفال لُعبًا ورقَّع الزَّوارق، وحملتُ أنا مراهمي، وإذا غطَّيتُ رأسي أمكنني تقديم نفسي باعتباري مداويةً أتَت لتُخفِّف عنهم الأوجاع والحُمَّى. كان امتنانهم بسيطًا واضحًا وامتناننا كذلك، ولم يركع أحد.

فيما أبحرَ القاربُ تحت قوس السَّماء الأزرق، جلسنا معًا على ألواحه نتكلَّم عن النَّاس الذين قابلناهم، والخطوط السَّاحليَّة التي مررنا بها، والدَّلافين التي قضَت نصف الصَّباح في أعقابنا مبتسمةً ناثرةً الماء على جانبيْنا.

قال: «أتدرين أنَّ قبل مجيئي إلى آيايا تركتُ إثاكا مرَّةً فقط؟».

أومأتُ برأسي: «أنا رأيتُ كريت وبعض الجُزر في الطَّريق، وهذا كلُّ شيء. لطالما تمنَّيتُ الذَّهاب إلى مصر».

ـ «نعم.. وطروادةَ، ومدائنَ سومر العظيمة».

ـ «آشور. وأريدُ أن أرى إثيوبيا، والشَّمال أيضًا، حيث الأراضي الجليديَّة، ومملكة تليجونوس الجديدة في الغرب».

سرحنا ببصرنا فوق الأمواج، وخيَّم الصَّمت بيننا. المفترض أن تكون الجملةُ التَّالية: لنذهب معًا، غير أنَّني لم أستطع نُطقها، ليس في حينها وربَّما أبدًا. ولأنَّه يعرفني جيِّدًا فسيبقى صامتًا.

سألته: «أمُّك، أتحسبها ستغضب منّا؟».

أجاب ساخرًا: «لا. لقد عرفَت قبلنا على الأرجح».

ـ «لن يُدهِشني أن نرجع فنجدها ساحرةً».

لطالما أسعدني أن أباغته وأرى اتّزانه ينهار. «ماذا؟».

ـ «أوه، نعم. من البداية كانت عينها على أعشابي. لو أنَّ هناك وقتًا لعلّمتها. سأراهنكَ».

ـ «إن كنتِ واثقةً إلى هذا الحدّ، فلا أظنّني سأقبلُ الرّهان».

ليلًا، بات جِلدي وجِلده واحدًا، وبعد غيابه في النّوم تمدّدتُ إلى جواره شاعرةً بالدّفء حيث تتلامَس أطرافنا، ومشاهِدةً الخفقات النّاعمة في حلقه. في عينيْه تجاعيد، وفي رقبته تجاعيد أكثر، وعندما رآنا النّاس معًا حسبوني أصغر منه سنًّا. ولكنْ مع أنَّ منظري وصوتي كالفانين، فقد كنتُ سمكةً بلا دم، من مياهي أراه وأرى السّماء كلّها من خلفه، لكنّني لا أستطيعُ العبورَ إليه.

* * *

بالاعتماد على كوكبة التّنّين وتليماكوس، وجدنا ساحلي القديم أخيرًا. وصلنا إلى الخليج الضيّق صباحًا وعربة أبي في منتصف الطّريق إلى ذُروتها، وأمسك تليماكوس المرساةَ الحجريّةَ، سائلًا: «ألقيها أم أسحبُ القارب على الرّمال؟».

ـ «ألقِها».

غيّرتْ مئاتٌ من سنين المدّ والجَزر والعواصف شكلَ الخطّ السّاحلي، لكنَّ قدمَيّ تذكّرتا نعومة الرّمل والعشب الخشن بحشائشه.

من بعيدٍ، تصاعدَ دُخانٌ رماديٌّ خفيفٌ، وجاء صوتُ أجراسِ ماعز. مررتُ بالصُّخور النَّاتئة التي تعوَّدتُ الجلوس عليها مع إيبتيس، ومررتُ بالغابة التي استلقيتُ فيها بعدما حرقني أبي، التي استحالت إلى مجرَّد مجموعةٍ من شجر الصَّنوبر المبعثر هنا وهناك، ورأيتُ التِّلال التي سحبتُ جلاوكوس عليها مفعمةً بالرَّبيع: زهور قشٍّ وخُزامى، وزنابقُ وبنفسجٌ ووردٌ صخريٌّ جميل، وفي منتصفها باقةٌ صغيرة من الزُّهور الصَّفراء النَّابتة من دم كرونوس.

ارتفعَت النَّغمةُ الطنَّانة القديمة كأنَّما تُحيِّيني، وقلتُ لتليماكوس: «لا تلمسها»، لكنْ في لحظة خروج الكلمات منِّي أدركتُ مدى حُمقها. لا تقدر هذه الزُّهور على أن تفعل به شيئًا، فهو نفسه الحقَّة بالفعل، ولن أرى شعرةً فيه تتبدَّل.

بواسطة سكِّيني، أخرجتُ كلَّ ساقٍ من جذرها، ثمَّ غلَّفتها بالتُّربة وقِطعٍ من الجِلد، ووضعتها في ظلام حقيبتي. لم يَعُد هناك سببٌ للبقاء، فرفعنا المرساة ووجَّهنا مقدِّمة القارب نحو الدِّيار. مرَّت الأمواج والجُزر، لكنَّني بالكاد أبصرتها. مشدودةً عن آخِري كنتُ كرامٍ يترصَّد السَّماءَ في انتظار ظهور الطَّائر. في المساء الأخير، حين اقتربَتْ آيايا لدرجة أنَّني حسبتُني أشمُّ عبير أزهارها المحمول على هواء البحر، حكيتُ له القصَّة التي أمسكتُ عنها، قصَّةَ أوائل رجالٍ أتوا إلى جزيرتي، وما فعلته بهم في المقابل.

كانت النُّجوم وقَّادةً، ونجم المساء ڤسپر يتوهَّج كاللَّهب من فوقنا. «لم أحكِ لك هذا من قبلُ، لأنَّني لم أرده أن يحول بيننا».

- «والآن لا تُمانِعين إذا حال بيننا؟».

من ظُلمة حقيبتي غنَّت الأزهار لحنها الأصفر.

ـ «الآن أريدك أن تعرف الحقيقة، مهما حدثَ بعد ذلك».

تموَّج كلأ السَّاحل في النَّسيم المالح الخفيف. كان يضمُّ يدي إلى صدره، وشعرتُ بنبض دمه الثَّابت.

قال: «لم أضغط عليكِ، ولن أضغط. أعلمُ أن هناك أسبابًا تمنعكِ من الرَّدِّ عليَّ، لكنْ إذا...»، وتوقف لحظةً قبل أن يُتابع: «أريدكِ أن تعرفي، إذا ذهبتِ إلى مصر، إذا ذهبتِ إلى أيِّ مكان، فأريدُ أن أذهب معكِ».

نبضةً نبضةً مرَّت حياتُه تحت أصابعي، وقلتُ: «أشكرك».

* * *

قابلتنا پنلوپي على ساحل آيايا. كانت الشَّمس مرتفعةً، والجزيرة مزدهرةً للغاية بالفواكه الريَّانة على الفروع، والخُضرة الجديدة المنبثقة من كلِّ شقٍّ وصدع. بدت مستريحةً وسط هذه الخصوبة الوافرة، ولوَّحت لنا رافعةً عقيرتها بالتَّحيَّة.

إن كانت قد لاحظت تغييرًا بيننا، فإنَّها لم تُعلِّق. عانقتنا، وقالت إنَّ كلَّ شيءٍ ظلَّ هادئًا، لا زُوَّار، وفي الآن نفسه لم يهدأ شيءٌ على الإطلاق. وُلِدَ المزيد من أشبال الأُسود، وغطَّى الضَّباب الخليجَ الشَّرقيَّ ثلاثة أيَّام، وانهمرَت الأمطار مدرارًا حتى إنَّ الغدير فاض عن ضفافه. لاح التَّورُّد على وجنتيْها وهي تتكلَّم، ومشينا مارِّين بشجر الغار الملتمع وشُجيرات الورديَّة، وعبرنا من حديقتي ثمَّ الباب السِّنديانيِّ الضَّخم. تنشَّقتُ هواء منزلي العابق برائحة الأعشاب النَّظيفة، وشعرتُ باللذَّة التي كثيرًا ما يترنَّم بها الشُّعراء، لذَّة العودة إلى الدِّيار.

في حُجرتي، وجدتُ ملاءات سريري الذَّهبيّ العريض نظيفةً كالمعتاد، فيما تناهى إلى مسمعي صوتُ تليماكوس، إذ حكى لأمّه قصّة سكيلا. خرجتُ حافيةَ القدميْن لأمشي في أنحاء الجزيرة. التُّربةُ دافئةٌ تحت قدمَيَّ والزُّهور تهزُّ رؤوسَها الباشَّة، وقد تحرَّكَ أحدُ الأُسود في أعقابي. هل كنتُ أقول وداعًا؟ وقفتُ مستقيمةً بارزةً تحت قوس السَّماء العريض، وفكَّرتُ: اللَّيلةَ، اللَّيلةَ تحت القمر، وحدي.

عدتُ عند الغروب. كان تليماكوس قد ذهبَ لصيد السَّمك للعشاء، وجلستُ مع پنلوپي إلى الطَّاولة. رأيتُ أصابعها ملطَّخةً بالأخضر، وفي الهواء شممتُ رائحةَ التَّعاويذ.

قلتُ: «منذ وقتٍ طويل أتساءلُ عن شيء. عندما تشاجرنا بسبب أثينا، كيف عرفتِ أن تركعي لي؟ أن هذا سيُخزيني؟».

ـ «آه. كان تخمينًا. إنَّه شيءٌ قاله أودسيوس عنكِ مرَّةً».

ـ «ألا وهو؟».

ـ «إنَّه لم يلتقِ قطُّ إلهًا أقل استمتاعًا بألوهيَّته».

ابتسمتُ. حتى بعد موته ما زال بإمكانه أن يُفاجئني. «أظنُّ هذا صحيحًا. قلتِ إنَّه شكَّل ممالكَ كاملةً، لكنَّه شكَّل أفكارَ البشر أيضًا. من قبله كان كلُّ الأبطال هرقل وجيسون؛ أمَّا الآن فسيلعب الأطفالُ ألعابَ الإبحار وغزو البلدان المعادية بالعقل والكلام».

ـ «كان ذلك ليروقه».

خطر لي هذا أيضًا. مرَّت لحظةٌ، ونظرتُ إلى يديْها الملطَّختيْن على الطَّاولة أمامي.

ـ «و...؟ هل ستُخبِرينني؟ ما أخبار سحركِ؟».

ابتسمتْ ابتسامتها الدَّاخليَّة، وأجابت: «كما قلتِ، إنَّها مسألة إرادةٍ في الغالب، إرادة وعمل».

قلتُ: «لقد انتهى عهدي هنا بشكلٍ أو بآخر. أتودِّين أن تكوني ساحرةَ آيايا بدلًا منِّي؟».

ـ «أظنُّ هذا، أظنُّ هذا حقًّا. لكنَّ شَعري لا يبدو سليمًا. إنَّه لا يُشبِه شَعركِ على الإطلاق».

ـ «يمكنكِ أن تَصبُغيه».

أبدت الامتعاض، وقالت: «سأقول بدلًا من ذلك إنَّه شابَ من شعوذتي القبيحة».

ضحكنا. كانت قد فرغتْ من البساط، وعلَّقته وراءها على الحائط، ذلك السبَّاح الذي يشقُّ الماء نحو الأعماق العاصفة.

قلتُ: «إذا وجدتِ نفسكِ في حاجةٍ إلى صُحبةٍ فأخبِري الآلهة بأنَّكِ ستأخذين بناتهم الفاسدات. أظنُّكِ ستتحلَّين باللَّمسة الصَّحيحة معهنَّ».

ردَّت: «سأعتبرها مجاملةً»، وفركت بُقعةً على الطَّاولة مستطردةً: «وماذا عن ابني؟ هل سيذهب معكِ؟».

أدركتُ أنَّني شبه متوتِّرة إذ أجبتُ: «إذا أرادَ».

ـ «وماذا تُريدين أنتِ؟».

ـ «أريده أن يأتي إن كان هذا مُمكنًا. لكنَّ هنالك شيئًا ما زال عليَّ أن أفعله، ولا أدري ما سيُسفِر عنه».

ثبّتت عينيْها الرّماديّتيْن الهادئتيْن على عينَيّ، وفكّرتُ أنَّ جبهتها مقوّسةٌ كالمعابد. كيّسةٌ حليمةٌ هي. قالت: «تليماكوس كان ابنًا بارًّا، وقضى في ذلك وقتًا أطول ممّا ينبغي، والآن يجب أن يكون سيّد قراره»، ومسّت يدي مردفةً: «ما من شيءٍ أكيد، ونحن نعلم هذا، لكنْ إن كان لي أن أثق بأنَّ شيئًا ما سيُنفّذ لائتمنتكِ عليه».

***

حملتُ أطباقنا إلى المطبخ، وغسلتها بعنايةٍ حتى برقَت، وشحذتُ سكاكيني ووضعتُ كلًّا منها في مكانه، ومسحتُ الطّاولات وكنستُ الأرض. حين عدتُ إلى مستوقدي وجدتُ تليماكوس وحده هناك، فمشينا إلى الفسحة الصّغيرة التي يحبُّها كلانا، وتحدّثنا فيها عن أثينا منذ عُمرٍ كامل.

قلتُ: «التّعويذة التي أنتوي إلقاءها، لا أدري ما سيَحدث حين ألقيها. قد لا تنجح من الأصل. يُحتمَل أنَّ قوّةَ كرونوس غيرُ قابلةٍ للنَّقل من تُربتها».

ردَّ: «سنعود إذن، سنعود إلى أن ترضي».

الأمر في غاية البساطة. إذا كنتِ تُريدين هذا فسأفعله، إذا كان سيُسعِدكِ فسأذهبُ معكِ. أهناك لحظةٌ ينفطر فيها القلب؟ لكنَّ القلب المفطور لا يكفي، وقد اكتسبتُ حكمةً كافيةً لأعرف هذا.

قبّلته، وتركته هناك.

الفصل السَّابع والعشرون

كانت الضَّفادع قد ذهبَت إلى مراغاتها، ونامَت السَّمندلات في جحورها البنِّيَّة، وعكسَت البِركة وجهَ القمر النِّصفي ورؤوس النُّجوم المدبَّبة، تُحيط بها من كلِّ جانبٍ الأشجارُ المنحنية المتمايلة.

ركعتُ على الضفَّة غزيرةِ العُشب، وأمامي الإناءُ البرونزيُّ القديم الذي استخدمته في السِّحر منذ البداية، وقد استراحت إلى جواري الأزهار في أغلفة جذورها الشَّاحبة. ساقًا ساقًا قطَّعتها، واعتصرتُ منها قطراتِ النُّسغ السَّائل، ليصطبغ قعرُ الإناء بلونٍ داكنٍ، ويبدأ في عكس القمر بدوره. آخِرُ زهرةٍ لم أعتصرها، بل زرعتُها هناك على الشَّاطئ حيث تُلقي الشَّمس ضوءها كلَّ صباح، علَّها تنمو.

شعرتُ بالخوف في نفسي يتلألأ كالماء. هذه الزُّهور حوَّلت سكيلا إلى وحش، مع أنَّها لم تفعل أكثرَ من السُّخرية. وجلاوكوس أصبح وحشًا أيضًا إلى حدٍّ ما، إذ طردَت الألوهيَّة كلَّ ما فيه من طيبة. تذكَّرتُ

رُعبي القديم من مولد تليجونوس: ما الكائن المنتظر في داخلي؟ صوَّر لي خيالي أهوالًا. ستنبت منّي رؤوسٌ لزجة وأسنانٌ صفراء، سأنسلُ إلى التَّجويف، وأفترسُ تليماكوس وأمزِّقه أشلاءً.

ولكنْ، قلتُ لنفسي، قد لا يَحدث شيءٌ من هذا، قد يتحقَّق كلُّ ما آمله، وأذهبُ حقًّا مع تليماكوس إلى مصرَ، وتلك البلاد الأخرى جميعًا. سنَعبُر البحار ذهابًا وعودةً، نتعيَّش من سحري ونجارته، وعندما نزور بلدةً ما مرَّةً ثانيةً سيخرُج النَّاسُ من منازلهم ويُحيُّوننا. سيُرقِّع سُفنهم، وأُلقي تعاويذَ تقيهم لدغَ الذُّباب والحُمَّى، ونستمتع بإصلاحات العالم البسيطة.

أينعَت الرُّؤيا المفعمة بالحياة كالعُشب الرَّطب من تحتي والسَّماء السَّوداء من فوقي. سنزور بوَّابة الأسديْن في موكناي، حيث يحكُم ورثةُ أجاممنون، وأسوار طروادة التي تُبرِّد حجارتها الرِّيحُ الهابَّة من قمَّة جبل إيدا الجليديَّة. سنركب الأفيال ونمشي في ليل الصَّحراء تحت أعيُن آلهةٍ لم تسمع قطُّ عن الجبابرة أو الأوليمب، ولا تلحظنا أكثر ممَّا تلحظ خنافسَ الرِّمال السَّاعية عند أقدامنا. سيقول لي إنَّه يريد أطفالًا، وأقول: «لست تعلم ما تطلُبه منِّي»، فيقول: «لستِ وحدكِ هذه المرَّة».

نُنجِب ابنةً، ثم أخرى، وتُعنى بنلوبي بي على فِراش الميلاد. هناك ألمٌ، لكنَّه يمرُّ. في طفولة الفتاتيْن نقيم على الجزيرة، وبعدها نتردَّد إليها كثيرًا. تنسج بنلوبي وتُلقي التَّعاويذ فيما تنسلُّ الحوريَّات من حولها، ومهما شابَت فلا يبدو أنَّها تكلُّ أبدًا، إلَّا أنَّني أحيانًا أرى عينيْها تلتفتان إلى الأفق، حيث تنتظر دارُ الموتى وأرواحها.

الابنتان اللَّتان أجسِّدهما في حُلمي مختلفتان عن تليجونوس، وكلتاهما مختلفةٌ عن الأخرى. إحداهما تُطارِد الأُسود في دوائرَ، في

حين تجلس الثَّانية في الرُّكن تُشاهِد وتتذكَّر كلَّ شيء. نهيم بهما حُبًّا، ونقف أمام وجهَيْهما النَّائمين متهامسيْن عمَّا قالته هذه اليوم، وما فعلَته هذه. نأخذهما للقاء تليجونوس المعتلي عرشه وسط بساتينه الذَّهبيَّة، فيهبُّ من فوق أريكته ليُعانِقنا جميعًا، ويُقدِّمنا لقائد حَرَسه الشَّاب، الفارع فاحم الشَّعر، الذي لا يُبارِحه أبدًا. يقول إنَّه لم يتزوَّج بعدُ، وقد لا يتزوَّج أبدًا، وأبتسمُ متخيِّلةً غيْظ أثينا. مهذَّبٌ للغاية هو، لكنَّه صُلبٌ راسخٌ كأسوار مدينته، ولا أقلقُ عليه.

تقدَّمتُ في السِّن. حينما أنظر في مرآتي البرونز المصقولة أرى وجهي مسطَّرًا بالتَّجاعيد، وامتلأ جسدي أيضًا، وبدأ جِلدي يترهَّل. تجرحني أعشابي وتبقى النُّدوب. أحيانًا يُعجِبني هذا، وأحيانًا أكون متكبِّرةً غير راضية، لكنَّني لا أتمنَّى عودةَ نفسي. بالطَّبع، يحنُّ لحمي إلى الأرض، فإنَّه إليها ينتمي، وذات يومٍ سيقودني هرميز إلى أبهاء الموتى. سيتعرَّف كلانا الآخرَ بالكاد، لأنَّني سأكون مبيضَّةَ الشَّعر وهو مسربلًا بالغموض بصفته مرشد الأرواح، الوقتُ الوحيد الذي يلتزم فيه الوقار. أظنُّني سأستمتع برؤية هذا.

أعرف كم أنا محظوظةٌ، مغمورةٌ بالحظِّ، متخمةٌ به، أتعثَّرُ فيه سكرانة. في بعض الأحيان، أستيقظُ في الظَّلام مخافة تداعيات حياتي وأنفاسها الواهنة. إلى جواري، يتردَّد نبضُ زوجي في حلقه، وفي فِراشيْهما يظهر على جِلد طفلتَيَّ كلُّ خدشٍ صغير. من شأن نسيمٍ خفيفٍ أن يذروهما، والعالم مليءٌ بما هو أكثر من النَّسيم؛ بالأمراض والكوارث والوحوش، وآلامٍ من ألف صنف. لا أنسى أبي وأمثاله المصلَتين علينا، لامعين بثَّارين كسيوفٍ موجَّهة نحو لحمنا الضَّعيف. إن لم يُنزِلوا بنا المصائب من باب النِّكاية والنِّقمة، فستسقُط مصادفةً أو في نزوة. تتصارَع أنفاسي في حلقي. كيف أواصلُ العيشَ تحت وطأة الهلاك هذه؟

عندئذٍ، أنهضُ وأذهبُ إلى أعشابي. أصنعُ شيئًا، أحوِّلُ شيئًا. سحري قويٌّ كما كان دومًا، بل أقوى. هذا أيضًا حظٌّ سعيد. كم أحدًا يتمتَّع بمثل قوَّتي ورفاهيَّتي وحصانتي؟ يقوم تليماكوس من فِراشنا ليجدني، ويجلس معي في الظُّلمة خضراء الرَّائحة ممسكًا يدي. وجهانا كلاهما تغضَّن الآن، وتركَتْ عليه السِّنون علاماتها.

يقول: سرسي، كلُّ شيءٍ سيكون بخير.

ليست مقولةَ عرَّافةٍ أو نبي، بل كلماتٌ قد تقولها لطفل، وسمعته يقولها لابنتيْنا وهو يُهَدهِدهما لتناما ثانيةً بعد أن أيقظهما كابوس، وهو يُضمِّد جروحهما الصَّغيرة ويُلطِّف لسعاتهما. بَشَرته مألوفةٌ لي كبشرتي تحت أصابعي. أصغي إلى أنفاسه الدَّافئة في هواء اللَّيل، وبشكلٍ ما أجدُ السَّلوى. إنَّه لا يعني أن لا ألم هنالك، لا يعني أنَّنا لسنا خائفين. كلُّ ما يعنيه أنَّنا هنا. هذا هو معنى السِّباحة في المدّ، والمشي على الأرض والشُّعور بلمستها تحت قدميْك، هذا هو معنى أن تكون حيًّا.

* * *

بالأعلى، تنخفض كوكبات النُّجوم وتدور، وتتألَّق ألوهيَّتي فيَّ كآخِر أشعَّة الشَّمس قبل أن تغرق في البحر. من قبلُ، حسبتُ الآلهة نقيض الموت، لكنَّني أرى الآن أنَّهم أشدّ مواتًا من أيِّ شيءٍ آخر، لأنَّهم لا يتبدَّلون، ولا يستطيعون الاحتفاظ بشيءٍ في أيديهم.

طيلة حياتي تحرَّكتُ إلى الأمام، وهأنذي هنا الآن. إنَّ لي صوتَ فانيةٍ، فلأحظَ بالباقي إذن.

أرفعُ الإناء المترع إلى شفتَيَّ وأشربُ.

شخصيّات الرِّواية



الآلهة الجبابرة

أوقيانوس: في أشعار هوميروس، أوقيانوس هو الإله الجبّار صاحب نهر المياه العذبة العظيم أوقيانوس، الذي تخيَّل القُدماء أنّه يُحيط بالأرض، وفي أزمنةٍ لاحقة أصبح اسمه مرتبطًا بالبحر والمياه المالحة. أوقيانوس هو جدُّ سرسي لأمّها، وأبو عددٍ كبيرٍ من الحوريّات والآلهة.

إييتيس: أخو سرسي وملك كولخيس المشعوذ، وهي مملكة تقع على حافة البحر الأسود الشَّرقيّة. كان إيبتيس أيضًا أبا السّاحرة الفانية ميديا، وصاحب الصُّوف الذَّهبيّ، إلى أن سرقَه جيسون وبحّارة الأرجو بمساعدة ميديا.

باسيفاي: أخت سرسي، وساحرةٌ قويّةٌ تتزوّج ابن زوس الفاني مينوس، وتُصبح ملكةَ كريت، لتُنجِب معه أولادًا عدّةً، منهم آريادني وفايدرا، وتُدبّر أيضًا حيلةً لتحمل من ثورٍ أبيضَ مقدَّس لتلد المينوتور.

پرسي: أوقيانوسيّة، وإحدى بنات أوقيانوس الحوريّات، وأُم سرسي وزوجة هيليوس. في قصصٍ لاحقة، ارتبط اسمها أيضًا بالسّحر.

برسيس: أخو سرسي الذي ارتبط اسمه ببعض القصص عن بلاد فارس القديمة.

بروتيوس: إله بحري يُبدِّل هيئته، وحارسُ قطيعِ فقمات بوسايدون.

بروميثيوس: إلهٌ جبَّار. عصى زوس ليُساعد الفانين، فمنحَهم النَّار، وفي بعض القصص علَّمهم فنون الحضارة كذلك. عاقبَه زوس بتكبيله بالسَّلاسل على جُرفٍ في جبال القوقاز، حيث أتى عُقابٌ كلَّ يومٍ ليُمزِّق كبده ويلتهمها، فتنمو الكبد ليلًا من جديد.

بورياس: رياح الشَّمال مجسَّدةً. تُصوِّره بعض الأساطير مسؤولًا عن موت الشَّاب الوسيم هياسينثوس. إخوته هُم: زفيروس (رياح الغرب)، ونوتوس (رياح الجنوب)، ويوروس (رياح الشَّرق).

تيثيس: زوجة أوقيانوس الجبَّارة، وجدَّة سرسي. مثل زوجها، ارتبط اسمها في البدء بالمياه العذبة، ولكنْ صُوِّرَت لاحقًا على أنَّها إلهة بحر.

سرسي: ساحرةٌ عاشت على جزيرة آيايا، ابنة هيليوس والحوريَّة برسي. اسمها مشتقٌّ على الأرجح من كلمةٍ يونانيَّة تعني «الصَّقر» أو «الباز». في «الأوديسة» تُحوِّل رجال أوديسيوس إلى خنازير، لكنْ بعد أن يتحدَّاها تتَّخذه عشيقًا، وتسمح له ولرجاله بالبقاء معها، وتُعينهم عندما يرحلون. لسرسي حياة أدبيَّة طويلة، وألهمَت مؤلِّفين، مثل: أوفيد وجيمس جويس ويودورا وِلتي ومارجريت آتوود.

سيلين: إلهة القمر، عمَّة سرسي وأخت هيليوس. قادت عربةً تجرُّها خيولٌ فضِّيَّة في سماء اللَّيل، وكان زوجها الرَّاعي الوسيم إندميون، وهو فانٍ مسحورٌ بنومٍ أبديٍّ لا يشيخ فيه أبدًا.

كاليبسو: ابنةٌ للجبَّار أطلس، تَسكُن جزيرة أوجيجيا. في «الأوديسة»، تُؤوي أوديسيوس بعد غرق سفينته، ولوقوعها في حُبِّه تُبقيه على جزيرتها سبعة أعوام، إلى أن تأمرها الآلهة بإطلاق سراحه.

نموسيني: إلهة الذِّكريات، وأمُّ ربَّات الإلهام التِّسع.

نيريوس: إلهٌ سابقٌ للبحر، طغى عليه الأوليمبي بوسايدون، وأبو عددٍ كبير من الأولاد الربَّانيِّين، منهم حوريَّة البحر ثيتيس.

هيليوس: إله الشَّمس الجبَّار الذي أنجب أولادًا كثيرين، منهم سرسي وإيتيس وباسيفاي وبرسيس، بالإضافة إلى أختيهم غير الشَّقيقتيْن الحوريَّتيْن فايثوسا ولامبيشا. في أغلب الأحيان، صُوِّر في عَرَبته التي تجرُّها خيولٌ ذهبيَّة، وقادها في السَّماء كلَّ يوم. في «الأوديسة»، يَطلب من زوس أن يفتك برجال أودسيوس بعدما قتلوا أبقاره المقدَّسة.

الألهة الأوليمب

أبولو: إله الضَّوء والموسيقى والنُّبوءة والدَّواء. كان أبولو ابن زوس وتوأم أرتميس، ونصير الطرواديِّين في حرب طروادة.

أثينا: إلهة الحكمة والنِّساجة وفنون الحرب القويَّة. كانت داعمةً شديدةً للإغريق في حرب طروادة، وحارسةً تحديدًا لأودسيوس صاحب الحِيَل. تظهر في «الإلياذة» و«الأوديسة»، ويقال إنَّها المفضَّلة عند زوس من بين أولاده، وقد وُلِدَت من رأسه مكتملة التَّكوين ومدرَّعةً.

أَرتميس: إلهة الصَّيد، ابنة زوس وأخت أبولو. في «الأوديسة» يُذكَر أنَّها قاتلة الأميرة أريادني.

أَيليثيا: إلهة الحَمْل التي تُساعِد الأمَّهات في أثناء الوضع، وتتمتَّع أيضًا بالقُدرة على منع ميلاد الأطفال.

ديونيسوس: ابن زوس، إله الخمر والعربدة والنَّشوة. أمر ثيسيوس بالتَّخلِّي عن الأميرة أريادني إذ أرادها لنفسه زوجةً.

زوس: ملك الألهة والبشر، وحاكم العالم من فوق عرشه على قمَّة جبل أوليمبوس. شنَّ الحرب على الجبابرة لينتقم من أبيه كرونوس مطيحًا به في النِّهاية، وأنجبَ عددًا كبيرًا من الآلهة والفانين، منهم أثينا وأبولو وديونيسوس وهرقل وهلن ومينوس.

هرميز: ابن زوس والحوريَّة مايا، ورسول الآلهة علاوةً على كونه إله السَّفر والخداع والتِّجارة والحدود، كما قاد أرواح الموتى إلى العالم السُّفلي. في بعض القصص، يُعَدُّ هرميز سلفَ أودسيوس، وفي «الأوديسة» يُشير على أودسيوس بكيفيَّة إبطال سحر سرسي.

أجاممنون: حاكم موكناي، أكبر ممالك اليونان. خدمَ في منصب القائد العام لحملة الإغريق لاستعادة هلن زوجة أخيه منيليوس من طروادة. اتَّصف بالعدوانيَّة والكبرياء خلال السَّنوات العشر التي قضاها في الحرب، ولدى عودته إلى الوطن في موكناي قتلَته زوجته كلايتنمسترا. في «الأوديسة»، يتكلَّم أودسيوس مع طيفه في العالم السُّفلي.

أخيل: ابن حوريَّة البحر ثيتيس وپليوس ملك فثيا، وكان أعظم مُحاربي جيله، علاوةً على كونه أسرعهم وأوسمهم. في سنِّ المراهقة أُعطِيَ أخيل خيارًا: إمَّا العُمر الطَّويل مغمورًا أو العُمر القصير مشهورًا، فاختار الشُّهرة، وأبحر مع الإغريق الآخَرين إلى طروادة. على أنَّه تشاحن مع أجاممنون في عام الحرب التَّاسع ورفض الاستمرار في القتال، ولم يَعُد إلى المعركة إلَّا بعد موت حبيبه پاتروكلوس على يد هكتور، وفي ثورته صرعَ المُحارب الطرواديّ العظيم، قبل أن يقتله في النِّهاية پاريس أخو هكتور بمساعدة الإله أپولو.

أريادني: أميرة كريتيَّة، وابنة الإلهة پاسيفاي ونصف الإله مينوس. عندما أتى البطل ثيسيوس لقتل المينوتور أعانته معطيةً إيَّاه سيفًا وكرةً من الخيط ليحلَّه وراءه، كي يجد طريقَ الخروجِ من التِّيه بعد موت الكائن. لاحقًا، فرَّت معه، وانتوى الاثنان الزَّواج قبل تدخُّل الإله ديونيسوس.

إلپينور: فردٌ من طاقم أوديوس. في «الأوديسة»، يموت سقوطًا من فوق سقف منزل سرسي.

أودسيوس: أمير إثاكا الدَّاهية الأثير عند الإلهة أثينا، وزوج پنلوپي وأبو تليماكوس. خلال حرب طروادة، كان من كبار مستشاري أجاممنون، وهو من دبَّر خدعة حصان طروادة التي انتصر بها الإغريق في الحرب. رحلة عودته إلى الوطن، التي استغرقت عشرة أعوام، هي موضوع «أوديسة» هوميروس، وتتضمَّن مواجهته الشَّهيرة مع السَّيكلوپس پوليفيمس، والسَّاحرة سرسي، والوحشيْن سكيلا وكاريبديس، والسَّايرينات. يُطلِق عليه هوميروس ألقابًا كثيرةً، منها پوليميتس (رجل الحيل العديدة)، وپوليتروپوس (رجل التَّقلُّبات العديدة)، وپوليتلاس (شديد الاحتمال).

إيكاروس: ابنُ الحِرفيِّ النَّابغة دايدالوس. هربَ هو وأبوه من كريت محمولَيْن على أجنحةٍ مصنوعةٍ من الرِّيش والشَّمع، وتجاهل إيكاروس تحذيرَ أبيه من الاقترابِ من الطَّيران قريبًا من الشَّمس، فذابَ شمعه وتحطَّم جناحاه، ليَسقُط إيكاروس في البحر.

باتروكلوس: أحبُّ رفاقِ البطل أخيل، وفي إعاداتٍ عدَّة للقصَّة: حبيبه أيضًا. في «الإلياذة»، يبدأ قراره المصيريّ بمحاولة إنقاذ الإغريق، عن طريق ارتداء درع أخيل، الفصل الأخير من القصَّة. وعندما يَقتله هكتور يُصدَم أخيل صدمةً عنيفةً، ويُنزِل انتقامًا غاشمًا بالطرواديِّين، وهو ما يُفضي إلى موت أخيل نفسه. في «الأوديسة»، يرى أودسيوس باتروكلوس إلى جانب أخيل حين يزور العالم السُّفلي.

پنلوپي: ابنة عمومة هلن الأسبرطيَّة، وزوجة أودسيوس، وأمُّ تليماكوس، المحتفى بها لذكائها وإخلاصها. لمَّا لم يرجع أودسيوس إلى الوطن بعد الحرب، حاصرَها الخُطَّاب الذين استولوا على منزلها محاولين الضَّغط عليها كي تتزوَّج أحدَهم. تقول القصَّة الشَّهيرة إنَّها وعدَت باختيار واحدٍ منهم حين تَفرُغ من كفنٍ تنسجه، وبهذه الطَّريقة ماطلَتهم أعوامًا بحلِّ ما نسجَته نهارًا كلَّ ليلة.

پيروس: ابن أخيل الذي لعبَ دورًا فاعلًا في اقتحام طروادة ونهبها، فقتلَ پريام ملك المدينة، وفي بعض إعادات الحكي قتلَ أيضًا آستيانكس ابن هكتور الرَّضيع، ليمنعه من أن يكبُرَ ويسعى للانتقام.

تليجونوس: ابن أودسيوس وسرسي. يُنسَب إليه أنَّه المؤسِّس الأسطوريّ لمدينتَيْ تسكولوم وپالسترينا في إيطاليا.

تليماكوس: ابن أودسيوس وپنلوپي الوحيد، وأمير إثاكا. في «الأوديسة»، يُصوِّره هوميروس وهو يُساعِد أباه على التَّخطيط لانتقامه، وتنفيذه ضد الخُطَّاب الذين حاصَروا بيتهم.

ثيسيوس: أمير أثينا الذي أُرسِلَ إلى كريت باعتباره واحدًا من الإتاوة المقدَّرة بأربعة عشر من الشَّباب لإشباع شهيَّة المينوتور الوحشيَّة، وبدلًا من ذلك قتلَ ثيسيوس المينوتور بمساعدة الأميرة آريادني.

جلاوكوس: صيَّادُ سمك، يقع له تغيُّرٌ بعد غيابه في النَّوم وسط رُقعةٍ من الأعشاب السِّحريَّة. في «مسخ الكائنات» يحكي أوفيد أحد التَّنويعات على قصَّته.

جيسون: أمير إيولكوس الذي حرمَه عمُّه بلياس عرشه، فخرج في مغامرةٍ يُثبِت فيها جدارته بالعودة بالصُّوف الذَّهبيِّ الذي يحتفظ به إيتيس ملك كولخيس المشعوذ. بمساعدة إلهته الرَّاعية هيرا، حصل جيسون على سفينة الأرجو الشَّهيرة وطاقمٍ من الرِّفاق الأبطال لقبهم الآرجوناوتيُّون. عندما وصل إلى كولخيس وضع أمامه إيتيس سلسلةً من التَّحديَّات المستحيلة، منها ربط ثورَيْن ينفثان اللَّهب بالنِّير. وقعَت السَّاحرة ميديا ابنة إيتيس في حُبِّ جيسون، وساعدَته في مهامِّه، وفرَّا معًا بالصُّوف.

دايدالوس: حِرفيٌّ نابغة، تُنسَب إليه اختراعاتٌ قديمة وأعمالٌ فنِّيَّة عدَّة، تتضمَّن حلبة رقصٍ دائريَّة استخدمَتها آريادني، والمتاهة العظيمة التي حُبِسَ فيها المينوتور. لكونه أسيرًا مع ابنه إيكاروس في كريت، وضع دايدالوس خطَّةً لتحرير نفسه، لاصقًا أربعة أزواجٍ من الأجنحة بالشَّمع. فرَّ هو وابنه، لكنَّ إيكاروس حلَّق على مقربةٍ شديدة من الشَّمس فذاب الشَّمع الذي يُثبِّت الرِّيش، وسقطَ الصَّبيُّ في البحر وغرقَ.

لايرتيس: أبو أودسيوس وملك إثاكا. على الرَّغم من كونه حيًّا في «الأوديسة»، فقد انسحب من القصر إلى ضيعته، ويقف مع أودسيوس ضد عائلات الخُطَّاب.

ميديا: ابنة إيتيس ملك كولخيس وشقيق سرسي. كانت ساحرةً كأبيها وعمَّتها، وحين أتى جيسون ليظفر بالصُّوف الذَّهبيِّ، استخدمَت قوَّتها لتُساعِده على الحصول عليه، بشرط أن يتزوَّجها ويأخذها معه إلى وطنه. هرب الاثنان، لكنَّ إيتيس طاردَهما، وفقط بواسطة حِيلةٍ دمويَّة استطاعَت ميديا صدَّ أبيها. قصَّتها محكيَّة في عددٍ من الأعمال القديمة والمعاصرة، بما فيها المسرحيَّة التراجيدية «ميديا» ليوريبيديس.

مينوس: ابن زوس وملك كريت القويَّة. كانت زوجته باسيفاي إلهةً وأمَّ المينوتور. طالب مينوس مملكة أثينا بإرسال إتاوةٍ من أولادها لإطعام المينوتور، وبعد موته مُنِحَ مكانَ الصَّدارة في العالم السُّفلي بصفته قاضيًا على الأرواح الأخرى.

هرقل: ابن زوس، وأشهر أبطال العصر الذَّهبيِّ. كان هِرقل معروفًا بقوَّته الهائلة، وكُلِّفَ باثنيْ عشر عملًا تكفيرًا للإلهة هيرا التي كرهَته لكونه نتاجًا لغراميَّات زوس.

هكتور: أكبر أبناء بريام ووليُّ عهد طروادة، وكان معروفًا بقوَّته ونُبله وحُبِّه لعائلته. في «الإلياذة»، يُرينا هوميروس مشهدًا مؤثِّرًا بين هكتور وزوجته أندروماكا وابنه الرَّضيع أستيانكس. قُتِلَ هكتور بيد أخيل انتقامًا لقتله حبيبه باتروكلوس.

هلن: تقول الأساطير إنَّ هلن أجمل امرأةٍ في العالم القديم، وقد كانت ملكة أسبرطة، وابنة الملكة ليدا والإله زوس الذي اتَّخذ صورةَ طائر تَم. رجال كُثر طلبوا يدها، وأقسمَ كلٌّ منهم قسمًا (تفتَّقت عنه قريحة أودسيوس) بتأييد زواجها بمَن ينتصر. زُوِّجَت بمنيليوس، لكنَّها هربَت لاحقًا مع الأمير الطرواديِّ باريس، وهو ما أدَّى إلى حرب طروادة. بعد الحرب عادت مع منيليوس إلى الوطن في أسبرطة، وكما يُخبِرنا هوميروس، التقاها تليماكوس بن أودسيوس هناك بحثًا عن معلوماتٍ عن أبيه.

يوريكليا: مُرضعة أودسيوس العجوز، ومُرضعة تليماكوس أيضًا. في «الأوديسة»، تغسل قدمَيْ أودسيوس عندما يعود متنكِّرًا، وتتعرَّفه بسبب نَدبةٍ على ساقه أُصيب بها في أثناء صيد خنزيرٍ بريّ في شبابه.

يوريلوكوس: أحد أفراد طاقم أودسيوس وابن عمومته. في «الأوديسة»، كثيرًا ما يختلف هو وأودسيوس، وهو مَن يُقنِع الرِّجال الآخرين بقتل أبقار هيليوس المقدَّسة وأكلها.



الوحوش

بوليفيمس: سَيكلوبس (عملاق بعينٍ واحدة) وابن بوسايدون. في «الأوديسة»، يرسو أودسيوس ورجاله على جزيرة بوليفيمس، ويَدخلون كهفه ويشرعون في أكل مؤنه؛ وعندما يضبطهم بوليفيمس يحبسهم في القبو ملتهمًا عددًا كبيرًا من رجال أودسيوس. يخدع أودسيوس الوحش بالكلام الودود، ويُخبِره بأنَّ اسمه أوتيس، أيْ «لا أحد»، ويُعمي الوحش. وبينما يُبحِر هاربًا يُفصِح عن اسمه الحقيقيّ، فيُنادي بوليفيمس أباه بوسايدون ليُعاقِبَ أودسيوس.

سايرينات: يُصوَّرن غالبًا على أنَّ لهنَّ رؤوسُ نساءٍ وأجسامُ طيور، ويجثمن على الصُّخور الوعرة مغنِّيات. كانت أصواتهنَّ عذبةً لدرجةٍ تُنسي الرِّجال عقولهم عند سماعها. وفي «الأوديسة»، تنصح سرسي أودسيوس بأن يضع شمعَ العسل في

آذان الرِّجال ليستطيعوا المرور بأمان، وتقترح أيضًا أن يربط نفسه بالصَّاري من دون أن يسدَّ أُذنيْه ليكون أولَ من يسمع أغنيَّتهنَّ الخلَّابة ويعيش.

سكيلا: طبقًا لهوميروس، كانت وحشًا رهيبًا له ستَّة رؤوس واثنتا عشرة ساقًا متدلِّيةً، قبعَ في كهفٍ على أحد جانبَيْ مضيقٍ قُبالة دوَّامة كاريبديس. عند مرور المراكب، كانت تندفع وتختطف بحَّارًا في كلٍّ من أفواهها الستَّة وتلتهمهم. في الرِّوايات اللَّاحقة أُعطِيَت رأس امرأةٍ وذيل وحشٍ بحريّ وكلابًا مفترسةً تنبثق من بطنها. في «مسخ الكائنات» لأوفيد، كانت سكيلا في الأصل حوريَّةً حُوِّلَت إلى وحش.

كاريبديس: دوَّامةٌ قويَّة على أحد جانبَيْ مضيقٍ قُبالة الوحش سكيلا، كانت تبتلع السُّفن التي تُحاوِل تحاشي أسنان سكيلا.

مينوتور: مسمًّى تيمُّنًا بمينوس ملك كريت، رغم أنَّه في الحقيقة ابن الملكة باسيفاي وثورٌ أبيضُ مقدَّس. بنى دايدالوس التِّيه لاحتواء الوحش آكلِ لحم البشر، وطالبَ مينوس ملك أثينا بإرسال أربعة عشر من الصِّبية والصَّبايا قُربانًا لإطعامه. أحد هؤلاء كان الملك الأثيني ثيسيوس الذي قتل الوحش.

شُكر وتقدير

ساندَني في رحلة هذه الكتاب أناسٌ كثيرون للغاية، حتى إنَّني لا أستطيعُ أن أحصيهم جميعًا. وعليَّ بدلًا من ذلك أن أكتفي بشُكرٍ من القلب، لأصدقائي وأسرتي وطلَّابي وقرَّائي، وكلٌّ من ينغمسون بشغفٍ في هذه القصص العتيقة، ويتوقَّفون ليحكوا لي عن هذا.

الشُّكرُ لدان برفوت على وقته وبصيرته الأدبيَّة الثَّاقبة مع مسوَّدةٍ مبكِّرة للرِّواية، وشُكرٌ هائل لجونا رامو كُون، لحماسته الدَّائمة لعملي واستعداده لقراءة عدَّة مسوَّدات، والكلام عن الحكي والأساطير والنِّسويَّة.

ويتواصل امتناني لمن علَّموني الكلاسيَّات وإلهامهم إيَّاي، على وجه الخصوص: ديڤد ريتش، وجوزف پوتشي، ومايكل سي جيه پوتنام. وممتنَّةٌ أيضًا للكريم ديڤد إلمر الذي سمحَ لي باستشارته في بعض المسائل الأساسيَّة. وكلُّهم غير مسؤولٍ على الإطلاق عن تحريفاتي.

جزيلُ الشُّكر لمارجو روب، وآدم روزنبلات، وأماندا ليڤنسن لتشجيعي خلال عمليَّة الكتابة؛ وبالمثل لسارا ياردني ومايكل ووفسي رو. وكثيرٌ من الحُبِّ لأخي تَل وزوجته بڤرلي على دعمهما المستمر.

خالصُ العرفان لجيتوود وست على ما صاحبَني من نفاذ البصيرة، والحكمة الجوهريَّة، والدِّفء في أثناء هذه الرِّحلة.

للأبد، أقدِّمُ فروضَ الولاء لمحرِّرتي المذهلة لي بوردو، من أجل إفاداتها الصَّبور الفذَّة، وإيمانها الشَّديد بعملي، ولكونها راقيةً بشكلٍ عام. الشُّكر أيضًا لفريقي الرَّائع: پاملا براون، وكارينا جوترمان، وجرج كوليك، وكارن لاندري، وكاري نيل، وكريج ينج، وكلِّ أحدٍ آخَر في ليتل ببراون. وشكرٌ خاصٌّ جدًّا للرَّائعتيْن جودي كلين وريجان آرثر على حماستهما ودعمهما.

ممتنَّةٌ أيضًا للعظيمة آلكزاندرا پرينجل، وكاملِ عائلة بلومزبري في المملكة المتَّحدة: روس إليس، ومادلين فيني، وديڤد مان، وأنجليكا تران ڤان سانج، وأماندا شيپ، وريتشل ويلكي، وغيرهم كثير.

وكالمعتاد، مليونُ شُكرٍ لجودي بيرر، التي تظلُّ أفضلَ الوُكلاء جميعًا، ومُحِبَّةً ومُنيرةً ومؤيِّدةً قويَّةً لعملي، ومستعدَّةً دائمًا لقراءة مسوَّدةٍ أخرى، علاوةً على كونها صديقةً رائعةً. شُكرٌ كبيرٌ للفريق كلِّه في ذا بوك جروپ، خاصَّةً نيكول كننهام وجني ماير، وبالطَّبع للمدهش كاسپيان دنيس، ولساندي ڤايولت أيضًا.

ليست في العالم كلماتٌ تكفي للتَّعبير بدقَّةٍ عن غرامي بجوناثان وكاثي دريك، وعرفاني لهما، لحُبِّهما ودعمهما، وكونهما جدَّيْن عظيميْن. شُكرًا لكما.. وشُكرًا أيضًا لتينا وبي جيه وجوليا.

الحُب وأعظم التقدير لجوردن زوج أمِّي الجميل، ولأمِّي مادلين التي قدَّمت لي الكلاسيَّات، وقرأتْ لي يوميًا في طفولتي، وساندَت كتابةَ هذه الرِّواية بأكبر الأساليب وأصغرها، وليس أقلُّها أنَّها كانت نموذجي الأول لامرأةٍ قائدة.

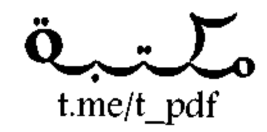
حُبٌّ جمٌّ للمتألِّقيْن القديريْن ڤي وإف، اللذيْن غيَّر سحرُهما حياتي، وصبرا على اختفائي بالسَّاعات. وأخيرًا، شكرٌ لا ينتهي لنثانيال الذي لا غنى عنه، الذي كان حاضرًا مع كلِّ صفحة.



عن المؤلِّفة

وُلدت مادلين ميلر في بوستن، ونشأت في نيويورك سيتي وفيلادلفيا. درست في جامعة براون، حيث حصلت على درجتَي البكالوريوس والليسانس في الآداب الكلاسيَّة، وقضت الخمسة عشر عامًا الأخيرة في تدريس اللَّاتينيَّة واليونانيَّة وأدب شيكسپير. فازت روايتها الأولى «أغنية أخيل» بجائزة أورانج للخيال في عام 2012، وأُدرِجَت على قائمة النيويورك تايمز للأعلى مبيعًا، وتُرجمَت إلى خمسٍ وعشرين لغةً. ظهرت مقالات ميلر في عددٍ من المنشورات، منها: الجارديان وول ستريت جورنال، ولافمز كوارترلي، وNPR.org.

تُقيم ميلر حاليًا في فيلادلفيا بولاية پنسلڤانيا.



عن المترجم

درس هشام فهمي الأدب الإنجليزي والتَّرجمة في جامعة الإسكندريَّة، وعمل مترجمًا وكاتبًا في عددٍ من الصُّحف والمجلَّات والمواقع، وترجم عددًا من الأعمال لكُتَّابٍ عالميِّين، منها: «الهوبيت» لتولكين؛ «أغنية الجليد والنَّار» لجورج ر. ر. مارتن؛ «فرانكنشتاين» لماري شِلي؛ «الناجي الأخير» و«أغنية المهد» لتشاك پولانك؛ «المحيط في نهاية الدَّربِ» و«كورالاين» لنيل جايمان؛ و«أضواء الشَّمال» لفيليپ پولمان.

لوحة الغلاف لإدموند دولاك ١٩١١

القائمة القصيرة لجائزة المرأة للأدب الخياليّ 2019

منذ أن وُلدت سرسي في دار هيليوس، إله الشمس وأقوى الجبابرة، كانت غريبةً. ليست قويّةً رهيبةً مثل أبيها، ولا فاتنةً جشعةً مثل أمّها. لكنّها تتمتّع بقوّة ظلاميّة لم يحُزْها أحد من قبلها: السّحر. عندما تشعر الآلهة بالتهديد من موهبة سرسي، تنفيها إلى جزيرةٍ نائيةٍ لتقضي حياتها وحيدةً، وهناك تشحذ قدراتها السحريّة، ملقيةً التعاويذَ وجامعةً الأعشابَ الغريبة ومروّضةً الحيوانات الضارية. على أنّ امرأةً بمفردها في العالم لا يمكن أن تعيش في سلامٍ طويلًا. ومن بين مختلف الزوّار الذين يتوافدون على جزيرتها ضيف غير متوقّع: الفاني أودسيوس، الذي من أجله تخاطر سرسي بكلّ شيء.

«عمل رائع في غرابته من الخيال العلمي الأسطوريّ.. إنّه، في آنٍ واحد، رواية ممتازة وإعادة حكيٍ مدهشة».
(Daily Telegraph)

«رواية تُلتهم بشراهةٍ في جلسةٍ واحدة.. أخّاذة، سارّة، قويّة التأثير». (Observer)

«انتصار عظيم مثير للخيال.. آسرة حقًّا». (Mail on Sunday)

«عصريّة إلى درجةٍ لاذعة». (The Times)


ISBN: 978-9953-89-709-7



هاتف: 795135 -01861633+961